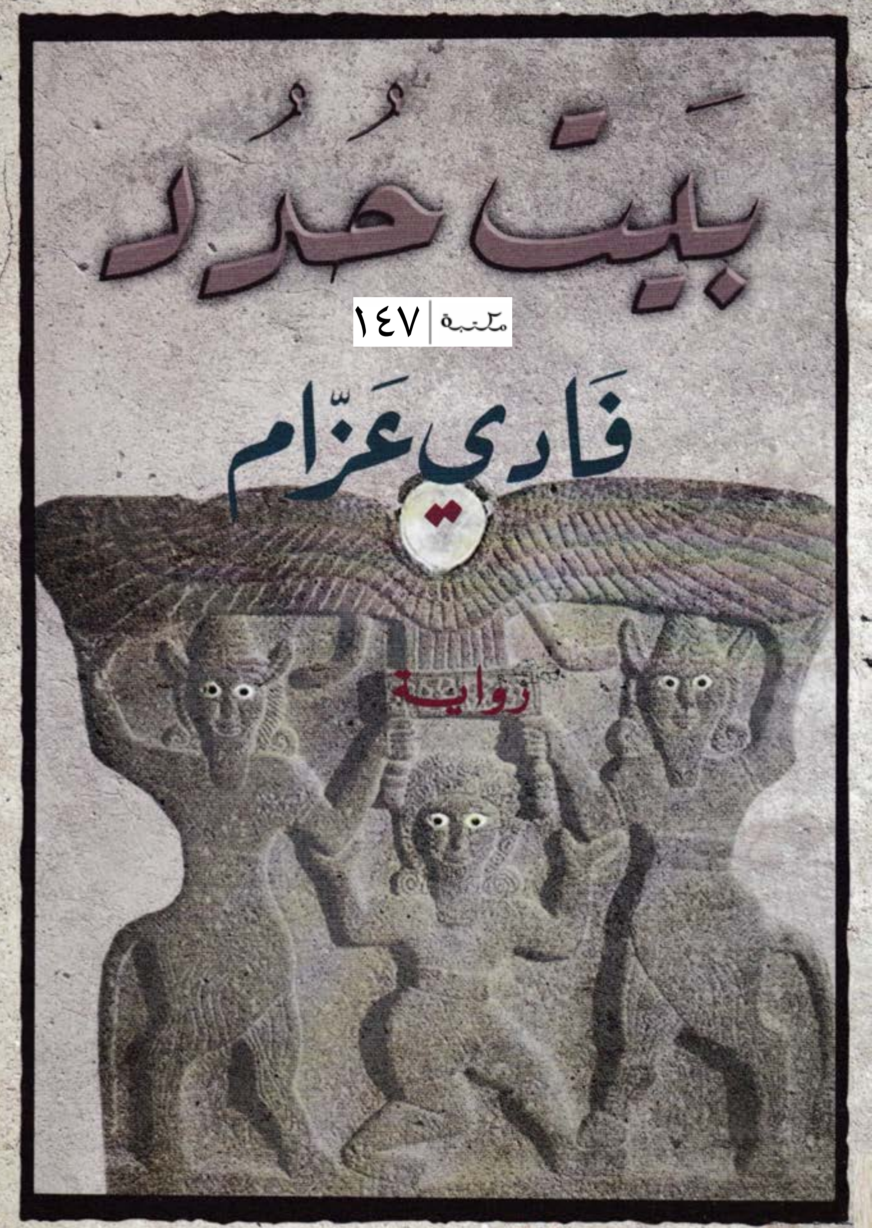


دار الآداب

بَيْت حُدُد

فادي عزّام

بَيْت حُدُد

رواية

دار الآداب ـ بيروت

بَيْت حُدُد

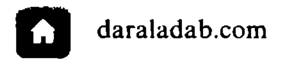
فادي عزّام / كاتب سوري

الطبعة الأولى عام 2017
ISBN 978-9953-89-551-2


دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)
فاكس: 009611861633
e-mail: rana@daraladab.com
info@daraladab.com


/Dar.Al.Adaab


@DarAlAdab


daraladab.com

الإهداء

إلى الشام ونسرين طرابلسي.

الحبّ ضَربٌ من الحرب

★ أوفيد

إنَّ الله ما أوجد العالم إلَّا عن حبّ، والحبُّ الإلٰهيّ فضيحة الدهر.

الحبُّ موت صغير.

★ الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربيّ

(١)

فيديل

دبي بداية عام ٢٠١١

مجموعةٌ من الشباب يرتدون مايوهات، بمحاذاة برج العرب على شطِّ الجميرة، ويتحلَّقون حول طاولة وفوقهم مظلَّةٌ يحدِّقون في البحر بدهشة. يُمسك أحدهم خرطوم الأركيلة وينفث دخانه وهو في حالة استلاب، ويعتدل الثاني في جلسته ويزيح النظَّارة الشمسيَّة عن عينيه، بينما ينفخ الثالث زفيرًا كأنَّه لا يصدِّق ما تراه عيناه.

يحدِّقون في مجموعة من الفتيات يرتدين البكيني ممشوقات القوام، يخرجن من الماء وهنَّ مبتسماتٌ يتمايلن بمياسة وغنج.

تلحظ الفتيات ذهولَ الشباب فيتهامسن ويضحكن، ويتابعن المسير بمحاذاتهم.

لكنَّ الشباب يبقون في حالة تركيز في شيء ما في البحر من دون أن يُعيروا فتيات البكيني أيَّ اهتمام، فيلتفتن إلى الخلف، وتصيبهنَّ حالة الذهول ذاتُها التي أصابت الشباب.

مَخَرَت البحر ثلاثةُ يخوت في منتهى الفخامة، متهاديةً على مهل.

يصرخ فيديل في هذه اللحظة بصوت غاضب:

ـ ستوووووپ.

تتبعثر انفعالات الوجوه المصطنعة ليحلّ مكانها الامتعاضُ الصامت.

يتقدَّم فيديل من فريق العمل ويعطي توجهيهاتِه الحازمةَ. يطلب إعادة المشهد، ويتحوَّل أكثر من خمسين فنيًّا وعاملًا إلى خليَّة نحل.

يرنّ هاتفه الجوَّال فيُجيب بودٍّ:

ـ أهلين سيِّد عمران.

ـ لا، مستحيل إقدر هلَّق إطلع من موقع التصوير. إذا فيك تأجِّل لبكرا.

ـ طيِّب أفضل شي تعال لهون. حدَّك مو بعيد. راح إبعتلك العنوان، وبنحكي.

وفي أقلِّ من نصف ساعة، كان رجل الأعمال عمران في موقع التصوير، حيث يعمل فيديل عبد الله.

يعلن فيديل بالمكروفون: استراحة نصّ ساعة. ويستدير مرحِّبًا:

ـ أهلين دكتورنا.

ـ على طول مشغول مخرجنا العظيم، ردّ دكتور عمران.

ـ منفضِّيلك حالنا. خبِّرني دكتور: شو هالشي الما بيتأجَّل لبكرا؟

ـ إنت مستلم كلّ الإعلان لمشافينا بالخليج. محتاج تنزل عَ الشام. افتتاح مشفى سما الشام بعد أسبوعين. بيديره واحد من أهمّ أصدقائنا، الدكتور سعد، وبصراحة بدِّي حملة من تحت إيديك للترويج

للمشفى كسياحة علاجيَّة. المشفى الأوَّل بالشرق الأوسط بالجودة الطبيَّة وبالأسعار.

ـ قلت لي النزلة عالشاااام!!

ـ إيه فيديل.

ـ بس يمكن ما خبَّرتك من قبل دكتور إنُّو أنا ما فيني إنزل لأنُّو صوفتي حمرا عند الأمن.

ـ شو هالحكي، شو عامل؟

ـ قصَّة قديمة من أكثر من ١٨ سنة قبل ما روح على بريطانيا.

ـ إسمع فيديل. أنا ما بعرفك شخصيًّا، بس من خلال الشغل اللِّي إنت مشتغلو معنا أو مع غيرنا إنت موهوب ومعروف، ومن المعيب تقدر تزور كلّ بلدان الدنيا بسّ ما تقدر تزور بلدك.

ضحك فيديل بمرارة:

ـ سيِّد عمران، عمَّا تخبِّرني إلي؟ خبِّرهم إلهم لجماعة المخابرات. لا بيرحموا ولا بخلُّوا رحمة الله تنزل.

ـ بتسمح تخلِّيني جرِّب شوف الوضع؟ عندي بعض الأصدقاء الجيِّدين بالبلد. ومنشوف شو إمكانيَّة زيارتك لسورية. إبعتلي بياناتك.

بدت علامات الضِّيق على فيديل. أراد أن يقفل هذا الموضوع:

ـ بشكرك من قلبي، بس بعتقد ما في أمل. حاولت أكثر من مرَّة وما نفع. على كلٍّ، فورًا حإبعتلك ماسيج بالمعلومات:

فيديل عبد الله، مواليد ريف دمشق، ٢١ آب ١٩٧٤. اسم الأب توفيق. اسم الأمّ فاطمة.

غادر السيِّد عمران المكان، تاركًا فيديل في مزاج سيِّئ، فعاد إلى

العمل بقسوة، محوِّلًا الساعاتِ المتبقِّية للفريق إلى جحيم من الطلبات والإعادات، وليُنهي يومه بصحبة إحدى فتيات الإعلان في شقَّته الكائنة في أبراج بحيرات الجميرة. فلا يهدِّئ صخبَه الداخليّ إلَّا ليلةٌ جنونيَّة من الليالي التي يتقن إخراجها بانتظام.

* * *

(٢)

فضل وفيدل

ـ فيديل. بدِّي سمِّيه فيديل.

صاح أبي بعد أن أخبرته الداية بأنَّ المولود ذكرٌ سليمٌ ومعافًى، ولا أثر لمتلازمة داون عليه. في ذلك اليوم القائظ من صيف عام ١٩٧٤، وفي ضيعة هادئة بالقرب من دمشق.

وصحب هذا الإعلانَ امتعاضُ خالي الشيخ محمود:

ـ لكن فيديل اسم نصرانيّ.

ـ لا حبيبي، فيديل هو فيديل كاسترو العظيم. لا نصرانّي ولا بيعرف الله تبعكم كمان.

وانطلق يملأ كؤوس العرق ويحتفل بصخب مع أصدقائه الشيوعيين بقدوم وليِّ العهد معافًى، بعد ابنتين سليمتين وذكر يحمل متلازمة داون.

أمِّي، التي تخضع عادة لشطحات أبي، الأستاذ توفيق عبد الله، مدرِّسِ الرياضيَّات الشيوعيِّ الصاخبِ، همستْ لأخيها الشيخ الطيِّب مواسيةً بعد أن استعاذ بالشيطان الرجيم من كفر الأستاذ التنح يابس

الرأس، حين دخل ليُبارك ابن أخته ويرفعه ويكبِّر في أذنه ويدعو له بالصلاح:

ـ دعك منه، سيكون اسمه فضل، فهو فضل من الله عزّ وجلّ.

وبين رغبة أبي في أن أكون محاميًا مثل كاسترو، وتمنِّيات أمِّي بأن أكون داعية وشيخًا مثل أخوالي، نشأتُ باسمين. ولمَّا بلغتُ العاشرة، كان خالي يجاهد كي يحفظِّني القرآن الكريم، ويلهب أبي مخيِّلتي بقصص غيفارا وكاسترو وثوَّار العالم وأناشيد الحرِّيَّة. وتنتهي كلّ النقاشات بين أبي وخالي بصلية شتائم للدِّين من أبي، وبموجة غضب ووعيد بالحرق في نار جهنَّم من خالي، مع كمِّيَّة من اللعناتِ على الشيوعيَّة والملحدين المتجبِّرين بأن يُريهم الله عجائب قدرته.

لم يستجب الله للشيخ حمُّود، لكنَّ المخابرات السوريَّة هي التي استجابت، فاعتُقل أبي المعارضُ اليساري المزمن لمدَّة أربع سنوات، جعلت منِّي أمِّي خلالها، بمساعدة أخوالي، شيخًا صغيرًا بعد أن استفردوا بي بغياب الأب الضالّ.

اكتشف أبي موهبتي بالرسم، فحوَّلتها أمِّي إلى موهبة في الخطّ العربيّ، وأقنعني خالي بأنَّ التشخيص حرام. أتقنت حفظ نصف القرآن، وما يفوق مئتي حديثٍ شريف. قرأت السيرة النبويَّة لابن هشام و«الأغاني» لأبي فرج الأصفهاني، وألفيَّة ابن مالك، وأصبحت العبقريَّ الصغير في اللغة العربيَّة والتاريخِ والديانة، ومثارَ إعجاب كلّ المدرسة. وبلحية لم تمسسها شفرة حلاقة، دخلتُ الثانويَّة العامَّة إمامًا صغيرًا، وفقيهَ البلدة، وشيخَ أمِّي التي كنت أكبر أمام عينيها كما رسمتْ دائمًا في مخيِّلتها. غير أنَّ اسمي في الهويَّة وسجلَّات النفوس بقي له رطانةُ السحر اليساريّ: فيديل.

خرج أبي من المعتقل كأنَّه كَبُرَ عشرين عامًا. حطَّموه، لكن لم يكسروه. ما آلمه هو ما آلتْ إليه حالتي. شعر بالخيانة وطعنة في الكبد، ولم يستطع أن يُشهر غضبه كما هو متوقَّع منه، لأنَّ أخوالي صانوا بيته وحمونا من العازة وذُلِّ السؤالُ في غيبته الطويلة.

طرده النظام من التدريس وصنّفه خطرًا على الجيل الصاعد، فانطلق إلى قطعة الأرض المحيطة ببيتنا يعمل فيها بكدٍّ. فكنّا حين نستيقظ أنا وأختاي وأمِّي لصلاة الصبح، نسمعه يتمتم بكفريَّات لا تنتهي لآلهة السماء وعكاريت الأرض.

وتحوَّل بعدها إلى صامت وحيد. يعزق أرضًا بورًا ميِّتة ويفلحها، غارسًا بضع شُجَيرات في عقمها.

يأكل وحيدًا، ويعمل وحيدًا، وبالكاد يتبادل الحديث مع أيٍّ كان. ترافقه ربعيَّة العرق التي يشربها كلّ مساء في جوار البيت أو على السطح، ونادرًا ما يزور أحدًا أو يزوره أحد من أصدقائه القُدامى.

ومع انهيار جدار برلين وبداية البيريسترويكا، كان الحلم الأحمر قد جفّ وتحوَّل إلى أصفر باهت. وعلى عادة الكحوليِّين من مدمني العرق، أصبح نحيفًا بوجه حرثته الغضون متآكل الأسنان. وعلى عادة المعاندين، ومن أجل النكاية لا أكثر، كبَّر صورة لماركس وعلَّقها في غرفة الضيافة، متوسِّطة لوحتَيْ أمِّي المطرَّزتين: «الله، محمَّد»، و«الله نور السماوات والأرض».

وحين نجحت بمعدَّل عال في البكالوريا، رفض حتى تهنئتي لمّا أعلنت أنَّني سأدرس الشريعة بتشجيع من أخوالي، مع وعد منهم بأن أُكمل دراستي بعد التخرُّج في الأزهر على حسابهم.

لم أكن أريد له أن ينكسر على الرَّغم من سخطي عليه وعلى

إلحاده وسُكره وحياته التالفة، فقرَّرت أن أُعطيه شيئًا من البِرّ الذي يستحقّه الأب. قلت له:

ـ حاضر يا أبي، سأدرس الحقوق كما تريد، لكنَّني لن أكون سوى نفسي.

تبسَّمتْ لي بامتنان عيناه المحاطتان بهالات من السواد التي تتخلَّلها أخاديدُ عميقةٌ، وهمس لي بصوته المتكسِّر كأنَّه استسلم أخيرًا لمناصري الله، الذين قهروه في أضعف نقطة فيه: ولدِه. قال:

ـ الله يرضى عليك يا ابني. هلَّق صار فيني إرتاح.

أذكر تمامًا ذلك اليوم، ١٣ تمُّوز ١٩٩٢. استيقظنا فلم نجده. لم نعبأ كثيرًا، لكنَّه عاد بعد الظهر بسيَّارة أجرة. نادى عليّ لأساعده في تنزيل الأغراض.

خروف مذبوح، وأكياس مليئة بالهدايا. وزّع بعض اللحم على الجيران. جمع أختيَّ لأوَّل مرَّة، قبّلهما، وأعطى كلّ واحدة منهما فستانًا وإسكربينة وصندوقًا من الأكسسوارات. وخصّ أمِّي بثوب جديد، عباءةٍ مطرَّزة لن تلبسها أبدًا، لكنَّها ستحتفظ بها بحبٍّ في خزانتها وأخذني جانبًا. أمسك بيدي، ووضع فيها ساعة ذات كستك فضِّيّ، فاكتشف أنَّها متوقِّفة عن العمل. شتم أمَّ الصين الشعبيَّة وأختَها وشيوعيَّتها الخرية. أخذها من يدي وحاول هزَّها قرب أذنه وتحريكَ زنبركها من دون جدوى. فوضعها تحت قدمه وهرسها خبطًا بقدميه الاثنتين برفقة صلية من الشتائم لابن الحرام الذي خدعه. وحين هدأ، أخرج من جيبه ثلاثة آلاف ليرة، وقال لي:

ـ كان في ودِّي أن أؤمِّن لك أكثر من ذلك، لكن هذا كلّ ما لديَّ يا حضرة المحامي.

ثم أولم لبعض أصدقائه القدامى غداءً من المشاوي من صنع يديه، كأنَّه استعاد نفسه وصلابته وروح الدعابة لديه. حتى أمِّي لم تعترض يومها، وعادت إليها الابتسامة. وحين غادر الضيوف، ساعد في جلي الصحون والأواني وسط دهشة الجميع. ثم أمسك يدَي أمِّي وقبَّلها، وقال لها

- إنت ستّ عظيمة لأنَّك تحمّلتيني كلّ هالسنين.

مازح أختيَّ. لأوَّل مرَّة في حياتنا، نشاهد أبانا بهذه الحنِّيَّة وهذه الطيبة. وخصَّ أخي فداء بكيس من اللُّعَب والثياب، وأخذني جانبًا

- ربَّما أكون أسوأ أب في العالم، لكن يومًا ما ستفهم. ستفهم أنَّ الله الذي يحاولون أن يقنعوك به متواطئٌ مع السفلة وقحاب البعث. لو كان موجودًا لسمع أربعين ألف ضحيَّة قتلهم السفَّاح في حماه، بدلًا من أن يرجع ويبارك له ويتركه جاثمًا على قلوبنا.

وتابع بهدوء أكثر:

- يا ابني، إنت حرّ بشو ما بدَّك، بس أنا بشكرك لأنَّك حقَّقتلي شي صغير كنت إحلم فيه. أنا ما ظلّ عندي ولا حلم. كلُّو انكسر واندعس. بسّ إنت قبلت تفوت على كلِّيَّة الحقوق. هذا هو الانتصار الصغير يلِّي ما بدِّي إخسره.

رغم سخطي عليك لأنَّك دخلت التديُّن قبل ما تعرف الحياة، بس أنا فخور فيك، وحابب قلَّك شغلة وِحدة: الإيمان ما إلو دخل بالتديُّن.

التديُّن طقس وطريقة لتعرف الدرب إلى الله، والإيمان هو أن تكون منحازًا إلى الحقّ والخير، وتعيش الحياة بروح الله الجميلة. صعب تفهمِ أو إقدر إشرحلك.

بس لو كان في مستشفيات أمراض نفسيَّة بالقدس ومكَّة ودمشق

بزمن الأنبياء، لكانوا وفَّروا على حياتنا كلّ هذا الهراء. كانوا حطُّوا الرسل بمصحَّات عقليَّة وارتحنا منهم.

أنا شيوعي لأنُّو بس يصير العالم كثير أميركيّ وبعثيّ وإسلاميّ، ما في حلّ غير يكون الإنسان شيوعيّ.

أنا ما كنت أب منيح، بس فيك تفتخر بشغلة وحدة إنُّو كان عندك أب شريف ونظيف، ما كذّب على حالو، ولا خان من أمّنو، ولا سرق بحياته.

ـ أبي، ما في داعي لهذا الحكي.

انتابتني رغبة في أن أضمّه، وفعلت. وهمست له:

ـ إنت أنظف أب بالعالم. وأنا ابنك فيديل فخور فيك.

وتعانقنا.

شدَّني إلى صدره، ولأوَّل مرَّة في حياتي أحظى بالقوَّة والأمان. لحظات لن أنساها ما حييت. عناق عوّض سنوات من سوء الفهم والفقدان. استمرَّ ثوانيَ قبل أن يستردّ طبيعته:

ـ يالله روح انقلع عامِلّي فيها فيلم هندي.

حمل المسجَّلة القديمة وقنِّينةَ عرقه وتبغَه، وذهب خلف الدار، حيث يعمل عادة. أوصل الماء إلى جذوع الشُّجَيْرات التي اعتنى بها طويلًا وضع المسجَّلة، بعد تزويدها ببطَّاريَّات جديدة، على حافَّة صخرة مرتفعة، ألقمها كاسيتًّا لأسمهان، وانهمك في ريِّ الأشجار وتمسيد سيقانها.

كنَّا نراقبه من بعيد ونظنُّ أنَّه يتحدَّث معها. قالت أمِّي:

ـ بيَّك في حالة من حالتين: إمّا جنّ وإمَّا الله هداه. بس قلبي مو مطمّن أبدًا. الله يجيرنا.

ثم رأيناه يجلس تحت شجرة المشمش الكبيرة، وبدأ يلفّ سجائره ويدخِّنها على مهل وهو يرتشف رشفات متواترة من كأس العرق الكبيرة وينظر صوب الشمس وهي تغرب في ذلك اليوم.

ما إن اختفت الشمس وبدأ الأفق الأرجوانيّ بالتلاشي، حتى كان قد أجهز على نصف لتر من العرق ونصف سجائره التي اتَّضح أنَّه كان يلغِّمها برشَّات من الـ دي دي تي (DDT)، المُبِيدِ الحشريّ الفتَّاك بسوس الأشجار.

كان قد تسمَّم تمتمًا، مع انسدال الظلام، بينما صوت أسمهان يصدح في مساء رخو وشاحب: يا ديرتي مالك عليَّ لوم، لا تحزني لومك على من خان.

أخذناه إلى المستشفى. حاولوا إسعافه، لكنَّ الدكتور الذي أخبرنا بموته، قال لي إنَّه فتح عينيه لمرَّة واحدة، وحكى له بصعوبة:

ـ بترجَّاك يا دكتور إتركني روح.

وأضاف الطبيب:

ـ كان يمكن إنقاذه. لكن لأوَّل مرَّة في حياتي أرى مريضًا لا يريد الحياة. يريد أن يغادر بهذا الإصرار.

ومات.

ستنصتْ فتاة الإعلان إلى فيديل يروي لها هذه الحكاية في وقت متأخِّر من تلك الليلة. نبَّهتْه أنَّه شرب الكثير من الفودكا. كان ليتر الأبسولوت قد تناقص إلى ما دون النصف. نظر إليها كأنَّه تفاجأ بوجودها، فسألها: ذكِّريني باسمك؟

ردَّت بغنجٍ محاولةً الاقتراب لعناقه: شو ما بدَّك سمِّيني؟

لم تكن تعرف أنَّها أيقظت الوحش للتوّ، فنترها بعنف. وتوجَّه

إلى الخزانة، حيث يحتفظ بمجموعة كاملة من السياط والأقنعة وأدوات الألعاب الجنسيَّة التي يحرص على اقتناء أفضلها تناول خيزرانة ذات قبضة مزخرفة بعناية، واستدار عائدًا إليها بوجه صخريّ وعينين محمرَّتين بسبب السُّكْر الشديد، تبرقان بلمعة شيطانيَّة خالية من الحياة.

أمرها بصوت حازم بأن تخلع كلّ ملابسها. حاولت الرفض، فانقضَّ عليها جالدًا إيَّاها على فخذيها وإليتيها، ممزِّقًا ثيابها الداخليَّة، ومستمرًّا في لسعها، بينما توجُّعاتها تتحوَّل إلى صرخات مكتومة، فثبَّتها وضاجعها بعنف خالٍ من أيِّ إحساس.

أمرها بالمغادرة قبل أن تهدأ، وبعد أن وضع دستة من المال في يدها سوَّت ملابسها على عَجَل، مبتسمةً وهي تدسّ الخمسة آلاف درهم في حقيبتها:

ـ إيمتا ما حبِّيت تحكي عن بيَّك أنا موجودة.

دفَرها إلى الخارج وأقفل الباب، وعاد إلى الكنبة لينهار في نوم عميق.

(٣)

د. أنيس ـ لندن

كانون الثاني ٢٠١١

ـ انتهينا.

قال الدكتور أنيس لمساعديه. خلع القناع الطبِّيّ في البداية، ثم القفَّازين، وغسل يديه من دون أن ينظر إلى المرآة، ومشى في الممرِّ الطويل لمستشفى تشلسي الملكيّ، تاركًا المساعدين يقومون بإتمام خياطة الجرح، بعد تسع ساعات من العمل المتواصل الدقيق.

تأكَّد من أنَّ مريض القلب المفتوح قد تجاوز المرحلة الخطرة وبات الآن في المرحلة الحرجة، واطمأنَّ إلى أنَّ الفريق المساعد سيتولَّى المهمَّة. شيء من الحزن والفخر، والرغبة في التهام قرن من البوظة، وسماع موسيقى العُود.

سلَّم على طبيبين من زملائه، بعد أن أخبر زوجة المريض بأنَّ صحَّة زوجها بخير وأنَّ العمليَّة تمَّت بنجاح. تحدَّث إليها بعبارات اعتاد فعلها مئات المرَّات.

دخل غرفته في آخر الممرّ ليُنهي كتابة تقريره عن العمليَّة. فتح البرَّاد الصغير وأخرج منه قرنًا من بوظة الحليب والشوكولاتة، التهمه بهدوء. مبتهجًا بذلك الألم اللذيذ في الصدغين. أرجع رأسه إلى الخلف ليستمع إلى معزوفات منير بشير كجزء من طقوسه المعتادة بعد كلِّ عمليَّة جراحيَّة ناجحة يقوم بها. طقسٌ لم تستطع لندن أن تسلبه إيَّاه.

تدخل الممرِّضة. تجلب له آخر المؤشِّرات الحيويَّة فيطمئنّ إلى أنَّ الأمور بخير. يفتح درج المكتب، ويُخرج هاتفه المحمول، ليجد أكثر من أربع رسائل من زوجته الإنكليزيَّة حنّة.

اعتلت رأسه سحابة من القلق.

كلّ كسر للعادة هو تعريض نظام متكامل محسوب بدقَّة للخربطة. فأيّ مؤشِّر غير متوقَّع في يوم الدكتور أنيس الأغواني يُحيله إلى شخص متوتِّر وقَلِقَ على الفور، ويجعل عقله المنظَّم يكتظّ بتوقُّع الأسوأ يكتسي بدنه فورًا بنزلات من الارتعادات، تتبعها زخَّات طفيفة من العرق البارد.

زوجته الطبيبة العامَّة، والتي تعمل في مركز «الجي بي» الطبِّيّ في منطقة وليزدن، حنّة روجر، تعرف ذلك تمامًا. وحاولت خلال ٢٢ عامًا من زواجهما مساعدتَه على تخطِّي هذه المشكلة، فكان من المستغرب والمربك له أن يجد منها أربع رسائل نصِّيَّة تتمحور حول فكرة واحدة: عاجل، اتَّصل في أقرب فرصة. وفي الثانية: عاجل جدًّا. وفي الرسالة الثالثة نوعٌ من لوم الذات: لا تقلق، ليس هناك شيء مهمّ، لكن حين تنتهي من العمليَّة أرجو الاتِّصال. وفي الرسالة الرابعة: كلُّ شيء بخير، آسفة على الإزعاج، لكن حين عدت إلى

البيت، كان في الآنسر ماشين رسائل صوتيَّة لرجل يبدو أنَّه يتَّصل من سورية ويتكلَّم العربيَّة، في صوته إلحاحٌ ما. هذا كلّ ما في الأمر. قبلة.

تنفَّس الصعداء وهو يقرأ الرسالة الأخيرة. ما دام ابنه سامي بخير فلا شيء يستدعي القلق.

أوقف موسيقى العود واتَّصل. يعاجله صوتها باعتذار عميق عن الإزعاج. ثم يحاول أن يكون محمَّلًا بالثقة:

ـ لا أعرف كيف حصل على رقم البيت، لكن إصراره على ترك الرسائل هو ما أقلقني.

ـ لا عليك، أنا في الطريق.

أغلق الهاتف وهو يحاول أن يتذكَّر آخر عهده بسورية، قبل أشهر، حين أبلغوه أنَّ خاله بدر الدين عمارة قد توفِّي.

كانت علاقته بالبلد قد انقطعت تمامًا بموت الخال. لم يعد لديه أحد في سورية من أقربائه المقرَّبين. معظمهم هاجر منذ زمن، وخصوصًا في الثمانينيَّات. ما الذي يمكن أن يحمله اتِّصال من دمشق؟ ثم إنَّ هاتف المنزل غير معروف إلَّا لمجموعة قليلة جدًّا من الأصدقاء، فكيف حصل عليه هذا المتّصلُ الغامض؟

حمل حقيبته وغادر المستشفى إلى سيَّارته اللاندروڤر الجديدة، موديل هذا العام ألفين وأحد عشر. لندن بعد الأعياد ثقيلة الحركة. الازدحام الخانق، والبطءُ في كلِّ شيء، والليلُ الذي يهبط سريعًا، أمور لا تؤثِّر في مزاج الدكتور، بل تساعده على الخروج من التركيز الذهنيّ الكبير في العمليَّة الجراحيَّة والتحديق في القفص الصدريّ المفتوح أمامه طوال اليوم.

يصل إلى منطقة وليزدن. يُدخل السيَّارة المرأب، ويترجَّل منها حاملًا حقيبتَه. يدخل من الباب الجانبيّ للمرأب إلى المطبخ، ويعلن بصوت واضحٍ:

ـ أنا في البيت.

لا أحد يُجيب. يتحرَّك في اتِّجاه البرَّاد، يُخرج إبريق عصير الجزر والبرتقال، ويسكب كأسًا يضغط على زرّ الآنسر ماشين، ويُطلق نظره إلى الحديقة من شبَّاك المطبخ. لقد عاد الثعلب مرَّة أخرى. ارتسمت ابتسامة فرح على وجهه وهو يراه، بينما كان يتابع الاستماع إلى الصوت الهادئ الصادر من المجيب الآليّ:

ـ آسف لإزعاجك دكتور أنيس، أنا المحامي راجح الآغا من دمشق. عم إتَّصل لخبرك إنُّو من الضروري تحكيني على الرقم نفسه اللي طلع عندك. الموضوع يخصّ مسألة بتهمّك كثير حصلت على رقمك من الدكتور سعد الدين. الرجاء الاتِّصال بأيِّ وقت للضرورة. شكرًا

تدخل حنّة، تطبع القبلة المعتادة على وجهه، وتسأله:

ـ هل تعرفه؟

يُجيب بهدوء وهو يُعيد طلب الرقم:

ـ ليس بعد، لكن عرفت من أعطاه الرقم.

يضعهما صوت رنين الهاتف على الطرف الآخر في حال ترقُّب.

ـ مساء الخير، معك الدكتور أنيس.

ـ أهلًا وسهلًا دكتور، والله كنت بانتظار تلفونك.

ـ خير أخي راجح، كيف فيِّي إخدمك؟

ـ دكتور، مكتبنا مسؤول عن عمليَّة حصر الإرث لممتلكات

المرحوم بدر الدين عمارة. المرحوم خالك ما إلو ورثة غيرك وغير أختك. وبالحقيقة، بيت خالك، وبقولوله «بيت حُدد»، حسب الورثة والوصيَّة، هو من نصيبك. فإذا بتقدر يا توكِّل محامي أو تشرِّف حضرتك عَ الشام كم يوم لنخلِّص الإجراءات.

كان خبرًا فوق كلّ التوقُّعات. لم يخطر في باله أبدًا أن يكون الخال البارد بهذا الكرم.

ـ الحقيقة عندي علم بوفاة الخال من أشهر، وللأسف عرفت متأخِّر. على كلٍّ، أنا بفضِّل ما إجي.

ـ إذا بتحبّ تعمل توكيل، البيت في إلو مين يشتريه فورًا، ونحنا فينا نتكفَّل بكلٍّ المطلوب.

ـ من باب الفضول أستاذ راجح، كم يساوي البيت.

ـ حوالى خمسين لستِّين تقريبًا

سأل أنيس بصوت لا يخلو من السخرية:

ـ سعر تذكرة الطيران عَ الشام بتكلِّف أكثر من ستِّين ألف ليرة!؟

ردَّ المحامي:

ـ خمسين لستِّين مليون ليرة دكتور. عم نحكي عن أكثر من مليون دولار.

صمت بذهول وهو يبحلق في حنّة التي كانت تستمع إلى المحادثة من مكبِّر الصوت، وتفكِّر في أنَّ أمرًا مهمًّا يحدث من دون أن تفهم عمَّا يتكلَّمان:

ـ ألو، ألو، دكتور لسَّاتك معي؟

ـ معك. معك. عطيني لبكرا بحكيك أستاذ وبخبَّرك.

ـ بانتظارك دكتور. الله معك.

كبس على زرِّ إنهاء المكالمات وهو يبتسم.

ـ إذا كان ما يقوله صاحب هذا الاتِّصال صحيحًا، فهناك مليون دولار في دمشق تنتظرني.

واستفاض الدكتور أنيس في الحديث عن «بيت حُدُد»، وعن خاله الذي لم يشكِّل له قبل هذا الاتِّصال أيَّ شيء مختلف.

حاول عصر ذاكرته. بدت الصور قليلة جدًّا في الطفولة، أمَّا في مرحلة الشباب، فلم يكن الخال يسمح لأحد بزيارته منذ أن دخل عزلته الطوعيَّة في السبعينيَّات. كان من الرجال الذين صنعوا سياسة البلد بعد الاستقلال، هكذا أخبره أحد الأقرباء يومًا، لكنَّه لم يعد يذكر من هو. كما أنَّه لم يقتنع بأنَّ هذا الخال الصامت، يمكن أن يكون من صُنَّاع أيّ شيء سوى الوجوم والصمت والرهبة.

في اليوم التالي، عاود الاتِّصال بالمحامي راجح. سأله عن بعض التفاصيل والوقت المتوقَّع لإنجاز الإجراءات، وما هو المطلوب بالضبط. وفهم منه أنَّ الأمر سيستغرق من ثلاثة إلى أربعة أسابيع، وأنَّ الأمر يحتاج إلى أوراق الدكتور الثبوتيَّة، ويمكن له أن يعمل توكيلًا لأيِّ محامٍ لمتابعة المعاملة. أمَّا عن المشتري للبيت، فهو جاهز وينتظر. أعطى المحاميَ موعدًا في الأسبوع القادم مندفعًا بتشجيع حنّة:

ـ إنها فرصة لتأخذ إجازة طويلة، أنيس.

قالت له، ثم قرَّبت يديها من وجهه:

ـ أنت لم تفعلها منذ سنوات. اعتبرها إجازة بمليون دولار.

ـ نعم، معك حقّ، لكن دعينا الليلة نحتفل. لديَّ مزاج جيِّد للخروج وتناول وجبة في أحد المطاعم، اختاري واحدًا.

هتفت حنّة بفرح:

ـ هذا إنجاز كبير. الدكتور أنيس بذاته يعرض عليَّ الخروج وتناول العشاء في الخارج. لا أصدق ما أسمع!

كانت أمسية مختلفة. ثمَّة شيء ما أعاد الحياة إلى علاقتهما الباردة، فتذكَّرا أنَّهما كائنان بشريَّان يمكن أن يقوما ببعض الأمور الأخرى في الحياة غير العمل والمؤتمرات الطبِّيَّة، كأن يذهبا إلى مطعم جيِّد في مدينة تضجُّ بالأطايب، وأن يعودا في المترو ليلًا، ويمشيا متشاكلين يضحكان، وأن يتضاجعا مثلًا

(٤)

فيديل

لم تمضِ بضعة أيَّامٍ حتى عاود الاتِّصال به:

ـ أهلين دكتور عمران.

ـ عزيزي فيديل، بأكِّدلك إنُّو أمورك تمام. إنت مرحَّب فيك تنزل بأيِّ وقت، وما تقبل غير استقبال بجناح كبار الشخصيَّات. في مين راح يستنَّاك بالمطار والأمر كلُّو محتاج خمس دقائق، بس زيارة لمكتب صديق وبتشرب فنجان قهوة، وبتنهي بعض الإجراءات الروتينيَّة.

هطلت عليه فرحةٌ عارمة يتخلَّلها بعض من زخَّات الخوف:

ـ الله يبشَّرك بالخير، بس الخمس دقائق إذا على توقيت الشباب! آخر واحد راح خمس دقائق، إلو خمس سنين عم يشرب فنجان القهوة!

ـ فيديل، قِيمْ من بالك هاي القصص المغرضة. أنا عطيتك كلمتي، وأصلًا مو ممكن إشتغل معك أو مع شركتك لو لا سمح الله كنت مصنَّف من أعداء الوطن. راح أطلب منك نلتقي، وبعد إذنك خبِّرني بالضبط شو الموضوع.

كانت زوجة الدكتور عمران تنتمي إلى عائلة معروفة بولاءيْها الأمنيّ والاقتصاديّ للنظام، ويقول كثيرون إنَّه يُدير أموال النظام في الخليج وروسيا البيضاء والصين. أمَّا لقب دكتور فلا أحد يعرف مصدره. عمران ليس موظَّفًا أمنيًّا، لكنَّه من إفرازات المرحلة الجديدة لطبقة من أهل النفوذ والولاء لديهم امتيازات كبيرة لدى أجهزة الأمن، فتكلِّفه ببعض المهمَّات.

اتَّفقا على أن يمرَّ فيديل عليه ويخرجا كصديقين، وسيُخبره بكلِّ التفاصيل. فمنذ أن تبرعم أمله بأن يجد طريقةً للعودة إلى دمشق، بدأت ذكرياته تنهض من مقابرها، بعد أن ظنَّ أنَّ تلك الحقبة دُفنت إلى الأبد.

كان على استعداد لأن يفعل أيِّ شيء ليحظى بزيارة واحدة لها وها هو عمران الخلوف يجدِّد له الأمل. بالأحرى، كان الأمل الوحيد المتاح بعد أن جرَّب قبله عدَّة طرائق من دون جدوى.

انطلقا في سيَّارة بي أم دبليو أكس ٦. اخترقا دبي من شارع الشيخ زايد في اتِّجاه شارع الضيافة، ومنه إلى شارع خالد بن الوليد، ثم إلى المنطقة القديمة. وأمام بناء بنك «الأتش أس بي سي» في المرأب العام، ركن السيَّارة، وقال له: انزل.

بلَّلتهما الرطوبة، وروائح دبي مزيج من اختمار الموادّ العضويَّة التي تتبخر من الحدائق وهواء البحر المشبع بدبق الرطوبة. مشيا حتى الخور. نطَّ فيديل أوَّلًا في القارب الذي يُسمَّى العبّارة، وقطعا إلى الضفَّة الأخرى. يعرف فيديل المدينة كما لم يعرفها أحد. يعرف قاعها كما يعرف سطحها. سحرته دبي لأنَّه كان بلا مدينة. قال لرجل الأعمال المكلَّف بإرسال تقرير عن هذا المعارض المطلوب بأربع نشرات أمنيَّة:

اليوم، أنا سوريّ الذاكرة. لن تكون إنكلترا بلدي، فمهما حاولت، فأنا لست فيها سوى مهاجر آخر بجواز سفر. أدفع ضرائبي بالكامل وتعطيني المملكة الحماية. في دبي، استطعت أن أكون الاثنين معًا: سوريًّا وإنكليزيًّا. عملي حالم. حياة رفاهيَّة وفخامة لا يحلم بهما الأوروبيُّون، وفي الوقت نفسه، زهد وبساطة تمدّني بهما الصحراء والسماء المفتوحة والغرباء. أعرف عاهرات المدينة وأرقى رجال أعمالها. أصادق الكثير من عمّالها، وأساهر ملكات جمال ونجومًا من الصفِّ الأوَّل. هذا لا يمكن أن تقوم به في أيٍّ مدينة في العالم إلَّا هنا

دبي مدينة ليليَّة بامتياز، لكنَّ الاستتار وعدم الإشهار علامتان يتقنهما جميع روَّاد الليل. هل أتيت سابقًا إلى هنا، دكتور عمران؟

أجاب الرجل بـ لا دخلا نادي يورك في قلب دبي. فندق أربع نجوم ونادٍ ليليّ يُفتَّش القادمون إليه بجهاز كشف المعادن. كان فيديل يُلقي السلام على الحرَّاس، يعانق أحد النُّدُل، يتبادل المزاح مع الفتاة التي تعمل في البار، ثم تبدأ سيِّدات الليل بالتوافد. من الصين الشعبيَّة، وجمهوريَّات الاتِّحاد السوڤياتيّ السابق، وبعضُ التركيَّات والإيرانيَّات والأثيوبيَّات بجدائل الراستا. كثيراتٌ منهنَّ يتقدَّمن نحوه، يقبِّلنه ويمازحنه، يعرفنه بالاسم. لا يُخفي اسمه لأنَّ الكلّ يظنُّون أنَّه اسمٌ مستعار.

يطلب كأسي كونياك ويقول: البيرة بتعمل كرش، الكونياك سيِّد المشاريب.

يراقب عمران مشهد الاكتظاظ والصخب، وقد أصبح الحديث صعبًا وسط ضجيج يفور بالرغبات.

تجلس السيِّدات على حافَّة البار، أو يتمشَّين متفقِّدات زبائن الليلة الذين بدأوا بالتوافد. عرب، أوروپيُّون، هنود، روس، أتراك؛ حشد من الزوَّار والمقيمين. البعض قادم للاطِّلاع وشرب كأس، والبعض قَدِم ليحظى بسيِّدةٍ بأرخص سعرٍ ممكن، يعوِّض معها وحدته العاطفيَّة المشوّهة. تبدأ المحادثات غالبًا بـ: وير آر يو فروم؟

تُحدِّد جنسيَّتُك المساومةَ. الأسعار تتراوح بين الخمسين والخمسمئة دولار. العرب هم الأكثر مساومة ووقاحة، والأوروپيُّون العجزة الأكثرُ كَرَمًا، يقول فيديل.

تتقدَّم فتاة شقراء فتيَّة بقامة مشدودة وثياب مثيرة. وجهها طفوليٌّ لا يعكِّره سوى تلك النظرة القاسية من العينين الزرقاوين. تحضن فيديل بودٍّ كبير. تسمع بعض المفردات المتطايرة. يكلِّمها بالروسيَّة والإنكليزيَّة، ثم تلتفت إلى عمران تسلِّم عليه بحرارة.

تخبره بأنَّها المرَّة الأولى التي يأتي فيها فيديل مع صديق. تنتصب أمامهما امرأة في الثلاثين من العمر. ترتدي بدلة رياضيَّة وتضع سمَّاعتين في أذنيها وتنظر شزرًا إلى القامة الذهبيَّة، فتعتذر الفتاة من فيديل وتقول له مسرعة:

ـ عليَّ أن أذهب. لا بدَّ من أن نلتقي خارج ساعات العمل.

ترمي القوَّادة المسؤولة عن الفتيات جملتها لفيديل:

ـ كالعادة، تضيِّع وقت البنات.

ـ أنا لا أضيِّع وقتهنَّ. أدفع لهنَّ من دون أن أنام معهنَّ.

ـ هل يريد صاحبك الاحتفال الليلة؟ عندي مجموعة قادمة للتوّ.

ـ اسأليه.

تسأل القوَّادة عمران إن كان يبحث عن رفقة عظيمة لهذه الليلة.

وبين المزاح والجدّ، أجاب عمران:

ـ بحسب الفتاة.

غابت للحظات، وعادت برفقة صبيَّة لم تتجاوز العشرين، جمالها يخطف البصر.

ـ هذه ماريًّا، من أسبوعين فقط في دبي. ليلة كاملة ٢٠٠٠ درهم، ولأنَّك صديق فيديل ١٥٠٠

أجاب فيديل القوَّادة ضاحكًا:

ـ أسبوعان وقت طويل Boss؟ ولأنَّه صديقي، لن يدفع شيئًا والليلة ماريًّا ستكون معنا؟

ـ إذًا، معك حتى الغد بعد الظهر وترجعها

ـ تمّ.

يُخرج من جيبه مبلغًا ويدسّه في يد القوَّادة. يقترب من عمران:

ـ بدَّك تنام معها؟

ـ بالطبع لا

نادى ماريًّا:

ـ أنت الليلة ضيفتنا. سنعزمك على العشاء. لن نمارس الجنس. دفعنا ثمن ليلتك.

تهزّ رأسها مصدومة بينما يتابع فيديل:

ـ سنوصلك إلى بيتك تبدِّلين مكياجك وثياب الشغل، وتلبسين فستان سهرة. أنت الليلة سيِّدتنا. أنا وصديقي سنحتفل بك.

تضحك قائلة:

ـ فعلًا، مثلما قالت عنك الفتيات: أمير ليل دبي.

ضحك بصخب:

ـ وأيضًا يَقُلْنَ عنّي: أغبى زبون في دبي؟

ماريًّا، القادمة من أوكرانيا عازفةُ كمان وپيانو. تعشق بغانيني وموزارت. دفعت ثلاثة آلاف دولار لسمسار الڤيزا. أخبروها بأنَّها ستعمل عازفة في فندق محترم، وما إن وصلت حتى اكتشفت أنَّها أصبحت مَدينة بعشرة آلاف دولار لتجَّار الرقيق، وجوازُ سفرها محجوزٌ، وعليها أن تسدِّد المبلغ خلال ثلاثة أشهر، وبأنَّ عملها الحالي سيكون أقدم مهنة في التاريخ. تطمح ماريًّا إلى أن تسدِّد الدين خلال شهرين، وتجمع المبلغ وتعود لإكمال دراستها في الموسيقى، فهي في الواحد والعشرين من العمر، وتعتبر أنَّ تجربتها هنا جعلت منها امرأة ناضجة وقاسية القلب قبل الأوان، لكنَّها علَّمتها الكثير.

باحت ماريًّا بذلك، في مطعم مغربيّ في فندق أونلي أند ون قرب الميديا سيتي:

ـ أضطرّ إلى مضاجعة خمسة رجال أحيانًا في اليوم.

سألها فيديل مباشرة وهو يقطع لحم الستيك من صحنه:

ـ فعلًا، تريدين العودة إلى الجامعة؟

ـ بكلِّ تأكيد.

قال لها بحزم:

ـ استمتعي الليلة. من الغد أنت حرَّة. أنا سأجلب جواز سفرك.

كانت فرقة موسيقيَّة عربيَّة تعزف تقاسيم لعبد الوهاب. وعمران مبهور بهذه الشخصيَّة العجيبة، التي تُدعى فيديل. لماذا يفعل ذلك؟

انتهى العشاء وماريًّا تصرّ على أن تبقى مع فيديل، لكنَّه أوصلها إلى سكنها ووعدها بأن يعود غدًا في الثانية عشرة ليدفع لها

مستحقّاتها، وأخبرها بأنَّ هذه الليلة آخرُ ليلة لها في دبي.

نزلتْ غير مصدِّقة. وقبل أن تمضي، وقفت على الشبّاك وهي تقول:

ـ أرجوك، أخبرني إن كنت تمزح؟ لا تلعب بي.

ـ الليلة آخر ليلة لك في دبي إذا كنت تريدين ذلك حقًّا.

ما إن مضت حتى اتَّصل بالقوَّادة، وأخبرها بأنَّه يريد دفع مستحقَّات ماريًا، فقالت له إنَّ الأمر ليس بيدها، وستَّتصل به بعد أن تسأل أصحاب العمل. وبعد أقلّ من نصف ساعة، أخبرته بالموافقة. فواعدها في الساعة ١٢ ظهرًا لتسلِّمه جواز السفر ويسلِّمها جميع المستحقَّات. ضحكت القوَّادة:

ـ أوكي، كريزي مان.

التفتَ إلى رفيقه يخبره بأنَّ دبي شغوفة بالبياض والصمت، وسيعرِّفه إلى صمت المدينة بعد أن عرَّفه إلى ضجيجها كانت الساعة قد قاربت الرابعة فجرًا. صمت ثقيل يلفّ جسد المدينة. لا صوتَ في المكان. لا ضجيج، لا تزمير للسيَّارات، لا باعة يصدحون. مدينة بكاتم صوت. أبوابٌ مغلقة وأبنيةٌ بلا شرفات، يحتسي السكَّان فناجين قهوتهم فيها صمت يستحضر الشيخ محيي الدين بن عربي ليُلقي نظرة ويغادر على جَمَل وهو يتمتم «كلّ ما يلمع لا يُعوَّل عليه». لا شتائم. لا عراك. تبدو مدينة بلا غضب، مدينةً مسالمة. السيَّارات عُلَب مغلقة تمَّ تحصينها تمامًا. لا أحد يريد أن يشارك أحدًا. البيوت مساحات مقفلة. علب فخمة مسطومة لا مداخن فيها لتنفس الغضب أو الفرح، والصراخَ أو التأوُّه. الناس من كثرة صمتهم ينتفخون ويزدادون عزلة وراء المقود، وخلف جهاز الكمبيوتر، وبين جدران المكاتب وأرقام

الشقق والحسابات البنكيَّة. كلّ شيء يكبر بلا ضجيج. حتى الأبراج الفارهة والمجمَّعات الضخمة تنبت بلا صخب أو تعطيل للحركة. فقط إن أتقنتَ الإصغاء فستستمع بهدير الآلات الحاسبة.

تشقّ البي أم الطريق إلى منطقة تُدعى القوز، حيث تجمُّعات العمَّال. هناك أصوات بعض العمَّال القادمين من كارلا وبنغلادش وكشمير، تكسر إيقاع السلام الصامت بين حين وآخر في المدينة المشرئبَّة. يوقف السيَّارة إلى جانب أحد الكامبات في لحظة خروج العمَّال إلى الباصات مثل أسرابٍ من النمل، بوجوه كالحة خالية من المعالم، وأجسادٍ قويَّة، وملابسَ رماديَّة، بدوا كأنَّهم يخرجون من تحت الأرض.

ـ يتقاضى بعضهم في الشهر أقلَّ ممَّا تجنيه ماريًّا في نصف يوم!

قالها، وهو يشغِّل المحرِّك، ويتابع المسير في الطريق السريع عبر مفرق راوية العين، فتختفي المدينة خلفهما، ويتحوَّل الطريق إلى صحراء بكثبانٍ تميل إلى الحمرة.

تنعطف السيَّارة إلى طريق جانبيٍّ وتقف على مشارف كثبان الرمل. يهمس فيديل لعمران:

ـ اخلع حذاءك وانزل.

يمشيان حافيين فوق كثيب من الرمل، يقول فيديل:

ـ تمتَّع بكلِّ خطوة. ما زالت هذه الصحراء تختزن طاقة مذهلة. هنا تسكن روح المكان. هذا المدى الساحر هو ما أعشقه في هذه المدينة.

أمسك كمشة من الرمل وتركها تنسرب من قبضة يده.

ينظر إلى دبي التي بدتْ بأنوارها البعيدة غامضةً متلألئة:

ـ دبي كحفنة رمل لا يمكن القبض عليها إن كنت تراها مدينة مال فهي كذلك. وإن اعتبرتها مدينة متعة فهي كذلك. وإن ظننتها مدينة مسالمة فهي كذلك، أو تصوَّرتها مدينة بلا روح فهي كذلك أيضًا. إنَّها تعطيك ما تريده منها تمامًا.

«أنت كيف تراها»؟ سأله عمران بخبث.

ـ أنا لا أحبّها ولا أكرهها، لكن ببساطة أحترمها. لا تتدخَّل دبي في شؤونك ما دمت لا تتدخَّل في شؤون سكَّانها الأصليين.

ـ يعني أنَّها مدينة للوافدين ومدينة للمواطنين.

ـ هي في الحقيقة ثلاث مدن. دبي الثالثة هي التي لا يتحدَّث عنها أحد. شاهدت أنت اليوم بعضًا من عوالمها. على الموجودين في دبي الأولى ودبي الثانية أن يكونوا فقط أكثر رأفة بدبي الثالثة، لأنَّه من دون دبي الثالثة لن تكمل المدينة مسيرتها.

ـ قصدك المدينة الليليَّة؟

لا أبدًا. الدعارة موجودة في دبي ليس لأنَّها مدينة داعرة. فربَّما هي المدينة العربيَّة الوحيدة التي لا تكذِّب في هذا الأمر. هناك مدن تتلحَّف الفضيلة وتحاصرك بالعفاف وهي غارقة في البغاء. دبي الثالثة هي دبي الضعفاء، العمَّالِ الذين يخدمونها ويعمِّرونها وينظِّفون مخلَّفاتها مدينة الخدم والسائقين والمياومين وجيوش العمَّال غير المرئيِّين؟

قال عمران بمزيج من المكر والفضول:

ـ هذه بقايا اليسار فيك. هذا يفسِّر لماذا كنت مطلوبًا لأربعة فروع مخابرات!

هضم فيديل الملاحظة، لكنَّه لم يردّ عليها سوى بضحكة خفيفة:

ـ دبي لم تكتمل بعد. سيكون على الجميع بعد اكتمالها مواجهة كلّ الحقائق. إن نجحت من المواجهة فستتحوَّل دبي إلى مدينة كونيَّة نموذجيَّة. وإن لم تنجُ وحاولت مواجهة ما تؤجِّل اليوم مواجهته، فستقع الكارثة. وحدها دبي الأولى ستدفع الثمن، أمَّا أنا وأمثالي فَجُلُّ ما سنفعله أنَّنا سنغادر.

«ما الخطر الحقيقيّ على دبي؟» استفسر عمران بجدِّيَّة.

ـ من غير المعقول أن تحتفل المدينة باستيراد أهمّ ما وصل إليه علمُ التسويق والعمارة والتكنولوجيا، ولا يُواكب هذا التطوُّرَ عملٌ بالمستوى نفسه على الإنسان. وما دام مشعوذ من الدرجة السابعة يستطيع أن يقنع سبعة من كلّ عشرة أشخاص بأنَّه صديق للجنِّ الأزرق ويمكن له أن يجلب الغائب ويحبّل العاقر، فالمدينة في خطر.

صمت يلفّ الصحراء. ثمَّة هسيس من حركة الرمل. نعم، لا يمكن أن تترك أثرًا على الرمل وتطلب قراءته بعد حين، لكن تاريخ الصحراء لا يُقرَأ أبدًا بالرسوم على الجسد، بل بما تخبِّئه الجذور المتحرِّكة تحت سطح المدينة. وخرج صوت فيديل العبد الله، بكامل الإنصات إلى رهافة الجمال والغموض ونقاء الهواء، هامسًا مباغتًا وخارج السياق:

ـ بعرف إنَّك مكلَّف تعمل تقرير عنِّي للمخابرات. ما بهمّني إظهر قدَّامك إنِّي وطني وزاود عليك وإمدح النظام، بهمّني إقدر زور قبر أبي وإمشي ليلة متل هاي بشوارع الشام.

تهسّ الرمال بهدوء مع أدنى نسمة هواء.

ـ لن أكذب عليك، فيديل. مطلوب منِّي تقييم وليس تقريرًا عنك. أنا لست مخبرًا أنا رجل أعمال. وكلمة تقييم تعني بصراحة أن

أكفلك. لديَّ أقرباء ومعارف في الأجهزة المختصَّة. أنت تعرف ما أعنيه، أليس كذلك؟

عندهم أسئلة تحتاج إلى أجوبة. مين ساعدك على الهرب من سورية؟ عن زوجتك الإنكليزيَّة هيلين، لأنَّها، بحسب التقرير، كانت تعمل لمصلحة الاستخبارات البريطانيَّة، وعن زوجتك الثانية يلِّي بيقول تقريرها إنَّها ابنة أحد رؤساء التنظيمات الإسلاميَّة المتطرِّفة في لندن؟ وعلاقتك بإمام جامع لندن غسَّان الفلسطينيّ، وراح يسألوك عنه، وإذا كنت على تواصل معه.

التقارير المكتوبة عنك من السفارة السوريَّة في بريطانيا مثيرة للحيرة، بين إنَّك إسلامي متطرِّف أو مجرَّد طموح انتهازي كحولي نسونجي!

استخدمت كلّ نفوذي ومعارفي لأمِّنلك النزلة عَالشام، ولازم أعطيهم شي بالمقابل. فيديل بحقّ هاللحظة إلِّي عم نعيشها سوا حَدْسي بيقول إنَّك وطني وممكن العمل معك لتستفيد منك البلد. بس لا بدِّي إنت يصرلك شي ولا أنا يجيني وجع راس من وراك.

وقف فيديل ومشى في اتِّجاه السيَّارة، وأحضر صندوقًا أزرق يُستخدم للرحلات. فتحه وأخرج ترمس قهوة وفنجانين عبَّأهما، قدَّم أحدهما إلى عمران، وشرع في الحديث تحت غلالة من ضوء القمر الذي بدأ يخفت مع أوَّل تباشير الفجر.

(٥)

أنيس

حجز أنيس تذكرة إلى دمشق، على متن شركة الطيران السوريَّة، بعد أن جدَّد جواز سفره بسرعة من السفارة السوريَّة التي تربطه بسفيرها علاقة ودٍّ.

صحيح أنَّ الدكتور أنيس أنجز انزياحًا كاملًا عن كونه سوريًّا، لكنَّه ظلَّ يفضِّل دائمًا ألَّا يُنظر إليه كإنكليزيّ إلَّا تقنيًّا.

ليس لديه مشاعر وطنيَّة منجذبة إلى هذا الكيان الغامض الذي يُسمَّى سورية. لكنَّه كان يختنق من التصنيفات الضيِّقة لأيِّ شيء. وأكثر ما يزعجه في المملكة المتَّحدة هو تعبئة تلك الاستمارات التي تحاول أن تصنِّفه: من أيِّ أصول أنت؟ من أيِّ عِرْق؟ من أيِّ ديانة؟ وكان يُسارع إلى وضع علامة على خانة: أفضّل ألَّا أقول.

استطاع، وهو في مطار هيثرو في انتظار الطائرة، أن يتكلَّم مع سامي المُقيم بأدنبرة، فباشر سامي بإلقاء التحيَّة:

ـ السلام عليكم بابا؟

بدا غير مرتاح إلى التطوُّرات التي طرأت على شخصيَّة ابنه منذ

سنتين، فقد أصبح يتكلَّم بكثرة في الدين، وبالكاد يراه في الإجازات. يجده منخرطًا مع مجموعة من أصدقائه في أحاديث وأعمال خيريَّة لمصلحة الجالية المسلمة في بريطانيا.

لم يكن د. أنيس متدينًا. لا يتذكَّر سوى شذرات من طفولته حين كانت العائلة تحتفل بقدوم رمضان. كلّ ما تبقَّى من ذاكرته هو تلك الفوانيسُ الجميلة التي تزيِّن المنزل، ورائحةُ النَدّ والصندل لجدِّه وهو يأخذه معه إلى الجامع، وطعمُ المأكولات والحلويات المشكَّلة من أطايب الوجبات الشاميَّة المتقنة. كان رمضان في ذاكرته مزيجًا من عبق وطُعوم تجعله يسترجع مذاق طفولته السعيدة.

وأيضًا، ليس لديه أيُّ موقف حادٍّ من المتديِّنين. علاقته بالإسلام كهويَّة ثقافيَّة، لم يسعَ يومًا لتكريسها أو لنبذها. كان مشغولًا بتقديم نفسه كجرَّاح متفوِّق، وهذا الأمر تطلَّب منه أن يستهلك أكثر من ربع قرن من حياته غارقًا بين الكتب والمراجع والمستشفيات والمرضى. يتكلَّم سامي العربيَّة بطلاقة، ليس لأنَّ الدكتور أنيس كان مهتمًّا بهذا الجانب فحسب، بل أيضًا لأنَّ الدكتورة حنّة حرصت على إرسال ابنها إلى مدارس عربيَّة دائمًا. أمَّا دوره الحازم كأب فتمثَّل في عدم تساهله أبدًا في أيِّ علامة دراسيَّة متدنِّية تقلّ عن المرتبة الأولى.

خالف سامي التوقُّعات في الجامعة. فدراسته للتاريخ واللغات، ثم تخصُّصه بالدراسات الإسلاميَّة، لم يكونا مصدر فخر كبير للأب، لكن نتائجه القويَّة في بحوثه وجامعته، جعلته يقتنع تمامًا بأنَّ «أولادكم ليسوا لكم».

أخذ الحديث بضع دقائق شرح فيها أنيس لسامي سببَ ذهابه إلى سورية، فتمنَّى السلامة لأبيه، مع أُمْنية حزّت قلبه لأنَّه لم يفكِّر فيها بجدِّيَّة فعلًا:

ـ كنت أتمنَّى أن أزور دمشق معك يا أبي؟ على كلٍّ، خيرها بغيرها.

لازمه التأثّر في الطائرة. كبر هذا الشابّ بسرعة فعلًا اثنان وعشرون عامًا مضت كلمح البصر.

توسَّعت غيمة الأسى غير المبرَّر بعد حديثه مع ابنه الشابّ ليواجه قلق سؤال العودة إلى أرض التراب المتحرِّك، حيث لا يستطيع أن يزن خطواته. في الوقت نفسه، ثمَّة تشوُّق ما إلى لقاء من تركهم من أصدقاء الجامعة. صحيحٌ أنَّه التقى بعضهم في دبي ولندن، لكنَّه متلهِّف ليجتمع بهم مرَّة أخرى. وتساءل: مَنْ منهم ما زال يرعى الذاكرة ويُبقيها حارَّة في مهبِّ الغياب؟ كيف تنتهي تلك العلاقات الرائعة ويلتهمها الفراغ بعد أن تمارس عليها الأيَّام المحوَ والحذف؟ كيف يتسرَّب منَّا الأصدقاء كحفنة ماء من اليد؟

تُقلع الطائرة مودِّعة لندن وتعلن أنَّ الرحلة تستغرق خمس ساعات ونصف الساعة إلى دمشق. لم يعرف ما الذي حدث له حين لفظ الكابتن اسم دمشق. كأنَّ أسرابًا كاملة من المشاعر والوجوه والأحاسيس، ومزيجًا مضطرمًا من الصور والذكريات، انتابته فجأة بعد أن اعتقد طويلًا أنَّه روَّضها ولم يعد لها أثر.

لعلَّ آخر عهده بمشاعره كان لمدَّة عام، وثمرة علاقته بحنّة التي التقاها في دمشق، واختار أن يكمل دراسته بمساعدتها في لندن، ليتزوَّجا وينجبا ولدًا بسرعة لم يتوقَّعها غرقت بعدها حياتهما المثاليَّة الهادئة تحت سلطة السيِّد الروتين، وتحوّلت شيئًا فشيئًا إلى نوع من العادة. فكلاهما لا يحبّ الصخب ويكرِّس جُلَّ وقته للعمل، حتى إنَّهما في السنوات الأخيرة، نادرًا ما يلتقيان. وباتا يتركان الرسائل،

أحدهما للآخر، ويضعانها في المطبخ، ويكتبان فيها تفاصيل حياتيهما كلّ يوم.

جدير بالقول إنَّ علاقتهما تعرَّضت لمحنة صامتة لمدَّة عام، حين كانت حنّة في الولايات المتَّحدة. حدث ذلك في السنة التاسعة للزواج. اتَّصلت به وقالت له إنَّها تعتقد أنَّ عليهما أن يفكِّرا بعمق في زواجهما، وإنَّها التقت شخصًا ما وتريد إخباره بالأمر قبل أن تتطوَّر علاقتها به.

واجه الدكتور أنيس الأمر بعقل بارد. ذهب إلى حانة الحيّ واحتسى نصف كأس من البيرة، وعاد بسرعة ليتَّصل بها ويُخبرها بأنَّه في انتظارها. وأيًّا يكن خيارها فسيحترمه، فالمهمّ أن تفكِّر في سامي أيضًا. اكتسحه ألم طاغٍ جعله يتقلَّب في سريره لعدَّة أيَّام قبل أن يعالجه عقله المنظَّم من خلال العمل. وطلا قلبه، من يومها بطبقة كثيفة من اللامبالاة والعزلة.

عادت حنّة بعد أربعة أشهرٍ من أميركا بعد أن أرسلت إليه رسالة عن موعد وصول الطائرة وشوقها إليهما. كان في انتظارها هو وسامي، ورجعوا جميعًا إلى البيت. لم يسألها، وهي لم تتحدَّث عن شيء، ولم يُفْتَح الموضوع مرَّة أخرى. وطُوِيَ معه كلُّ فعل حميميّ بينهما. صارت علاقتهما الجسديَّة أشبهَ بعمليَّات متباعدة، تحكمها الصدفة أو احتفاليَّة غير متوقَّعة، مثلما حدث البارحة.

كان قد رتّب حجزه في فندق ديديمان لمدَّة ثلاثة أسابيع. خرج من مطار دمشق الذي لم يتغيَّر كثيرًا، فما زالت القتامة والوجوم نفساهما في وجوه العاملين. في الخارج، صورة ضخمة للرئيس الشابّ مكتوب عليها عبارةٌ بالخطّ الأحمر النافر «منحبَّك»، وإلى جانبها، صورة أضخم لأبيه الميِّت استغرب وجودها. قال لنفسه:

ـ يبدو أنَّ هذا الولد مستحيل أن يسوّق لنفسه من دون صورة أبيه إلى جواره.

ثم همس: إنَّ حافظًا لم يرحل. ما زال ظلّه الثقيل موجودًا كما تركه.

بمحاذاة طريق المطار شُجَيْرات قزمة وتزفيته رديء. البيوت كالحة عند مدخل الشام التي بدأت تستعدّ للدخول في الليل. انخطف قلبه لمشهد قاسيون المُضاء بالأنوار. راقب الشوارع جيِّدًا، لم تبرحها الألفة القديمة. شاخت بعض الأبنية فقط بشكلٍ يدعو إلى الأسى.

الجديد في المدينة هو الازدحام المريع وجعير السيَّارات الذي استفزّ أعصابه.

فتح النافذة ليتنشَّق هواء دمشق المشبع بالمازوت، فأحسَّ بأنَّ رائحة حريق تدخل رئتيه.

هاله اتِّساخ الأعلام المرفوعة حين وصل إلى ساحة البرامكة قبل الانعطاف إلى جسر الرئيس، وهاله أيضًا الوجهُ المهشَّر والمقشَّر للأبنية الهرمة، والجدرانُ الملوَّثة بالشعارات نفسها الممجوجة والمتآكلة. يبدو أنَّ أصحابها لم يعد لديهم الاهتمامُ للاعتناء بها، فالعبارة التي ما زال يتذكَّرها حين غادر «لا حياة في هذه القُطر إلَّا للتقدُّم والاشتراكيَّة من أقوال الرفيق المناضل حافظ الأسد»، بدت كأنَّها تعرَّضت لعوامل الحتّ والتعرية، فتلاشى الجزء الثاني منها، فبدت الآن كأنَّها أصدق:

لا حياة في هذا القُطر. حافظ الأسد.

يجعل الاعتياد الناس لا ينتبهون كيف يتآكل الثابت مهما بلغ من سطوة الحضور.

نسي أمر الشعار تمامًا حين انعطفت السيَّارة لتحمله فوق جسر الرئيس، فرأى فندق فورسيزنز متعاليًا إلى جوار بردى. قال لنفسه:

ـ تغيب خمسة وعشرين عامًا لتجد مدينتك اختُرقت، ونبت في وسطها فندق كخازوق.

لم يُدركه الأسى، بل أحسَّ بأنَّ عليه عدم إطالة المكوث، وأن يُنهي بسرعة ما جاء من أجله مهما يكن الثمن.

راقب من شرفة غرفته في الطابق السادس حركةَ السيَّارات وأضواء المدينة. بدت جميلة وحزينة. كانت الرحلة شاقَّة، فقرَّر أن يخلد إلى النوم بعد العشاء.

رفع الطعام معنويَّاته. ما زال الطعم كما هو. يدغدغ الأكل الدمشقيّ حلماتِه الذوقيَّةَ ومشاعر معدته، فيساهمان في تحسين أشدّ الأمزجة تقلُّبًا

غيَّر رأيه وطلب الرقم الذي أرسله أحد أصدقائه على الإيميل. ولم ينتظر حتى سماع كلمة «ألو» من الطرف المقابل، حين أجابه:

ـ احزر مين؟

ـ عفوًا ما عرفتك.

ـ بعدو مقهى الكمال شغَّال؟

ـ إيه، بس ما عرفتك. مين حضرتك؟

ـ مو إنت عيسى درويش صاحب المقولة التاريخيَّة «المريض القديم أفهم بألف مرَّة من الطبيب الجديد»؟

ـ لك مو معقول. أنيييييييس.

صرخ عيسى كأنَّه يودّ أن ينطّ من السمَّاعة.

اتَّفقا على اللقاء غدًا صباحًا. أطفأ المصباح، ونام بعد لحظات مُحاطًا بغمر من ألفة لم يعهدها منذ سنين.

كان غريبًا تمامًا في مدينة تمور بكلِّ أنواع الحياة، ويخنقها

الترقُّب بعد أخبار ربيع العرب في تونس ومصر سار بعد الفطور إلى موعده مع عيسى. تنفجر في كلِّ خطوة يخطوها صورةٌ محبَّبة تفوح بالروائح والذكريات. حدَّث نفسه:

ـ هذه المدينة عصيَّة على النسيان. بمجرَّد أن تعود إليها تعود إليك كاملةً مكمَّلة. مشى على غير هدى. تحمله الخفَّة على متن ذاكرة الأيَّام القديمة. صار يتذكَّر ومضات من قصائد كان يخطّها وهو في أيَّام الشباب الأُولى، قبل أن يكتشف أنَّ العيش بالشِّعر، أو مع الشعر، وللشعر، واحدٌ من أصعب الخيارات التي يمكن للإنسان أن يقوم بها، وأكثرها بؤسًا.

رافقته هالات غامضة من المشاعر الملتبسة وفرحٌ غامض محفّز، وهو يسير في شوارع دمشق المتلفِّعة ببرد كانون، والمتَّقدةِ تحته بجمر غضبٍ متراكم لم يكن يتوقَّع أحد أنَّه سينفجر في يوم من الأيَّام.

طفولةٌ هادئة في منزل المهاجرين؛ وفاةُ والده المبكرة؛ زواجُ أمِّه وسفرها إلى السعوديَّة، وتكفُّل الخالِ بدر الدين الصامتِ الغامضِ بمصاريفه مع جدَّته؛ دخولُه كلِّيَّةَ الطبّ؛ تعرُّفُه إلى أصدقائه وبدايات الشعر؛ نهايةُ العاطفة العاصفة، وصولًا إلى التخرُّج ولقاء حنّة والسفر إلى بريطانيا.

لقاء صديق مثل عيسى درويش يعني الاستعداد لتعويض الغياب ومعرفة كلّ ما حدث وما يحدث حتى الآن. كان عيسى قد سبقه إلى مكان الموعد. تأمَّلَهُ جيِّدًا من الفاصل الزجاجيّ، قبل أن يدخل. شعره الذي ما زال كثيفًا غزاه الشيب، والوجهُ المستدير صار أكثر سمرة. لكن طريقته في التدخين المتواصل، وانكبابَه على قراءة رزمةٍ من الصحف إلى جانبه، ظلَّا على حالهما. دخل على مهل تسبقه ابتسامتُه وذراعاه تستعجلان احتضان الأخ والصديق القديم. مرّت دقائق طويلة

وهما يحدِّقان، أحدهما في الآخر، بينما تغلِّف عيونَهما دموعٌ رقراقة شفَّافة.

كانا يتفقَّدان علامات الزمن كيف تركت دلالاتها عليهما. حافظ أنيس أيضًا على شعره، وعلاماتُ العافية والراحة تظهر على جسده الذي امتلأ بلا كرش.

لخَّص عيسى كلّ ما حدث وأين أصبح الجميع، واستفاض وهو يتكلَّم عن نفسه:

ـ اعتُقلت كما تذكر في السنة السادسة من الكلِّيَّة. خرجت بعد ستَّة أعوام وأكملت الدراسة وتخرَّجت. لديّ شهادة طبيب لا أستخدمها، ولا تعني لي شيئًا، وثلاثةُ دواوين شعر. أسمِّيها دواوين، وأنا أضحك على تفاهاتي.

مطلَّق مرَّتين، وأطمح إلى أن أطلِّق للمرَّة الرابعة. يا أخي، الشرع حلَّل الزواج من أربع، وأنا أعطي هذه المسألة أحقِّيَّة التجريب والطلاق لأربع مرَّات.

موظَّف في وزارة الصحَّة، أداوم ستّ دقائق في اليوم. أذهب كلَّ يوم إلى العمل، أوقِّع وأقول لهم إنَّني أقرف منكم وأخرج. وفي آخر الشهر، أقبض ثمن قرفي ما يعادل ثمن ثلاث سَكرات. أحاول أن أنجز سيناريو، فهذا الكار الجديد يشترون به الكَتَبة. غالبًا، سأبيع أوَّل سيناريو أخيرًا. ربَّما أستطيع أن أشتري بيتًا. فقد آن لهذا البدويّ أن يرتاح. ما زلت أقطن في البيت نفسه الذي تعرفه. باختصار، هذه هي أخباري.

وأنت يا دكتور أنيس، أخبرني عنك، وكيف خطرت لك الشام بعد هذه الأعوام؟

ـ أنا هنا من أجل وصيَّة الخال بدر الدين، فقد ترك لي البيت، وأعتقد أنّي راح بيعه وأرجع.

ـ بيت حُدُد إلّلي بالجسر الأبيض؟

ـ هو بذاته.

تحمَّس عيسى للخبر

ـ ستجد حتمًا من يشتريه. كلّ البيوت القديمة اليوم تُباع وتُفتح على شكل مطاعم وفنادق. أكلت مسيرة الإصلاح الأخضر واليابس. بقي الانتقام الأخير من بقايا دمشق، وتُحْتَلّ تمامًا. هم واثقون اليوم بأنَّهم فعلًا جاؤوا إلى الأبد.

أوقفته ضحكة الدكتور أنيس الصفراء، فتابع:

ـ لا تخَفْ. ارتفع منسوب الحديث. المهمّ ألَّا نُسمِّي الأخ الأكبر وعائلته بالاسم، والباقي مسموح.

ـ جيِّد، شايف تحسينات فعلًا: فنادق وماركات. وتمشَّيت الصبح بالداون تاون. الماركات نفسها إلِّلي بلندن.

ـ إيه دكتور، نحنا هون منقبض رواتب أقلّ من بوركينا فاسو، ومندفع ضرايب أكثر من بريطانيا. وحقّ حذاء من الداون تاون بيعادل راتب كامل. يعني راتب الموظَّف هون بحقّ صرماية.

صار صوت عيسى الساخرُ والمشروخ، ممتزجًا بالانفعال.

هدَّأه أنيس الذي لم يفارقه حتى اللحظة الهاجسُ القديم بأنَّ للحيطان آذانًا شرهة لأيِّ انتقاد. ما زالت أعشاش الخوف في وعيه على الرَّغم من مرور كلّ هذه الأعوام.

تابع عيسى بلهجة أقلّ حدَّة:

ـ يا دكتور أنيس، دمشق الحقيقيَّة تموت. الحقيقة هي ماذا

يحدث على أطراف المدينة. جلب الجفاف خلال الأعوام الثلاثة الماضية، أكثرَ من مليون سوري هَجَروا الأرض وجاؤوا من الأرياف. باع النظام الشمال للأتراك، والجنوب للمافيات.

ـ ليش ما سافرت؟

سأل أنيس صديقه محاولًا ردَّه إلى حديث أقلّ توتُّرًا

ـ بعد هالعمر إبدأ من جديد؟ وين، وكيف؟ ما بقدر إطلع من الشام. باليوم إلِّلي بطلع فيه منها حتى ولو لمدينة قريبة، بضيع، بتجرَّد، بعرى، بختنق.

تعوَّدت على الروائح والناس والألم الشامي. صرنا شيئًا واحدًا. لازم تابع يوميًّا زفراتي وبثّ سأُمي فيها وهي تُعيده مثل التركيب الضوئيّ. نطرح هيدروجين الحسرة في فضاء الشام فتنتحه لنا أُكسجين الأمل. نعيش بتبادل العزاء. المدن الأخرى لا تحتملني.

لا يوجد مدينة في العالم تحتمل مدمنًا لدمشق.

يوم وصلني إيميلك يا أنيس فرحت كتير سجّلتلك الأرقام إلِّلي طلبتها.

ومرَّر له ورقة عليها رقمان لاسمين: عبَّاس جوهر وليل حدّاد.

ـ سيفرحان فيك. شخصيًّا ما عم بلتقِّي بعبَّاس إلَّا ما ندر، أحيانًا بيجي بالليل ليشرب كاس عرق. ما منحكي ولا كلمة، بعدين بيشتمني وبيروح. ما عاد في بيناتنا شي بينحكى. ممكن بأيّ لحظة نحمل سلاح ونقوّص بعض.

ـ أفّ، أفّ، لهالدرجة! ولك شو صار، كنتو بالجامعة طيزين بفرد لباس؟!

يقهقهان بفرح.

ـ عبَّاس اليوم رجل أمن رفيع المستوى، يُحيي ويميت بالبلد. إلو الفضل بأنّي توظَّفت. لكن ما عاد فينا نكون سوا. أنا بخجل فيه وسط أصدقائي، وهو بيخجل فيي بين الضبَّاط ورجال الأعمال. بيشتمني دائمًا وبيقول: الرأس تبعك مليان خرا. كلّ البشر ظبَّطت أمورها إلَّا أنت، مثل الجحش.

وأنا ما بسكتلو وبقلُّو: على الأقلّ عم نام مرتاح، لا دم بإيدي، ولا ظلم مرّ من تحت عيني وسكتت عنُّو.

صارت زياراته نادرة، ولو إنِّي بعدني بتركله المفتاح.

وأكمل الدكتور أنيس العبارة مقاطعًا:

ـ تحت الزرِّيعة.

بالضبط، يا إلٰهي بعدك بتذكر؟

ـ وليل، كيفها؟

ـ مثل ما هيِّي، طيِّبة وما بتتغير. تزوَّجت من دكتور أورام إسمو عادل، وعندها ولدين ميَّار ومنار، وعمَّا تشتغل هلَّق بمستشفى خاصّ.

ـ اسمع عيسى. موعدي مع المحامي قرّب ولازم روح هلَّق، أنا بقيان أسبوعين أو ثلاثة. خلِّينا على اتِّصال. إذا بتعرف رقم محامي ثقة يا ريت تدلّني عليه.

أخرج عيسى جوَّاله وكتب رقم المحاميَّة سامية سعيد:

ـ غالبًا بتساعدك. بس نصيحة يا دكتور أنيس، إذا قدرت لا تبيع إلهن؟

ـ لمين قصدك؟

لم يكمل عيسى، وأطرق في الجريدة وهو يرشف بقايا ثفل فنجان القهوة.

(٦)

فيديل

كان يستمتع بإخبار عمران بتلك الأجزاءَ المتشظِّية من حياته. وكان ينسى، في لحظات، وجودَه تمامًا مثل من يحتاج إلى أن يُصغي إلى نفسه ليعرفها أكثر.

ها هو حلم العودة إلى دمشق الذي أماتَه في عقله، يتحوَّل إلى حقيقة. ومعه يستعيد هسيس حياته الغريبة.

درستُ الحقوق قسرًا، لكن وقتي وجهدي كانا مركِّزين في متابعة حلقات العلم ومحاضرات الشيوخ والأساتذة العلماء، بحكم أنَّ مبنى كلِّيَّة الشريعة يتقاسم المكان مع مبنى كلِّيَّة الحقوق، وأمضي معظم الوقت في مكتبة الكلِّيَّة أطالع ما تيسَّر من كتب التراث، وأستزيد من معرفة أصول ديني وهويَّتي.

التقيتُها في المكتبة. كانت مليئة بالطاقة والطيبة، تسبقني بعامين في الكلِّيَّة نفسها. لا أعرف كيف بدأ الحديث، لكن جملة واحدة فتحت لي نافذة على عالم غيّر حياتي. صوتٌ أنثويٌّ طريٌّ خلخل روتين المكان:

ـ عم تدرس حقوق منشان تصير محامي ولّا ضابط؟

ـ عفوًا!

أجبتُ باستغراب، ملتفتًا لأجد أمامي كائنًا أنثويًا يشعُّ بابتسامةٍ فذَّة مرسومة على وجه أسمر مشرّب بالحمرة. ترتدي بنطالًا وقميصًا أبيض فضفاضًا. وشعرها الأسود مرميٌّ خصلًا مسترخية على كتفيها. كرّرتِ السؤال بإصرار وأضافتْ:

ـ إنت بتعرف ما حدا بيحترم هالكلّيَّة، لأنُّو لا في حقوق ولا قانون. أغلب الطلَّاب اختارتهم المفاضَلة. على كلٍّ، آسفة للتطفُّل. بس دائمًا بشوفك بالمكتبة ونادرين الطلَّاب الجادِّين بهالكلّيَّة.

كسرتُ نظري وأنا ألوم نفسي كيف جرَّتني الغواية، وقلت بيني وبين نفسي:

ـ نعم. يجب أن تحجّب كلَّ نساء العالم. هذه الفتنة مضلِّلة فعلًا

بقيت حتى المساء بصحبتها، غير عابئ بكلٍّ ما سبق وتعلَّمته من تحذيرات لم أَقْوَ على تركها. لقاء صغير بات يتكرَّر كلَّ يوم تقريبًا، فيجمعنا حديث عن التاريخ أو الإسلام والمجتمع.

كان اسمها رويدا الشاعر. أبوها طبيب اشتراكي معروف. قارئة نهمة، ومتفوّقة للغاية. تتقن الفرنسيَّة، وتدرس الحقوق في الجامعة، والإنكليزيَّةَ في المركز الثقافيّ البريطانيّ. لم أسمع أحدًا يتحدَّث مثلَها بهذا الشغف عن الأدب والتاريخ والإسلام. كلُّ مرجع كنت أذكره كانت تعرفه وتزيد عليه. كانت تحرِّضني بشكل كبير لأنوّع مصادر معرفتي. أطلعتني يومًا على الكتاب الذي كان السببَ في أوَّل هزَّة في عقلي، «الإسلام في الأسر»، لصادق النيهوم.

كانت لطيفة وذكيَّة ومثقَّفة، تؤمن بحقِّي في أن أكون ما شئت. لم تُسعفني خبرتي في الردّ عليها. كسرتُ خلال أسابيع كمِّيَّة كبيرة من المحرَّمات. دخلت مقصف الجامعة برفقتها لاحتساء الشاي، وتمشَّيت معها في الشام القديمة، وأكلنا عرانيس الذرة. تسجَّلتُ في المركز الثقافيّ البريطانيّ لتطوير مهاراتي اللغويَّة في الإنكليزيَّة التي كنت بارعًا فيها ضمن حدود معقولة. وساعدتني رويدا عندما تفهَّمتْ خصوصيَّتي كملتزم دينيًّا، وقدّرتْ ظروفي وشكلَ حياتي وطبيعتَها، وغيّرت الكثير من نظرتي إلى المرأة السافرة المتحرِّرة.

بدت علاقةً غريبة لا يمكن شرحها أو تصنيفُها كنَّا صديقين مختلفين بشدَّة في نظرتنا إلى الأرض، وموقفنا من السماء، لكن كان يجمعنا صدق كبير وشيء لا يمكن أن أسمِّيه سوى ألفةٍ مدهشة. لم تعد تمثِّل لي الصورةَ المغوية للمرأة، ولم أكن أمثِّل لها الشابَّ الإسلاميّ النمطيّ المخيف والمُدان. كنَّا طاقة من العمل والمحبّة الروحيَّة العالية.

اكتشفَتْ موهبتي في الخطِّ والرسم، واكتشفْتُ قدراتها في التنظيم والإنجاز والانحياز إلى قضايا أخلاقيَّة كبيرة كنت لا أعرف موقفي منها. كان كلّ موقف نصادفه يُحيلنا إلى الأعمق منه. وظلَّ هذا شأننا حتى حدث ذات مساء وجاءت إلى المدينة الجامعيَّة، قائلة:

ـ مشّي معي.

ـ لوين؟!!

ـ لا تسأل، هناك من هو مهتمّ برؤيتك. جيب معك كلّ شغلك بالرسم.

لم أقاوم كثيرًا، كنت أثق بها. ذهبنا معًا إلى مرسم واحد من

أشهر فنَّاني سوريَّة، نزار الصاخور. دخلت مرسمه الذي تفوح منه اختماراتُ الألوان. كان مزيجًا من الصوفيَّة والشغف، يعبق بالألوان وروائح الزيت والأقمشة والأصباغ.

على جدران مرسمه مكتبةٌ ضخمة وكتبٌ هائلة في علم التشريح، وموسوعاتٌ باللغات العربيَّة والإيطاليَّة والإنكليزيَّة. كان المكان محرابًا لإنتاج الفنّ، وبدا هذا الفنَّان العجوز مثلَ متصوِّف مدهش.

استغفرت الله في سرّي حين رأيت قناني الكحول وصورَ النساء العاريات. انخطف قلبي من الخجل والغيرة حين رأيت لوحة لامرأة عارية تشبه رويدا، معلَّقةً على الحائط.

أمسك ورقة بيضاء وقلمَ فحم، بعد حديث قصير وهو يتفرَّج على أعمالي، وقال لي وهو يشير إلى رويدا:

ـ حبّها؟

«عفوًا؟!» أجبته بارتباك.

ـ عمَّا قلّك معك عشر دقائق تحبّها يعني ترسمها؟

امتثلت طائعًا من دون أن أسترق نظرة إلى صديقتي الواقفة متكتِّفةً، تنظر إليَّ بعينين مليئتين بالتشجيع. رسمتها، وانشغل هو بتقليب الكروكيَّات التي أعمل عليها. وقبل انقضاء الدقائق العشر، انتهيت.

نظر إلى ما خطَّطته وهو ينفخ دخان سيجارته، وقال لي:

ـ كلِّيَّة الفنون في دمشق تخرّج كلّ خمسين عامًا فنَّانًا، وكلَّ عشرة أعوام رسَّامًا، وكلَّ عام مئةَ فاشل. أنت يا ابني موهوب، وموهوب بشدَّة. أخطأت في أنَّك لم تدخل كلِّيَّة الفنون. أنت فنَّان حقيقيّ ضلّ طريقه.

كانت تلك العبارة كافية لتكون بداية كسر الوعد الذي قطعته لأبي، وخيبةً طويلة سبَّبتها لأخوالي، وكارثةً حلَّت بحياتي.

أُعيد البكالوريا من جديد وأدخل كلِّيَّة الفنون. أسلِّم بعضًا منِّي لفيديل، فيبدأ بالتعرُّف إلى دمشق برفقة رويدا الصاخبة ورفاقها، الذين يريدون تغيير حال البلد مهما كلَّف الأمر.

لم أكن أستسيغ جلساتهم. فهم في مجملهم، على العكس من رويدا، لديهم موقف معادٍ للدين. يعدّونه عدوَّهم الأوَّل أكثر من الاستبداد نفسه، بالإضافة إلى شتم الله والمسخرةِ على المتديّنِين واتِّهامهم المحجَّبات بالمتخلِّفات، وتعمُّدِ استفزاز الصائمين في رمضان.

فهمتْ رويدا أنَّني من طينة مختلفة، فلم تعد تحرص على دعوتي إلى اجتماعاتهم أو المشاركة في فعّاليّاتهم. صنعنا أنا وهي فقط نوعًا من الرفقة المختلفة.

كان الشعور تجاهها يكبر كلّ يوم. مزيج من العادة والأمان والاشتهاء المكبوت والذي أحرص على تصعيده إلى حالةٍ من الوَجْد والصداقة المذهلة. مسٌّ من الغيرة كان يجتاحني ولا أستطيع السيطرة عليه، ولم أَبُحْ لها بذلك إلَّا مرَّة واحدة.

كان اشتهائي إيَّاها حادًّا وأعلى من قدرتي على السيطرة عليه. حدث ذلك في حديقة الجاحظ وسط دمشق ونحن نُطعم البطّ ونُمارس عادتنا في اللقاء الأسبوعيّ. امتدَّت يدي إلى كُمِّ قميصها، وبدأت بقرصه وجعلكته بإصبعين. كنت أريد أن أحفظ نفسي وأحفظها من دون أن أرتكب معصية لمسها، وفي الوقت نفسه، أريد تحسُّسَ أيّ أثر منها. حدّقت في عينيها الطيِّبتن الوديعتين المنذهلتين.

«شو باك؟» همست بصوت يحمل القبول أكثر ممَّا فيه استفسار.

لم أستطع الردّ. لم أجد الشجاعة لأقول لها إنَّني أشتهيها أو أحبّها، لا أعرف. لكن لديَّ رغبة عظيمة في أن أحضنها إلى صدري، وبالأحرى أن تحتضنني هي.

اقتربت منِّي بلا تردُّد بجنونها العالي، وحضنتني. حينها فقط شممت تلك الرائحة التي لا تُنسى. خميرة من الغواية واللذَّة، تعشّقتْ في داخلي، وبتُّ من يومها واحدًا من مدمني الروائح في هذا العالم. لم تكن تضع عطرًا، إنَّما ميّزت رائحة جلدها المفروك بمرهم مصنوع من الأعشاب. هكذا، الأنف يعشق قبل العين أحيانًا، لكنَّنا لا ننتبه.

مشينا حتى وجدنا شجرة وارفة فوقها ضوء إنارة مكسور. كنت ممتنًّا لمن كسره. أسندتها إلى جذعها وأخذت قبلتي الأولى، ومعها التصق جسدي لأوَّل مرَّة بجذع امرأة. ولم تمض بضع دقائق حتى أحسست بانفجار بين فخذيّ. كان كافيًا أن أمسّ تلك المرأة الشجرة لتتساقط أوراقي وتعصف بي موجةٌ من الريح تجعلني أقذف في سروالي الداخليّ وأبلِّل نفسي. أتهدّم كأنِّي أسقط من شاهق، ولا أعرف كيف أُداري خجلي. يتوارى الشوق وينهض الذنب المقرِّع. شدّت رأسي بقوَّة على كتفها فسقط حَلَقُها، وأنا متشابك بأغصان هذه الأنثى وأسقط بلا صوت كالحلق الساقط على الأرض. لثمتْ جبيني فانحنيتُ لألتقط لها حلقها. أطلب منها أن أحتفظ به ونمشي. وقبل أن نجتاز بوَّابة الحديقة للخروج، تهمس لي:

ـ طلِّع القميص من تحت البنطلون وغطِّي حالك.

لا أقدر على إخفاء الحرج الشديد. ثمَّة بقعة واضحة في المنتصف بين الفخذين، سترتُها بإسدال القميص فوقها. لكنَّ البقعة

التي بدأت تتفشَّى في داخلي شطرتني إلى شخصين، لم يتوقَّفا عن العراك منذ ذلك اليوم.

كانت هذه آخر مرَّة ألتقيها فيها، إلى أن قرع أحد رفاقها في الحزب بابَ غرفتي بعد يومين، مذعورًا لاهثًا:

ـ احمل حالك واطلع من الشام الليلة. اعتُقلت رويدا وعم يدوروا عليك.

ـ إنت بتعرف أنا ما خصّني بكلٍّ نشاطاتها!

ـ أنا بعرف، بس بدَّك هنن يعرفوا. عم يعتقلوا الناس بتهمة قارئ لجريدة الحزب؟ فَشوف بقى شو راح يعملوا فيك وإنت الصديق المقرَّب لواحدة بهيئة تحرير الجريدة؟

أَمسك. هاي هويَّة لأحد الرفاق، فيها بتقطع الحدود للبنان، حظَّك بيفلق الصخر إنُّو الڤيزا يلِّي أخذتوها لدراسة كُورس لغة ببريطانيا جاهزة، فيك تسافر فيها لهنيك. بنصحك تسافر من بيروت مو من هون! رويدا كانت متوقِّعة الاعتقال، وطلبت منِّي سلمك هدول من يومين.

وأعطاني ثلاثة آلاف دولار وأسرع الرفيق هاربًا

خلال أقلّ من اثنتي عشرة ساعة على اعتقالها، كان عالمي كلّه ينهار ويتغيَّر في دمشق، لأجد نفسي بعد عدَّة أيَّام في لندن هاربًا مطرودًا، ومسجَّلًا في صفٍّ للغة الإنكليزيَّة بمستواه الثاني.

(٧)

أنيس

ـ الأستاذ راجح بيعتذر منك، اضطرّ للذهاب إلى خارج دمشق لأمر طارئ.

قالت المتدرِّبة التي تعمل في مكتب راجح الآغا، وتابعت:

ـ هذا مفتاح البيت. أظنّ أنَّك تعرف العنوان، وحصرُ الإرث جاهز. نحتاج فقط إلى تفويض منك. كلِّفْ محاميًا ليتمِّم الإجراءات. إذا عطيتنا التوكيل ممكن نحنا نكمِّلها. اقرأ بنود العقد وتفقِّد البيت، وموعدك بعد بكرا.

ـ قدِّيش بيستغرق بيع البيت؟

ـ من أسبوع لعشرة أيَّام بالكثير، وبينجز كلّ شي.

أخذ الأوراق والمفتاح ونزل من مكتب راجح في شارع ٢٩ أيَّار، واستقلَّ سيَّارة أجرة إلى الجسر الأبيض. اتَّصل في الطريق بالمحامية سامية سعيد، وسألها إن كان من المناسب أن توافيه إلى المنزل، فأخبرته بأنَّها تحتاج إلى ساعتين لتكون هناك.

لم تأتِ أسراب الذكريات أمام باب البيت، أو تنفرْ أيُّ مشاعر

قديمة. غلَّفت عقلَه وقلبه طبقةٌ سميكة من دهن الغربة. بدا كأنَّه يتعامل مع شعور غامض، وحامضُ اللامبالاة يلذع فمه.

دلف من البوَّابة الصغيرة. سار ثلاثة أمتار في خوخة دهليز الممرّ المرفوع بمقرنصات مزيَّنة لا تتَّسع إلَّا لشخص واحد. انحرف إلى اليمين ليواجه ساحة الدار الكبيرة. أكثر من مئة متر مربَّع مفتوحة على السماء، تتوسَّطها بحرة جافَّة وبضعُ أشجار من الكباد والنارنج، والعرائشُ عارية وسط فراغ مشبع بالأسى.

وقف في المنتصف، تجول عيناه في المكان دورة كاملة. أكثر من ثلاث عشرة غرفة مقفلة موزَّعة على طابقين، وأرض ديار مفتوحة لدخول الشمس في أيِّ وقت من اليوم. لمعت في رأسه صور قديمة خافتة مثل ومضات بارقة. وبدأ يفتح الأبواب بهدوء واحدًا واحدًا

فتح باب الليوان. أنار الكهرباء ووقف مشدوهًا كأنَّه يراه للمرَّة الأولى. رهبة العتق وفخامة العمارة. مرآة ضخمة في الوسط وأرائك وثيرة متناغمة من لطف المخمل وفراهة الجلديَّات النادرة. كلّ شيء يشعُّ بالعتق الفاخر، مع حائط كامل من الصور القديمة، كلُّها مؤطَّرةٌ بالنحاس ومصفوفةٌ بوقار.

صور لشخصيَّات عامة ملتَقَطة في البيت نفسه. زعماء وسياسيُّون منذ أكثر من مئة عام. رؤساء البلد القدامى وشخصيَّاتُه الوطنيَّة في أثناء زياراتهم البيت.

على ما يبدو، كان الخال يصرّ على أن تُلتقط صورة في البيت لكلِّ مناسبة. فالصور مُذَيَّلة بالأسماء والتاريخ والمناسبة. أربعة عشر رئيسًا دخلوا هذا البيت، لكن لم يكن هناك صورة واحدة لحافظ الأسد أو ابنه.

تابع تنقُّله في أرجاء المنزل، ووصل إلى مكتب الخال. مكتبة

ضخمة متَّشحة بالسواد. مجسَّم جمجمة ومنضدة صغيرة وُضعت عليها بعض أدوات الكتابة: محبرة، ريشة، ورق نشّافة حبر. وعلى المنضدة نفسها قطعةُ خبز وإبريقُ ماء، وإبريقٌ آخر يحتوي على بعض الكبريت، ووعاءٌ يحتوي على بعض الملح. وعلى الجدران عُلِّقت بعض الشعارات الغريبة، والتي تبدو كأنَّها تخاطبه:

«إن دخلت هنا بدافع الفضول فاخرج من فضلك.

إن تملَّكك الخوف على نفسك فتوقَّف ولا تستمرّ، لكن.

إن قرَّرت الاستمرار، فستتحرَّر من عناصرك، وتخرج من أعماق الجحيم إلى النور».

كانت القشعريرة تسري في جسده. أراد الخروج، لكن مزيجًا من الفضول والخوف والرغبة العارمة في الاستمرار جعله يبقى. فتح درجًا وتأمَّل الملفَّات المغلَّفة بعناية، تصفَّح أحدها، فوجد بطاقة تعريف بالخال:

الاسم: بدر الدين الأغواني. المهنة: تاجر ومحامٍ.

تاريخ انتسابه إلى العشيرة: ١٩٣٩. محلّ إقامته: دمشق، الجسر الأبيض.

مبتدئ: ١٩٣٩؛ شغّال: ١٩٤٥؛ أستاذ: ١٩٥٥.

كان في حال من الذهول ومختطَفًا بصورة كلِّيَّة من إغواءات الشرود، لمّا تنبَّه إلى قرع جرس الباب. سارع إلى البوَّابة وفتحها ليواجه نظراتها الغاضبة والمغموسة بزيت حارّ:

ـ كنت راح إمشي.

بادرها معتذرًا، وأورق في الوقت نفسه أمرٌ ما في داخله.

دخلت زوبعة على قدمين من غيم، في صوتها ريحٌ.

أراد أن يكتب تلك الجملة التي نبقَتْ في رأسه قبل أن تضيع منه. حاول تكرارها ليثبتها. انتبه إلى أنَّها عادة قديمة يوم كان على علاقة حبٍّ بالكلمات في شبابه.

ثم همس لنفسه بصوت خفيض وهو يغلق بوّابة التنك ويتبعها عبر خوخة الممرّ: هذه المرأة مصنوعة من مزاج الهواء.

وقفت إلى جوار البحرة الجافَّة، ثم شرعت في الحديث، وبعد تلفُّتها عدَّة لفتات بلامبالاة واضحة المعالم:

ـ أنت صديق عيسى وليل؟

«نعم»، ردَّد وهو يحرِّك رأسه إلى الأسفل، وعيناه بقيتا ثابتتين تحدِّقان فيها، غير أنَّ زمّة شفته السفلى إلى الخلف جعلت وجهه طفوليًّا

ـ بدَّك تبيع البيت؟

«نعم»، قال بالوجه السَّمح الطفوليّ نفسه مع الابتسامة المقضومة بين شفتيه.

ـ عرفت مين بدُّو يشتريه؟

غيّر اتِّجاه حركة رأسه، كأنَّه يستمع إلى قدود حلبيَّة. هزَّه يمينًا ويسارًا في إشارة إلى عدم معرفته.

ـ بتعرف شو بيعني هالبيت وشو هيِّي قيمته؟

توقَّف رأسه عن الحركة وتوقَّف عن هزّ كتفيه، وارتسمت على وجهه علاماتُ الاهتمام.

دارت حول البحرة. مشت في اتِّجاه الغرف وهي تنظر إليه بعينين مخبَّتين مندهشتين:

ـ هذا الحائط من بقايا معبد آداد، أي عمره ٣٠٠٠ سنة قبل

الميلاد. وتحت غرفة المونة نقوش آراميَّة يونانيَّة تقول: مَن مَلك الشام ساد العالمِين.

هاد البيت كان الفضاء الوحيد للحرِّيَّة والقول في البلد من خمسين سنة. المكان الوحيد بكلِّ معنى الكلمة. مَن دخله فهو آمن. حتى حافظ الأسد نفسه إلي كتم على أنفاس الناس، كان يسمح إنُّو ينحكى هون بالسياسة.

هالبيت حفظ ذاكرة السوريِّين وذاكرة دمشق. كلّ حجرة فيه إلها حكاية. كلّ غرفة فيه إلها تاريخ. كلّ منمنمة فيه إلها دلالة. وحضرتك جاي تبيعو، لا بتعرف لمين، ولا بتعرف شو هو؟

هزّ رأسه راسمًا ابتسامةً شاحبة، فقد بدأ صبره ينفد من عجقة سيِّدة الريح هذه:

ـ إيه مبسوط بحالك. حدا يبيع حالو؟ ولَّا ما فارقة معك. خلص صرت بريطاني. كلّ همَّك أنانيّتك وبسّ؟

تجمّد تمامًا وذابت ابتسامته الساخرة. بات المكان يخلو من الهواء. وبدت سيِّدة الريح كأنَّها جبَّالة زفت أفرغت حمولتها عليه. فأجاب بالإنكليزيَّة، ثم بالعربيَّة، وهو يتمالك نفسه، مدافعًا ومستعدًا للهجوم:

ـ Excuse me! عفوًا، ما بسمحلك تحكي معي هيك.

تراجعت قليلًا، وغيَّرت نبرة صوتها

ـ أعتذر. أنا متوتِّرة وغاضبة من فكرة بيع البيت.

لم يتكلَّم. حدَّق فيها مستفهمًا، بنظرات تطالبها بالشرح. فشرحت له أنَّ قيمة هذا البيت لا تُقدَّر بثمن، وأنَّهم يريدون تحويله إلى فندق أو مطعم. يريدون بيعه لسادة دمشق الجدد، والذين لا يكنُّون للمدينة

سوى الاحتقار. وهي تحاول، مع مجموعة من الناشطين، أن تسجِّل البيت لدى منظَّمة اليونسكو في لائحة التراث العالمي لتحويله إلى متحف للذاكرة السوريَّة التي شارفت على الاختفاء.

لم يجد الدكتور أنيس في كلامها كثيرًا من المنطق. لم يقتنع يومًا بمبالغات نظريَّة المؤامرة. آخر ما يقبله عقله هو وجودُ جماعة غامضة من الشرّ تتربَّص بالأخيار، وتخطِّط بمنهجيَّة لطمس معالم تاريخ أو مصادرتِه، أو للفتك بمدينة أو جماعة أو نوع من البشر. لطالما سخر من أصدقائه حين ترْشح من تحليلاتهم فكرةُ التعميم أو الحديث عن قوى غامضة ممنهَجة تريد استهداف التاريخ والدين. كان يعتقد أنَّنا، كعرب، لسنا في حاجة إلى من يتآمر علينا، فنحن نفعل ذلك بأنفسنا. نعم، هناك صراع قوَّة، لكن نحن من نصنع كوارثنا بأيدينا.

لم يشأ أن ينقل وجهة نظره إلى السيِّدة الغاضبة. ما يعنيه حقًّا في حديثها، ليس قيمةَ البيت التاريخيَّة وحفظَ ذاكرة المدينة ورغبات النظام في تدمير دمشق والانتقام منها، فهذه الأمور أصلًا خارج حساباته وحياته، ولا يظنّ أنَّها بهذه الحِدَّة. ما يعنيه فعلًا هو قيمة البيت الماديَّة التي صرّحت بها السيِّدة سامية حين قالت له:

ـ هالبيت بيساوي أكثر من ستَّة ملايين دولار، وما لا يقدَّر بثمن كقيمة تاريخيَّة.

أي أنَّه يتعرَّض لعمليَّة غشّ وسرقة. وليركِّز الحديث أكثر هنا، طلب من سامية أن يخرجا لشرب فنجانين من القهوة. فغادرا البيت إلى نادي الصحافيين القريب، وقرّر أن يكون عمليًّا ومباشرًا:

ـ شو المطلوب منِّي بالضبط عزيزتي؟

ـ كلّ إلّلي مطلوب منك دكتور تعلن صراحة إنُّو بدَّك تحوّل بيت

حُدد لمتحف ونحشد له كلّ قدرتنا لمنع المساس به. عندي ملفّ كامل من أكاديميِّين ومختصِّين وباحثين وعلماء آثار مترجم للإنكليزيَّة والفرنسيَّة والإيطاليَّة. ناقصنا بس تقييم بعض الخبراء المرموقين وبيكون جاهز.

ـ كلّ إلّلي قلتيه بحترمه، بسّ الأمر عندي أبسط من كلّ هاد. بدّي بيع البيت بأفضل سعر، لا بأس عندي نتعاون مع بعضنا إذا لقيتي مشتري يحترم قيمة البيت المادّيَّة والمعنويَّة، راح كون سعيد إنهي الصفقة معه خلال أسبوعين. ولأنَّك من طرف أصدقاء بثق فيهم، إلك بالإضافة لأتعابك الشخصيَّة كمحامية واحد بالميَّة من قيمة أيّ صفقة. وهيك بكون مطمئنّ على حقِّي وحقّ البيت، شو رأيك؟

كانت سيجارتها في منتصفها، حين أخذت منها سحبة أخيرة وأطفأتها بحدَّة في منفضة السجائر. وقفت، ارتدت سترتها وحملت حقيبتها، وقالت له بهدوء:

ـ الواضح إنُّو فهمتني غلط. أنا ماني سمسارة عقارات ولا جاية أعمل صفقات. على كلٍّ، لازم تعرف إنُّو راح نقاوم بيع البيت وإلنا على الأقلّ شرف المحاولة. ما راح تحصلوا على كلّ شيء بسهولة من هلَّأ ورايح. شفت إلّلي صار بتونس، وإلّلي عم يصير بمصر؟ نحنا مو أقلّ من المصريين والتوانسة.

وبينما كان يهمّ بالردّ عليها، وهو مباغَت بردَّة فعلها الباردة والهادئة والحازمة، عاجلته:

ـ موفَّق دكتور، وشكرًا على القهوة.

وخرجت تاركة خلفها فجوةً من الصمت وبقايا خيط رفيع من دخان سيجارتها التي لم تنطفئ جيِّدًا في المنفضة.

(٨)

فيديل

مرَّت ثلاثة أشهر غريبة بهدوء. أزداد عزلة كلّ يوم. أحفظ عشرين كلمة عن ظهر قلب وأعود إلى غرفتي حيث أقطن مع عائلة إنكليزيَّة. صامتٌ طوال الوقت ولا أستطيع مشاركة أحد في أيِّ شيء. فتكت الغربة بي. لم أستطع أن أنسجم، أو أتخيَّل أنَّني سأعيش هنا بقيَّة حياتي. كنت أنتظر معجزة ما، شيئًا يحدث لا خصَّ لي به. ومن بين طيَّات اليأس والانتظار اللذين شرنقا حياتي، لم يعد في إمكان فيديل أن يبقى حاضرًا. يفقد الأمل منِّي ويتوارى. ظهر فضل ليستلم دفَّة القيادة ويأخذني إلى جامع لندن الكبير لألتقي المهندس الشيخ غسَّان العيَّاش.

تحدَّثنا بعد الصلاة. بحت له بحكاية فضل وفيديل. شرحت له عن وجعي وغربتي وصراع الإيمان والإنكار. ابتسم الشيخ ابتسامة لا تُنسى:

ـ اعتبرني أخاك الكبير. أنت مختلف يا فضل. ما وجدته لديك من علم ومعرفة في أصول الدين يفوق علم الكثير من الشيوخ هنا لا

تيأس أو تقنط من رحمة الله. سيجد الله لك مَخرَجًا، وسأتَّصل اليوم بأخ اسمه عبد الله المهاجر، وهو محامٍ بارع، سيساعدك.

وأقترح عليك أن تبدأ بإجراءات تقديم اللجوء في هذا البلد.

ـ يا شيخي، جزاك الله خيرًا. هل ترى فعلًا أنَّ عليَّ أن أجد موطئ قدم في هذا البلد، وأنسى بلدي؟

ـ نعم، عليك امتلاك جواز السفر الإنكليزيّ. فأنت تستحقّه. انسَ ما حدث معك في بلدك، فهذا هو الطريق الوحيد لتبدأ من جديد. لكن، لا تنس أبدًا أنَّك مسلمٌ، وأنَّ أمَّتك تحتاج إليك.

سلّمت نفسي إلى الهوم أوفيس في كرايدون، فأحالوني على مخيِّم للجوء في برمنغهام. بقيت هناك حتى موعد المقابلة الثانية. في لندن، ساعدني المحامي عبد الله فعلًا لكنَّ الشيخ غسَّان قال لي إنَّه تحت المراقبة ولا يمكنه أن يفعل كثيرًا لأجلي قبل أن أحصل على إقامتي. وعلى الرَّغم من ذلك، فإنَّه أمّن لي عملًا في ملحمةٍ إسلاميَّة عند أحد الأخوة. اللحم الحلال الذي يبيعه الأخ كان غير مناسبٍ للمواصفات الصحِّيَّة، فأُغلقت الملحمة بعد فترة. والجنيهات القليلة تختفي، والوقت يتسرّب. بقيت أعيش على مساعدات جمعيَّة الشيخ غسَّان، الذي كان الأمان الوحيد لي في لندن، حتى سافر فجأة إلى أفغانستان. تداعى عالمي الجديد الهشّ. لم أتواصل معه بعدها، لكنَّني افتقدته كثيرًا. كان بمثابة الأب الروحيّ للكثير من الشباب المسلم في لندن، بمَلَكاته الساحرة في الخطابة والإقناع، ولغته الإنكليزيَّة الفصيحة التي يتفوَّق فيها على الإنكليز.

جلست في حديقة ويلزدن، على مقعد بين صفَّين من أشجار الكستناء والبلُّوط والقيقب. كنت في أعلى درجات الوحدة القاهرة، في

مدينة عملاقة لا ترحم. يزيد جوعي قهري، ومهدَّد بالطرد من الغرفة العفنة التي أقطن فيها إذا لم أدفع خلال يومين أجرة الشهر لمالك البيت.

مرّت سيِّدة في العقد الخامس من العمر على كرسيٍّ متحرِّك، شعرها مزيج من البنِّيّ والفضِّيّ معًا. نطّ سنجابٌ أمام الكرسيّ المدولب ووقف يحدِّق إليَّ، فاختلَّت حركتها الانسيابيَّة المتتابعة، بتناغم متواصل. حاولتْ أن تتجنَّب غصنًا مكسورًا مرميًّا على الطريق، غير أنَّ العجلة الخلفيَّة مرَّت عليه، الأمر الذي تسبَّب باهتزاز حقيبتها وفلتان أحد حواملها، فاندلقت منها علبة محارم صغيرة وقرَّاطة أظافر وحافظة نقود. لم تنتبه السيِّدة لما سقط منها وهي تحاول السيطرة على اتِّزان عجلات كرسيِّها.

حدَّقتُ إلى ما سقط، ونقَّلت نظري في الحديقة لأجد أنَّ أقرب الماشين والمتريِّضين يبعد مسافة كافية كي لا ينتبه لما حدث. انتظرت قليلًا، وبدأ قلبي يهتزّ. مشيت بهدوء ملتقطًا الأشياء عن الأرض، واستدرت عائدًا إلى مقعدي. فتحت بهدوء محفظة النقود. كانت مليئة بالأوراق النقديَّة من فئة العشرين باوندًا، وفيها بطاقاتٌ شخصيَّة وبنكيَّة.

لم يتوقَّف قلبي عن الخفقان. في داخل المحفظة، رزمة من النقود تكفيني لشهرين بلا خوف أو جوع. لا أريد من هذه الأشياء سوى النقود. وما عليَّ إلَّا أن أحمل المحفظة إلى أوَّل مركز شرطة وأرميها هناك.

كان قرارًا نافذًا. تركت علبة المناديل الصغيرة وقرَّاطة الأظافر على المقعد، ووضعت المحفظة في جيبي، ومشيت في الطريق

المعاكس للسيِّدة خطوتين أو ثلاثًا حين لمحت عيناي ذلك السنجاب الخبيث يحدِّق إليَّ بإصرار. كانت عيناه الضيِّقتان تنغرزان في وجهي بلومٍ شديد. أحسست بالرعب.

عدت إلى المقعد عوضًا عن الهرب بعيدًا. أخذت علبة المحارم والقرَّاطة، مشيت وراء الكرسيِّ المتحرِّك ذي الأزيز، مناديًا:

ـ سيِّدتي، سيِّدتي، أرجو المعذرة.

توقَّفت السيِّدة. وصلت إليها، كانت عيناها الصافيتان الطيِّبتان تستفسران:

ـ سقطت منك هذه الأشياء.

ناولتها جزدانها الصغير وأغراضها. وبأقصى ما يمكن لإنسان أن يقوله من امتنان، شكرتني.

ـ لا داعي للشكر، لكن انتبهي أكثر في المرَّة القادمة.

مدّت يدها مصافحة:

ـ هيلين دولير.

لم أشأ أن أكسفها. فإحساسي بالذنب لأنَّني حاولت قبل قليل أن أصبح اللصّ الذي يسرقها، جعلني أتجاوز تلك الفكرة الدينيَّة بشأن إبطال الوضوء إذا ما صافحت امرأة. لم أكن متوضِّئًا في أيِّ حال، وتركت خلال الأسبوع المنصرم الكثير من الصلوات، فسلَّمت يدي لها معرِّفًا عن نفسي:

ـ فضل عبد الله.

ـ مستر فضل، هل لي أن أسأل، ومعذرة على ذلك: من أين أنت؟

ـ من سورية سيِّدتي، سورية.

ـ بلاد رائعة، لم أزرها من قبل. كلّ التحيَّة لك سيِّدي. ولد سيراليون. أفريقيا قارَّة عظيمة!

من العبث أن أدخل في تصحيحات الجغرافيا الآن. كلّ ما أردته هو الابتعاد بسرعة. صوتٌ داخليّ يلومني:

ـ الآن ستُرمى في الشارع يا جحش، خلِّيها تنفعك سيراليون لقلِّك.

كان صوت فيديل واضحًا.

ابتعدت السيِّدة المدولبة في الاتِّجاه المعاكس، وعدت لأمسك بالغصن الموجود على الأرض وألحق بذلك السنجاب السافل الذي كان يلتهم بلُّوطة وهو لا يزال ينظر إليّ، فأشتمه وأنا أحاول إصابته:

ـ ما لقيت تطلع غير هلأ يا حيوان؟!

يهرب متسلِّقًا شجرةً باسقة.

خرجت من الحديقة إلى أقرب محطَّة. استقلَلْتُ الباص إلى إدجور رود، ومنه إلى شارع ليفربول، لأستلم من مكتب المحامي قرار رفض قبول القضيَّة للمرَّة الثانية:

ـ هذا يعني أن لا أمل بأن يقوم الهوم أوفيس بكفالتك، أو حتى بقبولك في أحد كامبات اللجوء.

قال المحامي، وتابع شارحًا:

ـ المحكمة والهوم أوفيس غير مقتنعين بأنَّ هناك خطرًا على حياتك. يعتقدان أنَّك تقدَّمت بطلب لجوء انتهازيّ مستغلًّا وجود ڤيزا طالب على جوازك. ويعتقدون أنَّه لو كانت حياتك فعلًا في خطر لكنت تقدَّمت بالطلب في المطار، ولم تنتظر حتى نهاية مدَّة الڤيزا

ـ هل هناك ما يمكن عمله؟ سألته بيأس كامل.

ـ سنطعن في القرار، ونأخذ القضيَّة إلى المحكمة العليا. لكن عليك أن تجلب شيئًا لمتابعتها قانونيًّا: صورةً لك ولرويدا على الأقلّ. أيّ شيء يُعتبر كدلالة. فأنت غير منتسب إلى أيِّ حزب، ولم تقم بأيٍّ نشاط سياسيّ و. و. و.

لم أعد أستطيع أن أسمع شيئًا.

سرحت أفكاري من مقعدي من الطابق العلويّ في الباص، في اللامكان. نزلت في كيلبورن حيث أقطن وأنا أتحسَّس ما تبقَّى معي من نقود، باوند وبضعة بنسات. وأخرجت، أمام أحد محالّ بيع القطع المستخدمة، القلمَ الباركر، الهديَّةَ الوحيدة التي أحتفظ بها من ذكرى تلك السيِّدة المعتقلة، وبعته بخمسة جنيهات.

أخذت فطيرة من اللحم والبطاطا والتهمتها في مقبرة كنزباري، لأعود إلى الأستديو المستأجَر، وأجد رسالة إنذار أخير بوجوب دفع المستحقّات خلال أسبوع أو مواجهة الإخلاء القسريّ.

عاودتني رغبة قاتلة يائسة، في صباح اليوم التالي، في رمي نفسي تحت عجلات قطار. كانت فكرة مغرية مخيفة منعتني من استخدام القطارات طويلًا فكلّ مرَّة أدخل فيها محطَّة قطار، تراودني فكرة غريبة تحثّني على رمي نفسي تحت عجلاته.

جلست على مقعد خشبيٍّ بين صفَّين من أشجار اللبلاب والبلُّوط في حديقة ويلزدن، مثلَ أيِّ رجل متروك للوحدة ونداءات سكَّة القطار القاتلة، أراقب السناجب بكره.

ـ صباح الخير .مكتبة الرمحي أحمد

انتشلني من وحدتي صوتُ السيِّدة المدولبة مرَّة أخرى تحدِّق إليَّ بابتسامتها الطيِّبة. تلفَّتُّ بسرعة حولي باحثًا عن السنجاب. لم أجده.

(٩)

عيسى

ـ ألو، مَرْحبا.

ـ أهلًا، يا هلا

ـ مَيْ مُوجُودة.

ـ مَي معكْ.

ـ أنا عيسى الـ.

ـ هه، عيسى كيفك. الحمد الله على السلامة، إيمتى طلعت؟

ـ والله مبارح.

ـ شو أخبارك؟

ـ أخباري جيِّدة. مشتاق والله. وإنت كيفك؟

ـ ماشي الحال بخير.

وسادَ بينهما صمتٌ سادرٌ. تذكَّرَ صَوْتها. كان محايدًا تَغشَاهُ حَشْرَجَةٌ أقرب إلى الانكسار. لم يكنْ ذلكَ الصوتَ الذي أَثْمَلَهُ قَبلَ عامين يوم التقاها في أَرْوِقَة المستشفى العَسْكَريّ، وظلَّ يَسْتَعِيدُ دِفأَهُ ويَسْتَنْشِقُ شَذَاه طَوَالَ شهور حتى صارَ أقرب إلى تعويذة.

كان مُكبَّلًا، يحرسه مُسَلَّحان، يَنْتَظِرُ الإذن لتنظير مَعِدتِهِ المُتقَرِّحَة، واقفًا في قعر وادي عزلته، عندما داهمهُ همسٌ رطبٌ:

«كيفك، شِدْ حَيْلكْ».

ثلاثُ كلمات، ما إن انتهى دماغه من فَهمِها، حتى انتشله إعصار منْ بُؤْسِهِ إلى أقَاصِي الغبْطةِ، ووُشِمت في خاطره، فاستدارَ ليكتشف أنَّ من ألقتها امرأةٌ عبرت من جانِبِهِ ببطء شفيف؛ امرأةٌ خالصةٌ من لحمٍ ودمٍ.

استدارةٌ هَوْجَاء كادتْ تُودي بالْمُعَايَنةِ الطبِّيَّة التي قدَّم عشرين طلبَ استرحام ليحظى بفرصتها بعد أن أتلَفه الألمُ المتواصلُ في معدته المتقرِّحة. كانتْ وراءَه امرأةٌ مكبَّلة، تشعّ منها ابتسامة فاتنة، عيناها القلقتان تقولان له: انتبه.

صفعه أحد الحارسين:

ـ راسك بالأرض يا حيوان!

أكّدت الصفعة له أنَّ امرأة خلفه همست له للتوّ. لم تكن حلمًا أو خيالًا، فبدأ يردِّد بينه وبين نفسه: رأيت امرأة. رأيت امرأة.

تعطَّلت إحدى السيَّارتين فحُشرا، هو وهي، في سيَّارة واحدة. جلسَ في المقعدِ الأوَّلِ، إلى جواره رجل يحمل رشَّاشًا أوتوماتيكيًّا، وإلى جوارها جثم مساعدٌ ضخم وضع رشَّاشه على فخذه وأخذ يفصِّص حبَّات لبّ ويبصق القشور، فتتطاير هنا وهناك.

التقتْ عيناه عينيها في قاع المرآة الوسطى. بادرها بهزَّة خفيفة استفساريَّة من رأسه مع حركة للحاجب، فأسبلت عينيها مشيرة إلى أنَّها معتقلة. ورمشت مرَّتين وغمزة، فعرف أنَّها أمضت سنتين ونصف السنة. أعادت إليه السؤال. أغمض عينيه ثلاث مرَّات، وأطبق اليمنى نصف إطباقة.

امتدَّ حديث طويل يحرسه مسلَّحان، وسط ضجيج التهام حبيبات اللبّ. نصف ساعة من لغة الإيماء وثلاثُ كلمات، ظلَّ يرويها لشباب المهجع عشرين يومًا. لم يترك واردة عابرة أو شاردة مارقة إلَّا ووصفها، متكلِّمًا لساعات وساعات عن ثلاث كلمات، عصفت بروحه وأنسته آلام التنظير. كان قد مضى زمن طويل مُذ قابل أحدهم امرأة من لحم وشحم.

حانت مناوبته لينام على سطح المرحاض. مناوبة عبقريَّة ابتكرتها الحاجة لتخفيف تكدُّس الازدحام في حيِّز يحظى كلّ رَجل فيه بأربعين سنتمترًا فقط. رفع رأسه إلى الكوَّة في أعلى السقف، واستطاع منها رؤية مهجع النساء. لوّح من بين القضبان للفتاة الواقفة على الشبَّاك المقابل. رأت تشويحاته، فقامت بجلب المعتقلات، واحدة واحدة، وهو يومئ بأن لا، ليست هذه.

كانت الخامسة. ما إن رآها حتى شدَّ سبابته فعرفته. سهرا طوال الليل حتى الفجر مستخدمَيْن إيماءات غامضة مرتبكة، وإشاراتٍ وتهويمات مبعثرة، يرسمان كلمات في المسافة الخاوية المعرَّضة للمداهمة.

تطوَّرت يومًا بعد يوم، المحاورةُ بأبجديَّة الإشارات التي يعرفان كيف يفكِّان رموزها لتصبح حديثًا كاملًا، ينتهي مع الحركة الصباحيَّة للسجَّانين والعساكر وقدوم المعتقلين الجدد.

تركَ له الرفاقُ طوال ستَّة أشهر حرِّيَّةَ البقاء فوق سطح المرحاض خلال الليل ليستيقظ بعد الظهر. يتجمَّعون حوله فيحوّل الإيماء إلى لغة كلمات نابضة يستفيض في شرحها. يحيل شيفرات الهواء إلى حكاية كاملة عن الزيارات والمداهمات وما يحدث في مهجع النساء،

ويُحوِّلها أيضًا إلى مشاعر فيَّاضة برغبات التوق إلى العناق.

حتى جاء ذلك الصباح. استيقظوا ليجدوه ما زال صاحيًا وعيناه محتقنتان، فهاجوا وتلاحقت الأسئلة:

ـ سوف يُفرَج عنها بعد غد.

وأطرق إلى ورقة القصدير المنتزعة من علبة التبغ، وقد خطَّ عليها رقم هاتفها

ـ طيِّب، هذا أمر رائع. العقبى لك.

ـ أعرف، يجب أن أفرح لها، لكن.

وهاج ببكاء لم يعهدوه فيه قبل. بكى بعض الرفاق واتَّفقوا على عدم إدراج اسمه على سقيفة المرحاض.

عادت حياة المهجع إلى سابقِ عهدها دروس في اللغة، وزيارات منتظرة. أيَّام متشابهة، لكن صوتها وهي تهمس «كيفك، شدّ حيلك»، ظلَّ طازجًا كأنَّها همسته للتوّ.

خرج بعد أربع سنوات وستَّة أشهر وأحد عشر يومًا من الاعتقال، بلا تهمة أو محاكمة، فقط سنة من التعذيب والتحقيق ليثبت في سجلِّه أنَّه قارئ لجريدة «الراية الحمراء»؛ الجريدةِ الداخليَّة لرابطة العمل الشيوعيّ.

كان مشدوهًا بالضجيج، محمَّلًا بالشغف لملاقاة كلّ ما يمتُّ إلى الحياة بِصلةٍ، وخصوصًا تلك المرأة الموجودة على الخطّ المقابل:

ـ رجاءً، ما عاد تتصل على هذا الرقم.

ـ

أخرجته العبارة من زحمة الذاكرة. انتبهَ إلى أنَّها هناك. شوّح

بيده. رسم حروفًا في الفراغ. طوَّح بكلمات مبهمة في الهواء، ثم نطق:

ـ إن شاء الله.

ـ الله معك. باي.

ارتخت يده وهو يُرهف السمع إلى صوت الخطّ المقطوع: تون. تون. يدبُّ خدر في فراغ روحه الخاوية مثل جرَّة فارغة.

انتهى عيسى من قراءة قصَّته لأنيس الذي كان يصغي بكلِّ جوارحه إلى صديقه المبدع:

ـ هاي قصَّتك الحقيقيَّة عيسى، ما هيك؟

ـ بالحرف. المسألة ببساطة إنُّو كلّ حبّ بينشأ بالسجن لا يمكن ينجح. البلد اليوم كلّها معتقلة، وكلّ الناس بحالة فشل عاطفيّ.

يسكن عيسى وحيدًا في الطابق الثالث والأخير، في بناء يحتلّ تصالب الشارع في الدويلعة. وتتيح له الشقّة المكوَّنة من غرفتين وبلكونة عظيمة رؤيةَ دمشق من ثلاث جهات: جهة تُطلّ منها على ما تبقَّى من الغوطة، تملأها العشوائيَّات. وجهة تُطلّ على كنيسة الدويلعة المنتصبة بوداعة بيضاء وسط البيوت الكالحة. وجهة تُطلّ على قاسيون، الجاثم كالنهد العملاق في صدر المدينة.

جلس الصديقان يتقصَّيان ما فعلت بهما الأيَّام، في الشقَّة التي يعرفها أنيس منذ ربع قرن. بقيت طوال فترة اعتقاله في حوزة رفاقه الذين واصلوا دفع الأجرة والحفاظ عليها. وحين خرج، عاد ليسكن فيها. تناوب الكثير من الرفاق على مشاركته في السكن، وكان يودّعهم واحدًا واحدًا تزوَّج مرَّتين، ولم تصمد زيجتاه. تكسَّر كلّ شيء حوله وتغيَّر، لكن بيته بقي كما كان. جدرانه المبقَّعة بكلماتٍ خَطَّها العابرون

من هنا إلى الشتات أو انسراقات الدنيا؛ تذكارات الغائبين وأحلامهم ذات يوم في دمشق، قبل أن تبتلعهم مفازات الحياة، ويركلهم البلد هاربين من خدمة الجيش أو حالمين بحياة أقلّ ملوحة.

مُحاطٌ بعروش من الكتب واللوحات، تستقبل الداخل بمهابة إلى محراب كامل من الورق. هشاشة العالم القابل للاحتراق. ذاكرة مُسَتَّفة على الرفوف نابضةٌ بالحروف. يتحرَّك عيسى في مملكته كراهب بين قطعان وساوسه المجلّدة. يتكلَّم كملك مهيب أمام جيش الورق. كلّ من يمرّ في شقَّته يطلب منه أن يترك أثرًا على الحائط: جملةً عابرة مع تاريخ المرور. أرشد عيسى الدكتور أنيس إلى جملته التي كتبها قبل أكثر من ربع قرن. ما زال الخطّ غير قابل للزوال.

«عيسى العزيز، كنت أظنّك مثل كلّ الناس حتى دخلت غرفتك، فإذ بي أرى هنا وطنًا من الناس. أنيس الأغواني».

سقطت منه ما تُسَمَّى دمعة العمر، فاستدار ليرتمي على صدر صديقه ويجهش بالبكاء.

ـ هل يمكن أن نصلح شيئًا في هذا البلد يا عيسى؟

دفعه فائض الحنين دفعه ليسأل بسذاجة. كان عيسى خير من يشرح له حال دمشق في غيابه، ففاض عليه بحكايات البلد. بدأ يرمِّم فجوة الغياب ويصل ما انقطع، حتى أخبره عن ذلك المكان المرعب والغامض الذي يلخِّص كلّ شيء: مستشفى اللاعودة أو العنبر السوريّ:

ـ إذا أردت أن تعرف حقيقة أيّ بلد، زُرْ مستشفى مجانينه. هناك فقط تكمن كلّ علله وأسبابها ومسبِّباتها أيضًا. منذ سنوات يا أنيس، صارحت صديقي الطبيب النفسيّ الذي يخدم في مستشفى ابن سينا،

برغبتي في الكتابة عن العنبر السوريّ، وإن كان في استطاعته أن يوفِّر لي زيارة للمكان حيث يعمل. حدث ذلك في أواخر التسعينيَّات. يومها كنت خارجًا من السجن، وكنت أظنُّه أقرب إلى عنبر تشيخوف، وأنَّ تجربتي فيه ستكون أقصى ما يمكن أن يحدث لي. كنت غارقًا بسذاجة في دور الأدب وقدرته، محاولًا ملاقاته في المنتصف بين أمان الأغلفة وقلق الواقع الذي لا أجرؤ على تعريفه والتعرُّف إليه كما يجب.

حدَّد لنا الطبيب يوم مناوبته كي نزوره ليلًا، ليُطلعنا على المهاجع والمُقيمين من النزلاء.

جهّزنا أمرنا، أنا ومخرج مسرحيّ، وهو رفيق معتقل سابق أيضًا. وصلنا إلى المستشفى لنجلس في غرفة الطبيب نراقبه وهو يفحص بعض المرضى، ثم لنتابع معه جولته على أقسام الرجال، ومهجع النساء الوحيد، ونجالس الرجل الأكثر غرابة في المكان في القسم الاحترازيّ، أبو علي، الذي صنع سجنًا داخل القسم يُعاقب فيه المرضى الذين يُخِلُّون بالأنظمة والقوانين التي استحدثها.

وأبو علي هذا، عسكريّ سابق، مهووس بالنظافة والنظام. اختفى في حرب لبنان وعاد ليواجه تهمة الفرار من الجيش، ليكتشف السجَّانون في تدمر أنَّه فاقد لنصف الذاكرة ولنصف العقل. فأحالوه إلى مستشفى ابن سينا، حيث سينظّم شؤون المكان ما بقي من عمره، محتفظًا بقدراته المذهلة. كان النزيل الوحيد الذي لديه القدرة على الخروج والدخول إلى المستشفى كيفما شاء. ولأن لا أحد ينتظره في الخارج، كان القسم الاحترازيّ عالمَه الأكثر أمانًا والذي اعتاد عليه. سجّلنا ما تيسَّر من الانطباعات، الطيِّبة منها والحزينة. وقفلنا راجعين

بغلّةٍ من المشاعر والانطباعات التي ستتلاشى تمامًا بعد أن نكتشف حقيقة مرعبة في الجوار.

أخبرنا صديقنا الطبيب المناوب هامسًا بأمر مهجع اللاعودة. هكذا سمّاه، وأردف يحذّرنا بكتمان ما سنشاهده سرًّا.

خارج المباني المُضاءة، وبعد مسير دقائق، وصلنا إلى بناء في طور التكوين، على العظم.

تلوح من مدخله إنارة شاحبة للمبة تنوس بالأصفر الشحيح. له باب حديديٌّ مغلق لا يشي بأيِّ شيء وراءه. يردّ صوت حارس المهجع من الداخل مستفسرًا، فيأمره الطبيب بفتح الباب وتوضيب المهجع، مصدرًا إلينا توجيهات صارمة:

- سيروا ورائي، وإذا قلت لكم اخرجوا تراجعوا بهدوء.

بدت تحذيراته وجدّيّته مبالغًا فيها، لكنّنا استمعنا وأطعنا وانتظرنا.

ترافق صوت صرير الباب وهو يفتح مع روائح عفنة بدأت تنبعث من المكان. مزيج من الإنتانات البشريّة وخمائر الطعام المتعفِّن والبراز. انفتح مشهد من الجحيم أمامنا: خيالات تتماوج على الجانبين لأجساد تتلوّى في مطهر العذاب.

يوجد إلى اليسار ما يشبه مطبخًا مظلمًا. خرج اثنان من ثلاثة عراة تمامًا، وواحد مستورٌ بخرق بالية يدبّ على أربعة. وحين استقام بعد دقائق من وصولنا، وجّه إلينا نظرات لن أنساها ما حييت. جسده مبقّع بالبهاق، وكان عضوه الذكريّ مقطوعًا

أيقظهم الحارس كيلا يكونوا وراءنا حين ندخل. ساطهم أمامه بكبل رباعيّ مسافةَ مترين بين المدخل وبهو المهجع مستطيل الشكل، والذي تبلغ مساحته عشرين مترًا مربّعًا تقريبًا. أَسِرَّة بلا فرش، فوقها

شوادر سميكة، ووُضع فيه أكثر من أربعين كائنًا، معظمهم بلا ملابس. بعضهم نأى بعيدًا عنًا، وبعضهم اقترب منًا.

في الوسط، كان هناك رجل صارم الوجه يلتحف ببطّانيَّة مثل الرجل الوطواط، ويحمل بيده فردة حذاء. حين اقترب منه حارس المهجع وطلب منه التراجع، بدأ يحرِّك يده هاويًا بالحذاء على الفراغ، شاتمًا تلك الشتيمة التي سيظلّ يردِّدها طوال زيارتنا:

ـ كس أخت أبوكن أخوات شرموطة.

كان ذلك الدكتور أيمن، طبيب الأسنان. قام أحد الضبَّاط بإذلاله مرَّة، ثم جاء إلى عيادته يومًا ليقتلع له ضرس العقل. وبآلة الحفر الشهيرة، ثقب الدكتور أيمن فكّ الضابط وخرج يصيح: كس أخت أبوكن أخوات شرموطة. استضافه عناصر المخابرات الجوِّيَّة عامين، ثم جلبوه إلى هنا. هذه الرواية تحت صيغة يُقال، أخبرنا بها صديقنا لاحقًا من دون أن يستطيع أن يؤكِّد أيّ شيء، فمعظم وثائق الموجودين في مهجع اللاعودة غير واضحة وخالية من التعريف، باستثناء اللقيط سامي، وهو شابٌّ لم يبلغ العشرين من العمر، عارٍ طوال الوقت. عاش في المستشفى ثم نُقِل في بداية مراهقته إلى المهجع. يمتلك أطول عضو ذكريٍّ عرفه التاريخ، يحمله بين فخذيه كخرطوم فيل. لا يتكلَّم، بل يُطلق همهمات أقرب إلى الأصوات البدائيَّة. وحين قال له الدكتور: اللقيط سامي، كيف حالك؟

رهز ونطَّ مُصدرًا أصواتًا مبهمة. كأنَّ اللقيط سامي يُخاطب العالم رقصًا بخرطومه!

اقترب رجل يرتدي ملابس، أزاح الجموع غاضبًا، وقال بصوت عالٍ مشيرًا إلينا:

ـ دكتور، مين هدول؟

أجاب الطبيب بهدوء بأنَّنا ضيوف من مركز رعاية، جئنا لنتفقَّد أحوال المرضى.

ـ دكتور إنت عمَّا تكذب؟ هدول جايبن يتفرَّجوا علينا؟

ـ لا أبدًا. بعدين إنت خلص راح يتمّ نقلك من هون. كم يوم بس لنخلِّص الإجراءات.

حاول الدكتور امتصاص غضبه، فأوعز إلينا بالخروج. بدأنا نتحرَّك، أنا وصديقي المخرج، بحذر وهدوء متراجعَين إلى الخلف من دون أن نستدير، كما أوصانا الطبيب قبل الدخول.

حاول الدكتور أن يهدِّئ الهياج الذي بدأ يتعالى داخل المهجع، مستعينًا بالحارس الذي أخذ يدفش المرضى إلى الخلف بينما هم يتقدَّمون ككتلة في اتِّجاه الطبيب. ثوانٍ مرَّت أدركنا خلالها أنَّنا لن نخرج من هنا أحياء أبدًا، وبدت الخطوات المتبقِّية إلى باب الخروج مسافة ممتدَّة بلا رجاء.

صاح الدكتور بهم: ليذهب من يريد الدواء إلى اليمين، بينما كان حارس المهجع يلوّح بكبله الرباعيّ، متراجعًا بسرعة إلى الخارج يجرّنا معه ويقفل الباب. يُعمل الحارس السوط في الأجساد التي شتَّتها الألم، وضجيج عال يمتزج بصوت طبيب الأسنان الوطواطيّ ونخيرِ اللقيط سامي وصياحِ الكتلة البشريَّة التي اهتاجت واضطربت وبدأت تُطلق أصواتًا هستيريَّة، ونحن متجمِّدان من هول ما شاهدناه منذ برهة!

انخفضت الأصوات بالتدريج ليبقى صوت الحارس ولسعات كبله:

ـ يا أخوات المنيوكة. كس أختكن على أخت يلِّي حطني هون!

ثم لفَّ المكانَ صمتٌ تقطعه حشرجات اللقيط سامي.

رحتُ في غرفة الطبيب المناوب، أُمزِّق ما كتبته على دفتر ملاحظاتي، شاعرًا بأنَّ هذا المكان هو حقيقة بلدي، عاجزًا عن النطق. شرح لنا الطبيب أنَّ كلّ واحد من الموجودين في مهجع اللاعودة يحتاج إلى نصف ميزانيَّة المستشفى للعلاج، وأنَّ صهريج ماء يقف في الخارج كلَّ شهرين، يزخّهم بالماء ليحظوا ببعض النظافة، وأنَّ.

وأخيرًا نطقتُ مقاطعًا صديقي الطبيب المبتلى بالخدمة عامين في هذا الجحيم، راميًا في وجهه سؤالًا خرج منِّي بلا استئذان:

ـ إنت بلا قلب وبلا ضمير. لو كان فيك ضمير كنت سمَّمتن، يا أخي اقتلهن. كيف بتقبل تكون طبيب بهيك مكان؟

قال لي حرفيًّا:

ـ بس يجي الشتا بيحصد ثلاثة أرباعهم!

أتذكَّر ذلك كلَّه، وأتساءل كيف نجا اللقيط سامي من كلّ تلك الشتاءات حتى سنة ١٩٩٧، وهل ما زال حيًّا حتى اليوم؟

أنهى عيسى سرده لأنيس قائلًا:

ـ أنيس، إنت بعَّدت كثير عن البلد. ما عاد تقدر تشوفها متل ما شفناها. اعذر سامية واعذرني إذا ما كنَّا على مستوى توقُّعاتك.

كان وجه أنيس ما زال مخطوف اللونِ والتعبيرِ من أثر حكاية مهجع اللاعودة:

ـ يبدو أنَّي إجيت على بلد ما بعرف عنه شي يا عيسى، وما عاد لازم طوِّل أكثر من اللزوم.

(١٠)

هيلين

قالت هيلين:

ـ لم يخب حدسي؛ لقد توقَّعت أن تكون موجودًا هنا، وجلبت معي بعض القهوة.

ـ هذا لطف كبير منك سيِّدتي!

وعلى رشفات القهوة في حديقة ويلزدن الهادئة، أخبرتُها ببعض من شذرات حياتي، وأخبرتني بأنَّها تعيش وحيدة في الجوار بعد رحيل زوجها الطيِّب إدوارد، الذي عانى سرطان النخاع الشوكيّ عدَّة أعوام. وأخرجتْ من محفظتها صورةً لهما معًا في حالة عناق، فطلبتُ منها، من دون تردُّد، أن أحتفظ بالصورة حتى الغد. مشيت بمحاذاتها حتى خرجتْ من الحديقة، وعدت إلى غرفتي لأرسم تلك الصورة بالفحم والرصاص، وبكلِّ ما لديَّ من مهارة وقدرة.

لم تتمالك نفسها، في اليوم التالي، حين رأت ما فعلته. شكرتني وعيناها تتلألآن بدمعة صافية، ويداها مفتوحتان لعناق امتنان. طلبتْ منِّي أن أساعدها في شراء بعض الحاجيَّات من تاسكو سوبر ماركت.

حملتُ معها الأكياس الكثيرة ودخلنا في جادَّة الحديقة. المنزل رقم ٢١ من العصر الجورجيّ: بيت فسيح، يشي بذوق كلاسيكيّ. ستطالع الزائرَ من لحظة الدخول، صورُ إدوارد، الزوجِ الراحل، على ورق جدران من مشتقَّات الأحمر، الموشّى باللون الذهبيّ المطفأ، مع مجموعة كبيرة من التحف الصينيَّة والهنديَّة، وستائر حمراء سميكة بطيَّات كثيفة. يوحي جوّ البيت بالوحشة والهجران. كبير ومرتَّب أكثر ممَّا ينبغي له أن يكون لسيِّدة تستخدم الكرسيّ المتحرِّك!

ـ أنت أوَّل شخص يدخل هذا البيت منذ خمسة أعوام، يومِ وفاة إدوارد.

ـ هذا من دواعي سروري، وشرفٌ لي يا سيِّدتي!

دخلتُ المطبخ محمَّلًا بالأكياس على إيقاع إرشاداتها، وبدأت أفرغ المحتويات على الرفوف. كنت أشدّ قامتي واقفًا على رؤوس الأصابع لأستطيع تستيف الأغراض في الخُزن العلويَّة. من المستحيل أن تقوم السيِّدة المقعدة بإحضار الأشياء من هذا العلوّ وحدها. لا بدَّ من أنَّ أحدًا ما يأتي لمساعدتها!

في هذه اللحظة بالذات، وبينما كنت في غمرة التساؤل الحائر والانحناء لأخذ المحتويات من الكيس الأخير، سمعت صوتها مكتسيًا شيئًا من الرجولة، وخاليًا من النبرة الحزينة المشبع بها:

ـ أعتقد أنَّ لديك تساؤلًا عليّ أن أُجيبك عنه؟

نظرتُ إلى الخلف فارتخى فكِّي السفليّ، وتجمَّدْتُ في وضعيَّة القرفصاء المضحكة. لو أنَّ أحدًا التقط لي صورة في تلك اللحظة، لرأى رجلًا مديد القامة قد طوبز وهو مفغور العينين والفم يحدِّق ببلاهة في المجهول. بالأحرى، كنت أحدِّق في السيِّدة هيلين المنتصبة على

قدمين سليمتين، بل تمشي بهدوء في اتّجاهي، تاركةً كرسيَّها المتحرِّكَ خلفها جاثمًا بلا حراك يخرج من مقعده ألفُ إشارة استفهام!

كان صديقي وحبيبي وزوجي، لم ننجب أولادًا. أبحرنا معًا في قاربٍ عبر المتوسِّط إلى البحر الأحمر، ومنه إلى المحيط الهنديّ والخليج. أبحرنا لثلاثة أعوام. شاهدنا العالم، واختبرنا الغروب والشروق. وصلنا إلى سواحل الهند واليابان واستقررنا في أستراليا، ثم عدنا إلى لندن واشترينا هذا البيت. تفرّغ إدوارد للكتابة، وأنا للتدريس. كنَّا مثل توأمين سياميَّيْن لا يمكن أن ننفصل. وحين شخّص الأطبَّاء مرضه بالسرطان، زرت الكنيسة لأوَّل مرَّة في حياتي، لا من أجل أن يشفيه الربّ، فقد عرفنا أنَّ التشخيص جاء متأخِّرًا ووصل إلى نقيِّ العظام، بل كنت أصلِّي لأُصاب مثله.

انهار تمامًا قبل وفاته بأسبوع. لم يعد يريد استقبال أيٍّ من أصدقائنا، وأصبح الرجلُ الأكملُ في العالم سريعَ الغضب. كان ألمه الداخليّ أكبر من ألمه الجسديّ. صارحني وهو يبكي كالطفل:

ـ أعرف أنَّه ليس عليَّ أن أقول هذا، لكنِّي أغار عليك كثيرًا. بعد موتي، ستنسينني. مهما حزنت فستنسينني.

ثم أضاف، وهو يتمرَّغ في قاع الانهيار:

ـ بالطبع ستقومين بعلاقة أخرى. أرجوك ألَّا يكون واحدًا من معارفي. إنِّي أتألَّم بشدَّة من هذه الفكرة. أراك تخرجين من البيت وتذهبين إلى زيارة الأصدقاء وتمشين في الشوارع، تهرولين في الحدائق التي اعتدنا الركض فيها.

أعرف أنَّها فكرة أنانيَّة. أعرف أنَّه يجب ألَّا أقول ذلك، فأنا أتعذَّب من فكرة الموت وتركك وحدك. لا أخشى ما يحدث بعد

الموت. لا أندم على شيء في هذه الحياة، لكن أتألَّم كلَّما تخيَّلتك من دوني في هذه الحياة.

كنت أعرف أنَّ ما بيننا من عشرة وحياة أصبح عميقًا، ومن منبت أرض واحدة. كنت أعلم بأنِّي أحبّه ويحبّني، لكن لم أكن أدرك أنَّ الجنون وصل بالرجل الصلب إلى هذا المستوى من الوجع.

أسبوع كامل وأنا لا أفارقه ولا أتركه ثانية واحدة. أقسمت له إنِّي لن أخرج ماشية مرَّة أخرى خارج البيت، أقسمت أكثر من ألف مرَّة، محاوِلة تهدئة وساوسه ومجاراة هذيانه. وقبل أن يفارق الحياة بثوانٍ، كنت أقبِّله فاتحة فمي لتخرج روحه مع آخر نَفَسٍ له وتتسرَّب في جسدي.

لم أبكِ يومها، ولم أتَّصل بأحد، بل حضنته طوال الليل وغفوت إلى جوار جثَّته.

تمّ الدفن في مقبرة كيلبورن بهدوء، في اليوم التالي، كما هو مُعَدٌّ سلفًا وأنا وفيت له بوعدي، وجلست على كرسيِّه المتحرِّك الذي تراه.

وأشارت إلى حيث يقف كرسيِّها بمهابة في الزاوية، وأضافت:

ـ ومن يومها لم أخرج أبدًا من البيت إلَّا عليه. قاطعت جميع أصدقائنا وكلّ من كان لنا معهم ذكرى ما، وهم أيضًا لم يبذلوا أيّ جهد للتواصل معي، أو اللقاء بي.

مرّت خمسة أعوام وثلاثة أشهر ويومان وأنا ما زلت متمسِّكة بقَسَمي. لهذا أنت أوَّل ضيف يدخل هذا المكان منذ ذلك الوقت.

كان البوح يفوح برائحة الذاكرة والألم، وكان صمتي مزيجًا من الفراغ والحياد. لا أفهم هؤلاء البشر حقًّا! كنت أودّ المغادرة بسرعة.

شعور بالغضب والخديعة. حين تكون مُعْدَمًا، وموضوعًا في مقام الشبهات. حين تكون أقصى أمنياتك الحصول على إقامة في بلد يجعل منك إنسانًا في الحدِّ الأدنى له بعض الحقوق؛ حين تكون سوريًّا، منفيًّا ومشروخًا بين شخصيَّتين تستخدمان جسدك، وتتصارعان طوال الوقت للانتصار على جزء منك؛ حين تكون بلا بوصلة وبلا وجهة وبلا كيان وبلا هويَّة وبلا سند وبلا أحد وبلا مال وبلا ولد، وينفتح أمامك شيء من ضعف الإنسان الآخر الذي لديه كلُّ شيء، لكنَّه يحتجز نفسه طواعيَّة كرهينة ويسجنها بأشياء تَعُدُّها أنت بطرًا وجوديًّا!

ماذا عليك أن تفعل؟

أن تتضامن حقًّا معها، أم تسمح بأن يتلبَّسك شعور بالحنق والخديعة والغضب من هذه السيِّدة المنافقة؟ أوقفتُ سرديَّتها الغارقة في الحنين، وخاطبتُها من دون تكلُّف مباشرة:

ـ هيليين، هيليين.

نظرت إليّ بعمق وصفاء. وعوضًا عن أن أقول لها إنَّ عليَّ الذهاب الآن، فتحت ذراعيَّ وقلت لها:

ـ تعالي وخذي هذه الضمَّة.

وفتحت ذراعيها وحضنتني. وطوَّقتها بلطف وأنا أداعب شعرها وأقول:

ـ لا بأس عليك. لا بأس.

فانفجرَتْ ببكاء عظيم.

كانت أمومة معكوسة. حنان انفجر فجأة. لا أعرف من هو الذي احتضنها في تلك اللحظة، لكن كان هناك تصالح بين فضل وفيديل. لم أكن أسمع في داخلي أيَّ صوت سوى بقايا حفيف غامض، شيء

من الالتحام بشجرة جذعُها جسدٌ أنثويّ.

لنقل إنَّ حياتي تغيَّرت تمامًا في ذلك الصيف اللطيف. ساعدتني هيلين بتحضير أوراق الزواج، وتحوَّلت قضيَّتي من طالب لجوء إلى قضيَّة طلب إقامة للزوج. تعمَّقت علاقتنا، وانتقلت لأعيش معها كنَّا فعلًا زوجين في كلِّ شيء إلَّا الجسد. نتذكَّر إدوراد معًا، ونزوره معًا. وتفرَّغتُ لرسمه بجداريَّة عظيمة.

شكَّت دائرة الهجرة طبعًا في كلِّ شيء، لكنَّنا تدرَّبنا جيِّدًا على المقابلة:

ـ إذا سألوكَ كم مرَّةً ننام معًا.

نظرتُ إليها بعينين مفتوحتين. تجمَّدت نظراتنا كأنَّ ألف حديث لا نريد قوله عَبَرَ كلمح البصر. وبعد سكوت لثوان بدت كأنَّها دهر، تابعتْ بصوت مخنوق وهي تستدير ذاهبة إلى المطبخ:

قل كلّ نهاية أسبوع.

(١١)

أنيس

«قد يكون السعر المعطى لك في عُرف السوق أقلَّ ممَّا يجب، لكن صدِّقني هذا أفضل ما يمكن أن تحصل عليه.» قال راجح الآغا للدكتور أنيس، ثم أضاف بلغة أقرب إلى التهديد:

ـ في أيِّ لحظة يمكن أن تضع مديريَّة الآثار إشارةَ رهن على العقار، وحينها لن تطال لا حصرمًا ولا عنبًا.

«أحتاج إلى يومين لأرتِّب أموري»، قال الدكتور أنيس وهو يقف مستعدًّا لمغادرة المكتب.

ـ مثل ما بدَّك. نصيحتي لا تتأخَّرْ.

خرج من مكتب المحامي متوجِّهًا إلى رؤية عيسى الذي قابله بوجه يفور غيظًا.

وسارع إلى إخباره:

ـ اعتقلوا سامية.

صُدِم بالخبر، وجلس ليستمع إلى تفاصيله. أخبره عيسى بأنَّ نحو مئة رجل وامرأة كانوا البارحة معتصمين أمام وزارة الداخليَّة، في وقفة

تضامنيَّة مع أهالي معتقلي الرأي.

ـ لم نكن نهتف. كانت وقفة صامتة لنشدّ أزر الأهالي. فجأة هجم علينا الأمن بالكرابيج وأعقاب المسدَّسات واللكمات والرفس. تفرَّقنا بسرعة، لكنَّهم أمسكوا بسامية. سحلوها من شعرها في الشارع مسافة عشرين مترًا، وأخذوها إلى جهة مجهولة. صوَّر أحدهم الحادثة.

مرَّر له هاتفه ليشاهد ڤيديو صُوِّر بيد خائفة ومرتجفة، ليتعرَّف فيه إلى سامية وهي تُشحط على الأرض سحلًا، وأحدهم ينهال عليها رفسًا ولَكْمًا لإدخالها باص الاعتقال.

«يا الله. . »، بالكاد خرجت هذه الكلمة من فم أنيس.

ـ شو فينا نعمل؟

ـ لا أعرف، لكن صديقك عبَّاس يمكنه أن يساعد.

اتَّصل بعبَّاس من دون تردُّد، وبلهجة ملؤها اللهفة:

ـ حبيبي عبَّاس محتاجك ضروريّ.

ـ خير أنيس، شو في؟

ـ ما بينحكى على التلفون لازم شوفك.

ـ طيِّب إنت وين؟

ـ بمقهى الهاڤانا.

ـ أنا ما فيني إطلع هلَّق، بس راح إبعث مين يجيبك لعندي. نصّ ساعة بيكون السائق عندك.

نقلته سيَّارة مرسيدس سوداء بعد نصف ساعة على أوتوستراد المزَّة، ومنه إلى أحد الأبنية الضخمة.

انتقل عبر ممرَّات خافتة الإضاءة، باردة الجدران، إلى مكتب

العقيد عبَّاس جوهر الذي وقف مرحِّبًا بصديقه، ليلتقيا في منتصف الغرفة، طالبًا منه الجلوس على أريكة وثيرة.

ـ شو بتشرب؟

ـ يلّي بدّك ياه.

ـ بعدني بتذكَّر إنَّك بتشربها سادة.

طلب فنجاني قهوة من دون سكَّر عبر الإنترفون، وانخرطا في حديث صاخب عن الذكريات، وكيف أخذتهما الحياة، كلٌّ في طريق.

ـ كلّ شيء فيني إفهمو إلَّا إنُّو الدكتور عبَّاس، الرقيق الشاعر، يصير ضابط مخابرات.

ـ كلّ ما في الأمر أنَّ الحياة تضعك في دائرة خيارات غريبة. بعد التخرُّج، كان لازم أخدم جيش. وعلى عكس الكثيرين، فجأة لقيت بالجيش الشي يلّي أنا مفتقده تمامًا. نوع من الصرامة والانضباط. فبدل التسريح بعد سنتين، لقيت حالي بالمكان المناسب. التغيير بسورية غير ممكن من الخارج، والنظام هوّي مستقبل البلد. يجب إصلاح النظام من الداخل. بأكّدلك إنُّو الأمر ماشي بالاتِّجاه الصحيح. البلد غني جدًّا وقدراته هائلة، وبالوقت نفسه بقلّك مليان مشاكل. لا يمكن التغيير بأيِّ قاعدة من القواعد الأساسيَّة بالبلد.

لو أنَّ المعارضة تفهم الأمر جيِّدًا فهي مطلب للنظام وضرورة له، لكنَّها ساذجة، وبلا رؤية، وغير قادرة على فهم لغة الواقع.

ـ عبَّاس، بداعي الفضول، فيك تخبِّرني شو هو الواقع المطلوب تفهمو المعارضة؟

ـ باختصار عليها الولاء لبشَّار الأسد وما يمثِّله، حتى تستطيع أن تُحدث فارقًا، وألَّا تتحوَّل إلى وسيلة للضغط عليه. النظام قاسٍ وصارم في هذه الحالة، ويمكن أن يكون عنيفًا جدًّا. المعارضة تلعب

بمكوِّنات بلد مصنوعة من البارود، والنظام لا يمكن أن يقامر بالشكليَّات، لأنَّ الأمر إذا فلت من يده بأصغر تفصيل، لا يمكن توقُّع ماذا سيحدث بعدها.

ـ لذلك، مبارح اعتقلوا سامية سعيد قدَّام وزارة الداخليَّة.

ضحك عبَّاس ببرود:

ـ ما إلك يومين بالبلد قوام بلَّشت تتعاطى المحظورات.

ـ لا أبدًا، بس هاي الستّ عرفتها وعمَّا تساعدني بموضوع البيت.

ـ شو بدَّك بهاي الستّ أنيس، بالأحرى شو بدَّك بكلّ هالمجموعة. هذول مفصولين عن الواقع.

ـ بس ما عملوا شي، معقول تنسحل بالشارع، لأنَّه واقفة بشكل سلميّ قدَّام وزارة حكوميَّة؟!

ـ أنيس يا عزيزي، أنت إلك فترة كبيرة غايب عن البلد. طبعًا الصورة مثل ما شفتها معك حقّ فيها، لكن الوضع معقَّد أكثر من هيك. لو الأمر وقفة احتجاج حقيقيَّة وفعلًا الناس بيهمُّوهم ما كانوا تدخَّلوا بهاي الطريقة بهذا الوقت. شايف لوين راحت الأمور بتونس ومصر وبليبيا. هاي الوقفة كانت دعوة لاستيراد ما لا يمكن استيراده للبلد. سورية مانها مصر، ولا يمكن تكون تونس.

ـ شخصيًّا، فعلًا ما دخلني، ولا بدِّي أدخل بسجال شو الصحّ أو الخطأ، وكيف لازم تندار البلد. إنتو أدرى. أنا جاييك أطلب مساعدتك تطلّع هالستّ.

ـ تكرم عيونك، إنت صديق قديم وأصيل، وعلى كلّ، بدِّي خبّرك هي معزَّزة ومكرَّمة. بكرا بتنام ببيتها.

شكر عبَّاس بحرارة ووقف مستعدًّا للمغادرة.

ـ راح أطلبلك السائق يودِّيك مطرح ما بدَّك، لكن قبل ما تروح، بتمنَّى عليك تنجز موضوع البيت بأسرع وقت وتغادر.

استغرب الطريقة الجدِّيَّة التي تكلَّم فيها عبَّاس بشأن البيت، وجعلت فضوله يندلق مترًا إلى الأمام:

ـ إنت بتعرف عن البيت؟!!

ـ كلّ الشام بتعرف أنيس، والمهتمِّين بالبيت ما بينقلهن لأ، وفهمك كفاية. خلِّص الموضوع وتيسَّر، ونبقى على اتِّصال.

* * *

الصمت هو ما قابله به عيسى بعد أن استمع إلى ما حدث.

لم يجد أنيس بدًّا إلَّا أن يفهم الرسالة. شيء ما بدأ يُقلق وجوده في هذه المدينة الملفوفة بشاش المومياءات الغارقة في روائح المرض.

أخرج هاتفه النقَّال من جيبه، وطلب موعدًا لتوقيع أوراق بيع البيت. رحَّب المحامي راجح الآغا بحكمة الدكتور، وقال له:

ـ خلال ثلاثة أيَّام سنجهِّز كلّ الأوراق.

وختم مدحيَّته قرار الطبيب بالقول:

ـ بدَّك المصاري كاش بالسوري ولَّا بالباوند؟ مع عمولة قليلة يمكن لمكتبنا أن يعطيك أفضل عرض بلا سلطة الضرائب من هناك.

ـ لا، أفضِّل تحويلها إلى عنواني البنكيّ في بريطانيا مع عقد مصدَّق ومترجم. أنا لا أتهرّب من دفع الضرائب.

وصلته نفحة من السخرية عبر سمَّاعة الهاتف:

ـ أحيِّيك دكتور. أمثالك قليلون، لكن جديرون بالاحترام. إذًا، سيحتاج الأمر أيضًا إلى بعض الوقت، الأسبوع القادم مثل هاليوم

بكون حضّرت لك كلّ المطلوب.

شيء خانق في هذه المدينة. الوجوه أقرب إلى الشمع. الهمس بات أعلى، والتساؤل الحائر في العيون المشرَّعة مفتوح على تساؤل غامض. لا يمكن لشيء أن يتغيَّر في دمشق. لا يمكن أن تُعاد تجارب تونس ومصر واليمن وليبيا في سورية. هذا مستحيل.

طوفان البشر في الشوارع. لهاث وصمت مزنَّر بمفخَّخات الترقُّب. المدينة تنام على بركان خامد. همسٌ في المقاهي. خوف من فوران الأمنيات، بينما مخالب السلطة التي تنشب في المدينة كحيوان جريح، يمكن لها في أيِّ لحظة أن تُطبِق على عنقها وتمزِّقها مفترس دمشق أثخنها جرحًا وأنهكها عضًّا. تركها في عرينه ضعيفةً نازفة في متناول أسنانه. جعلها تخدمه كي تبقى في قيد الحياة. تُطعمه أطفالها، وبعضًا من جسدها. يمتصّ نهدها ولا تقوى على الهرب منه أو مواجهته. لا يثق بها أبدًا. وعلى طريقتها، باتت تقنعه بأنَّه فعلًا سيِّد الغابة، وهي الغزالة الجريحة التي ترعى على مهل عشبَ الغواية، وتُراقب بعينيها كلّ ما يحدث مدَّعيةً أنَّه لا يهمّها.

نتف من كلام كان يسمعه من أصدقاء الشام. بعضه يعلق في ذاكرته، وبعضه يحرِّضه ليشارك في رأيٍ عائمٍ غائم، لكنَّه لا يقدر على الإجهار.

أخبر حنَّة على السكايب، بأنَّه سيتأخَّر قليلًا بدت باردة ومتفهِّمة، ومشرقة أيضًا، كانا مرتاحين فعلًا بهذه الإجازة.

في السهرة التي جمعت كلّ أصدقائه القُدامى في منزل ليل وعادل، كان أوَّل الواصلين إلى مشروع دُمَّر.

لم ينتبه للصمت الثقيل خلف ابتسامة عادل المرسومة بعناية،

وسط صخب ليل التي تفيض بالطيبة. وجهها مستدير مشرَّب بسمرة متوهِّجة، وابتسامتُها حلوة تكشف عن صفَّي أسنان جميلة. شعرها غير مصبوغ وقامتها صغيرة، وودّها العالي صديق قديم. كان أنيس شاهدًا على انكسار قلبها قبل أعوام عديدة يوم سافر خطيبها سميح وتركها مخذولة. سار معها وهي شبه منهارة في أزقَّة باب توما، وأدخلها محلَّ الصاغة، وقال لها: بيعي الخاتم الآن.

سحبته من بنصرها كمن يُخرج قلبه من بين أصابعه، أعطته للصائغ وهي ترتجف، ثم أجبرها على أن تشتري حذاء بقيمة الخاتم، وقال لها:

ـ الآن صار في استطاعتك أن تمشي إلى الأمام.

كانت تحفظ له ما فعله لأجلها في قرارة روحها بامتنان كبير، وباتت تلك نصيحتها لكلٍّ من تعرَّضوا لاحقًا للهجر من أصدقائها: أن يشتروا حذاء جديدًا، ويمشوا.

تتَّسع المائدة المزيَّنة بأطايب الأكل لثمانية أشخاص بدأوا بالتوافد. ثاني الواصلين كان الدكتور هاني ببذلته الأنيقة وشاربيه المرفوعين قليلًا برفقة زوجته الأنيقة المتكلِّفة. تبعهما عبَّاس وزوجته ذات الحضور الثقيل والتي انحشرت مع زوجة هاني، أحد المعارف المقرَّبين. تبعهما عيسى مع باقة من الورد. ليبدأ الأصدقاء استعادة ذاكرة الأيَّام الماضية، متحرِّرين من ضغوط الآن، فاردين الابتسامات والمعانقات والنكات والصخبَ كأنَّهم لم يتخرَّجوا بعد.

الفرح الغامر يسيّل الزمنَ القديم، ولا شيء يعادل لقاء رفاق مثل هؤلاء. أخرجت ليل ألبوم صور الجامعة، فتحلَّقوا ليتبادلوا الصور ويتقاسموا الذكريات. صاح عيسى:

ـ ليل عندها كلّ ذاكرتنا، هاي الصورة إلنا يوم كنّا كلّنا أوادم.

مرَّرها إلى عادل الذي حاول بدماثة أن يجاريهم، بينما نظرت زوجتا كلٍّ من هاني وعبَّاس إلى الصورة من دون اهتمام، مع تعليقات فوقيَّة أقرب إلى السخرية.

قُرع جرس الباب وسط هذا الجوّ المنفتح على هواء الماضي، ودخلت العاصفة. تلاطم قلب أنيس وهو يراها تدخل مثلَ كوخ من القصب في مهبٍّ الريح.

قسَّم قدومُ سامية إلى منزل ليل الحضورَ إلى فريقين، كأنَّه بروفا على كلّ ما سيحدث للسوريِّين لاحقًا. عيسى بانحيازه التامّ إلى سامية وفرحه بما فعلت، وليل بموافقتها الإنسانيَّة على ما فعلت ولومها لزجّها بنفسها في مثل هذه الأمور، وهاني وعبَّاس وزوجتاهما لم يقصّروا في إدانتها. قال عبَّاس:

ـ أنتم تستفزُّون الأمن المتوتِّر أصلًا

بقي عادل وأنيس بلا موقف واضح، يحاولان أن يكونا على مسافة من الجميع.

لكنَّ السهرة انتهت بخروج الفريق الرافض لسامية وسلوكها من المنزل بعد أن رفعت عيار الحديث والتحدِّي.

ردَّ عبَّاس بهدوء وهو يخرج:

ـ عليكم أن تنضجوا وتفهموا طبيعة البلد والنظام. أنتم تلعبون بالنار. وأقول لك بوضوح: نظام بشَّار الأسد ينهار في حالة واحدة، حين تختفي سورية من الوجود. إن كان هناك أخطاء فرديَّة فكلّنا سنكون معكِ، لكن إن كان الهدف استبدال النظام، فصدِّقيني: أنتم لا تعرفون بمن تتحرَّشون؟

ـ عاملونا كأنَّنا حيوانات. صُفِعْتُ أكثرَ من مئة كفّ. انشحطت

من شعري في الشارع، وتقول لي أخطاء فرديَّة؟

لحق عادل بأفراد المجموعة الذين غادروا البيت في محاولة يائسة لمراضاتهم. كان يودّ إيصال رسالة واضحة إليهم، مفادها أنَّه يرفض ما قامت به سامية، وأنَّه معهم قلبًا وقالبًا

أخبره هاني بصرامة عند باب السيَّارة:

ـ إن كنت ترفض سلوك هذه المرأة، فتصرَّفْ.

ثم غادروا وتركوه وحيدًا وسط حيرة مبهمة.

كان غضب عادل نادر الحدوث، وها هو قد بدأ ينصبّ على ليل التي نبَّهها إلى عدم دعوة صديقتها سامية إلى الجلسة، وما كان يخشاه قد حدث بالفعل.

وجدت ليل نفسها مقسومة بين أُناس تحبّهم جميعًا، وتودّ أن تُبقي على هشاشة عالمهم الرخو، وأن تحافظ على ما يجمعهم بلا جدوى. ومع رجوع عادل من الخارج انهارت الجلسة تمامًا، حين وجَّه كلامه مباشرة إلى سامية قائلًا:

ـ عليك أن تحترمي بيتي وضيوفي. وإذا كنت مُصرَّة على هذا النوع من الآراء، فأنا شخصيًّا لا أرحِّب بوجودك هنا.

خرج الجميع بصمت على الرَّغم من محاولات ليل البائسة لردم الصدع.

اعتذر عيسى من أنيس موضحًا له:

ـ هذا واقع حالنا اليوم، لم نعد مَن عرفتنا.

وبقيت سامية صامتة بوجه أقرب إلى الانفجار وهي تقود سيَّارتها، محاولة الخروج من المزاج العكر:

ـ لوين بدّكم وصِّلكم يا شباب؟

ـ أنا إلى ساحة الشهبندر. السهرة بأوّلها. إذا بدكم تغيِّروا المزاج في مطعم ظريف.

قاطعت سامية اقتراح عيسى بنزق:

ـ شخصيًّا، لا أريد.

ـ لكان وصِّلي عيسى أوّلًا، وبعدها خذيني ع بيت حُدد نشرب فنجان قهوة وبتروِّقي أعصابك.

كانت دعوة حقيقيَّة من أنيس، وقبلتها سامية بلا تردُّد. كان البيت الكبير في حدِّ ذاته مكانًا يشحنها بالطاقة. يذوب فيه غضبها ويهذِّب نزقها، ويهدهد روحها القَلِقة.

حين وصلا، كان عليهما أن يجدا بعض المازوت لإشعال المدفأة في السقيفة التي تمنحهما فرصة لرؤية الشام التي بدأت تنام في كنف برد أواخر كانون، ودلّةً كبيرة من القهوة انبعثت رائحتها في الفضاء المزنَّر بالصقيع والغضب.

وعلى رشفات القهوة الشاميَّة الطيِّبة ودخان سجائر سامية التي لا تنطفئ، طار الحديث بلا هدى. تحدَّثا في كلِّ شيء: حياتِهما؛ دمشقَ؛ لندن؛ القادمِ الغامض؛ حامضِ الخوف؛ مرارةِ العيش؛ طلاقِ سامية ونشاطها؛ اعتقالِها وإصرارها على أنَّ دمشق يجب أن تتغيَّر. تحدَّثا في السياسة قليلًا، وفي الحياة كثيرًا. شيء من الائتلاف المضمر ينعقد بين روحَيْ رجل وامرأة أنضجتهما الحياة باكرًا، ومنحتهما فرصة ليطلَّا معًا على سطحها وليريا نفسيهما في صورة أخرى. لقَّمت القهوة مرَّتين، وطلبت سامية ديلڤري للعشاء بعد منتصف الليل. أكلا سندويشات الشاورما بشهيَّة. ذاب كلّ انضباط الطبيب الصارم، وعاد أنيس كما كان متخلِّصًا من قناع الغرور والبرود والجدِّيَّة

المبالغ فيها، والذي يضطرّ إلى ارتدائه كلّما فتح قفصًا صدريًا ليُصلح أعطاب قلوب المرضى، حتى صار صعبًا التخلُّصُ منه.

اشتعلت العلِّيَّة بالدفء، وفاض الليلُ ببوح توقَّف ببطء ليُربَط لسان الصمت المفخَّخ بالنظر. كانت لحظة هامسة تتوسَّع فيها حدقتا العينين، وتزداد هورمونات السعادة ضخًّا في الدم، فيصبح المرء في حاجة ماسَّة إلى العناق والتلامس وتقريب شفتيه من وجه صديقة، فكانت القبلة فاتحة لحظة منتظرة في الأعماق. انتهت الليلة عاريين متحاضنين إلى جوار الصوبيا التي لم تكفّ عن إضرام اللهيب، وبثّ الدفء في الجسدين الباردين منذ سنوات.

حين استيقظ، كانت قد غادرت، تاركةً رسالةً قصيرة:

«لم أكن أحلم يومًا بأن أنعم بكلِّ هذا الدفء وأنا أعود إلى الصقيع. سأتذكَّر دائمًا هذا البيتَ العظيم وقدرتَه على منحي الأمانَ في هذه المدينة السجينة. هذا البيتُ الذي تريد أن تبيعه هو المكانُ الوحيد الآمن في دمشق المحتلَّة. إن أنجزت بيع البيت رجاءً لا تكلِّمني. لا أريد أن أكرهك».

جلس يُعيد قراءة الرسالة عدَّة مرَّات. تناول سيجارة من باكيتها الذي تركته وأشعلها بهدوء، وطفق يستعيد قدرته على ترتيب الأولويَّات. من دون أدنى شكّ، كان عليه أن يعود إلى الفندق أوَّلًا، وأن يُنجز تلك المحادثة المؤجَّلة.

أخبر حنَّة على السكايب بأنَّه يحتاج إلى مزيد من الوقت. صارحته بأنَّها قلقة بالفعل عليه. وسألته بشكل مباشر هل تريد أن تخبرني بشيء آخر غير موضوع البيت؟

ـ ليس لديَّ إجابة الآن. لكن نعم، هناك أمر آخر.

قالت، بعد صمت قصير استجمعت به كلّ هدوئها:

ـ هل هناك امرأة؟

ـ نعم، لكن لا أستطيع الكلام الآن.

ـ سؤال آخر وسأدعك في سلام. هل هو انتقام ممَّا حدث معي قبل سنوات في أميركا؟

ساد بينهما صمتٌ استطال، محاولًا أن يعرف فعلًا إن كان جزء ممَّا حدث مع سامية له تبريرٌ داخليّ لديه. فهو كان قد كظم ألمه. وبالأحرى، كان جرحًا واسعًا في وقتها سيطر عليه بقوَّة وبعقل بارد، حاول دائمًا محوه من ذاكرته، وتجاوزه، وظنَّ أنَّه نجح.

شيء من سؤال حنّة يُرضيه. على الأقلّ أعاد إليه بعض التوازن. هل كانت لديه رغبة خفيَّة في عقابها على ما فعلته؟ هل لديه الرغبة حقًّا في معرفة تفاصيل ما حدث مع رجل آخر رفض حتى أن يعرف اسمه كي لا يزيد في ضريبة ألمه؟ هل يمكن فعلًا أن يتمّ تجاوز أمر كهذا مهما تكن قوَّة الإنسان؟ وبدلًا من أن يحظى بإجابة شافية، أودعه في سرب كامل من الأسئلة المؤجَّلة، فلم يجد سوى أن يقول:

ـ بكلِّ صدق، لا أعرف إن كان انتقامًا أم لا؟ لكن ما أعرفه أنِّي محتاج إلى مزيد من الوقت للبقاء هنا.

عاد مشوَّشًا بعد أن أقفل الحديث، لكنَّه يعلم، في قرارة روحه، بأنَّ عليه أن يمدِّد إجازته من عمله في المستشفى، فكتب إيميلًا إلى قسم الموارد البشريَّة ورئيس قسمه يبلغه باضطراره إلى البقاء. ويزوِّده ببيانات إقامته ورقم هاتفه السوريّ.

وضَّب حقيبته وغادر الفندق إلى البيت ليُقيم هناك ريثما يحسم كلّ أموره.

(١٢)

فيديل

أعلنَّا الزواج. واجتزتُ بمساعدتها ورعايتها، اجتزتُ كلَّ عوائق اللغة. دخلت كلِّيَّة الفنون في لندن، وأعدنا قراءة شكسبير، ميلتون، لويس كارول، تشارلز ديكنز الذي تعشقه. علَّمتني هيلين شيئين لن أنساهما في حياتي: القراءة ليست عملًا إضافيًّا أو ثانويًّا تقوم به. وأخبرتني بأنَّ اليوم الذي يمرّ بسلام وبلا ألم، وفيه بعض الفرح والمعرفة والخبرة، هو يومٌ جيِّد.

وجدتني بسرعة أميل إلى الإعلان وفنونه. وكنت في السنة الثانية من أكثر الطلَّاب موهبةً وحماسة. حافظتُ على هيلين العزيزة كسيِّدة حياتي في كلِّ شيء، واستطعت أن أستعيض عن الجنس بنسيانه، أقصد بتناسيه. لم أكن أريد أن أسبِّب لها أيّ نوع من الألم. كان لفضل، المؤمن في داخلي، كلُّ الفضل في تحكُّمي في ذاتي، إضافة إلى الرياضة الصباحيَّة والإغراق في العمل والتصعيد الروحيّ. لكن هل فعلًا يمكن أن نعيش بلا جنس؟

تعرَّفت إلى سكوت وإيلونا وجاين وروبرت ولارا، وبدأت أنخرط

في الحياة اللندنيَّة الحقيقيَّة. لم أخبرهم عنِّي بأيّ شيء خاصّ. وعلى الرَّغم من إتقاني اللكنة اللندنيَّة، فإنَّ بعض الكلمات كانت تتسرَّب، وتفضح غربتي، لكنَّها لم تُثِر شكوكهم. وتدبَّرت هيلين أمر حَرَجي حين أخبرتها برغبتهم في زيارتي:

ـ لا عليك، أنا أمّك. ومهما حدث لا تخبر أحدًا بموضوع زواجنا.

تحرّرت من الخجل مع رفاق الكلِّيَّة، وصرت أخبرهم عن أمِّي بالتبنِّي التي ربَّتني. ادَّعيت أنَّ هيلين وإدوراد قرَّرا أن يتبنَّياني منذ عشرين عامًا، وأنِّي لا أملك عائلة سواهما، بعد موت أمِّي وأبي الحقيقيَّيْن، وأنَّ أصولي سوريَّة. وأضفت أنَّ أبي إدوارد توفِّي بسرطان النخاع الشوكيّ، وانهارت أمِّي وأُصيبت بالشلل بعد وفاته، وهي لصيقة الكرسيّ المتحرِّك. كانت تلك هي القصَّة التي أرويها للغرباء. وفي كلّ مرَّة، أنسى شيئًا منها أو أزيد عليها.

في الحقيقة، لم يكن أحد مهتمًّا بهذا كلّه. كلّ ما كان يعنيهم أن تكون الحفلة ممتعة وفي بيت جيِّد، وأن يكون الطعام طيِّبًا، ولا بأس بالكثير من الكحول وبعض الحشيش.

وبالفعل، استقبلتهم هيلين أحسن استقبال على العشاء، وتحوَّل البيت الداكن الكامد بسرعة إلى بيت يضجُّ بالحياة. يكفي أحيانًا، أن تدخل منزلك طاقةٌ إيجابيَّة فتزيح الستائر وتُدخل الضوء وتمسّ ما أنت معتاد عليه فتثيره من غفلته. وترافق دخول رفاقي في الكلِّيَّة مع الضحك والصخب وفتح الستائر وبثّ الموسيقى الصادحة، وإطلاق النكات والضحكات المجلجلة، بسبب بضع سجائر من الحشيش الصافي، الأمر الذي جعل معظم الجيران يقرعون الباب ويستفسرون عمَّا يحدث

داخل هذا البيت الميِّت. والأهمّ، قرعت الرغبة والغيرة بيديهما الثقيلتين على بابي وباب هيلين. في تلك الليلة، قلت لها من موروث الثقافة العربيَّة:

ـ ما اجتمع رجل وامرأة إلّا كان الشيطان ثالثهما.

لا أذكر شيئًا ممَّا حدث سوى أنّي استيقظت في صباح اليوم التالي وهي إلى جانبي على الأريكة، وكنت نصف عارٍ. فقنِّينة الفودكا ارتشفتها حتى الرمق الأخير لم أستطع سؤالها، ولا هي تحدَّثت لاحقًا كان اسم الفودكا الأبسولوت، الغياب، وكانت تلك الليلة من الغيبات الكبرى من ذاكرتي، والتي تكرَّرت كثيرًا لاحقًا. استمرَّ زواجنا أبيض تخلَّلته ليلة غامضة لا أذكر منها شيئًا.

ـ أن نتزوَّج صراحةً وجسدًا يعني أنَّ سنوات عمري السبع الماضية كانت بلا معنى، وهذا أمر لا أستطيع قبوله. إنّي محكومة بكرسيّ العجز بشكل اختياريّ. وأيّ تغيير في الأمر سيجعل منِّي امرأة خائنة لكلمتها، ولقيمها. ولا شيء أخطر على المرأة من أن تكون بلا مبدأ. يمكن للرجل أن يكون كذلك، لكن أنا لا أستطيع أن أتحوَّل أو أبرِّر.

أنا إنكليزيَّة يا فيديل، وإنكلترا تشبهني. قد أكون على كرسيٍّ متحرِّك طواعية لأنَّ هناك من يقوم بالمهمَّة عنِّي، لكنِّي لن أسمح لأيٍّ شيء بأن يحيِّدني عن تاريخي. لا رغبتي، ولا شهوتي، ولا ما يحدث من صرعات شباب هذه الأيَّام.

ـ أحاول فهمك يا هيلين؟ لكنَّك تهدرين حياتك كما تهدر إنكلترا ماء وجهها.

هل يُعقل أن تنتهي هذه الحياة الزاخرة على كرسيٍّ متحرِّك

طواعيةً، بينما ما زلت تستطيعين منافسة أعتى عدّائي الماراثون؟ وهل يُعقل أن تنتهي بريطانيا العظمى كبلد محصور، بعد أن كانت إمبراطوريَّة لا تغيب عنها الشمس، وننتظر أن يهطل المطر في نيويورك لنحمل المظلّات هنا؟!!

إذا كانت الولايات المتَّحدة الحفيدةَ الشرعيَّة لبريطانيا، فهل من المعقول أن يقوم الحفيد باحتقار الجدّ بهذه الطريقة، بالقيم والسلوك والاقتصاد والسياسة، وتصفحين عنه باسم قرابة الدم؟ إنَّك بذلك تغدرين بمُثُلك العليا ببساطة بحجَّة لا أراها منطقيَّة.

ـ لن تفهم جيِّدًا الحكاية الإنكليزيَّة يا فيديل؟ سأقول لك إنَّ لديَّ، كإنكليزيَّة، أكثرَ من قرن لأستردَّ المبادرة. لو كنتُ كما تتّهمني، لما قبلت أبدًا أن أمنحك فرصة أن تكون إنكليزيًّا.

إنكلترا تحتاج إليك كمهاجر. لا تقلق من كلّ ما يُقال لك، ولا كيف يعاملونك. ما ستفعله أنت لإنكلترا يتحدَّد في هذا البيت. عليَّ أن أكون صارمة وأقول لك إنَّي أتمنَّى الزواج بك وتكسير هذا الكرسيِّ المتحرِّك، والتجرُّدَ من كلِّ شيء، ثيابي وذاكرتي، والانخراطَ معك في علاقة زوجيَّة أستغلّ فيها شبابك وتستغلّ فيها جنسيَّتي.

ستكون علاقة منفعة متبادلة، أتحكَّم أنا فيها حتى تحصل على الجنسيَّة بعد أربع أو خمس سنوات. علاقةٌ قائمةٌ على الشكّ، كلّ عطاء فيها متّهَم بأنَّه نفاق. نعم، أودّ ذلك، وأجدك غضًّا وفتيًّا ووسيمًا، وتُرضي ما تبقَّى من أنوثتي بدافع حاجتك وجهلك بالمكان الذي أنت فيه. أنا السيِّدة المثقَّفة في آخر العمر، يمكن أن أكسب فعلًا بضع سنوات من الفرح الكاذب. لكن، هل سأبقى العظيمة كلَّما أنظر إلى حقيقتي؟ وعدي لإدوارد لا يخصُّه وحده. إنَّه يُشعرني بقيمةٍ

وهدفٍ حقيقيَّين وامتحان لما تعلَّمته. لا أريدك أن تضطرّ إلى مسايرتي أو تملُّقي. ما فعلته معك هو مزيج من العاطفة والعقل، يُرضيني عن نفسي أوّلًا، وبالطبع سيساعدك، وأعتقد أنَّه سيؤثِّر فيك.

أنا معك منذ قرابة السنتين. إنَّك شابٌّ واعد وخلوق وتعلَّمتَ الانضباط بسرعة. لكنَّني دائمًا أرى في عينيك لهيبًا خاصًّا. تعلَّمتَ أن تكتم مشاعرك بسرعة، وأن تكون صادقًا وتثقِّف نفسك. تعلَّمتَ أصول اللغة، وازدادت ثقتك بنفسك وأنت تتلمّس ما تريد. ستفعله وتكونه، لكنَّك أيضًا خائف منِّي، وعليّ.

ـ هيلين.

ـ لا تتكلَّم، دعني أكمل، لأنَّنا لن نتحدَّث مرَّة أخرى في ذلك. البارحة حين جاء أصدقاؤك، حدث شيء غريب في داخلي؛ رغبةٌ في امتلاكك؛ غيرةٌ من صديقاتك، وخصوصًا لارا. شيء أكبر منِّي. لا أريد أن أعيش ليلة أخرى مثل ليلة البارحة. عليك أن تغادر هذا البيت. ولن أتسبَّب أيضًا بتدميرك ونكث الزواج قبل أن تنال أوراق الجنسيَّة. لذلك، سأستأجر لك الشقَّة المقابلة، وتكون حرًّا فيها، مستقلًّا بها.

وأنا فعلًا أوعزت بذلك للمحامي، وستكون جاهزة خلال أسبوع.

اقتربت منها. كانت واقفة تحمل كوبًا من الشاي ترتشفه في مقابل الشبَّاك وهي تنظر إلى الشارع، وأدرتها من كتفها:

ـ لن أناقشك في كلِّ ما قلته، لكن ربَّما أستطيع أن أُخبرك بأمر مهمّ عنِّي. أنا في داخلي رجل مؤمِن، أحبّه. تعلَّم عدَّة أشياء من الإسلام: العفَّةَ والإحسان، الصدقَ والامتنان، وأيضًا الإيمان بقضاء الله وقَدَره. ولأنَّك زوجتي، أنا لا أخونك بالحرام حتى لو اشتهيت

ألف امرأة. وإن كنّا في زواج صُوَرِيّ، فهذا لا يغيِّر من الأمر شيئًا. أشكرك من القلب على صراحتك، ولا أستطيع أن أعدك بشيء. إنّي في اختبار عظيم. ما زلت مسيّرًا وبلا خيار، لكن أودّ أن أطرح عليكِ سؤالًا واحدًا عن تلك الليلة، فأنا لا أتذكَّر منها شيئًا، هل حدث بيننا أيّ اتِّصال جسديّ؟

ما زلت لا أنسى تلك النظرة الحادَّة التي حدّقَتْ بها في عيني، ثم همست:

ـ لقد حدث ما هو أهمّ من الجنس. يومًا ما ستعرف ما حدث، لكن ليس الآن. إن كانت ذاكرتك لا تريد أن تعرف فلا جدوى من أن أُخبرك سوى أمر واحد: لم تكن يومها فيديل الذي أعرفه. كنت شرِّيرًا كبيرًا ونقيًا كملاك.

أستطيع أن أقول لك أيضًا إنَّ لارا معجبة بك، لكن نصيحتي ألَّا تثق بها كثيرًا. إنَّها فتاة لطيفة، لكنَّها طموحةٌ جدًّا أكثر من قدراتها، إلى درجة أنَّها قد تفعل أيّ شيء لتصل إلى ما تريد.

كانت على حقّ، ليس في ما يتعلَّق بلارا، فهي حقًّا فتاة لطيفة وذكيَّة وممتعة الحضور ونصف موهوبة، بل بشأن أن أترك السيِّدة التي اختارت طريق عزلتها بسلام، وتترك لي جانبًا من حياتي أكتشف من خلاله ما أحبّ. لقد أصبحت في الخامسة والعشرين، وما زلت أعذرَ. صحيح أنّي أتصرَّف كفيديل، لكن فضل هو الذي يتحكَّم في داخلي. فأنا لا أشرب إلَّا ما نَدرَ، ولا أشارك في جلسات التحشيش، ونادرًا ما أنضمّ إلى السهرات الصاخبة للرفاق، وعلاقاتي النسائيَّة تساوي الصفر. والجميع يعرف أنّي لا أبالغ ولا أكذب، ولا أعبِّر عن رأيي في القضايا العامَّة، بل أكتفي بالمراقبة والابتسام واحترام كلّ من

يتحدَّث كأنِّي أوافقه. وهذا الأمر جعل منِّي مصغيًا جيِّدًا يثق به زملاؤه، ويحبّ الجميع التكلُّم معه.

ومع الزمن، أخذ الرفاق يلقِّبونني بسانت فيديل.

لم يتغيَّر الكثير من الأشياء. الكلِّيَّة كانت فرصة لاكتشاف ثقافة واسعة في عالم اللون والأثر وتأثير الإعلام والإعلان معًا كان لا بدَّ من دروسٍ إضافيّة لفهم هذا الاختصاص، بينما يستعدّ العالم لثورة رقميّة شدَّتني بقوَّة. لم تكن هناك غربة بيني وبين الكومبيوتر على عكس الكثيرين ممَّن يتعاطون الفنّ، فكلّ ما يتعلَّق بهذه العلوم أصبح مدار شغفي. تحوّلت حياتي إلى دراسةٍ متواصلة، وأوقاتُ فراغي إلى جلوسٍ لا يكلّ أمام جهاز الكومبيوتر الذي أهدتني إيَّاه هيلين. حافظت على طقوس تناول وجبة أو وجبتين معها كلّ أسبوع، وغالبًا ما كنت أطبخ لها إحدى الأكلات الشرقيّة التي أحبّتها بفرح.

تخفَّفْتُ من سلطة فضل عليَّ قليلًا، وخصَّصت للارا حصَّة من الوقت. تمشاية أو حضور عرضٍ مسرحيّ، أو أرافقها لرؤية معرض. هي حرّرتني من عذريَّتي بهدوء، وأنا حرّرتها من التزامها بي.

سارت حياتي بامتلاء وثقة حتى نلت جواز السفر البريطانيّ. وبدأت أعدّ العدّة لإنجاز الماجستير. كلّ شيء كان يَعِدُ بأنِّي أقترب من حرِّيَّتي واستقلالي فعلًا، حتى تلك الأمسية المدبَّبة بالألم، حين صارحتني هيلين بأنَّ تشخيص السرطان في نقيّ العظام قد تمّ؛ السرطان اللعين نفسه!!

كانت ستَّة أشهر مؤثّرة لم أتركها فيها أبدًا. وفي آخر شهرٍ لم أغادر البيت، وبقيت إلى جوارها بعد أن طلبتْ نقلها لتموت في المنزل. أصبح الكرسيّ المتحرّك هذه المرَّة حقيقةً واقعيَّة. طلبت منِّي

قبل وفاتها بأسبوع أن نزور مقبرة كيلبورن، وهناك تأكّدتْ من أنَّ قبرها سيكون إلى جوار إدوارد، واختارت الشاهدة وكيف ستكون، وطلبت منّي أن أسجّل بدقّةٍ كلَّ ما تريده للجنازة، وأعطتني بضعة عناوين لأصدقاء قدامى لأتّصل بهم كي يكونوا موجودين فيها. نُقِشَ على الشاهدة: هنا ترقد هيلين سيمون التي وُلدت في ١٩ مايو عام ١٩٤٠ وتوفيت يوم ٢٦ مارس ٢٠٠٠، ودُفنت إلى جوار زوجها الحبيب إدوارد سميث، لتكن ذكراك مؤبّدة.

في المنزل، فتح صديق هيلين المحامي جورج الوصيّة:

ـ هذا البيت لكَ لمدَّة عامين، وبعدهما تعود ملكيَّته إلى جمعيَّةٍ خيريَّة، وتسعون ألف باوند بعد حسم الضرائب هي ملكك. وأيضًا هذا المفتاح لخزنتها الخاصّة. أمَّا باقي الأملاك والمبالغ، فقد أوصت بها لجمعيَّات خيريّة.

تركت شقَّتي وانتقلت إلى البيت الكبير. شيء من القناعة الممزوجة بشعور سخيٍّ بالرضى والعزلة. فتحت الخزنة التي تركت لي مفتاحها، وكانت تحوي تسعةً وثلاثين دفترًا لمذكَّراتها. وبسرعة بحثت عن الدفتر الأخير، الذي دوَّنت فيه أيّامها معي، وبالطبع بحثت عن تلك الليلة التي لم تسجِّلْها ذاكرتي.

«في هذه الليلة شهدتُ صراعًا مخيفًا بين فيديل وفضل، بين الملاك والشيطان، بين الرغبة والواجب. مع أوَّل كأسين من الكحول، ذابت كلُّ الأنا لدى فيديل الذي اشتهاني بجنون، فأعطاني دفقًا لا يتوقَّف من الشغفِ والرغبةِ في الامتلاك والحماية والتسلُّط. عنيفٌ مخيف، بلا أيِّ ضابطٍ أو رادع. استسلمت له بخوفٍ في البداية، وكدت أتَّصل بالبوليس مرَّتين. لكن رويدًا رويدًا، عرفت أنَّها لحظة قوَّةٍ

وضعفٍ لن تتكرّر، وسأكون الشاهدة عليها. لحظة نادرة أن تراقب كيف ينفجر الإنسان الذي تعرَّض للعنفِ والقسوة والكذب. هذا الشابّ الطيِّب، راكم من الألم والقسوة ما لا تقوى جبالٌ على حمله. لديه علاقةٌ مخيفة بصورة المرأة. مزيج من الإثم والرغبة، الاستهزاء والاحتقار.

حين بدأت أنفِّذُ صاغرةً كلَّ ما يطلبه منِّي، كان يطالبني بالاعتراف بالذنوب، وبالعلاقات والخيانات، ويهلوس بشتَّى أنواع التهم بأنَّني أنتمي إلى جنسٍ عاطلٍ خبيثٍ ولا أمان لي، ولا ينفع معي ومع بنات جنسي سوى العنف والزجر. ثم قال لي: لماذا تخلصين له ميِّتًا، ولم تكوني مخلصة له وهو حيّ؟

فاجأني بهذا السؤال. نعم، لم تكن علاقتي بإدوارد مثاليّة. ارتكبتُ عدَّة أخطاءٍ صارحتُه بمعظمها. وعرفت في تلك الليلة أنّي أدفع ثمن مشاعر الذنب:

ـ لم تكن لديَّ الجرأة للاعتراف لزوجي بكلِّ ما فعلت، نعم. معك حقّ يا فيديل.

ـ أنا لست فيديل. أنا إدوراد، يا هيلين. الآن وجب عليك أن تبوحي بكلِّ شيء.

كان لتر الڤودكا يتناقص والاعترافات تزداد ضراوة. تبادلنا أدوار القاضي والجاني، الجلَّادِ والضحيّة، البوحِ والاعتراف. تحوَّلت أنا إلى حبيبته وأمّه ومدرِّسته وخالته وابنة جيرانه وحبيبته التي يسمِّيها شجرة. وكان هو إدوراد وأبي وكاهن الكنيسة وأوَّلَ حبٍّ خذلني.

تبادلنا الاعتراف والتقاضي والعقاب والثواب، بكلّ عريٍّ وصدق؛ بشهوة جامحة وصخب اللذَّة وكثير من الدموع والألم والفرح. لم

ندخل غرفة النوم، التي رفض أن يمارس الجنس معي فيها، فنمنا في الصالون. وحين كنت أستعدّ في صباح اليوم التالي لطرده من حياتي، وجدته لا يتذكَّر أيَّ شيء. إنَّها نعمةٌ حقيقيَّة ألَّا تتذكّر. راقبته جيِّدًا بعدها، هو فعلًا لا يتذكّر، لكن يجب عليه أن يعرف أنَّه في تلك الليلة حرّرني لأنّه لم يتذكّر. آه، كم من النساء يتمنَّين أن يعشن ليلةً واحدةً مع رجلٍ لا يتذكَّر أيَّ شيء منها في صباح اليوم التالي.

في كلِّ حال، سأُطلعه على كلّ شيء بعد أن أموت، هذا قراري. أعرف أنَّه في يوم من الأيَّام سيقرأ هذه الكلمات. لذلك يا فيديل أقول لك: شكرًا من القَلب.

أمَّا عن سؤالك: لماذا الإخلاص لإدوارد بعد موته، فهذا الأمر لا يخصّ زوجي، إنَّه يخصّني كامرأة حرّة تمامًا شيء ما لا يمكن شرحه، لكن أتمنَّى أن تصل إلى معناه يومًا ما».

(١٣)

أنيس

ـ أحتاج إلى وقت أكبر.

ـ لكن كلّ شيء جاهز، دكتور أنيس.

ـ أُقدِّر لك ذلك أستاذ راجح، لكن لكون صريح معك، محتاج قَيِّم الموجودات بشكل جيِّد، وخصوصًا المخطوطات والوثائق. إن كان لا بدَّ من بيع البيت، في قيمة تاريخيَّة للموجودات بتحتاج لمختصِّين لمعرفة أهمِّيّتها، محتاج وقت.

ـ بصراحة دكتور، أعتقد إنَّك عم ترتكب خطأ، المشتري ما راح يكون مبسوط.

ـ شخصيًّا ما فارق معي المشتري ولا بدِّي إستعجل ببيع بيتي، ولا بعتقد إنُّو في مين يجبرني على الاستعجال. فخبِّر المشتري إنِّي أحتاج أسابيع ومنتمِّم الموضوع باللحظة يلِّي بشوفها مناسبة.

ووقف ساخطًا يريد المغادرة.

فاستوقفه المحامي:

ـ دكتور إهدا رجاءً.

ـ اسمع أستاذ، شكرًا على جهودك، لكن من أوَّل ما بدأت قصَّة هالبيت وإنت عم تحمِّل كلامك دائمًا تهديد مبطَّن، وما بدَّك تقول مين إلِّلي بدُّو يشتريه. حابب خبَّرك هالشي غير مقبول بالنسبة إلي!

ـ دكتور أنيس معك حقّ، لكن باللحظة يلِّي راح خبرك فيها اسم المشتري وبترفض البيع راح تضطرّ تواجهو. صدِّقني دكتور إنت إلك زمان برَّات البلد، المشتري ما بينقال إلو لأ أنا كلّ شيء فيني أعملو ما راح أنقل رفضك، راح خبّرو إنُّو إنت راح تقيِّم الأثاث، وبالآخر الموضوع عندك. ما أنا إلَّا وسيط.

خرج أنيس من مكتب المحامي في مزاج سيِّئٍ ومتكدِّر.

كان يودُّ الاتِّصال بسامية ويخبرها بأنَّه رفض بيع البيت، لكنَّ القلق بدأ يساوره من جديد. مشى في اتِّجاه مقهى الكمال، حيث توقَّع أن يجد عيسى هناك. وبالفعل لم تخب توقُّعاته.

شرح لعيسى المأزق الذي هو فيه، وطلب نصيحته. فكان رأي عيسى:

ـ لوحدك سيلتهمونك بلا ملح. عليك أن تحمي نفسك، تُخرِج قضيَّة البيت للعلن. تُحرجهم، على الأقلّ ساعتها إذا كان لا بدَّ من إنُّو تبيع البيت، لح يكونوا مضطرِّين ما يدمّروه، ولا يغيّروه، ولا يسترجوا يحوِّلوه لواحد من استثماراتهم.

«علِّيلنا الصوت بالله». صرخ عيسى للنادل.

هدَّأت نصيحة عيسى مفاعيل القلق الناهش. مدّ يده إلى علبة الدخان الملقاة أمامه ونزع عنها الغلاف البلاستيكيّ وطواه عدَّة طيَّات على شكل مثلَّث. أدخله بين الناب والضرس في الفكِّ الأسفل وأخذ يهرش به لثَّته بتواتر. ومن دون مقدِّمات، انتصب واقفًا:

ـ أنا رايح.

قفز مسرعًا إلى الشارع. أوقف سيَّارة أجرة، وطلب من السائق أن يقلّه إلى الجسر الأبيض. أخرج هاتفه من جيبه واتَّصل بسامية. ردَّت بصوتها الحلو، وهي تمطُّ حرف الألف في آآآلو:

ـ محتاجك معي، ما راح بيع البيت. تعالي بسرعة.

صمتٌ خفيف مثل تكتكات قنبلة موقوتة:

ـ ما بعرف إذا كان مناسب نلتقي فعلًا إلّلي صار بيننا صار، بس أنا بدِّي إنساه.

أخذ نَفَسًا عميقًا وأطلقه، وهو يغمض عينيه. استلمظ طعمًا مالحًا في فمه. كان قد خرّش لثَّته. يستطعم مذاق القطرات السائلة في فمه. يسأل نفسه، وهو الذي أمضى مئات الساعات يقصّ الأضلاع بالمناشير، ويجرح طبقات الجلد واللحم والعضلات بالمباضع، ويغوص في الدم، كيف له ألَّا يتذوَّقه لمرَّة واحدة؟ شرد عن دبيب الصمت القادم من سمَّاعة الهاتف، ثم قال:

ـ لا أريد أن أضغط عليك. سامية، أودّ من كلِّ قلبي أن أراك ثانية.

تنهيدةٌ كبيرة أوقفته:

ـ احكيها مرَّة ثانية.

ـ من كلِّ قلبي وعقلي وجسمي متمنّي شوفك مرَّة ثانية.

حشرجةٌ على شكل اختناق:

ـ أنتظر منذ يومين حتى أسمعها. لا شيء تعشقه امرأة نامت مع رجل التقته للتوّ، أكثر من هذه الجملة النبيلة.

ـ كنت ناطرتها. شكرًا إنّك قلتها.

ـ سامية، عم تبكي؟

يستردّ الصوت وثوقه:

ـ معليش دكتور هنّي دمعتين كان لازم ينزلوا. بشو بدَّك ساعدك؟

ـ قرَّرت بلِّش حملة إعلاميَّة للتعريف بقيمة البيت.

كان يمكن لابتسامتها أن تشقّ سمَّاعة الهاتف وتخرج منها في تلك اللحظة:

ـ فورًا جاية.

ثلاث عشرة غرفةً وأربعة حمَّامات مشيَّدة على طابقين، بمساحة ثمانمئة متر.

تشكِّل غرفة المكتبة والمخطوطات قاعةً ضخمةً، وتوجد غرفتان بجدران متعالية من الكتب المجلَّدة بعناية. في الصفِّ الأوَّل، دليلٌ لكلِّ المراجع، قرَّروا البدء به.

تقول الفهرسة إنَّه يوجد مئة وسبعون ألف كتاب واثنا عشر ألفَ مخطوطٍ بالعربيَّة. حتمًا سنجد تاريخ البيت في كتاب ما هنا. فكَّر وهو يُجري مَسْحًا بَصَرِيًا للرفوف. واتَّضح، بعمليَّة حسابيَّة بسيطة، أنَّ العدد المذكور في الفهرس أكبر ممَّا يراه بكثير.

كان دخول سامية برفقة ضيوفها مفاجئًا. البروفيسور مأمون عبد الغني، عالِم آثار وتاريخ، معروف بسيرته العلميَّة الرفيعة وخبرته التي تفوق خمسين عامًا أمضاها في البحث والتنقيب والترجمة بشأن ألفي صرح أثريّ في دمشق. يعرف الإلٰه آداد كما يعرف نفسه. يتبعه متقصّيًا باحثًا عنه، ويؤكِّد أنَّ مدينة إدلب الشماليَّة مستمدَّة اسمها من الإلٰه الغامض، ومعناها أدد ـ لبّ. وأدد اسم الإلٰه آداد، ولبّ تعني المركز أو القاعدة، أي مدينة الإلٰه آداد.

والمهندس ريمون خوري مؤرشف الأبنية التاريخيَّة في دمشق، واحد من القلائل الذين يعرفون أسرار البيت الدمشقيّ، وأنَّه مستنسَخ من المعبد الأراميّ القديم، وفيه من الطاقة الروحيَّة الوثنيَّة والتوحيديَّة ما يجعله أحد أهمّ البيوت التي يقطنها البشر في العالم.

ورافقهم صديق سامية وأنيس، اسمه عيسى درويش.

يعرف هؤلاء جميعهم البيت جيِّدًا، لكن لم يكن في إمكانهم أن يحظوا بهذه الفرصة المثيرة لدخول كلّ غرفه، والتنكيش في محتوياته.

كان أنيس يستمع بفضول مزهوًّا بفخر، وهو يرى هؤلاء الرجال يشرحون له تفاصيل هذا المكان. فبيته ليس كبيرًا وعريقًا فحسب، بل هو تحفةٌ فنيَّةٌ من العمارة والأسرار.

قاد ريمون الجميع إلى غرفة الجلوس، المكسوّة جدرانها بطبقة من دهان الكلس الأبيض، وأخرج من حقيبته عودًا يشبه نكَّاشة الأذن، وعلبتين من المحلول المركّز، مع قطعة قماش من القطن. اقترب من الحائط، واستخدم قلم الرصاص والمسطرة، وقطّع مساحة عشرين سنتيمترًا إلى مربَّعات رباعيَّة، كلّ سنتيمتر مربَّعٌ وحده. أخذ يُزيل، بأناةٍ واحتراف، طبقةَ الكلس بالعود الصغير. بدأ الدهان الأبيض بالتلاشي لتظهر طبقة ذهبيَّة من الرسوم أمام دهشة أنيس.

انشغل مأمون بشرح تاريخيَّة البيت، قائلًا:

ـ بيت حُدُد ليس بيتًا واحدًا، بل هو أكثر من أربعين بيتًا دُمجت معًا. ومن قسم المخطوطات، أخرج المؤرِّخ كتابًا ضخمًا يفوح برائحة العتق، وبدأ يقرأ:

كلُّ غرفة من هذا البيت لها حكاية وزمان. الطابع العام مملوكيّ وعثمانيّ. المهندس العبقريّ الذي بنى أجمل ما في إسطنبول وبعضَ

نفائس دمشق، سنان أرناؤوط، هو من أضاف التوسعة الخارجيَّة وهي ثلاثَ عَشَرِيّات، يمكن أن تَعُدَّ ثلاث عشرة مقرنصةً على امتداد ثلاث عشرة قدمًا من الباب إلى السرداب، ثلاث عشرة غرفة للنوم، وثلاث عشرة نافذةً من كلِّ طرف. وهناك فصل يوضح وجود ثلاث عشرة درجةً تنزل بك إلى قاعة سفليَّة، وثلاثة عشر نفقًا تحت الأرض.

المنزل، في مجمله، هو المنزل العثمانيّ. صورته الأخيرة الباقية حتى اليوم عثمانيَّة، لكنَّه أقدم من ذلك بكثير.

تابع الدكتور مأمون حسبته، من غرفة المكتبة الرئيسيَّة، ووصل إلى الجزء الأخير من المكتبة. تفقَّدها بحرص شديد، وصار يفرّغ الرفوف من الكتب، وينقر على الحائط، حتى تغيَّر صدى إيقاع القرع. وهنا طلب من الجميع أن يساعدوه لتحريك جزء من المكتبة.

دقَّ بمطرقة على البلاطات، ووجد أنَّ إحداها ليست ثابتةً كما يجب، فسحبها بهدوء ليجد مقبضًا حديديًا.

دهشةٌ تكاد تخطف الأنفاس. نظروا إلى بعضهم البعض. وبعد قليل من التردُّد، أمسك الدكتور مأمون المقبض وشدّه إلى الأعلى قليلًا بدأ الجدار يهتزّ وتحرَّر بابٌ مخفيّ في الجدار إلى الوراء، فانفتحت ردهة تخرج منها روائح محتقنة بالعطن وذرّاتِ غبار كثيف. عقدت الرهبة الألسن، وامتزج الفضول بهواجس الخوف من المجهول.

أزاح الدكتور الباب تمامًا، ليظهر مدخلٌ على شكل درجٍ صغيرٍ يقود إلى الأسفل، هبَّ منه تيَّار بارد من الهواء المضمَّخ بالعتق.

ـ خلُّونا ننزل لتحت؟ قال عيسى متحمِّسًا.

ردّ البروفيسور مأمون:

ـ نحتاج إلى كمّامات وإضاءة.

التصقت سامية بأنيس، الذي همس متردِّدًا:

ـ ألا تعتقدون أنَّنا نحتاج إلى إخبار السلطات؟

ردَّ ريمون محذِّرًا:

ـ السلطات! ليش وين شايفنا، ببريطانيا؟! إيَّاك تعمل هيك، حتكون حجَّة ليشمّعوا البيت وتستولي عليه دائرة الآثار. ولبينما يكتشفوا موجوداته بيكون نصّها انسرق قبل ما توصل للمتاحف. معنا هون دكتور مأمون أهمّ عالم آثار وتاريخ بالبلد. خلِّينا نوثِّق كلّ شي بالأوَّل، وبعدين خبِّر مين ما بدَّك.

ـ شكرًا ريمون على الإطراء، بالحقيقة لازم بالأوَّل ننزل ونعاين المكان لنعرف لوين بيودِّي. يا ترى السيِّد بدر الدين كان بيعرف هالممرّ؟ لأن بعتقد من الرائحة الخارجة إنُّو تمَّ الدخول للمكان من سنوات قليلة ماضية.

كان هناك في المستودع رفٌّ محتشد بالفوانيس ومصابيح تعمل على البطَّاريَّات. جمعوا الصالح منها للإنارة، وقرَّروا أن ينزل في البداية كلٌّ من عيسى والبروفيسور.

اضطرّا إلى الانحناء للمرور من الباب الضيِّق. نزلا ثلاث عشرة درجة. أوصلتهما إلى غرفة لها باب خشبيّ ضخم غير مقفل، فتحاه بهدوء ودخلا، وإذ بهما في قاعة غريبة الشكل. بمجرَّد أن توزَّعت الإنارة في القاعة حتى شاهدا كمِّيَّة كبيرة من المعدَّات والقوارير مع فتحة كبيرة تبدو كأنَّها فرن. اقتربا من الصندوق المقفل. تؤكِّد الزخارف والمنمنمات حوله أنَّه أحد الصناديق المستخدمة لحفظ الملابس في دمشق القديمة.

لم يجدا صعوبة في كسر القفل وفتحه، ليفاجآ برُقُمٍ جلديَّةٍ أُسندَ عليها سيفٌ بغمدٍ من الفضَّة. سحبَ البروفيسور السيفَ من الغمد ومرّر حزمةً من ضوء مصباحه على حافّته. كانت النقوش بالآراميّة التي يتقنها تمامًا، وبدأ يقرأ:

ـ هذا سيف الإلٰه آداد. من يحمله لا يخسر معركة.

ما إن انتهى من قراءة النقش حتى كاد يقفز من السعادة:

ـ لطالما عُرِفَ هذا البيت بالاسم العربيّ حُدُد، وكان هذا مختلَفًا عليه بالنسبة إلى بيتٍ دمشقيّ. أمّا وقد عثرنا على هذا الأثر، فهذا يفسِّر الاسم المعرَّب من الآراميَّة. أعتقد أنَّنا في بيت الإلٰه آداد نفسه.

حملا الرُّقم والمخطوطات والسيف وخرجا بهدوء. وضع البروفيسور الموجودات على طاولةٍ نظيفةٍ بعنايةٍ فائقة. وبحدِّ سكِّين صغيرة، أخذ يفصل ببطء الرُّقمَ المنقوشة على رقاع من جِلْدَي الغزال والماعز، وبدأ يقرأ الرُّقُمَ واحدةً واحدة، منحنيًا ومنكبًّا بلا حراك، حتى استقام أخيرًا قائلًا:

ـ أعتقد أنَّنا وجدنا للتوّ واحدًا من أكثر أسرار السيف الدمشقيّ إثارة. فإذا كان هذا السيف هو من تتكلَّم عليه الرُّقم، فعمره أكثر من ثلاثة آلاف عام، وهو بالضبط سيف الإلٰه حُدُد أو آداد؛ أقصد سيف معبده.

أحصوا المنزل بما فيه، خلال أسبوع من العمل. كان ثروة تاريخيَّة لا تُقدَّر بثمن.

تحوّل المكان بهدوءٍ إلى خليَّةِ نحلٍ سرِّيَّة. جهّزت سامية فريقًا من الإعلاميِّين للبدء بالحملة. كانوا أربعةً من الشباب الذين تعمل معهم، متوقِّدين بالحماسة والنشاط ويتقنون الميديا الحديثة. وخلال أقلّ من

أسبوعين كانت حكاية بيت آداد على صفحات الفيسبوك وتويتر، وعبر قناة خاصَّة على اليوتيوب.

مقالات في «اللوموند»، و«الغارديان»، و«النيويورك تايمز»، والعديد من المجلَّات المختصَّة بالتاريخ والأركيولوجيا، مع بعثة قادمة من اليونيسكو لتقييم المنزل ووضعه على لائحة التراث الإنسانيّ.

ـ كلّ ما فعلناه كان جيِّدًا، لكنَّه غير كافٍ. نحتاج إلى قوَّة أكبر في الحملة. قالت سامية، وهي تشرع في ارتداء ملابسها المتكوّمة حول السرير.

كان أنيس سارحًا وشاردًا في تلك اللحظة. لم ينتبه بداية لما قالته سامية. فهو لم ينس بعدُ صوتَ سامي المعاتبَ، في اتِّصال الأمس، والمتسائل عمّا يفعله والده في دمشق، وما الذي يحدث بينه وبين والدته:

ـ من حقِّي أعرف ما الذي يحدث معك؟ لا تستطيع أن تترك كلّ هذا وراءك من دون تبرير.

لكن منظر ظهر سامية العاري وهي ترتدي حمَّالة الصدر، أخرجه من شروده. لم تنل السنوات الأربعون من هذه السيِّدة بعد. ليس في جسدها علامة ترهُّل واحدة. لونها القمحيّ الصقيل المشبع بالاكتناز، وسهوبها الريَّانة بالخصب، تفتح الشهيَّة على الخبز. قرّب يده من أنفه، ما زالت رائحة جسدها على يديه. رغب في أن يلمسها من جديد، لكنَّها أسدلت قميصها على ذلك الحقل وأتبعته بجاكيتها السميكة. انسدل شعرها شلَّالًا من الخرنوب على الكتفين، والتفتت إليه لتراه يناظرها كحصّاد شَرِهٍ، فقصلته بمنجل ابتسامتها، واقتربت لتطبع على وجهه قبلة سريعة، فعاجلها مطوّقًا رقبتها شدّها إلى مضاربه وحشرها

تحت خيمة بطّانيّة بنقشة جلد النمر، غير عابئٍ بصدِّها الضاحك الذي تراخى مع تجريدها من ثيابها:

ـ راح أتأخّر. لِكْ يا مجنون. راح أتأخّر.

ليتلاشى الصدّ الناعم ويتحوَّل إلى تنهُّداتٍ محمومة، تُطلق بعدها آهًا مدوّية، فتنتفض فوقه تمتطيه كأنَّها تسرج حصانه. تنطلق مسرعةً في سهوب شاسعة، مشفوعةً بالآه الحارقة، بشعرها الذي يتطاير مع كلٍّ هبوط على الأرض. تغذّ ويعدو، تشخب ويلهث، تحمحم ويلجب، تجلجل وينخر، ليصهلا معًا، وتفرز مساماتهما عرقًا لذيذًا فيتخالطان. تكبر في حضنه بينما يصغر عضوه في داخلها المتقطّر ومعه يخفت العالم، ويغطّان في برهة ما بعد التحام الجسدين متعانقين.

يوقظه صوتها الهامس:

ـ قريت مرّة إنُّو إذا قدر رجل وامرأة يبقوا بحالة عناق بعد اللذَّة، فغالبًا راح يختيرو سوا.

ـ إيه، بدِّي ختير معك.

تفرَّست في وجهه، ثم نظرت إلى عينيه وهي ممدَّدة فوقه. كان مقمّرًا بالحمرة، صافيًا كصفيحة قمرٍ مكتمل. حينها فقط خرجت الكلمة الصامتة في قاعه منذ عقود:

ـ بحبّك.

فتحوَّلت النظرة المعجونة من شمع العسل إلى تحديقةٍ غائمة صارت تنزُّ دمعها الخفيف ليتساقط إلى جوار فمه، يمدّ لسانه يتذوّقه.

ـ لك أنا بدِّي يصير عنّا ثورة كرمال إقدر عيش لحظة صدق مثل هاي لو مرَّة وحدة بحياتي.

أسكتها بقبلة، بينما نزعها رنين هاتفها من حضنه:

ـ آآآآلو.   شو عم تقول؟!!

انخطف لونها فجأة، ثم علت وجهَها ابتسامةٌ مشرّعة كأنَّما وصلت أذنيها، إحداهما بالأخرى:

ـ إنتو وين؟ أنا جاية فورًا.

عادت إلى طبيعتها العاصفة متأهّبةً غير مصدّقة:

ـ في مظاهرة بالحريقة، وإجا وزير الداخليَّة، والناس عمَّا تهتف: الشعب السوري ما بينذلّ. معقول يا أنيس. معقول راح تصير هون؟ راح نطلع عالشارع. أنا متأكِّدة، أنا واثقة. مستحيل نسكت. مستحيل نقبل. مستحيل نظلّ بهالمقبرة.

كانت تلوب وترشقه بجمل متفكِّكة، قوامها كلمة واحدة هي المستحيل.

ـ بروح معِك؟

ـ لا، لا، راح تلبكني. راح تشتِّت لي انتباهي. برجعلك.

وتكرفتت خارجة. صوته يقول: طمنِّيني، فيردّ عليه صوت انصفاق بوَّابة البيت.

(١٤)

السيف

أعادت عليه السؤال:

ـ هل هناك امرأة أخرى؟

أجاب هذه المرَّة بثقة:

ـ نعم.

ـ ماذا تريدني أن أقول لسامي؟

ـ لا شيء، أنا سأخبره.

أصعب ما في هذه اللحظات على الإطلاق، الثواني العشرُ الأخيرة الصامتة تمامًا.

فأيّ كلمة أو همسة أو حركة قد تسبِّب عطبًا لا يُشفى.

لكنَّ حنّة هوّنت الأمر عليه من حيث لا تقصد. كانت تريد أن تقول شيئًا ما يُغيظه:

ـ أعرف تمامًا ما تمرُّ فيه، لقد عشتُه بالضبط قبل سنوات. كان أمرًا رائعًا خارقًا لا يُقارَن بالذي بيننا، لكنَّه موقَّت. إذا انتهت هذه النزوة، وهي من حقّك، فسنكون متعادلين. حظًّا طيّبًا أنيس.

ـ ولك أيضًا

وتلاشت الصورة على السكايب تاركةً خلفها بقعةً زرقاء، يحدِّق فيها الدكتور أنيس، وقد انزاح عن كاهله ثقلٌ كبير.

دخل المطبخ. وضع دلّة القهوة على النار، وعلى مهل أخذ يمزمز قهوته وهو يتصفَّح مذكَّرات الخال بدر الدين.

وصل عيسى مع الدكتور ريمون في الموعد تمامًا، ونزلوا جميعًا إلى غرفة السرداب. قال:

ـ وصلت نتائج الصور والتحليل. السيف القصير هو الحوبيش، رمز السلطة والهيبة. حمله رمسيس الثاني وتوت عنخ آمون.

لكنَّ الموجود هو تقليد سيوف الأولفبيرت التي استخدمها الفايكنغ. كان فيها جزء من سرّ السيف الدمشقيّ القديم، لكنّه ليس كاملًا

والسيف الثالث هو سيف الكاندا الهنديّ، والرابع هو سيف الزويهاندر الصليبيّ الضخم الذي قهره السيف الدمشقيُّ القصير

تقول الأسطورة السوريَّة إنّ الإلٰه حُدُدْ أو آداد، إلٰه المطر والصواعق، هو الإلٰه الحامي لدمشق، يسير بعربته متمنطقًا سيفه، يجلد الغيوم فتمطر بغزارةٍ في مملكته التي اتَّخذ دمشق مركزًا لها وحين اشتدَّ الخطر على دمشق ذات يوم، قام آداد بضرب قاسيون بصواعقه. فتركت تلك الصواعقُ نتراتٍ من نفائس الفولاذ الإلٰهيّ. جمعها الكهنة الذين كتبوا سرَّ الخلطة العجيبة للسيف الأشهر في العالم، وأعطوها للصنّاع الدمشقيِّين. سُكبت تلك العناصر في بوتقةٍ مثل هذه الموجودة هنا، لتخرج عجينتان من الفولاذ النقيّ تُجدَلان وتُطرَقان، ثم تُحَمَّيان بالنار وتُعطيان لفارس على حصانٍ سريع، يرفعهما في الهواء، وينكز

حصانه منطلقًا في أقصى سرعةٍ ممكنة، شاهرًا السيف في الهواء، ليصل به بعد عدّة كيلومترات، إلى حدَّادٍ آخر يقوم بالطَّرْق والتحمية، فينطلق به الفارس مرَّة أخرى بسرعة على صهوة جواده ملوِّحًا به في الهواء لتبريده، ويعود به إلى الصانع الأساسيّ ليحمِّيه من جديد، وهكذا إلى أن يبرده ويجلخه حتى يأخذ شكله الأخير، ويصبح قادرًا على شقِّ أيّ معدنٍ على وجه الأرض بضربةٍ واحدة وبمرونةٍ لم تُعهَد في الفولاذ.

جعلت براعة الدمشقيِّين الفولاذَ الدمشقيّ قطعةً فريدةً من الموت والجمال غير القابل للصدأ، متحديًا الزمن، لا يتآكل ولا يموت، مثله مثل الإلٰه الذي ابتكره والمدينةِ التي صنعته.

يُلمَّع السيف وتُنقَش عليه كلمات مناجاة للإلٰه كالصلاة: «حُدُد، لم يخسر حربَه كلُّ مَن حَمَلَ سيفَك»؛ أو «إلٰه الحرب أعِنّا ليفتك سيفُك بالأعداء». وبعد دخول الإسلام دمشق، صارت الآيات القرآنيَّة هي التي تُنقش على السيف الدمشقيّ.

لم يخسر فارسٌ حياته أو معركته إن كان في يده سيف آداد الحقيقيّ.

وحين غزا تيمورلنك دمشق التي عزفت عن قتاله، أُعجب بفعاليَّة هذا السيف، فاصطحب معه خمسة عشر ألف صانع من صنَّاعه إلى سمرقند. وبقي سلالة الكهنة من شيوخ السرّ في دمشق إلى أن دخلها السلطان سليم الأوَّل العثمانيّ، فنُقل مَنْ تبقَّى من الصنَّاع المهرة إلى إسطنبول. لم يبق سوى شيخ كار واحد وشقيقه الذي غادر دمشق إلى سمرقند ومنها إلى الهند، وهما آخر سلالةِ الكهنة. فكتبا أسرار صناعة السيف بالآراميَّة القديمة، نصفها هنا ونصفها موجود في الهند، وهذه

هي الخريطة التي تشير إلى مكانها هناك.

أمّا خاتمة المخطوط فهي نبوءة، تقول إنَّ العالم الذي ابتعد عن السيف ابتعد عن القتال بشرف، ولن يستردّ عدالته إلّا حين يعود الناس إلى السيف الدمشقيّ ليفصل الأمر بينهم. وحده هذا السيف يمكن لحامله أن يستعيد بركة الإله آداد ويدعوه ليعينه على الانتقام من الأشرار وإقامة الحقّ.

بعد أن لخّص البروفيسور الجانب الأسطوريّ من الحكاية، أردف قائلًا:

ـ شخصيًّا، أعتقد أنَّ علينا البحث عن بقيَّة المخطوط.

كان اقتراحًا جعل الحاضرين مشطورين بين حيرة المصدِّق لحكاية خرافيَّة، ورفضِ العاقل المجبول بإسمنت المنطق الذي بدأ يتفتَّت.

كانت المهمَّة الثانية للدكتور أنيس الاتِّصال بفيديل عبد الله، وقد تمَّ ذلك، واتَّفقا على اللقاء، وبقي إقناعه بعمل فيلم وثائقيّ عن البيت.

قال الدكتور ريمون بعد أن أنهى أنيس اتِّصاله بفيديل:

ـ انتدبتني مديريَّة الآثار والمتاحف لتقييم البيت، وسأجلب اللجنة الأسبوع القادم. لقد بدأوا يتململون لأنَّهم آخر من يعلم.

وفي اللحظات التي كان يعجنها أنيس في انتظار أيّ خبر من سامية، جاءه رقم غير مسجَّل، على الطرف الآخر، وبادره صوت الدكتور سعد الدين:

ـ محتاج شوفك لأمر ضروريّ ما بيحتمل التأجيل.

ـ خير، شو في يا سعد قلقتني.

ـ ما فيني إحكي عالتلفون، أنا بانتظارك في المستشفى.

دخل أنيس مكتب صديقه سعد مضمَّخًا بأمان الرفقة والعشرة

القديمة، ليخرج منه مبلّلًا بالشكوك.

ـ إذا ما بعت خلال أسبوع، ما حدا راح يقدر يحميك. إنت عم تسبّبلنا إحراج.

ـ عم سبِّب إحراج إلكم؟ ليش مين إنتو؟

ـ أنا وصديقك عبَّاس على الأقلّ. نفد صبرهم عليك، وخصوصًا بعد علاقتك مع المرأة المريبة سامية.

ـ مريبة! يا سعد، كيف مريبة؟!

ـ سامية إِلْها أجندة خارجيَّة، عم تتعامل مع منظَّمات مشبوهة باسم حقوق الإنسان.

ووقف من وراء المكتب ومشى ليجلس إلى جانب أنيس:

ـ هذا مو رأيي، هي معلومات أمنيَّة بيعرفها عبَّاس جوهر منيح. علاقتك معها عم تحرجه وتحرجني. إنت صديقنا، وأكلنا خبز وملح سوا دكتور أنيس، لكن لمَّا بيتعلَّق الأمر بمصلحة الوطن.

وأكمل سعد عبارته ناطقًا إيَّاها من بين أسنانه، كما يفعل المزاودون، بمزيج من الغرور والنفاق:

ـ أنا بتخلَّى عن إبني إن كان عم يتآمر عالوطن.

ثم غيَّر من لهجته النافرة ليغدو صوته رخيمًا وأقرب إلى الرجاء:

ـ يا أنيس، عبَّاس مُحرَج منك، واتَّفقنا نوصّلّك الرسالة، فرجاء لا تتّصل مرَّة ثانية بفيديل عبد الله، فهو بمهمّة عمل لصالحي، فلا تقحمه فيما ليس له.

حاول أنيس بلع ريقه، لكنَّه لم يستطع. كان ناشفًا تمامًا من تأثير الصدمة.

استعاد سعد المنتشي بانتصاره الساحق، لهجةَ الترهيب، فقرَّب

كأس الماء إلى صديقه القديم:

ـ البلد مو هو اللي بتشوفه أو بتسمع عنه. هالبلد هو النظام، النظام نفسه، وهالنظام ما عاد مثل ما تركته إنت من ربع قرن. صار إلو شروش عند إبليس وفروع واصلة لعند الله. فيا أنيس إنت صديق وعزيز على قلبي، وإلّلي راح أعرضه عليك ممكن ينقذك. إنت رايح على ورطة برجليك. حاولنا نشرحلك ياها بطريقة غير مباشرة لكن خياراتك كانت خاطئة.

أمسك أنيس كأس الماء وتجرَّع منها رشفات قليلة متتالية، استعاد فيها توازنه الهشّ، بعد أن أدرك أنّه مهزومٌ تمامًا أمام هذا المنطق الفوقيّ الغريب من شخص يُفترض به أنَّه يحمل بقايا من الودّ لزمالةٍ قديمة، فخرجت منه جملة ضعيفة:

ـ ممكن تفهّمني دكتور كيف عم تمشي الأمور؟

أجاب سعد بطريقة العارف المتيقِّن من كلِّ شيء:

ـ النظام هون ليس مخابرات وقمع وعائلة حاكمة مثل مابيشوفوها السُّذَّج. النظام هو شبكة معقّدة من المصالح. يده ضاربة ووجهه قاسي لكلّ مَن يقترب من هالمصالح.

وهالمصالح مو مال وسلطة بسّ. في توافق دوليّ وإقليميّ على النظام، لأنَّه صمَّام أمان لمصالح المنطقة. النظام اليوم يميل لتشارك وتوسيع دوائر الاستفادة والقرار، ونحنا بطريقنا من دولة الإكراه إلى دولة القانون، وحتمًا سنمرّ بمرحلة الفساد.

كلّ انتقال جوهريّ يتخلّلو فساد، فإن كنَّا بنظرك دولة فاسدة إذن نحنا في الطريق الصحيح.

عندنا استقرار فريد من نوعه، ونحنا من البلدان الوحيدة في

العالم عندنا أمان اجتماعيّ واقتصاديّ متين، ما منستدين من أيّ بنك في العالم. منشان هيك ما في مين يتحكَّم بقرارنا وسيادتنا.

عندنا مشاكل كثيرة وبيروقراطيَّة وفساد وكلّ ما يُقال، صحيح، في طور الدولة الفاسدة، لكن عندنا رغبة حقيقيَّة بمعالجة كلّ ذلك مع الوقت. منحتاج فقط وقت للعبور. بأكّدلك سوريا راح تكون من دول العشرين.

شوف اليوم، عندنا صناعة، تنمية بأعلى مستويات بالعالم، أمان حقيقيّ، وتوسَّعت دائرة الداخلين بتركيبة النظام. والنظام غضّ الطرف عن الكثير من الممنوعات القديمة. المشكلة إنُّو بعض المتثاقفين بَدُّن تغيير سريع، وهذا خطر على الجميع.

ما في قرية أو بلدة بهالبلد إلَّا وللنظام نفوذ عليها، مو بالقبضة الأمنيَّة كما يظنّ البعض، لكن النفوذ بينعطى لأشخاص حاصلين على حماية النظام وبيشتغلوا على تكريس الولاء.

اليوم نحنا النظام، أنا وغيري منكره العائلة الحاكمة أو منحبّها، هي مشاعر ساذجة ما بتعني شي. أعلن الولاء للنظام لأنّي أريد البلد آمنًا، لا أفرض عليه تغييرات من الخارج لا تفهم طبيعته ولا منظومته. إذا أردت التغيير تعال وحطّ إيدك بإيده واشتغل معه.

عطيهم شي بيعطوك إشيا.

صمت الدكتور أنيس، وعلى عكس ما توقَّع محدِّثه، أجاب:

ـ أنا ما بدّي غير حقّي بدون ضغط ولا قمع، طبيعي إنُّو طالب بحقوق الناس المكرَهة.

ردّ الدكتور سعد:

ـ اسمع، إنت عندك فرصة وامتيازات عم تفرِّط فيها بغباء. اسمح

لي قولها. راح أعرض عليك شي بغيِّر حياتك، بيع البيت واشترِ أسهم بالمستشفى الثالث إلّي راح نشتغل عليه، وانتقل لتعيش هون.

دخلك في سورية حيكون أكبر من دخلك ببريطانيا تعال وساهمْ بشكل حقيقيّ بالتغيير والتحديث. وبتبقى معزَّز مكرَّم وما حدا بقرِّب منك.

أيّ شي بتريده لحياتك الخاصَّة ممكن تحصل عليه، أمَّا إنُّو تتبنَّى آراء الفاشلين من أمثال عيسى وسامية وشلَّة المثقَّفين إلّلي عم تستقبلهم ببيتك فهذا بيعمل تصنيفك من المحايد الإيجابي بالنسبة لأمن البلد إلى خطر محتمل.

الحجَّة التي دافعنا عنك فيها إنَّك ما بتعرف وزيارتك قصيرة، وفجأة صرت تتدخَّل في ما لا يعنيك.

قاطعه أنيس بحزم:

ـ عم تحكي كرجل أمن وسلطة مو كمدير مستشفى وطبيب. وعم تهدِّد زميل دراستك كأنَّك رجل عصابات. بتعرف شو! كلّ شي عم ينقال عنكم صحيح. نعم. ما لي علاقة بالمكان إلّلي بيخصّكم. لكن لأوَّل مرَّة صار إلي شأن بيلّي بيخصّني بالبلد.

ما راح بيع البيت يا دكتور سعد. وإذا كان ولا بدّ من دفع ثمن هالحقّ البسيط، راح أدفعه، غير هيك أنا غير معني بكلّ شي قلته وما بيهمّني.

كان يعرف أنَّه يقامر بالتحدِّي. فالرسالة واضحة. ما يمنعهم من توجيهها إليه مباشرة هو غطرسة الوضاعة لا أكثر.

غادر بدقَّات قلب متوتِّرة، لكنّ النشفان في الريق كان قد اختفى.

يوقف عبَّاس سيَّارته منتظرًا في الأسفل. يشاهد صديق شبابه

يخرج مرذولًا، يتبعه بعد قليل سعد الدين.

يتوجَّه إلى السيَّارة ويجلس قربه. وبعد صمت قصير، أطلق حكمه النهائيّ: بدُّو تكسير راس.

يردّ عبَّاس وهو يمسك بالمقود وينظر إلى الأمام.

ـ كان لازم أنا إحكيه.

ـ مجنون إنت. ترفيعات الضبَّاط على الأبواب، وإنت مستثنى من ثلاث سنوات. ما صدَّقنا لقينالك شيخ يعلّمك الدين. حضرتك تحت الأنظار. كلّ حرف محسوب عليك.

ـ سعد، آخر شيء بحياتي كنت أعتقد إنُّو الضبَّاط بهالبلد ليترقُّوا لازم يخضعوا لدورة تعليم دين خرافيّ من قبل مشايخ ساذجين؟

ـ احذر يا عبَّاس، تسعين بالميَّة من ضبَّاط البلد ما صحَّلن يبوسوا إيدين المشايخ وياخذوا البركة.

ـ الأمر هو فقط استعداد العشرة بالميَّة من الضبّاط يلِّي أنا منهم للإذلال.

ـ هيك الأمور ماشية، عملت واجبك تجاه صديقك وأكثر. باقيلك كم شهر سيادة العقيد ويتصير سيادة العميد. المستقبل كلُّو مفتوح أمامك بتضحِّي بهل كمّ درس.

ـ إنُّو معقول لازم جيب شلفون ـ ديك ـ وقرفة نبيذ وأطلب التزكية والبركة من شيخ ناديه «عمُّو سيدو» ليعلِّمني أسماء خمسين رجل من سلالة السرّ، ويطلعني على وصايا ونصوص أقرب إلى الشعوذة، وآيات من الجفر. كيف لازم صدِّق واحد أهبل ما معو صفّ سادس ليطلعني على السرّ العظيم، إنُّو الإمام علي مش وجه القمر بس، ولا

الأمير الحقيقيّ للنحل، ولا المظلوم يلّي سرقوا ولايته. لا هوي نفسو الله.

يلّي بيمسخ أعداء الإمام لحيوانات أو بيفسخهم لنباتات أو بيرسّخهم بحجارة. يا رجل، بأيّ قرن نحن؟

يبتسم الدكتور سعد ويقول: هذه الخرافات لا تؤذي أحدًا من الجيِّد أن تُفرغ غضبك أمام صديق وترتاح، لكن إن أخطأت الصديق الذي تبوح له، فقد يكلِّفك لسانك النجمةَ الجديدة على كتفك. والأنكى نقلك إلى الجيش النظاميّ.

غرقا في الصمت برهة. لو كان الأمر بيد سعد في تلك اللحظة لأشبع هذا الضعيف ضربًا. آخر ما يتمنّاه هو أن يتحوَّل إلى ناصح أبويّ لأمثال هؤلاء الضعفاء، لكنَّها الحاجة والصبر عليهم، وأيضًا حفظ كلّ هذه الأحاديث التي يسجِّلها للجميع ليستخدمها عند الحاجة.

(١٥)

فيديل

كان لي في دمشق، التي لم يعد لي فيها أحدٌ سوى قبور أمِّي وأبي وأخي فداء، أخواتٌ تزوَّجن وغادرن إلى بلاد أخرى. كنَّا نتحدَّث في الأعياد حديثًا فاترًا حتى انتهى الأمر إلى قطيعة بلا مشاعر.

أنا الآن في دمشق مشكِّكٌ في كلِّ ما فعلت، وفي كلِّ ما حدث لي. معركتي الآن مع قَدَري: ألَّا أسمح له بأن يفرض عليَّ سلطته من جديد.

كان الآخر دائمًا من يُحرِّرني، ولست أنا، كما فعل اليوم عمران حين فتح لي باب العودة. فعلها سابقًا أبي وخالي محمود ورويدا وهيلين، وليست لارا آخرهم. بل ربَّما ما فعلته لارا هو أكثرُ فعلِ تحرُّرٍ ما زال يأسرني حتى اليوم.

كنت غارقًا في قراءة مذكَّرات هيلين، بعد سبعة أيَّام من موتها، وأنا أذوب ندمًا. لقد كان حبًّا ذاك الذي جمعني بهذه السيِّدة النبيلة. فالنُّبْل هو ما يجعلك مشدودًا إلى الأنثى، لا جمالُها أو جسدها. وقلّة النبل هي ما يجعلك تهرب منها، لا شيءٌ آخر.

كيف هدرتُ السنين الماضية قربها من دون أن أراها من الداخل كما رأتني؟

بتّ أستعيد كلّ ضحكةٍ؛ كلَّ وجبة؛ كلَّ موقف. أستعيد ما منحتْني إيَّاه بلا حدود أو شروط. كان لديَّ امرأةٌ عظيمة لا تتكرَّر، فرَّطت بها بسذاجتي. كانت تتوقَّع أن أكون المعجزة التي ستُنقذها من إعاقة الموت، لكنَّني لم أكن مؤهَّلًا لهذه الأمر، ولم أكن خبيرًا بذلك.

سبعة أيَّام من الندم والبكاء مع كلّ جملة أقرأها لها. أُعيد رؤيتها من خلال الكلمات، كيف كانت تقاوم رغبتها وتقاتل أنانيَّتها. وكانت تحيلني إلى كتلةٍ غاضبة مشبعة بالفقد، مع كلِّ موقف جرحتُها فيه ولم أنتبه، ومع كلّ فكرة كتبتْها عنِّي.

قرّرتُ الخروج لشراء بعض الحاجيَّات. فتحت الباب الخارجيّ ووقفت. حاولت التقدُّم، فلم أستطع. حاولت بكلِّ جهدي أن أخطو إلى الخارج، فعجزت. كلّ خطوة في الحياة ستعني لي ألم الندم الوخّاز. تراجعت إلى الخلف. جلست على كرسيِّها المتحرِّك، وانسللت بهدوء إلى الخارج وصرت أَسير الكرسيّ الجديد.

كنت أنزلق في الأسبوع الثالث، أكثر فأكثر في عالم هيلين. أنام متوسِّدًا ثيابها، ثم صرت أرتديها وأقرأ مذكَّراتها. أعيش بحرفها وروائحها. أغار من إدوارد وأجادلها. أنظر إلى المرآة فأراها. أغرق في الكحول أكثر. أسلِّمها جسدي لتتنفَّس من خلاله فلا تغادر.

وكانت لارا منقذتي. اقتحمتِ المكان من الحديقة بعد أن أحكمتُ على نفسي طوق العزلة. دخلتْ لتجدني مرتديًا ملابس هيلين مصمَّغًا على كرسيِّها، أرتشف كأس غيابها.

هالها مآلُ حالي، فطالبتني بهدوء بأن أقف، فوقفت. وأرغمتني

بلطف على السير إلى الأريكة. شرعَتْ في فتح السائر كان النور صادمًا، وغضبُها يتصاعد وهي تكتشف ماذا أفعل بنفسي.

لم أكن أستطيع الكلام. أراها تتَّصل بالإسعاف تطالبها بالمجيء بسرعة. تمسك بقناني الكحول وترميها في سلَّة المهملات. تكوّش دفاتر المذكَّرات التي تصفحَّتْها على عجل، وتضعها في كيس أسود وتجرّه إلى غرفة الخردة. وتعود غاضبة لتحطِّم الكرسيَّ المتحرِّك، وتهجم عليَّ تمزِّق قميص النوم الذي أرتديه. وحين وصلت سيَّارة الإسعاف أدخلوني الحمَّام، فانهمر عليَّ لسعُ الماء البارد لأغيب عن الوعي وأستيقظ في المستشفى.

خرجت بمساعدة لارا من دوَّامة الفقد المؤلم وانتقلت إلى شقَّتها. وبفيض جسدها، تحرّرتُ من رائحة المرأة الميِّتة. وبمساعدة مركز الرعاية النفسيَّة، تخطَّيت كلّ شيء.

كانت زيارتي الأخيرة لقبر هيلين لائقة. باقة من زهور التوليب، ونسخة من كتاب مذكَّراتها الذي حرصتُ على نزع الصفحات التي تخصّني منه. أعطيته لناشرٍ حسم أمر تردُّده في نشره حين أخبرته بأنِّي أستطيع دفع التكلفة. قالت لارا:

ـ اليوم أدَّيتَ ما عليك، دعها ترقد بسلام.

فقرَّرنا أنَّ الوقت قد حان لأن نترك لندن ونرتحل في العالم.

وضعنا جدولًا للمشاركة في أربعة وعشرين كرنڤالًا حول العالم. اشتريت معدَّات تصوير، وانطلقنا شاكرَيْن سخاءَ هيلين وكرمَها، ممتنَّيْن للحياة، ومنخرطَيْن فيها نوثِّقها بالحواسِّ والصور. وامتدَّت الرحلة من ثلاثة أشهر إلى عام ونصف عام، نجولوا فيها بين قارَّات العالم، من أقاصي القطب إلى مجاهل أفريقيا. تعلَّمنا السامبا في كرنڤالات ريو،

وانغمسنا في ماري كرو في نيو أورليانز في مواسم الأطعمة والموسيقى، وخلعنا الأقنعة في مهرجان فينيس للأقنعة. وشاركنا الصيَّادين في دنكك في مهرجان العزف على المزامير والدفوف، وسكرنا في بابدوس على شاطئ الكاريبي حتى الانطفاء في احتفالات قصب السكَّر.

تحدَّثنا طويلًا عن الموت في مهرجان «يوم الموتى» الذي يحتفل به المكسيكيُّون في أميركا بعروض ملوَّنة وأزياء مميَّزة، وتراشقنا بالماء مع المحتفلين بعيد رأس السنة التايلانديَّة، سونغكرام، برفقة فِيَلَة مدرَّبة على رشق المياه من خراطيمها. وكادت الحساسيَّة من الطماطم تفتك بلارا في مهرجان رشق الطماطم في توماتينا في إسپانيا. وانغمسنا في الصخب في بحر من الألوان في الهند.

كنّا في أعلى قمم الإنارة والاستثارة في مهرجان المصابيح في تايوان، حيث تتألَّق السماء في لحظة واحدة بأكبر عدد من الفوانيس يمكن تصوّرها

هكذا اخترنا أن نختبر العالم. ما أروع أن تكون شاهدًا على كرنڤالات الشعوب والمدن، ملتقطًا صورَ الإنسان في جنونه وفنونه وتجلِّياته وألوانه واحتفالاته بحواسِّه ومعتقداته وخرافاته، برفقة شريكةٍ شرهة للحياة، وخفيفة على القلب والعقل. لم أقل كلمة حبّ واحدة للارا، ولم تُسمعني مرَّة واحدة أنَّها تحبّني. لذلك لم نختلف أبدًا

عامان من الترحُّل في اكتشاف العالم، لا نعبأ بما يحصل في نشرات الأخبار. علَّمتني أنَّ السفر في آخر العمر هو خيانة للعمر. لكنّ سفرًا كهذا في مقتبل العمر ستعوزه الحكمة لاستخلاص فوائده. وحين اكتشفنا أنَّ ما بقي في الحساب البنكيّ يكفي فقط للعودة إلى

لندن، كنَّا محتاجَيْن معًا إلى التصالح مع فكرة أنَّنا أنفقنا كلّ ما لدينا. في تلك اللحظة، بحت لها أنَّني لا أحبّها ولا يمكن لي أن أحبّ. حدث ذلك قبل أن نختبر الكرنفال الأخير.

اكتشفت علاقتي بالألم والقدرة على احتماله في مهرجان الثيابوسام؛ فنِّ تعذيب الجسد لدى الهندوس. فعند اكتمال القمر، من يتحمَّل الألم أكثر يَنَلِ البركة الأكبر. الألمُ الحقيقيّ الذي يحملك إلى ما بعده. اللذَّةُ المصاحبة لمن يعايش الاختبار الإلٰهيّ للإنسان، للوصول إلى نشوة الخلق نفسه. تماهت لارا معي كمتألِّمة ومؤلمة. تبادلنا الأدوار. لم أصل في حياتي إلى مثل تلك اللحظة التي راقبتُها فيها متألِّمةً تطلب البركة والمزيد، وتطلب، في أقصى حالاتها المازوخيَّة، الصفحَ والغفران. فُتحت عيوننا بوحشيَّة على رجال ونساء يخرقون أجسادهم بالأبر، ويدوسون على جمر النار، ويجلدون أنفسهم بالسياط، ويختبرون الألم الواضح والمباشر. وكلَّما ارتقوا في درجاته تحرَّروا أكثر. وحين يصلون إلى مشارف الصراخ يبتسمون.

امتزج اللعب بالجدِّ، والنشوةُ بالعقاب، واللذَّةُ بالكد، والمعرفةُ بالغموض، والابتهالُ بالصدّ، واليقينُ بالشكوك. عدنا إلى لندن مفلسَيْن تمامًا، نحمل اكتشافًا مبهمًا لحقيقتنا الداخليَّة: هل فعلًا لا يمكن أن نعيش إلَّا في حالة متطرِّفة من الجسد لنحصل منه على رخاء القلب، أم أنَّ الغرابة والتطرُّف يحرِّضان الفضول ويدمِّران الحقيقة؟

وصلنا إلى شقَّتها في كامدون. وبعد استراحة لأيَّام، لم نعد نستطيع أن نستعيد تلك اللحظات العظيمة التي حصلنا عليها في الهند. بدت كلّ محاولاتنا ساذجة لتحريض المخيِّلة وممارسة الغواية بالعنف. لم نعد نستطيع أيضًا أن نتواصل، حتى في الحدّ الطبيعيّ من لقاء الجسدين.

القلق من استحقاق الواقع. العقل المسيطر المتسائل والذي لم تُرضه نتائج الجسد الساذج، وعدمُ النضج في تحويل الغرائب إلى وعي يمكن الاستفادة منه. الاستنتاجُ المنطقيّ عرّض علاقتنا لصقيع بدأ يحلُّ سريعًا

بدأت لارا بالخروج بحجَّة البحث عن عمل، وبقيت في البيت أرتِّب حصيلة الرحلة. عاد الندم والخوف ينتابانني من حجم الأخطاء التي وقعت فيها فأنا لست أمينًا على جسدي، ملعونٌ في الدنيا وستأكلني نار الآخرة. فضل الذي غاب عنِّي، بعد أن قمعته غرائزي وشهواتي وفضولي وسفري، عاد يتسلَّل إلى ضميري، دافعًا بي إلى جامع لندن، متهالكًا تحت وطأة مشاعر قاسية من الذنب، ساقطًا في هاوية الخوف القديم. فاحتلَّ الصمت المساحة بيني وبين لارا التي فشلت في فهم هذا كلّه. لم نعد نلتقي إلَّا لمامًا، وبتُّ أنام في الصالون، محاولًا الاستيقاظ والخروج قبل أن تصحو.

عادت متأخِّرة، في إحدى ليالي الجمعة، بصحبة رجل آخر. بالكاد ألقيا عليَّ التحيَّة ودخلا غرفة النوم. لم أستطع البقاء، فخرجت ماشيًا طوال الليل حتى موعد صلاة الفجر في جامع لندن الكبير. كانت صلاة من الدموع والاستغفار والنشيج.

عدت في الصباح. كانت أغراضي تنتظرني إلى جانب الباب.

حياتي محاولات لا تنتهي للشفاء من كدمات القدر، لكنَّني تشرَّدت هذه المرَّة في عمق المدينة وليس على سطحها. أسأل نفسي، بلا مواربة، عن معنى الحياة؛ عن معنى حياتي. قال الإمام بعد أن أنهينا صلاة الفجر:

ـ هذا عنوان جمعيَّة الإخاء. سيكون هناك اجتماع للأخوة

القادمين من جميع أنحاء بريطانيا بعد صلاة الجمعة، للتنسيق لشهر رمضان القادم. سيكون من الجيِّد أن تتعرَّف إلى الكثير من الأخوة النشيطين والجيِّدين.

الشيخ شاهين صديق مقرَّب إلى الشيخ غسَّان، وهو من ساعدني خلال الأشهر الماضية على استعادة حياتي، وصرت مَدينًا بالكثير له ولجمعيَّة الإخاء.

معظم أعضاء الجمعيَّة من النخب المسلمة، تمتدّ أياديهم الخيِّرة البيضاء إلى كلٍّ أنحاء العالم.

ولديها متكلِّمون متنوِّرون في كلٍّ مكان؛ في الجامعات، ومؤسَّسات الإعلام، والمراكز الاقتصاديَّة. ولديها مراكز للتعريف بالإسلام، يبدأ التعليم فيها باللغة العربيَّة، ولا ينتهي بمساعدة المسلمين الجدد في التفقُّه.

أعطاني الشيخ شاهين وظيفة مدرِّس للغة العربيَّة بدوام كامل، وساعدني هذا الأمر في تلك الفترة التي استطاع فيها فضل أن يحميني من آلام كثيرة أكبر من قدرتي على مواجهتها في مهرجان الواقع. كانت ردّةً في اتِّجاه الله بمزاج الاستغفار والتذوُّق اللذيذ للإيمان.

هناك نوع من الرضى الداخليّ لا يمكن أن يقارَن بأيّ لذَّة في الحياة، حين يتآلف داخلك مع خارجك؛ حين تتوارى أسئلة الحياة الآنيَّة وتُستبدل بتذوُّق الحياة الباقية؛ حين تجد الإجابات الشافية للعقل المؤمن عن المساواة والعدالة والحقّ.

يُخطئ الكثيرون من اللادينيِّين حين يسخرون من المؤمنين. من ذاق حلاوة الإيمان عرف قيمته، ومن عرفه اغترف منه. شيء يشبه النشوة التي تمنحك إيَّاها أوَّلُ جرعة من الكوكايين. تذوُّق حلاوة

الخروج من سجون العقل. تنجح في الوصول إلى الممالك الداخليَّة لنفسك، فتزيد في الكمِّيَّة للبقاء في سحر العوالم التي تجدها تمنحك موجات متلاحقة من زبد النشوات الجديدة، ليضجّ الجسد بهورمونات السعادة والقوَّة حين تعثر على الإجابات.

بعد أن سكنت الإنسانيَّة قرونًا في سجون العقل البارد، أنتجت لغة وهميَّة للسيطرة والنفوذ. يخشى الأنانيُّون الذين يحكمون، أن يكتشف المحكومون الحقائق. لذلك يتمّ تخريب الطاقة الروحيَّة بتحويلها إلى صراعات مجدبة وعدوانيَّة، وإغراقِها في الاتِّهام.

كانت الطُّرُق إلى معرفة الله محفوفةً دومًا بالتضليل. لا يكفي أن تصبح ملتزمًا بالتعاليم، بل عليك أن تبدأ تلك الرحلة الشاقَّة لتجد الطريق المناسب. سماسرة الدين طوَّلوا الطريق بنصب الشواهد المزوَّرة التي تؤدِّي إلى اللامكان. وعليك أنت أن تجد العلامات بنفسك.

كان عليَّ تنظيف جسدي من المخدَّرات والكحول في البداية، طوال أربعين يومًا متواصلة. قرأت القرآن من جديد، ولم أفوِّت صلاة، وأعدت تلك العلاقة الشهيَّة مع السماء.

لم يمض على عملي في مركز الإخاء بضعة شهور، حتى فاتحني الشيخ شاهين بأنَّ عليَّ أن أتمّم نصف ديني. رشّح لي مريم للخطبة. التقيتها عدَّة مرَّات، فهي مواظبة على حضور دروس اللغة العربيَّة. فتاة تضجّ بالحيويَّة، تعمل خبيرة بالتغذية ومتطوِّعة في الجمعيَّة. وُلدت في بيرمنغهام من أب أفغانيّ من البشتون وأمّ إنكليزيَّة من ويكفيليد، ما أعطاها شكلًا مميَّزًا بين الحضور. محجَّبة وملتزمة، فخورة بجذورها وإسلامها. لم يكن صعبًا أن نلتقي في فترة من الخطوبة. كنت أحتاج إلى امرأة تسكن إليها روحي المولودة من جديد. فحين تنظّفُ جسدك

من احتلال الكحول والنيكوتين والمخدِّرات، تنظِّف روحك أيضًا، ثم يصفو عقلك. تمَّ الزفاف، واستأجرنا بيتًا في ميدافيل.

كلُّ شيءٍ له طعم الهدوء، والحياة تسير في روتين خالٍ من المفاجآت. كلُّ شيء يمكن توقُّعه، والسعادة الداخليَّة تنبعث من الهدوء الروحيّ وتوقّف صخب النداءات الغامضة التي تدعوك بإصرار إلى المغامرة والمجهول.

لم يكن التدريس يناسب مزاجي، وخصوصًا أنَّ معظم الطلّاب كانوا يودُّون سؤالي عن الدين أكثر ممَّا يرغبون في تعلُّم العربيَّة. فالمنهاج الدينيّ المتَّبع في أوروپا عمومًا، وإنكلترا بصورة خاصَّة، يعتمد على العدد لا على النوع، وعلى الشكل لا على المضمون، وعلى تكريس سلطة أنصاف الشيوخ لا على خلق التنوير، وعلى الإصغاء وإحصاء الحَسَنات والوعود بالجنَّة لا على الاندماج والتفاعل والعمل مع الجميع في مجتمع يتقبَّل الاختلاف!

شكليًّا، كلّ المنظمَّات المرخَّصة تقدِّم خطابًا معقولًا، لكنَّ التديّن هو تحطيم الأنا العُليا وزرع محرَّمات ومحلّلات جديدة فيها، والبناء عليها. يشبه الأمر زرع ڤيروس في حاسوبك. سلاح الحلال والحرام هو أوَّل استعباد الخلق استعدادًا لنفي الآخر.

بعد فترة من الالتزام، لا يستمرّ بعض الداخلين الجدد في الإسلام في الإنصات إلى شيوخ الاعتدال، وهؤلاء لا يستطيعون إرضاء نهمهم للمعرفة والفعل، فيبدأون بالانجذاب إلى الخطاب الذي يعزِّز روح الخلق الجديد.

لم يستطع المهاجرون من الجيل الثالث الاندماج حقًّا، ليس لأنَّهم لا يريدون ذلك، بل لأنَّ النظام الموجود، على الرَّغم من براعته

وشعاراته وقوَّته، لا يقبلهم إلَّا شكليًا.

فآباؤهم وأجدادهم هم من بنى أنفاق لندن وجسورها وبنيتها التحتيَّة. أكثر من مليوني مسلم قاتلوا مع الحلفاء في الحرب العالميَّة الأولى، ومثلهم في الثانية، والنتيجةُ أنَّهم بقوا على الهامش. جيل من السخط يتغذَّى بالإسلام الجديد الحادّ المؤسَّس على المظلوميَّة والمساواة الحقَّة بين المظلومين.

يعرف كيف يخاطب فيهم كرامتَهم الشخصيَّة وخصوصيَّتهم وفرادتهم. جيل تلقّى تعليمًا جيِّدًا، يمتلك صحّة ممتازة، وثقافة ذكيَّة. يفهم في التقنيَّات، ويعرف أسرار الحداثة، لكنَّه بقي منبوذًا ومتَّهَمًا. يأتيه الإسلام ليخلِّصه من إحساسه الدائم بأنَّه مواطن من الدرجة الثالثة أو الرابعة. التطرُّف في الغرب مَثَلٌ صارخ على بداية اهتراء العَقد الاجتماعيّ الذي ابتلعته الرأسماليَّة المتوحِّشة، وينبئ بأنَّ القادم أخطر بكثير.

يكفي أن يتسلَّل التطرُّف إلى واحدٍ من كلِّ خمسين ألفًا ليشكِّل نواةً محتملة للإجهار بأنَّ الفرد منهم لم يعد يقبل بأن يكون نكرةً مرَّةً أخرى، وعلى سياسة هذا البلد أن تدفع الثمن.

كان زواجي من مريم محاولة منِّي للاحتماء بالجماعة، واستطعت في البداية أن أحقِّق هذا الأمان. لكن، شيئًا فشيئًا، بدأت صدمتي، ليس بالإيمان، فهو ليس بالأمر الجديد عليَّ، وإنَّما بالزواج في حدِّ ذاته. كيف يبدأ المرء بربط نفسه بكثير من الأثقال من غير أن يدري، لتصبح مشيته ثقيلة ورغبته بطيئة. يتراكم على حياته غبارُ الملل وتبدأ العادة بقضمه لقمة لقمة.

إذا فشل الزواج في التحوُّل إلى صداقة عظيمة، فإنَّه سيؤدِّي حتمًا

إلى مصيبة كبيرة. بدأ كلّ شيء بعد أشهر يتحوَّل إلى كارثة: التدريسُ والجمعيَّة والزواج والأخوة الجدد. كنَّا ننتمي إلى عالمين مختلفين، ليس لأنَّنا من ثقافتين مختلفتين فحسب، بل أيضًا لفشل ثقافة البلد الذي نحيا فيه في أن تجمعنا. وتدريجًا، تحوَّلت الاختلافات إلى خلافات، ومشاعرُ الودّ إلى انتقادات، والثقةُ إلى غيرةٍ وشكوك.

لن أستطيع أبدًا التعايش مع الزواج، حتى استحكم الاختناق والحصار والقوانين الشرعيّة والأسئلة اليوميَّة عن الحلال والحرام. في البداية، كنت أهرب من البيت بالانخراط أكثر في العمل. كان هذا الفعل بمثابة التأجيل الحتميّ للانفجار، أو انتظار معجزة من الخارج لإيجاد الحلّ. كان اعترافي لها عن حياتي السابقة أغبى ما فعلت، فكأنَّني أعطيتها بدلًا من الصدق والتطهّر والثقة، السبب المباشر لأحوِّلها إلى امرأة قلقة مرعوبة من أنَّ تلك الحياة الماضية قبلها، قابلةٌ لأن أستعيدها في أوَّل فرصة.

وبدلًا من أن تثمّن صراحتي، تحوَّلت تلك الحكايات إلى إدانتي. فخوفها من الفقدان، أو من أن أقوم بخيانتها، جعلها في حال من الاستنفار الدائم، وفقدانِ التوازن، والبحثِ المستمرّ عن أيِّ علامة، والشكوكِ في أبسط البديهيَّات، والحنقِ إذا ما ذكرت شيئًا من الماضي. فالخائف يتعلَّم رويدًا رويدًا الاحتراس، ويتقن فنون الافتراس.

وفي لحظة من لحظات الهدوء النادرة، قالت لي مرَّة:

ـ أنا ضِفَّتُك المقابلةُ. الحبّ يحتاج إلى ضفَّة يا فضل، وأنت ضفَّتي. يمرّ نهر الحياة بيننا، لكن يجب أن نصنع جسرًا بين ضفَّتينا

ـ ما تصنعينه هو شدُّ الضفَّة إلى الضفّة وتحويلُ النهر إلى ساقية.

ما تريدينه يا مريم هو أن تلتصق الضفَّتان. حينها سيختفي كلّ الماء يا زوجتي.

يجب أن نبقى، كلٌّ على ضفّته، وحين أشتاق إليك أُبحر في اتّجاهك، أتبلّل لأصل إليك. كلّ جسر هو ثبات. يجب أن نمشي مع ماء النهر. الجسور قضبان يصنعها البشر ليسقفوا نهر حياتهم بحجَّة التقارب والعبور.

لا يحتاج الحبّ إلى ضفَّة، بل يحوِّل النهر إلى بحر ولا يحتاج إلى مراكب، بل إلى غطّاسين مهرة وسبّاحين ومخاطرين وصيّادين صبورين.

أمضيت بضعة أشهر من الزواج متخفّيًا بلبوس القبول والمحاولات البائسة للبقاء في مملكة المؤسَّسة السعيدة، والرفضِ الحاسم للنزول في داخله خوفًا من الحبل. بضعة أشهر جعلتني أكره نفسي. فلا شيء أشدّ بشاعة من أن يجعلك من تحبّ تكره نفسك بذريعة أنَّه يحبّك.

لا شيء أكثر سخفًا من مريض يحاول أن يبدو متعافيًا، وساذجٍ يحاول أن يبدو متثاقفًا، ووضيعٍ يحاول أن يبدو راقيًا، وزوجين يحاولان تمثيل دور السعيدين.

الجهد الذي نبذله لإخفاء حقيقتنا مثيرٌ للسخرية. زوجتي التي تريد أن تكون ملتزمةً ومحبَّة، تلبس الأقنعة. تمارس رقابتها المؤذية وسلطتَها القبيحة بالغشّ، بجعلي دائمَ الاتّهام ومشتبهًا فيه طوال الوقت. فالانصياع لها يُريحها ويدمّرني، وغيرتها تتفتَّق عن ألف خديعة. تهمتها جاهزة بحجَّة أنَّ لي تاريخًا أسود، وتبريرُها الدائم أنَّها تفعل ذلك باسم الحبّ. كان هاتفي، بريدي الإلكترونيّ، فواتيري، معرَّضةً كلّها للتمحيص والمراجعة والسؤال والتقصّي والتحقيق.

فأصبح البيت هو الجحيم الذي أدخله معذَّبًا، وأخرج منه هاربًا.

أعاود العادة القديمة بالتجوُّل بلا هدف؛ بالمشي في الشوارع، ومراقبة الوجوه العابرة في لندن المحتشدة بكلِّ أنواع النساء والرغبات. أحدِّق في الشقراوات المرتديات الملابسَ السوداء، تتقدَّم إحداهنَّ في جوار ڤيكتوريا ستيشن، ولا شيء يمكن إيقافها. تشقّ ابتسامتُها البردَ، لامستني بأريج متدفِّق من نسائم العطر، برائحة قشرة الحامض الأفريقيّ وجذور الكهرمان. مخلوط عطرُها بعاصف من خمائر النارنج وروح النعناع، وقد اكتسح أنفي وحرَّره من زكامه. استعدتُ، في تلك اللحظة، نعمة الروائح، وبدأتُ أنفكُّ من لعنة البيت.

عبرت تلك المجهولة المضمَّخةُ بالعطر أمامي، فحرَّكت نفسي قليلًا لأستنشق أكبر قدر من شذاها. أودّ لو أحظى بلمسة معطفها الأسود، وسأكون محظوظًا لو اصطدمت بها، لكنَّها تجنَّبتني بخفَّة وتابعت الطريق. في شوارع لندن الخرساء والتي لا تتقن الإصغاء، يحشو الناس آذانهم بسمَّاعات الموسيقى، يسمعونها وحدهم، ولا يشاركهم فيها أحد. هل توجد أنانيَّة أكبر من هذا؟

يعبرون مكتفين بأنفسهم بآذان صمّاء وعيون محايدة، ويتركون حولهم النداءات البكماء.

مع عودة الروائح إليَّ، عادت الرؤية والحكمة أيضًا، وبدأ فيديل كأنَّه يستيقظ من سبات طويل.

قلت لمريم:

ـ أنت امرأة ملتزمة ومتديِّنة والقرآن أعطاني الحقّ في الزواج من أربع. ماذا لو تزوَّجت من أخرى وسأحاول أن أكون عادلًا

فرأيتها، كما لم أعهدها من قبل، تستشيط غضبًا، وتنتفض مثل ملسوعة، وتصيح مهدِّدة:

ـ سأتَّصل بالشرطة، وأضعك في السجن. لا يمحنك القانون هنا هذا الحقّ.

ـ تتكلَّمين الآن على احترام القانون في بريطانيا الكافرة!

أسوأ ما في المتديِّنين، وليس المؤمنين، أنَّهم بلا قيم واضحة، يطوِّعون كلّ شيء لخدمتهم.

ـ أنت غير مذنبة. لا ذنب لك في ذلك، أنا سأتحمَّل عنك عقوبة نقضك للصوم، قلت لها بعد أن أغويتها بممارسة الحبّ في رمضان قبل الإفطار.

ـ لكن هذا حرام يا فضل.

ـ العبادات والطقوس هي للأشرار، وأنت خيّرة يا مريم. أنا زوجك وحلالك. دعك ممَّا تقوله تعاليم الشيوخ. الخيّر لا يحتاج سوى إلى أن يُبقي عينه على داخله.

استسلمت حينها فقط، وافترقنا. ومع هذا الطلاق الهادئ، تركتُ التدريس، والتحقت بشركة كبرى للإعلان كمصمِّم ومدقِّق، ثم أصبحت مخرجًا، ثم منتجًا منفِّذًا عن الشرق الأوسط. تمَّ انتدابي للعمل في فرع الشركة في دبي. ومع سفري إلى الإمارات، اختفى فضل حزينًا مهزومًا مرَّةً أخرى، وتقدَّم فيديل ليثبت نفسه، ليس في العمل فحسب، بل أيضًا ليكون واحدًا من أهمّ صنّاع الصورة في العالم.

(١٦)

ليل

كان تحذيرها كافيًا لتضع حاجزًا بينها وبينه، وتفتعل أقصى درجات الأمان الشخصيّ:

ـ هاد الرجل نسونجي، ديري بالك. مشموس على الآخر بدبي، شايفتو عمًّا يحوم حواليك؟

ـ مين قصدك.

ـ هاد الطويل شوي، أبو جاكيت عسلي.

أوقفت ابتسامة ليل الصفراء سيلَ النميمة القادمَ إلى مسمعها

ـ يسترجي يغلط، بخلِّيه يذوق طعم هالكندرة!

ميسون سيناريست مطلَّقة، تخترق الأوساط الوسطى والعليا في دمشق بقدرتها الفذَّة على الثرثرة والتملُّق، ومعرفتِها كلَّ شاردة وواردة تحدثان بين العائلات الراقية. وصلت مرَّتين إلى القصر لتحظى برعاية السيِّدة الأولى وتلتقط صورًا مع أسماء الأخرس، زوجة بشَّار الأسد، كبّرتها ووضعتها في صالون بيتها صار أثاثه يتجدّد كلّ بضعة أشهر مع ارتقاء ملحوظ في قلَّة الذوق. وعلى الرَّغم من فضولها، فقد كان عليها

الاختيار بين الإنصات إلى ثرثرتها وأن تستجيب له:

ـ دكتورة ليل؟

التفتت إلى مصدر الصوت خلفها كان يقف أمامها بكامل هيبته وابتسامته الغامضة، ونظراتُه الوحشيَّة تنغرز فيها ولا توحي بالثقة:

ـ أنا فيديل عبد الله.

ردَّت ببرود راسمة على وجهها علامةً صارمة مبالغًا فيها

ـ أهلًا

حاصرها بصحنه الفارغ وهي منتظمة في الصفّ لتناول الطعام من البوفيه المفتوح، وقال:

ـ نخرج نشرب فنجان قهوة بكرا على فضاوتك.

ـ لأ طبعًا.

ـ لأ طبعًا!

أعاد طريقتها في الردّ النزق مع ضحكة مسموعة. اكتسى وجهه بتلك المسحة الغريبة: مزيج من الطفولة والتهريج، وتحوَّلت عيناه الذئبيَّتان إلى طفوليَّتين. انتظم وراءها يختار ما تختاره من دون أن يستلسم.

ـ ماشي، بس كنت بحاجة تكوني بالفيلم الإعلانيّ وتحكيلي شويَّة أفكار عن المستشفى منشان الإعلان.

ردَّت بهدوء أكبر

ـ كلّ يلّي بدّك ياه بيوصلَّك على الإيميل، وأيّ استفسار بتجاوبك عليه مسؤولة العلاقات العامَّة والتسويق يلّي راح تتابع معك ومع شركتك.

ـ بس إنت صاحبة الفكرة عن ربط الترويج والإعلان للمستشفى

بحملة التوعية لسرطان الثدي، هيك خبَّرني السيِّد عمران.

ـ مو أنا لحالي، الدكتورة هيام يلِّي التقيتها اليوم هي صاحبة الفكرة، أنا طبيبة نسائيَّة وأطفال، وشجَّعتها إنُّو لازم يكون في إعلان مو تقليدي يجمع الفكرتين سوا: التسويق للمشفى من جهة، والتوعية من جهة. يعني شغلي مو معك أبدًا. أبدًا.

وهربت من أمامه مصرّة ومشدِّدة على كلمة أبدًا، التي خرجت من بين شفتيها مرفقةً بابتسامة خفيَّة حاولت جاهدة السيطرة عليها، لكنَّه لمحها حين استدارت، فاقترب منها مادًّا رأسه قريبًا من وجهها، مستنشقًا عطرَها:

ـ وجود أطبَّاء موثوقين بالفيلم بيعطيه قيمة حقيقيَّة. وجه مثل وجهك متأكِّد إنُّو الكاميرا راح تحبُّو. بكرا الساعة ١١ راح كون عندكم بالمستشفى لإستكمل المقابلات. أكيد مهتمّ شوف الدكتورة هيام، بس راح كون سعيد إنُّو شوفك.

ابتعدت بلطف، وأخذت مسافة أمان منه:

ـ مين حضرتك بالضبط؟

ـ المخرج المنفِّذ، أمثِّل شركة «آر أس تي» الدوليَّة. أصولي سوريَّة. مكلَّف بعمل فيلم إعلانيّ عن سلسلة المشافي يلِّي بيملكها الدكتور عمران. يوم عرفت إنُّو المشفى تبعكم طالب مساعدتنا لعمل إعلان عن السياحة العلاجيَّة بسورية، قرَّرت إجي بنفسي. التكلفة العلاجيَّة بسورية ونوعيَّة الخدمة والأطبَّاء، بتأهِّل هالبلد يبلِّش بخُطى لقدَّام، بشي غير المسلسلات.

ـ ههههه، شو خصّ المسلسلات.

ـ الصناعة السوريَّة الوحيدة يلِّي بيفتخروا فيها السوريين. بعتقد إنُّو

آن الأوان يسمحوا بنوع آخر. وبما إنُّو المسؤولين بلَّشوا يستثمروا بقطاعات ثانية غير الدراما والمطاعم، فالأَولى يكون القطاع الصحِّيّ ببلد في أكثر من مئة ألف طبيب، ناقصهم الفرص الحقيقيَّة ليعملوا فرق.

تلاشى تحذير ميسون تمامًا وهي ترى نوعيَّة الحديث الذي يتقن هذا الرجل جَدْلَه، فأمضت معظم تلك الأمسية الاحتفاليَّة التي ينظِّمها مستشفاها برفقته.

وقبل أن يتركها ويمشي ليقابل الدكتور عمران، الذي أومأ له من بعيد، رمى لها بذلك الفخّ الذي جعلها ترتبك:

ـ بالمناسبة، ما عاد تستخدمي غوتشيه، ما بيلبقلك.

ومضى بعيدًا عنها تاركًا إيَّاها في حال حبور مباغت، ووجهها محبوس على ابتسامة تعذِّبها. هربت إلى الحمَّام. حدَّقت في وجهها البيضاويّ وسيم المعالم، وشمَّت بعفويَّة نفسَها. ولأوَّل مرَّة منذ سنوات، لم تستسغ عطرها.

كأنَّها ترى وجهها بعد طول غياب. تجاعيد خفيفة تحت العينين. آثار الاستعداد لدخول الأربعين بعد ثلاثة أشهر. بضع شعرات فضِّيّة. أخيرًا حان موعد الصبغ لستر الشيب القادم. ثمَّة لمعة في الحدقتين الغامقتين باللون البنِّيّ المحروق، تومض كلّما انسبلت عليهما الرموش متوسِّطة الطول. الأنف جميل، والحاجبان طبيعيَّان للغاية. الذقن دقيق، والشفة السفلى نافرة قليلًا باكتناز مُغْرٍ، بلَّلتها بريقها بحركة لاإراديَّة حين وقعت عينها على فمها. شهّلت صدرها الصغير، وتأمَّلت بطنها المشدودة والتي بذلت جهدًا كبيرًا بعد ولادتين لاسترداد جمالها رأت نفسها مثيرة ووسيمة، مثل الأيَّام البعيدة يوم كانت طالبة في كلِّيَّة الطبّ.

كان يكفيها أن تلوي الأعناقَ ببساطة مشيتها وخفَّة حضورها، وكان يُغني جسدَها وروحها الإعجابُ والتلطيشُ وغرزُ الأعين في الأماكن التي تعرف كيف تُظْهرها بعفويَّة من دون ابتذال.

الدكتورة ليل امرأة ناجحة، ذكيَّة. والدها المتقاعد كان كبير القضاة في المحكمة العليا، وبروفيسور في كلِّيَّة الحقوق، وإحدى أبرز الشخصيّات القانونيَّة في البلد. وأمّها صيدلانيَّة ومدرِّسة في كلِّيَّة الطبّ والصيدلة ومعهد التمريض. سيِّدة يُشهد لها بالصرامة والاستقامة. ولليل ثلاث أخوات، طبيبة أسنان تُقيم ببيروت مع زوجها طبيب التجميل الناجح، وطبيبتان، واحدة للعيون والأخرى مختصَّة بأمراض الدم، تزوَّجتا وهاجرتا إلى كندا والولايات المتَّحدة. ولها شقيق واحد أكمل دراسته في كلِّيَّة الطبّ، والتحق بمنظَّمة أطبَّاء بلا حدود، يمضي وقته بين الأوبئة والحروب، محقِّقًا الفخر للعائلة الطبِّية المثاليّة، وتاركًا أفرادَها بين القلق الرقيق عليه والشوق الدائم إليه. وعدا عن ذلك، كلّ ما في حياتها كان محسوبًا وواضحًا، ابتداءً من حتميَّة دراستها الطبَّ، وانتهاءً بزواجها بطبيب الأورام الذي يكبرها ببضع سنوات.

الخرق الوحيد الذي حاولت فعله، أنَّها أحبّت في سنتها الثانية خرِّيجًا حديث العهد من كلِّيَّة الصحافة. قصَّة لطيفة جعلتها ترتعش وتفرح لمدَّة عامين، إلى أن زارهم في المنزل وطلب يدها كان الأب يستمع إليه بوجهٍ حياديّ. قال له:

ـ أنا ربِّيت ولادي على المبدأ التالي: لمَّا بيختاروا مستقبلهم بوافقهم، لكن نحنا بهالعائلة ما منتزوَّج عن حبّ.

لذلك بشوف هالعلاقة مصيرها الفشل. ورغم هيك ما عندي مانع ولو إنِّي متأكِّد مثل ماني شايفك قدَّامي، إنُّو راح تفشلوا.

ـ إنت شايف الدين هو المشكلة يا عمّ؟

قال الشاعر الصحافي متهكِّمًا.

ـ لا يا ابني، ما عندي ببيتي أهمِّيَّة لهالشرط، وما بيشكِّل أيّ فرق.

ـ لكن على أيّ أساس بتتوقَّع الفشل لعلاقتنا؟

قال الأب بصوت حازم ومرتفع، ربَّما ليُسمعها هي، وليس المتثاقف الفقير الذي يجلس أمامه:

اسمع يا ابني، يا سميح. قصص الحبّ العظيمة لا تنتهي بالزواج، بل بالموت. كلّ قصص المحبِّين الكبار، انتهت إمّا بالموت وإمَّا بالانفصال. بدون الموت أو الهجر ما كنَّا لنسمع عن حكاية حبّ واحدة.

ـ «اسمح لي خالفك يا عمِّي. هناك قصص ناجحة، ولا يمكن الزواج بدون الحبّ»، ردَّد الصحافيّ المستفزّ الساذج بمثاليَّة طلَّاب الجامعات، غير أنَّ برود القاضي ومنطقه جعلاه يبدو مقشّرًا وغرًّا في عوالم الحياة الواقعيَّة.

ـ نعم هناك قصص ناجحة عندما يحبّ العقل، والعقل يقول إنَّك في بداية الدرب بلا مهنة، وبلا مستقبل واضح. لم تُتَمّ خدمتك الإلزاميَّة، ولم تمتحن الحياة بعدُ إلَّا من خلال الكلمات. ما بينكما اليوم موجةٌ عاطفيَّة ستنحسر. وهذا كلّ شيء.

كان الأب يُدرك، بخبرته وحكمته، أنَّه إذا مارس القمع أو الرفض، فإنَّ ابنته المأخوذة بهذه الحالة العاطفيَّة قد تقوم بحماقة، كأن تُقْدِم على تجاوز العائلة والذهاب إلى الزواج خلسة.

حاول الصحافيّ، الذي لم يكن قد كتب خبرًا صحافيًّا واحدًا

حينها، تصنُّعَ الابتسام، بعنجهيَّة الضعفاء والفقراء، ليضيف عبارة بدت قليلة الذوق مع الرجل الوقور والذكيّ والصارم:

ـ إذن لِنَرَ، من سيفوز؟

صمد حبُّهما أو فورةُ عاطفتهما سنتين، تعرَّفت خلالهما إلى عالم مثاليٍّ لشباب اليسار السوريّ المنهَك والجذَّاب. فتح لها سميح الغوراني عوالمَ المسرح والسينما والفنّ. ذاقت طعم الجسد وانصعقت من كمِّيَّة المساكنة وحجمها في الوسط الجامعيّ. كان عدد الشباب والصبايا ممَّن يساكنون بعضهم بعضًا في السرِّ كبيرًا للغاية، يلوذون إلى غرف وشقق مستأجَرة، ويُغطُّون غيابهم بالتحجُّج بالدراسة. كانوا يصنعون قفزة إلى الأمام وسط ثبات المجتمع والواقع وتأبّد الزمن السياسيّ. في كلِّ حال، بقي ثمّة جدار دائم يقول إنَّها تنتمي إلى عالم آخر. كانت تجمُّعات رفاق سميح، متوَّجةً بالعرق والسُّكر والثورات المؤجَّلة. تعرَّفت إلى الوجه الآخر للنظام الذي لم تكن تعرف عنه شيئًا، وإلى الفقر في بلدها أيضًا. لم تكن تُدرك أنَّ أصدقاءها الشباب الذين يفورون بالحيويَّة والطاقة عاجزون عن إيجاد قُوت يومهم. السنتان المدهشتان في حياتها، جعلتاها أكثر عمقًا. قرأت الكتب التي نصحها بها سميح، للتخفيف من آثار البرجوازيَّة عليها، كما كان يردِّد. أحبَّته؟ نعم. كان شهمًا فقيرًا ومليئًا بالمعرفة والطموح. أعطته أعزّ ما تملك في لحظة قرار وعن سبق إصرار.

المؤلم حقًّا بالنسبة إليها، أنَّه حين كان يحطِّم عنها قشرة الجوز، كما يدّعي، لا يفرِّق بينها وبين طبقتها، فيساهم، في كثير من الأحيان، في تحطيمها هي، حين يفقد أعصابه نتيجة توالي الخيبات في حياته والسُّكر الشديد، آفتِه التي لم تنجح في تخليصه منها. وعوضًا

عن أن تصنع في حياته فارقًا بجرِّه إليها، لم تكن بعيدة هي عن تلك الأجواء المفتوحة التي دخلتها معه طائعةً، لكنَّها كانت غريبة عن هذا الرفض العميق والعاجز للواقع السياسيّ.

تخرّج، لكنَّه لم يستطع أن يتوظَّف في أيِّ مكان. كانت التقارير الأمنيَّة تُشير دومًا إلى أنَّه فوضويّ، وابن سجين سياسيّ سابق لمدَّة أحد عشر عامًا، ومشكوك في ولائه للحزب والدولة. استسلم أخيرًا، وقرَّر ترك كلِّ شيء، ليلتحق بقوافل كاملة من جيل السبعينيَّات الهارب من البلد.

في الحقيقة، هرب في أشدِّ الأيَّام التي كانت تحتاج إليه فيها بعد أن أخضعها لعمليَّة إجهاض، عاجزًا عن الدفاع عن الجنين، فلم يقاتل كي يتزوَّجا ويحتفظا به.

دخل معها غرفة العمليَّات، وحين خرجا، كان الحبّ نفسه قد أُجهض، وعادا إلى غرفته حيث أخبرها بأنَّه سيسافر.

كيف أعاد إليها حضورُ هذا الرجل المباغتُ تلك الذاكرةَ المتكوِّرةَ في داخلها على هيئة جرح؟ كانت تظنّ أنَّها عبرت شطوط القلق القديم إلى برّ أمان العادة والزواج، لكنَّها فجأة تذكَّرت كيف قهرهما تحدِّي الرجل الحازم وواقع الحياة خارج شقَّة الحرِّيَّة في الدويلعة ـ وهي منطقة للأحياء الشعبيَّة الأكثر انفتاحًا في دمشق ـ ومسرح الحمرا، وانتهت العلاقة بجرح ثخين في قلبها. تذكَّرت نشيجها وهي تترجَّاه أن يبقى، وصوتَه الذي حسم الأمر

ـ اسمعي يا بنت الناس، أبوك كان معو حقّ. كلّ رفقاتي سافروا، ملِّيت وأنا ودِّعهم، ملِّيت من طريق المطار وأنا كلّ شهر مودِّي واحد منهم. هلَّق إجا دوري. لا في إصلاحات ولا خرا.

بتتذكّري كنت دائمًا قلّك إنُّو قلبي اليوم معتقل ما فيني إحميك ببلد المخابرات وعرصاته طول اليوم.

أنا استسلمت يا ليل. انتصر أبوك وحافظ الأسد. أنا مسافر ما بعرف ليش، ولا شو راح أعمل، بس مليان غلّ بفتِّت العالم.

راح إرجع يوم بصير في عنّا بلد فينا نحبّ فيه. نحنا هون منحبّ يا ليل لنعوِّض كلّ خيباتنا وانكسارنا، والحبّ ما بيحمل كلّ هالعبء.

ترجَّته يومها. بكت أمامه. حاولت ثنيه، لكنَّه أظهر لها ڤيزا زيارة إلى أبو ظبي مع تكت الطيَّارة.

ـ سميح، أرجوك روق، كرمالي، كرمال يللي بيناتنا

ـ لم أعد أستطيع البقاء، انهزمنا تمامًا. أنا انهزمت وما عاد بدِّي إحكي باسم الكلّ. عن أيّ كلّ عم بحكي!! هالكلّ ما بيتجاوزوا عشرة، أربعين، خمسين، ميَّة ألف شخص بعرفهم أو عرفتهم أو سمعت عنهم؟ مية ألف مهزوم. ما شفت حدا مو مهزوم بدمشق.

كلّ شيء بملكو إنُّو بحبِّك. الحبّ بموت بس يكون تعويض للخيبة. الهروب من المواجهة ما بيحمل كلّ هالعواطف ببلد كاذب، سجن كبير الحبّ ما بصير بالسجون. الحبّ بدُّو حرِّيَّة. الحبّ ما بيعوِّض فقدان الحرِّيَّة، بسّ الحرِّيَّة ممكن تعوِّض فقدان الحبّ يا ليل. راح دوَّر على حرِّيَّتي، يمكن يوم من الأيَّام إرجع إقدر حبّ. نحنا عمَّا نكذب على حالنا يا ليل وأنا ما عاد فيني. اعتقيني واعتقي حالك يا بنت الناس.

سافر سميح، الصحافيُّ اليساريُّ المهزوم، هاربًا من الخدمة الإلزاميَّة، ومن البلد، إلى الخليج، ملتحقًا بآلاف الشباب السوريين، تاركًا جرحًا كبيرًا في قلب الطبيبة، لم يُشفه إلَّا العودةُ إلى حظيرة

الواقع، والرضوخُ التامّ لقوانين الأب.

كانت تعرف أنَّه سينهار وسيسافر، لكنَّها حاقدة عليه لأنَّه سافر في اليوم الذي أتمَّت فيه عمليَّة الإجهاض، تاركًا إيّاها وسط العار والألم والفقدان.

لم يكن فيديل عبد الله بِطَلّاب حبٍّ، لكنَّه حين يتكلّم يذكِّرها بروح ذلك الحبيب الهارب، وإن كان فيديل مُفْعَمًا بالثقة وسميح مدمَّرًا بالهزيمة. كانا يتشابهان في الشكل وشجاعة الاقتحام والثقافة العالية، مع فارق بسيط أنَّ سميح متشائم من كلِّ شيء، وينتقد كلّ شيء، ولا يعجبه شيء، والأهمّ أنَّه عاجز عن عمل أيّ شيء.

يجب أن تضع له حدًّا، هذا غيرُ مُجْدٍ. ماضٍ مضى وانقضى ولم يعد له أثر. لم تسمع شيئًا عن سميح بعد ذلك، ولم تجد له أثرًا في الكتابة أو الصحافة. حتى بعض أصدقائه الذين التقتهم صدفة، حدَّثوها أنَّه بلا أثر. في الأغلب أنَّه غادر الإمارات بعد عدّة سنوات إلى مكان آخر، وانقطعت أخباره.

لا يبدو أنَّ فيديل يُهزَم. كان ظهرًا في مكتب عيادتها، حاملًا وردةً صفراء أحاطها ببضع شتلات من البنفسج. دخل من دون استئذان، وسلَّمها الوردة:

ـ سرقتلك ياها من شوي؟ ما راح آخذ من وقتك أكثر من اللازم.

واقترب منها حتى كاد وجهه يلامس شعرها، وعاد خطوة إلى الخلف بعد أن تنشّقها.

ـ إيه هاه (شانيل ٥). هذا عطرك.

جلس بثقة. فتح دفتر ملاحظاته الصغير، وقال بجدِّيَّة:

ـ عيِّري ساعتك: ١٠٠٠ ثانية وبكون خارج مكتبك، خلِّينا نبدا الشغل.

شرد ذهنها في حسبة لتعرف كم من الوقت تعادل هذه الألف من الثواني.

وعوضًا عن أن تقول له: انقلع من هنا، .قالت له:

ـ ماشي الحال لنشوف آخرتها.

أَدخلها في جوّ العمل. كان جدِّيًا، متمكِّنًا. تحدَّثا عن الجمهور المستهدَف، والسياحة العلاجيَّة. ترك لها المجال لتستعرض معرفتها. كانت سعيدة في داخلها في أنَّ هناك رجلًا يسمع كما يجب باحترام، ويعرف كيف يُدخل تعليقًا ذكيًا في الوقت المناسب. انتهى زمن العمل في أقلّ من خمس دقائق مثمرة، ولم تكن لديها الرغبة في إنهاء الحديث. كانت تريد الحديث عن نفسها؛ عن خبرتها ومشاريعها وأهدافها ومنجزاتها، كطبيبة، وأمّ، وسيِّدة مجتمع.

كان يشجِّعها بإنصات كامل، راسمًا ابتسامةَ رضى تستفزّها أحيانًا، كأنَّه يسخر منها، لكنَّها تطمئنّ في الوقت نفسه لأنَّه ما زال يصغي. وحين وصلت إلى انتقاد ما يحدث في البلد من فساد، ومحسوبيَّات، وتفاهات، قال لها جملة علقت في رأسها، وظلَّت تستعيدها لاحقًا كلَّما شاهدت نشرة أخبار؛ جملة تفوَّه بها قبل شهر ونصف شهر من حمَّام الدم الذي سيغسل البلد:

ـ سورية لن تتحرَّر إلَّا بالدم، وإن سُكِبَ الدم فلن يتوقَّف.

أعادها الخوف التقليديّ إلى الواقع، فقالت باقتناع كبير:

ـ عُلِّق الأمل عالرئيس بشَّار الأسد، الله يعينه. قابلته مرَّتين، شخص رائع، بيعرف حقيقة الوضع، بدُّو شويَّة وقت.

ردَّ عليها، وما زال محتفظًا بابتسامة مستفزَّة:

ـ شفتِ فيلم العرَّاب؟

ـ طبعًا من زمان.

ـ خلِّيني قلِّك شي. حتى لو كان رائعًا فالمسألة لا تخصّه. بلد مثل سورية أمانُهُ قائم على قدرة المافيا والعرّاب على صناعة أخلاقيَّات جديدة. دون فيتو كورليوني يشبه حافظ الأسد، وكان يُعِدّ ابنه البكر لزعامة المافيا قبل أن يُفجَع به لمَّا قتلته عصابات أخرى. اضطرّ إلى إحضار ابنه الجامعيّ المثقَّف مايكل المتعلِّم، لكنَّه لمَّا بيصير بمطرح أبوه وبيضطرّ لمواجهة العنف بيتحوَّل لسفَّاح أكثر إجرامًا ودمويَّة.

مو لأنو هُوِّي بدُّو هالشي، بس لأنُّو بيعرف بقرارة نفسه إنُّو ما بيستحقّ المنصب وإنُّو أُجْبِر عليه، وبدُّو يثبت نفسه بأيِّ وسيلة للتفوُّق على أبيه. بالإضافة لعُقَد النقص التاريخيَّة وغيرته من أخيه القتيل.

في كلّ حال، حتى الآن أداء بشَّار الأسد معقول ومقبول، لكن إذا اضطرَّ إلى العنف فلن يعرف كيف يتوقَّف عنه على عكس دون فيتو كورليوني الحكيم.

ذهب الحديث بعيدًا أكثر من اللازم، لكنَّها لأوَّل مرَّة منذ تركت سميح لم تشعر بالقلق أو الخوف من ذكر العائلة الحاكمة، ولم تضطرّ إلى حساب خطوط الأمان في بلد محكوم بالأشباح السرِّيَّة وعدم الثقة والخوف الغريزيّ من ذِكْر المحظورات والمساس بها.

ـ بعتقد إنُّو الألف ثانية صاروا ثلاث آلاف وميتين ثانية.

ـ عازمك اليوم المسا الساعة ٨، على بيانو بار بالشام القديمة، اكتشفتو مبارح بباب شرقيّ. ممنوع الاعتذار لإنُّو بكرا الجمعة، وأنا مسافر بعد بكرا.

ـ أنا ماني من هالنوع.

هربت منها الجملة. أحسَّت بأنَّها ما زالت تحت تأثير ميسون وتحذيرها

ـ ماشي، بتكون فرصة لنعرف إنت من أيّ نوع. في كلٍّ حال، بحسب نظريَّة أصل الأنواع، كلّ كائن حيّ لديه القدرة على أن يحقِّق الطفرة المناسبة للارتقاء.

ضحكت بتشنُّج:

ـ داروِن سعيد فيك سيِّد فيديل، أمثالك بأكّدوا نظريَّة أصل الأنواع.

لم يهتمّ بعبارتها:

ـ إلبسي أحلى فستان عندك. راح استنَّاكِ.

اكتسى وجهها بهالة من الغضب، وانعقد لسانها بسبب هذا الاقتحام الأقرب إلى الوقاحة.

تزاحمت اللغة في فمها، ولم تجد ما تردّ عليه به، أو تدرأ عنها تلك النظرات.

اخترقها بعينين ذئبيَّتين جعلتا جسدَها يعوي، قبل أن يخرج في الوقت المناسب، ليبحث عن الدكتورة هيام.

أغلقت الباب خلفه، وهي تبحث عن حائط يسندها تكاد تنفجر من الفرح والغضب معًا، مع شعور سخيف بالغيرة لمجرَّد أن فكَّرت في أنَّه سيدخل على زميلتها، بالطريقة نفسها، وربَّما يفتح النوع نفسه من الحديث.

(١٧)

الخال

ـ راح نعتصم قدَّام السفارة الليبيَّة، بتجي معنا؟

قالت سامية التي أنصتت إليه وهو يخبرها بما حدث بينه وبين سعد الدين، واعتذارِ المخرج فيديل عن العمل بحجَّة أن ليس لديه وقت، وكيف أنَّ وفد اليونسكو لم يستطع الحصول حتى اللحظة على ڤيزا للدخول إلى سورية، ومن دون تقويمه للبيت ومعاينته المباشرة له، لا يمكن أن يتمّ تسجيله.

كلّ ما أخبرها به من مخاوف قابلته بلا اكتراث، فأصابه الحنق.

ـ سامية لازم تخفِّفي اندفاعك شوي، البيت مراقب وإنت مغضوب عليكِ.

قاطعته بحنق:

ـ ما كنَّا وصلنا لهون لولا هذا المنطق التخويفي. اليوم هنّن خايفين أكثر منَّا. ولا تخاف عالبيت، راح ننجز تصوير كلّ المقتنيات، وننتهي من إجراءات التثمين.

ـ تعالا بسرعة.

قاطعهما صياح دكتور ريمون من المكتبة. كان قد انتهى من إزالة طبقة الكلس عن أوَّل لوحة جداريَّة في الحائط. مشهدٌ عقد لسانَيْ أنيس وسامية. الإله حُدُد على عربته يجلد الغيوم ويرسل الصواعق بسيفه. جداريَّة موشَّاة بماء الذهب. وقفوا أمامها بإجلال.

تكتمل معالم المنزل الحافظ لإرث دمشق منذ أربعة آلاف عام. متنوِّع وغامر، وطيدٌ وثابت. تاريخه هو تاريخ مكتوبٌ بحبر السماء، ومبنيٌّ بعمارة روح الأديان الثلاثة الكبرى، وحواشيه منمنمات لاستفسارات التاريخ. البيت الذي كان معبدًا لآداد ليرتاح فيه، فأعطى وصيَّته المرقوشة بالأراميَّة، «كلّ حاكم لا يحكم بالعدل سينال غضب حُدُدْ وصواعقه».

عاش البيت صامتًا منذ سبعينيَّات القرن العشرين حتى اليوم، لكنَّه كان شاهدًا على حراك الاستقلال. لا يوجد زعيم وطنيّ لم يدخله، ولا توجد حكاية مشرّفة للبلد قبل جثوم البعث إلَّا وله فيها نصيب. البلد المتَّهَم بالانقلابات والاضطرابات السياسيَّة، كانت في معظمها، قبل انقلاب البعث، تحدث بلا قطرة دم واحدة في الشارع.

حين فرغ البيت ذلك المساء من الحاضرين، وجد أنيس نفسه أمام المكتبة، التي كانت حائطًا كاملًا مفهرسًا ومجلَّدًا بالترتيب، يحوي مذكَّرات من سكن هذا البيت.

في آخر الرفّ مجلَّدٌ ضخم يخصّ الخال، وقربه دفتر ضخم كبير ورقه مصنوع من القطن، فارغ من الداخل. فقط على الصفحة الأولى، نُقِش اسم الدكتور أنيس.

إذًا، كلّ وريث عليه أن يشرع في كتابة السِّفْر الخاصّ به.

عاد إلى المجلَّدات السابقة. في كلّ واحد منها تعريفٌ بالقاطن

والساكن، مع صور للبيت في زمان محدَّد. آخر الصور تعود إلى عام ١٨٣٦، أي بعد أوّل صورة في التاريخ التي التقطها جوزيف نيبسي عام ١٨٢٦، من نافذة حجرة عمله، في فرنسا، لوجراس.

وكلَّما أوغل في القِدَم، كانت الصور تأخذ شكل الرسوم. ورويدًا، بدأت تختفي الكتابة بالعربيَّة لتحلّ محلَّها لغاتٌ أخرى، كالسريانيَّة واللاتينيَّة والآراميَّة.

ما يزيد على ١٢٠ مجلَّدًا كانت متجاورة في تراصف متَّسق، تحكي السيرة الذاتيَّة لهذا البيت، أو حكاية هذه المدينة الممتدَّة عميقًا في ذاكرة الحياة وتاريخ الإنسان.

شعر بالرهبة والجلال أمام هذا الهول العظيم، وهو يحدِّق في مجلِّده الفارغ.

يا تُرى، ماذا عليه أن يكتب فيه؟

عاد إلى مذكَّرات الخال ليتصفَّح، بغير هدى، ما خطَّه ونقله وأرشفه، متنقِّلًا بين الصفحات.

«خرجت أوَّل مظاهرة نسائيَّة في دمشق ضدَّ الاحتلال الفرنسيّ، من جامع الأقصاب في ساروجا. تمَّ إلقاء القبض على إحدى عشرة سيِّدة، وقُدِّمن إلى المحاكمة، بتهمة المشاغبة وإقلاق الراحة العامَّة والتحريض على الثورة والعصيان.

قدَّم الادِّعاء، مُمَثَّلًا في مسيو مورغان، مرافعته، فوصف السوريين بأنَّهم أنذال يختبئون في بيوتهم ويرسلون نساءهم للتظاهر في الشوارع. فتصدَّى فخري البارودي للمسيو مورغان بصفته نائبًا عن دمشق في البرلمان، وأرسل منشورًا قال فيه:

«لقد أهنتم السوريين وهم لا ينامون على ضيم. أطلب منكم

سحب كلمتكم التي أهنتم فيها السوريين والاعتذار إلى شعبي الكريم، وإلّا فإنّي أدعوكم إلى المبارزة بالسلاح الذي تختارونه.

وإن رفضتَ الاعتذار علنًا في الصحف أو المبارزة، فإنّي أُعِدُّكَ جبانًا».

شاع الخبر في دمشق وقامت قيامة الفرنسيِّين. واجتمع كبار القادة ورجال سلطة الانتداب للتباحث في هذا الموضوع الذي أصبح حديث دمشق. قرَّر السيِّد مورغان الذهاب إلى المبارزة، وهنا طار الخبر في كلِّ سورية، وأصبح الترقُّب سيِّد الموقف.

عاد الفرنسيُّون إلى التباحث في الأمر، فوجدوا أنَّ قتل المدَّعي العام سيجلب عارًا لفرنسا، وقتل البارودي سيؤجِّج المشاعر والاضطرابات، فتوصَّلوا إلى قرار بأن يعتذر المدَّعي العامّ. وبالفعل، اعتذر مُكْرَهًا، وعَلَنًا، اعتذارًا كاملًا، وأُطلق سراح السيِّدات من المعتقل.

تندَّرت سورية طويلًا بهذه الحادثة، ووصل خبرها إلى المهجر، فكتب محرِّر جريدة «البيان» في نيويورك عنها جملةً ستبقى طويلًا تخلِّد تاريخ ذلك النائب الدمشقيّ، «فارس لفارس، اثنان لفارس، ألف لفارس، فرنسا لفخري البارودي».

جلس الدكتور أنيس يفكِّر كيف لم يسمع مثل هذه الحكاية ولم يدرس شيئًا عن هذا النائب. وضع الكتاب الضخم على ركبتيه، وفتح صفحة، لا على التعيِّن. وجد صورة لطابع مكتوبًا تحتها: تاج الدين الحسني، رئيس وزراء سورية في عصر الانتداب.

وقرأ:

«في زمن الانتداب قَبِلَ تاج الدين الحسني أن يكون رئيسًا

للحكومة تحت الاحتلال. كانت المظاهرات التي تندِّد به وبالانتداب تبتكر نوعًا من الطرافة في ذلك الوقت، وخصوصًا مظاهرات طلَّاب جامعة دمشق، وكلِّيَّة الحقوق تحديدًا. كأن يقوم أحد الشباب المرفوعين على الأكتاف بترديد الهتاف التالي:

أنا تاج الدين حبُّوني، فتردّ عليه الجموع (خرايا عليك، خرايا عليك).

مش سامع، مش سامع. فيردّ الجمع (خرايا عليك، خرايا عليك).

رفض تاج الدين الحسني فضّ المظاهرات وقمعها، لكنَّه توعَّد الطلَّاب بالردِّ قائلًا:

والله لَلحِّسكن قفاي.

وفعلًا، أمر بأن تُطبع صورته بالطول الكامل على الطوابع الخاصَّة بالطلبة. فأصبح لزامًا على كلّ طالب يريد أن يتقدَّم بطلب إلى الجامعة مرفق بالطوابع الماليَّة، أن يلحس قفا الطابع».

كان أنيس يتصفَّح هذا السِّفْر الضخم، متنقِّلًا بين فصوله، يلتهم ما فيه، ليقف أمام حكايات مدهشة عن الرجل المسيحيّ فارس الخوري، الذي تقلّد منصب سورية في الأمم المتَّحدة قبل الاستقلال، وأصبح رئيسًا للوزراء في عهد الاستقلال، ووزيرًا للأوقاف الدينيَّة. حدّق في صورة الرجل الضخم المعلَّقة على الجدار. اجتمع فارس الخوري أيضًا مع الخال بدر الدين في هذا البيت.

وقرأ

«في اجتماع لمجلس الأمن، كانت قد طلبته سورية من أجل رفع الانتداب الفرنسيّ عنها، جلس فارس بيك الخوري، ممثِّل سورية في

المجلس آنذاك، في مقعد النائب الفرنسيّ في مجلس الأمن. فلمَّا جاء النائب الفرنسيّ وجد فارس الخوري جالسًا في المقعد المخصَّص له، ما أثار غضبه، فطلب من رئيس المجلس أن يأمر فارس الخوري بإخلاء مقعد فرنسا والجلوس في المقعد المخصَّص لسورية. وهنا، كان ردّ فارس الخوري: لقد جلستُ على مقعدك دقائق معدودة ولم تحتمل ذلك، فما بالك وأنتم تجثمون على صدورنا منذ خمس وعشرين سنة».

تملأ قصاصات الجرائد والمجلَّات الدفترَ الضخم. وحكاياتها تأكل قلبه. شعور لم يعرفه يومًا: أن تكون فخورًا بماضي أجدادك وبقعة الجغرافيا التي نشأت فيها. تيقَّن بأنَّه لم يكن يعرف نفسه، ولم يكتشف من قبلُ حقيقةَ هويَّته. كان يسمع دائمًا من الدمشقيِّين نوعًا من الافتخار والاعتزاز، لا يعرف أسبابه، ومردُّ ذلك أن يكون المرء دمشقيًّا. لكنَّه اليوم فهم تمامًا معنى أن تكون دمشق محتلَّةً من حاقد غيّب التاريخ، وخنق الحاضر، كي يتسيَّد الآن. ومن رعبه من المستقبل، ورَّث سلالته مهمَّة البقاء أو الإفناء.

مرَّت ساعات وهو يلتهم الحكايات المؤرشَفة، ويحدِّق في الصور الملصقة عن الشخصيّات والأخبار المؤرشفة، وتحت كُلّ صورة إشارةٌ إلى المصادر الموجودة في المكتبة. صارت دهشة الدكتور أنيس في أوجّها حين قرأ بعض المعلومات التاريخيَّة التي وثَّقها الخال مع صور فوتوغرافيَّة:

ـ دخلت فرشاة الأسنان مدينة دمشق عوضًا عن نبتة المسواك عام ١٩١٤ قبل الحرب العالميَّة الأولى بأشهر قليلة، وبات ٦٠٪ من الدمشقيين يمتلكون فراشيهم الخاصّة عام ١٩٣٠.

ـ ارتدت النساء الدمشقيَّات حذاءً بالكعب العالي في صيف عام ١٩٢٤، حيث أدخل تجَّار المدينة هذا المنتج إلى أسواق الحميديَّة وغيرها نقلًا عن باريس.

ـ جامع بني أميَّة الكبير هو أوَّل بناء تدخله الكهرباء في مدينة دمشق في شهر شباط من العام ١٩٠٧، ودخلت الكهرباء دمشق قبل أن تدخل ولاية لوس أنجلوس الأميركيَّة بواسطة شركة بلجيكيَّة اتَّخذت لها مقرًّا وسط دمشق، وأصبح هذا المقرّ نفسه مقرًّا لشركة كهرباء دمشق حتى هذه اللحظة.

ـ تأسَّست أوَّل مدرسة باليه في العالم العربيّ في دمشق في عام ١٩٥١، في منزل الوجيه مظفر البكري الذي كان متزوِّجًا من الفنَّانة اليونانيّة آنا فرانكولي، وكانت مأخوذة برقص الباليه فقرَّرت إدخال ذلك الفنّ إلى دمشق.

ولمح صورة في ذلك الأرشيف، فحدَّق فيها طويلًا:

الممثِّل والمخرج الكوميديّ الشهير تشارلي شابلن زار دمشق لحضور افتتاح فيلمه «السيرك» في سينما «فلور دو داماس» في ساحة المرجة خريف العام ١٩٢٩، وكان في استقباله السياسيّ السوريّ فخري البارودي.

بدأ يعي ماذا يعني هذا البيت وما يمثِّله، ويفهم ما حاولت سامية أن تشرحه له بكلِّ طاقتها. في تلك اللحظة بالذات، كان شوقه عارمًا إلى ابنه سامي، متمنِّيًا لو أنَّه كان معه الآن.

أمسك الهاتف ليحدِّثه طوال ساعتين بشغف عن بيت حُدُدْ. وحين أعرب سامي عن رغبته في المجيء، قال أنيس:

ـ لا تتأخَّر، تعال في أسرع وقت.

كان يريد أن يشاركه ابنه في هذا الوقت المتخم بالتوقُّعات العظيمة والحقائق التي باتت تتكشَّف. كأنَّ يدًا قويَّة تكشط عن المدينة كلس الحجاب ليرى العالمُ أجمع ماذا يقبع خلف جدران الصمت العالية.

أنهى المكالمة ليفتح الباب لوجهها المشعّ وعينيها المتراقصتين وفمها الريَّان:

ـ عم حاول إتِّصل فيك من ساعة وتلفونك مشغول، عملناها يا أنيس. عملناها، وهتفنا الهتاف الثاني بأقلّ من أسبوعين.

أخرجت هاتفها الجوَّال لتريه مجموعة من الشباب والصبايا يوقدون الشموع أمام السفارة الليبيَّة، ويصرخون بأصوات عالية:

ـ يلِّلي بيقتل شعبو خاين.

(١٨)

فيديل وليل

أنهت يومها بسرعة. وصلت إلى البيت. كانت حانقة ومكشوفة. كيف يستطيع الغرباء أن يعرفوا أنَّها في حالة خواء؟ آخر مرَّة ناما معًا كانت منذ أشهر على الأغلب. الروتين والرتابة، والانشغالات التي لا تنتهي، أدخلت بينهما سُوس الملل الذي بدأ النخر. دخلا من جديد بعد السهرة الفاشلة في دوَّامة الخصام الصامت. كان ثمَّة شيء يتآكل، لكنَّها الآن خائفة من هذا الدفق المفاجئ للانشداه.

لم تستطع، طوال اليوم في المستشفى، أن تتحرَّر من حالة اللاوزن الذي وضعها فيها اكتساح هذا الرجل. حاصت في غرفتها من دون تركيز، تتفقَّد المرضى بلا انتباه. كانت تلمحه يحمل دفتر ملاحظاته ويجول في الأقسام، وحين تلتقي عيونهما يتوهَّج شيء فيها.

دخلت الحمَّام عشر مرَّات. فتحت حقيبتها مرارًا لتُخرج زجاجة العطر. تلوب؛ تتنهَّد؛ يتخبَّط كيانها. حين تفقد الطبيبة قدرة التحكُّم في مشاعرها تتحوَّل فورًا إلى مهووسة تثير الريبة.

لم تعرف كيف تخرج من المكان إلى سيَّارتها، لتُسرع خارج

المستشفى، تبعث برسالة نصِّيَّة إلى مدير القسم تخبره بأنَّ أمرًا طارئًا استدعى خروجها. ركنت السيَّارة في أقصى يمين الطريق وأخذت تتنفَّس بهدوء.

عليها أن تهدأ وتركِّز لتستعيد نفسها. بدأت باستحضار كلّ المواقف الجميلة بينها وبين عادل. رتَّبت سربًا من الصور النفيسة التي ظلّت تتَّكئ عليها طوال هذه السنين.

كان رجلًا ناجحًا وطبيبًا ومذوقًا لم تسمعه يشتم مرَّة في حياته. تحسدها عليه كلّ صديقاتها. جنتلمان مرموق، علاقته بطفليهما ممتازة. قليل الكلام، محصَّن بشبه ابتسامة دائمة. قويّ وجسده معافًى، وكرشه صغير، وصلعته الخفيفة تُعطيه وسامة ما. دقيق الملاحظة إلى درجة الاستفزاز. ينتابه شي من هوس التفاصيل الصغيرة؛ أحد الأعراض الجانبيَّة لتفوُّقه في دراسة علم الأورام وجراحتها.

يوم التقته في بيتها بدعوة من أبيها، كان قد أنهى الماجستير في فرنسا، وعُيِّن أستاذًا مساعدًا في الكلِّيَّة، ويحظى باحترام الجميع.

كان واضحًا ويعرف ما يريد، ومنهجيًا ومنفتحًا. غداء في مطعم ڤرساي الفاخر، وفنجانا قهوة في مقهى فندق الشام، وبعدها باح لها بأنَّه يبحث عن زوجة تتفهَّم عمله، ولا تكون عذراء.

ضحكت من الفكرة:

ـ وليش هالشرط غير عذراء؟

ـ بقصد غير عذراء، لا نفسيًّا ولا جسديًّا. بدِّي شريكة حياة، مو فتاة غير ناضجة. ما عندي وقت لإعادة تأهيل حدا.

تفوَّه باختصار وإيجاز، وبعدها بشهر تزوَّجا. كلّ شيء مرتَّب ومريح. عمل بكلّ تفهُّم على جعلها مستقلَّة، ودعمها بكلِّ ما يقدر

عليه، وواصلا عملهما. نمت الأسرة، ولم يُسمع يومًا أنَّهما تخاصما بسبب أمر تافه، أو حتى بسبب أيِّ شيء مهمّ. يعمل في مستشفى خاصّ، وطموحه يرتقي إلى مستشفى يحلم ببنائه.

اكتشفت اليوم ما ينقصها. من سنتين، ازدادت الخلافات العاديَّة. صحيح أنَّها لا تُذْكر، لكنَّها تتكرَّر، فيهرب إلى الضيعة لعدَّة أيَّام، وتعود بعدها الأمور إلى مجاريها

أين الخلل؟ أسرة ممتازة؛ بيت كبير؛ شاليه في اللاذقيَّة؛ سيَّارتان فخمتان؛ علاقات بكلِّ أكابر دمشق؛ حياة رغيدة منتظمة، وكلّ سنة إجازة في بلد. كلّ شيء على ما يُرام وبألف خير، كما يبدو للخارج.

أين الخلل؟ لماذا أربكها حضور عابر غريب. لماذا لا تستطيع التوقُّف عن التفكير فيه؟ لماذا ضجَّت رغبة جامحة في أن تذهب لرؤيته؟ لماذا تعود تفاصيل حبِّها المقبور والذي ظنَّت أنَّه أصبح سرابًا؟

غاضبة، وفاقدة التركيز والتوازن. تحتاج إلى زوجها؛ أمانها؛ منبع ثقتها؛ الحنون الطيِّب، والجميل الأنيق.

اتَّصلت به.

ـ عادل. أيّ ساعة راجع على البيت؟

ـ متأخِّر اليوم.

ـ عادل بدِّي يّاك. مشتاقتلك.

ـ حبيبتي، وأنا كمان، بس اليوم مثل ما بتعرفي، صعب كثير. الاجتماع الشهريّ لجمعيَّة الأورام ومحتاجين قرارات سريعة.

ـ عادل مُرّ عالبيت. بترجَّاك مُرّ. محتاجتك.

ـ خير. خير. في شي، قلقتيني؟

ـ لا، أبدًا، بس مشتاقتلك. إيمتا آخر مرَّة نمنا مع بعض؟

قال هامسًا وهو يضحك:

ـ بشرفك ليل حواليي عالم. هلَّق وقت هيك حكي.

ـ إيمتا وقتو. تعال عالبيت، خلِّينا نطلع نسهر اليوم، نصيع بشوارع الشام.

ـ نصيع. إنت شو صايرلك. بعد هالكَبْرة جبّة حمرا هِهِه، عمَّا إمزح. راح مُرّ قبل ما إطلع عالاجتماع.

ـ أوكي مثل ما بدَّك.

التفتت إلى الولدين:

ـ أيّ ساعة رايحين على بيت عمّكم؟

أجابا معًا بدهشة:

ـ يعني وافقتِ!!

ـ إيه. اتّصلوا فيه خلِّيه يجي ياخدكم عالخمسة.

نطّ الولدان بفرح كقردين غير مصدِّقين:

ـ وفينا ننام هنيك؟

ـ إيه فيكم، بكرا المسا بترجعوا.

ـ بكرا الجمعة. وراح نطلع ع بلودان، الله يخلِّيك. سمحتيلنا وسمحتيلنا خلِّينا للسبت.

ضحكت من قلبها، ومن صخبهما، وجمالهما. استشعرت بالحبِّ الهائل لهما ولعادل وللعالم يفيض منها. لكن عطر ذلك الرجل عاد ليستبيحها، فاستسلمت له ما إن خرج الولدان.

دخلت الحمَّام. نقعت جسدها بالماء الساخن، بعد أن وضعت فيه أكياس الطين التي جلبتها من البحر الميِّت. أشعلت شمعتين،

وصبَّت كأس نبيذ وأخذت ترتشفه على مهل. سيأتي عادل وينقذها لن تذهب إلى هذا العشاء مع دونجوان رخيص، مُتَذاكٍ. أصلًا، هو ليس أوسم من عادل، ولا أذكى، ولا أكثر هيبة. عادل رجل حقيقيّ، يؤسِّس لقيم تبني مجتمعًا، وهذا أفّاق مغامر بلا قيم وبلا أخلاق. وإلَّا فلماذا يتودَّد إلى سيِّدة متزوِّجة! أين النبلاء في هذا العصر؟

غضبت من نفسها لأنَّها سمحت لغريب بأن يخترق خصوصيَّتها أكثر من اللازم. كان يجب أن تكون حازمة. في كلّ حال، لم يفت الوقت بعد. شكرت نعمة الزواج الصالح والعائلة الجميلة. استغفرت الله، وهي في كامل عريها كما خلقها، وتوجَّهت إليه:

ـ دخيلك يا ربِّي ساعدني.

طفرت دمعتان من عينيها فارتاحت. وقرَّرت أن تعمل المستحيل لتجدّد كنوز المحبَّة مع عادل.

دهنت جسدها بكريم خاصّ للنعومة يبعث روائح شهيَّة، ووضعت مكياجًا خفيفًا أخرجت ذلك الفستان الشيطانيّ الذي جلبته من إسطنبول، قصيرًا، ومثيرًا، وأسود. ارتدته، فالتصق بجسدها النحيل مكسّمًا إيَّاه. بخَّت الكثير من الشانيل ٥، ووضعت شالًا حريريًّا موشًّى بالخضرة والسواد الناصع. تركت شعرها الأسود مفلوتًا متموِّجًا، وارتدت جاربَين شبكيَّين وحذاء طويل الكعبين. فاضت أنوثةً، ورغبت في أن تُرى وتُمدح وتُقدّر حقَّ قدرها هذا المساء.

جهّزت طاولة لطيفة من المازة اللذيذة. أخفضت الإنارة، وأشعلت شموعًا في كلّ مكان. انطلقت في الجوِّ روائحُ الڤانيليا والياسمين المحروق. بحثت عن لارا فابيان، مغنِّيةِ عادل المفضَّلة، وأكثرِ الوجوه التي يشبِّهونها بها. وضعت القرص في مشغِّل الموسيقى

وشرعت في الانتظار ترتشفه بهدوء من كأس نبيذ الشاردوني المعتَّق لأكثر من عشرين عامًا. اعتقدت تمامًا أنَّ هذا موعد مناسب لفتح الزجاجة.

كان كلّ شيء جاهزًا ومتقنًا ومُغويًا، حين قرع زوجها الدكتور عادل الجرس ثم وضع المفتاح ليدخل بهدوء. استقبله صوت لارا فابيان. رسم ابتسامة شاحبة على وجهه، ودلف من الممرِّ إلى الصالون، فانكشفت له الطاولة العامرة بالبهجة والمازات المدهشة والشموع ذات الأنفاس العطرة، وخلفها تجلس امرأة في انتظاره بجمال أخّاذ، ترتدي فستانًا من الدانتيل الأسود، وتضع شالًا أخضر تتخلَّله خطوط بالأسود المذهّب، ترتشف كأسًا من النبيذ، وعيناها المُحِبَّتان الجميلتان تغزلان مع ابتسامة تشقّ فضاء المكان شحيحَ الضوء العامر بالغواية.

تقدّم واضعًا حقيبته على الكومودينة إلى جوار الحائط، ومشى في اتِّجاهها مبتسمًا. قبّل فمها بهدوء، وجلس إلى جوارها. تناول كأسه المنتظر، رفعه وقال:

ـ بصحَّتك.

تساءلت عيناه الزائغتان، فأجابت:

ـ الولدان في بيت عمّهما لبعد بكرا

همّ بالحديث فمنعته بشفتيها. قبَّلته من أعماق روحها، ثم وقفت وأوقفته، طالبة منه أن يشرب كأسه دفعة واحدة. طوَّقت عنقه، سحبته لترقص معه، فطوّق خصرها وهو يحدِّق بدهشة. ألقت رأسها على كتفه وهمست له:

ـ بحبّك.

ضمَّها إليه وشرعا في الالتصاق الخفيف الجذّاب. لمسها وسطُه المنتصب، صارت تزفر بالقرب من أذنه اليمنى. تجوس يداه نصف ظهرها العاري بعد أن أسقطتا الشال المضمَّخ بالعطور المدوِّخة. تمتدَّان، تحلَّان حمَّالتَي الفستان، فتنزلانهما عن الكتفين، ليسقط الأسود اللمِّيع كاشفًا جسدًا مثيرًا بشيَّالة صدر وكيلوت داخلي من ماركة كالفن كلاين ـ قرأ عقل عادل الماركة ـ وأنفاسهما تتسارع. لكن عقله المشغول بالتفاصيل لم يستطع أن يلتقط حجم النداءات الصادرة منها

فكّ ستيانها واندلق نهداها ذَوا الحلمتين النافرتين أمام فمه.

احتار من أين يبدأ التقبيل. جعلته الحيرة يستعجل لتنزيل الكيلوت الحريري المصنوع من خيوط القزّ والدانتيل والقطن، بفراشة حمراء تحطّ على خيط يشقّ المؤخِّرة القويّة. فكان انتصابه كاملًا، وبين يديه واحدة من أشهى نساء العالم. حملها إلى السرير وهو يقبِّلها. يُنزلها بهدوء، يتمطَّى فوقها، وعلى عجل، يتحرّر من ثيابه بمساعدة يديها يُخرج عضوه الضخم المتهيِّج، ويضعه بقوَّة بين فخذيها. تتفتَّح مساماتها. تنطف روحها. تتألَّق. تتلوّى. لكنَّه يفقد القدرة على التحكُّم في نفسه ويقذف بعد ثوان. تحاول اللحاق به؛ شدَّه إليها؛ إبقاءه داخلها؛ الاحتماءَ به. غير أنَّه انهمد وتراخى، فحرمها أجمل وصول إلى لذّة كانت تحتاج إليها تمنّت لو صمد بضع ثوانٍ أخرى.

استكانت بهدوء، خرج منها مبتلًّا، خفيفًا، سريعًا، وضامرًا.

هجع من لهاثه. اقترب. قبّلها على فمها ثم على رأسها، وذهب للاغتسال. بقيت منفرجة القدمين، تنظر إلى انعكاس صورتها الحزينة في مرآة الخزانة.

لم تحاول التحرُّك، ولا تغيير وضعيَّتها حين بدأ يرتدي ملابسه. أخبرها بأنَّه سيحاول ألّا يتأخَّر. وغدًا سيحتفلان، وأنَّه آسف، لكن لا بدَّ له من أن يغادر الآن. ابتسمت له بطيبة، وبلا ضغينة. همست بكلمة واحدة كأنَّها ترضخ لقدرها:

ـ ولا يهمّك. يسلمو إنّك جيت.

صار جاهزًا للمغادرة. انتعل حذاءه، وأخذ حقيبته الملقاة قرب الحائط على الكومودينة، وغادر تاركًا لارا فابيان تغنِّي «جو سوي مالادو» لزوجته العارية في السرير.

سال بين فخذيها سائل خفيف أخذ بالتجمُّد، بينما هاتفها الجوَّال يومض على الصامت معلنًا وصول رسالةٍ جديدة. لم تدر كم مضى من الوقت. غسلت جسمها على عَجَل، ولملمت نفسها المتناثرة. تفقَّدت الموبايل، فوجدت أربع رسائل متلاحقة: وينك؛ لا تتأخَّري؛ عم بستنَّاكِ؛ أيّ جحيم ستكون الليلة إن لم تأتِ!

بعثت بجملة مقتضبة: جايي استنّاني.

تُشير الساعة إلى الثامنة والنصف. ارتدت ثيابها المبعثرة في الصالون. قرصت خدَّيها، وبخّت على عنقها وخلف أذنيها المزيد من الشانيل. صفّفت شعرها بحركات متواترة، وحدّقت في المرآة. ثمّة غضبٌ دفينٌ وسخطٌ كبير، وحزنٌ مشعّ من عينيها البنيَّتين اللامعتين. تصنَّعت ابتسامة، وتنفَّست بعمق، وخرجت.

تركت سيَّارتها مركونة، وأوقفت سيَّارة أجرة.

ـ باب شرقيّ، مطعم البيانو.

ـ فيني نزِّلك قريب منُّو مدام. السيَّارة ما بتدخل لجوَّا.

كان قد حجز طاولة في البهو المكتظّ، في بيت عربيّ أنيق من

البيوت التي تحوَّلت إلى مطاعم فاخرة كعلامة فارقة ومغرية على انفتاح دمشق الجديد.

حين رآها، نهض بسرعة. لاقاها بكلِّ أكابريَّة. يرتدي بذلة أنيقة مع كرافات حمراء مقلَّمة وقميص أبيض مشربٍ بالزرقة. تفوح منه رائحة عطر عميق، وعيناه متوقِّدتان، فيهما مسٌّ من الدمع يجعلهما تبدوان غزلانيَّتين أكثر من ذئبيَّتيهما. لفتت انتباه كلّ روَّاد المحلِّ، ومعظمهم من شباب العشرينيَّات. كانت أميريَّة في تلك اللحظات، موشَّاة بالأناقة والنبل.

باغتها بجملة عرفت منها أنَّه يتفهَّم وضعها:

ـ بعرف قدِّيش صعب إنَّك تجي. إنت آمنة معي، والليلة هي للاحتفاء بك وشكرك على حضورك. وكمان إنت حرَّة. بأيِّ لحظة فيكي تروحي. بدون أيّ تبرير. أنا بيكفيني ثقتك، وبيكفيني إنُّو جيتي.

حدست بأنَّه يكذب، لكن لم تكن لديها الطاقة والقدرة على إيقاف سيول الكلمات المغمَّسة بالغزل الخفيّ. كانت تتمنَّى أن يسكت ويطلب لها مشروبًا قويًّا؛ أن تدوخ وتسكر وتنسى، ثم يأخذها ليضاجعها بقوَّة من دون تبرير أو مقدِّمات. يُطفئ هذا الاتِّقاد الذي ما زال يعسُّ في جسدها. تتمنَّى ألَّا يمتدحها ولا يُسْمِعها تفاهات المجاملات. كانت غاضبة تشفق على نفسها، بأعلى درجات الألم والفقد والعري.

وكأنَّه التقط كلّ هذا، فبدأ يُخرجها من جحيمها بقدرة مدهشة. تفهّم أنَّها أسوأ ليلة في حياتها.

ـ راح تاكلي اليوم واحدة من أغرب الأكلات بالعالم: الموزة الملتهبة.

طلب من النادل أن يشرح لها كيف سيقومون بطهو الموزة بالكونياك أمام عينيها، فشرح النادل لها ذلك بمزيج من الفرنسيَّة والإنكليزيَّة والعربيَّة، وذهب ليحضر العدَّة، بينما أخذ هو يقلِّده بطريقة جعلتها تضحك من قلبها. لم يتوقَّف عن التمثيل، ففتحت السخرية اللطيفة بابًا لروح لطيفة، جعلتها تنسى كلّ كآبتها. أورق وجهها، وأصبحت ضحكاتها الخجولة طليقة. حدَّق فيها وقال:

ـ أروع أمسية في العالم: أن تكون في بار مدهش، بالقرب من حارة اليهود في دمشق الصمود، وبرفقة سيِّدة من دمشق. إنَّها دمشق يا أولاد القحبة.

انفجرت ضاحكة. باتت الخفّة تحملها. وكأس الكونياك جعلتها تقول له:

ـ لا تربط دمشق بكلمة بذيئة.

ـ أنا ما دخلني. مو أنا إلِّلي قلت هيك.

ـ بعرف هي لمظفر النوَّاب.

ـ لا، النصّ مو لمظفر، لكاتب سوريّ.

ـ لا، أنا متأكِّدة إنُّو لمظفر النوَّاب العراقي.

ـ أنا بعرف الكاتب سوري عايش بدبي، وكتبه سنة ٢٠٠٥. يكتب باسم مستعار «أبو آداد».

ـ كلّ الناس بيتداولوه على إنُّو لمظفر النوّاب.

ـ بالآخر مو مهمّ مين كاتبو. المهمّ إنُّو نصّ لدمشق.

ـ بتعرف، جايي عَ بالي إسمعو.

فتح جهازه الخلويّ. بحث عن النصّ، وبدأ يتلوه على مسمعها:

«إنَّها دمشق، امرأةٌ بسبعة مستحيلات، وخمسةِ أسماء وعشرة

ألقاب، مثوى ألف وليّ ومدرسةُ عشرين نبيًّا، وفكرةُ خمسة عشر إلٰهًا.

إنَّها دمشق، الأقدم والأيتم، ملتقى الحلم ونهايتُه، بدايةُ الفتح وقوافله، شرودُ القصيدة ومصيدة الشعراء.

من على شرفتها، أطلّ هشام ليغازل غيمة أمويَّة عابرة، «أنَّى تهطلي فخيرك لي» بعد أن فرغ من إرواء غوطتها بالدم، ومنها طار صقر قريش حالمًا ليُدفن تحت بلاطة في جبال البرينيه.

إنَّها دمشق التي تحمَّلت الجميع، قوّادين وحالمين، صغارَ كسبة وثوريين، عابرين ومقيمين، مدمني عضّها، مقلِّمي أظفارها، وخائبين وملوَّثين، طهرانيين وشهوانيين.

رُضِعت حتى جفّ بردى، فسارعت بدَمِها، بشجرِها وظلالِها، ولمَّا نفقت الغوطة، أسلمت قاسيونها ـ شامتَها الأثيرة ـ يَلعقونه، يَتسلَّقونه، يُطلّون منه على جسدِها، ويدعون كلّ السفلة ليأخذوا حصَّتهم من براءتها، حتى باتت هذه مهنة من يحبُّها ومن لا يقوى على ذلك.

لكنَّها دمشق تعود فتيَّة كلَّما شُرِقَ نقيُّ عظامها».

استوقفته ليل بحركة من يدها:

ـ وقّفْ هون. عِيد هالجملة.

ـ تعود فتيَّة كلَّما شُرِقَ نقيُّ عظامها.

ـ عيدها كمان.

ـ تعود فتيَّة كلَّما شُرِقَ نُقِيُّ عظامها.

ـ أنا محتاجة تمامًا ينشرق نقيُّ عظامي، بركي بتتجدَّد فيني الرغبة بالحياة.

انتهى من قراءة النصّ، وصمتا. حالة من الخدر الكثيف. قطع الصمت بصوته:

ـ لو سمحت الحساب.

دفع الفاتورة وغادرا. مشيا في أزقّة دمشق غير عابئَيْن بالبرد اللطيف. أمسك بيدها، فلم تمانع. شدّ عليها، فلم تمانع. شعور مذهل بالخفَّة والرفعة والسموّ. كأنَّ الكونياك يفتح الدهاليز المقفلة.

كانت الشوارع الضيِّقة كريمة بالجمال والأمان، مغريةً للركض والطيران، حميميَّةً تجعل غدد الإنسان تفرز كلّ ما يساعد على الصحو والتذوُّق والتلذُّذ والتمنِّي. لامسا الحيطان، وحفرا أوَّل حرفين من اسميهما عليها، وشربا من ماء السبيل.

ـ بتعرف؟ هاي أوَّل مرَّة بعمل هيك.

ـ إذا بتظلّي معي بوعدك بألف شغلة تعمليها لأوَّل مرَّة.

ـ فيديل إنت هيك مع كلّ النسوان، ما هيك!

ـ تقريبًا

ـ شو بختلف عنن أنا؟

ـ ولا بشي بالمجمل.

أربكتها صراحته المباغتة. فنترت يدها منه، فعاد وأمسكها:

ـ هالمرَّة أنا المختلف يا ليل. من أوَّل مبارح وأنا المختلف.

ـ فهّمني.

ـ هيك بدِّك تقولي، مثل لفحة الهوا بالشام. كثير صعب تنشرح. هاي المدينة كلّ شيء فيها غير.

ـ أنا ما بعرف غيرها كثير. عادةً بحسّها تعبانة وختيارة، بسّ اليوم كإنُّو غير.

ـ على كلٍّ، الشام غامضة ومدهشة وكريمة لمَّا بيكون مزاجها رايق.

ثم أخذ وضعيَّة الممثِّل، وقال بنبرة مسرحيَّة بين الضحك والجدّ:

من لم يكتوِ بلظاها فلن يعرف مقتضاها.

مشيا معًا من شارع إلى آخر. انداح الكلام، تشاكلا متخاصرَين وهما يعبران تحت الضوء الشحيح، بين الأقواس المائلة، يتناهى إليهما همسُ التاريخ. كانا يحتفلان بولادة شيء غير قابل للتفسير، ولم يعد لديهما القدرة على منعه.

ما لم يعرفاه هو أنَّهما كانا بصحبة مجموعةِ مراقبة، كلَّفها عبَّاس جوهر تتبعَهما كظلٍّ ثقيلٍ خفيٍّ، تُحصي عليهما تلك اللحظات موثَّقةً بالصور.

* * *

ركن سيَّارته المستأجَرة عند ساحة باب توما.

ليلة خالية من البرد، كأنَّ الشتاء مجرَّد رداء، ما إن يرافقك مَن تهواه روحك حتى تخلعه عنك. وبدلًا من أن يوصلها إلى البيت، صعدا إلى قاسيون.

أوقف السيَّارة إلى جانب الطريق الجبليّ ونزلا يتأمَّلان الشام من فوق. نسمة من البرد اللطيف قابلتها يده تطوِّقها فتحني رأسها على صدره، فتمنحهما دمشق بعضًا من سحرها، وتمدّهما بطاقة مدهشة على الاحتفاء، باتت كأنَّها تتعرَّف إلى مدينتها أو تراها للمرَّة الأولى في حياتها

عيناه غير المعتادتين عليها، جعلتاه يرى فيها أطوارًا من الأشكال الغريبة المثيرة. تهمس بالقرب من عنقه:

ـ أنا ومديتني صرلنا زمان ناطرينك.

ـ أنت ومدينتك من أجمل ما حدث لي من خمسة آلاف سنة.

ـ ههههه، وأنت ومدينتي من أجمل ما حدث لي من خمسة أيَّام.

ـ كلّ يوم ألفٌ ممّا تعدّون.

تودّ أن تختلي به من دون أن تكسر مزاج هذا الائتلاف المدهش لإحساسها بالحياة. جمال دمشق، وأنت تراها من فوق، يبعث على الطمأنينة. مدينة تمتدّ كفراشة ولا تقوى على الطيران. همسها العالي يصل إليها، وإحساس هائل بالخوف والغموض، والجمالِ والوجع. بدت مدينة تشبهها، تئنُّ بصمت مكتوم يأتي متألِّقًا من داخلها الوامض. ودَّت لو ترتمي على صدره تشمّه، كطفلة تغزوه، كسرب جراد، تلتصق به كوحمة.

دخلا إحدى الكافتريات. طلب قنِّينةً من النبيذ الأحمر، وشربا بفرح غامر. جعلتها الكأس الثانية في مهبِّ اللغة المتكسِّرة.

ـ إنت سكرانة هلَّأ، صار فيني إستغلِّك؟

ـ استغلِّني متل ما بدَّك.

كيف يغدو الوقت فجأة مدهشًا فيَّاضًا باللُّقى. لم يشرب إلَّا بضع رشفات. ضحك من أعماق قلبه على تأتأة السُّكر المنبعثة منها، فانتبهت لعينيه البنِّيَّتين اللامعتين، ولحيته الخفيفة، وأنفه الراسخ، وأصابع يديه الطويلة. تقلب نظرها بين هذا الرجل الفاخر ودمشق، وتمزجهما معًا، بينما تزداد دوخة الخفّة ورغبةٌ لا تُقاوَم في أن تقبِّل هاتين الشفتين الرابضتين على أسنان جاذبيَّتُها لا تُقاوَم.

عادا إلى السيَّارة، فانسابت أصابعه كنسيم يداعب بها جذور شعرها

دنا بوجهه من وجهها. باتت أنفاسه تلامسها، ورائحته ريَّانة وطيِّبة، وأنفه يتشمَّم الخدّ ويطبع قبلات هامسة على جبينها وحاجبيها وعينيها، لتصل شفتاه إلى شفتيها، ويغرقا معًا في قبلة طويلة. طراوة ينَّاعة. مجد التلامس البهيّ. ذكاء الالتحام الشهيّ. تحوَّل جسدها رويدًا من صحراء قاحلة إلى أرض تمطر بها غيوم من اللذّة. يُعشب جسدها، يفوح وينوح ويتلوَّى، ويتراخى بين يديه الطيِّبتين.

تنسى نفسها، كأنَّها تُولد من موت؛ تعود من كهف؛ تخرج من نبع. ومع كلّ اقتراب تعاودها الرجفاتُ، تتندَّى، تخلع قناع الادِّعاء:

ـ إلك. أنا إلك.

ـ إيَّاك تكوني لحدا غير نفسك.

ـ بهاي اللحظة حابِّي كون إلك. بلا ما تتفزلك عليِّ. بعدين أنا سكرانة، عندي حجَّة.

يمرُّ ضوء باهر سريعًا إلى جوار السيَّارة المركونة، يوقظ خفافيش المخاوف ويُعيد طَرق باب الارتياب، فيهدِّئها ويحضنها. تعشعش رائحة في عقلها تودّ تذوُّق منابعها. ذرفُ دموع محبوسة منذ سنوات. قبلةٌ رطبة ممتدَّة بشساعة، جعلت كلّ حصونها تتهاوى. تريد فقط البقاء في هذه اللحظة الغريبة، في أخطر مكان يمكن أن تمارس فيه قبلة في دمشق. قبلة تُضاء كلَّ لحظة بضوء سيَّارة عابرة. قبلة يداهمها ومض فلاش غامض.

قاد السيَّارة بيسر وخفَّة على إيقاع هفيف الصمت الموّار بالدهشة.

أوصلها إلى حارة البيت. أوقف السيَّارة وأرسل زوارق أصابعه إلى بحر جسدها، وقبَّلها من جديد.

انفجرت ببكاء له طعم البحر بينما شفتاه تهمس لها:

ـ ستكونين أحلى. ستكونين بخير.

كانت مريضةً أمام طبيبها، غارقةً أمام مخلِّصها، وكان يعرف كيف يُشفي بالهمس. وهي الخبيرة بعلم الطمأنينة، العليمةُ بأوجاع البشر التي أمضت عقدًا ونصف عقد تردِّد لمرضاها ولمرافقيهم:

ـ ستكون بخير. ستكونين بخير. ستكونون بخير.

ومع أنَّها من قاموس كلماتها اليوميَّة، فإنَّها لم تكن تعلم بمدى ما تحمله هذه الجملة العاديَّة من طاقة الخير. كأنَّ الحياة أرادت أن تردّ إليها بعضًا ممَّا قدَّمته، فتجد من يهمس لها ويهدِّئ مواجعها من ألم مجهول المصدر، ويحاول أن يفكّ فردة حلق من أذنها! ويغيِّر إيقاع صوته:

ـ صار لازم تروحي.

باتت تعوم على طوَّافة الراحة المذهلة، يُراودُها الأمان المعجون بالرضى.

لم يستغلَّ ضعفها، ولم يحاول أن يمارس الحبَّ معها في السيَّارة. ومع ذلك، كان يخالجها أسًى خفيفٌ، صدًى لرغبة قديمة في أن تمارس الحبّ مع رجل في السيَّارة؛ وهي رغبةٌ مراهقة متسلِّلة على الأغلب من فيلم التيتانيك. لكنَّها عزّت نفسها ربَّما: كلّ مضاجعة داخل سيَّارة ستؤدِّي إلى الموت غرقًا.

صفا رأسها وهو يفكّ قرط الأذن:

ـ راح آخد هالحلقة.

ـ خود الفردة الثانية كمان.

ـ فردة معي وفردة معك. هيك منبقى متَّصلين.

ـ راح شوفك قبل ما تسافر؟

ـ خلَّصت كلّ شيء، بس راجع قريبًا

ـ ما بدِّي ودَّعك.

ـ ولا أنا.

ـ تصبح على خير.

أغلقت باب السيَّارة، قبل أن تسمع ردّه. لم تنظر إلى الخلف. انفتح باب الواقع الذي ينتظرها كانت تفكِّر في حجَّة الغياب.

غالبًا تأتي الحجج من هذا النوع عند مدخل الباب. ركّزت خطواتها، وأعادت الثقة إلى مشيتها. دخلت المنزل. تُشير الساعة إلى الثانية والنصف بعد منتصف الليل. الأرض تميد وتدور.

فتحت الباب، ولم تخطر في رأسها أيُّ حجَّة.

وقرَّرت لحظتها

ـ سأدخل، وإن سألني عادل، فسأقول له كلّ شيء. لن أكذب عليه.

لم يكن عادل قد عاد بعدُ. تنهَّدتْ برضى. سيمنحها غيابه، على الأقلّ، بعضَ الوقت برفقة هذا الشعور الهائل، وغدًا لكلِّ حادث حديث. تستلقي على التخت، وتغرق في النوم من دون أن تمسح بقايا المكياج عن وجهها

(١٩)

حارس «الكولبة»

تحوَّل البيت إلى خليَّة نحلٍ، مشرِّعًا أبوابَه لشباب وناشطين ومثقَّفين.

نُظِّمت فيه جلساتُ حوار لمتابعة ما يحدث في مصر وتونس وليبيا ومع دخول آذار، كانت العلاقة بين أنيس وسامية في أوجّ ربيعها.

حين وصل سامي، وجد الأبُ والابنُ نفسيهما أمام دهشة اكتشاف الجذور. ولمَّا طاف في بيت أجداده وشاهد ما يعنيه حقًّا هذا البيت، قال ساخرًا: في بريطانيا، يتفاخرون ببيوت العصر الجورجيّ والڤيكتوريّ. يبدو أنَّ جدِّي كان يستخدم جرن بعل المقدَّس لصناعة الكبَّة النيَّة!

قال الأب بحسرة: ما فائدة أن يكون الأجداد في المقدِّمة، بينما الأحفاد بارعون في احتلال ذيول القوائم في كلِّ شيء.

ردّ سامي بتأفُّف من هذه السوداويَّة: بابا، لا تبدأ الآن.

تجوّل في دمشق برفقة ابنه، في شوارع صباه ومدرسته وجامعته.

كان سامي سعيدًا لأنّ أباه بهذه الروح الطفوليَّة المليئة بالفخر والحنين. لا شيء يعادل سعادة المرء في أن يشارك ابنه الذي فاقه طولًا في بَعْضٍ من ذاكرته.

كانت دمشق أكثر ألفة برفقة سامي، أجملَ ألفَ مرَّة وهو يحدِّث وريث جيناته عنها. كان يودّ أن يعوِّضه عن كلّ ذلك الغياب القديم حين ظنَّ أن ليس لديه ما يخبره به عنها. عندما كان سامي صغيرًا، كان يشرح له بهدوء وبرود عن لندن ومعالمها وتاريخها. يحشو رأسه بالمعلومات المعلَّبة المستقاة من نثار الكتب. أمَّا هنا، فلم يكن يريد أن يُرهقه بالمعلومات، بل أن يجعله يستشعر روح هذه المدينة. فتح أبوابها المغلقة أمامه وجعله يتلمَّس معرفة جذورها. كان يودّ أن يقول له: أنا آسف يا بُنَيّ، لأنِّي كنت خلال تلك السنوات أحطّب شجيرتك التي تنمو في مدينتك.

لم يكن سامي يكتشف هذه المدينة الرائعة فحسب، بل يكتشف أيضًا روحًا أخرى لأبيه لم يتوقَّع أبدًا أنَّه يملكها.

في أثناء مرورهما قرب قلعة دمشق من جهة الحميديَّة، ارتفع أذان الظهر، مثلَ قبَّة من الأصوات الشجيَّة تتشابك في فضاء مدخّن بالتعب، فذابت ضوضاء المدينة المكتظَّة وعلا نداء من القلب يدعوهما إلى الصلاة، فدخلا جامع أبي الدرداء الصغير المحفور في قلب الجدار المُضاء بالأخضر الناصع، ليصلّيا معًا. خرجا من المكان مشبعين بمشاعر لا توصف، وتابعا المشي كأنَّهما يلحقان بحفيف روحيهما الهائمة في المدينة الصاخبة.

لا يتوقَّف فضول الابن النهم عن التهام المدينة، ولا يبخل فرح الأب الكريم في فتح مغاليقها. وفي وسط سوق البزوريَّة الفوَّاحة

بالروائح الشهيَّة التي تداهم الأنف وتفتح شهيَّة الذائقة، قال سامي لأبيه:

ـ الآن عرفت لماذا أنت عالق هنا؟ شكرًا لأنَّك دعوتني، فلو لم آتِ لكان من المستحيل أنَّ أفهمك؟

ردّ أنيس الممتنّ لدمشق لأنَّها فتحت مسارب لهذا الشابّ لم يكن يتوقَّعها يومًا:

ـ أفكِّر بشكل جدِّي في الاستقرار هنا وفتح عيادتي الخاصَّة.

كانا قد وصلا إلى بيت جبري، وطلبا طعامهما، حين طرح سامي السؤال المنتظر:

ـ هل اتَّفقتما على الطلاق؟

ـ نعم.

ـ وعلاقتك بالسيِّدة سامية جدِّيَّة؟

ـ أعتقد نعم.

ـ أَيمكن أن أقوم بأيِّ شيء من أجلك أنت وأمِّي؟

ـ لا، الأمر مُنْتهٍ.

ـ أخيرًا، لديَّ إجابات. شكرًا يا أبا سامي.

كان لسامي خلال بضعة أيَّام لا غير مجموعةٌ من المعارف، كانوا لا يتوانون عن دعوته إلى الخروج، ويتولُّون أمر تعريفه إلى أحياء المدينة وريفها. أخذوه إلى مغارة الأربعين التي يدّعون أنَّ هابيل قُتل فيها، ومن هول الجريمة، انفتح فم الجبل ليرى بعينيه باب المغارة كأنَّه فم بشريّ عملاق في داخله ما يشبه اللسان والأسنان والحنك. أصبح موقع الجريمة مزارًا، وما زال الجبل يقطر ماء كأنَّه يبكي على أوَّل جريمة حدثت في التاريخ.

كان الشباب الذين تعرَّف إليهم يستغربون كيف لهذا الشابّ الإنكليزيّ أن يعزف عن شرب الكحول، ولا يدخِّن أبدًا، ويغضّ البصر عن أجساد فاتنات الشام المثيرة.

وكان يهمس بالعربيَّة، وهو يطالع وجوه الصبايا الشاميَّات المحجَّبات وهي تمور بالحمرة وأعينهنَّ تبرق بجمال صاف: سبحان الله، وما شاء الله.

حضر سامي مجموعة من الجلسات، في بيت حُدُد، إحداها لبروفيسور في الاقتصاد شرح فيها أنَّ سياسة الحكومة لِمَا يُسمّى اقتصاد السوق الاجتماعيّ أدّت إلى رفد سوق البطالة بأكثر من ثلاثة ملايين فلَّاح هجروا أرضهم وباتوا يشكلِّون أحزمة فقر في المدن الكبرى، وإن بقي الأمر على هذه الحال، فحتميَّة الانفجار قادمة لا محالة.

في الجلسة الثانية، كانت مجموعة من شباب الراب الصوفيّ، الجيلِ الجديد المهووس بالموسيقى المختلفة، تملأ فضاء البيت بأغنيات مذهلة.

وعُرضت في الجلسة الثالثة، محاضرةٌ مسجّلة عن آلهة دمشق القديمة، وخصوصًا إلٰهَ الصواعق والمطر حُدد، أو آداد حاميَ دمشق. وشرح الدكتور ريمون أنَّ دمشق مشتقَّة من كلمتين: دُم و شقّ. والدُّم هم قبائل الدوم المتوحِّشة التي تمّ شقُّها، أي إفناؤها في هذه المنطقة. ثم لخَّص نظريَّته التي رآها سامي مثيرة للاهتمام: يجب التوقُّف عن الصراع بين رأي العلم بشأن نظريَّة النشوء والارتقاء وأنَّ أصل الإنسان والشامبانزي جذر واحد، وبين رأي الدين في أنَّ آدم هو أبو البشر. والحلّ، في رأي البروفيسور ريمون، هو في دمشق. ففي هذه المدينة، يمكن أن نجعل النظريَّتين متوازيتين وغير متناقضتين.

قوم الدوم هم الجذر المفقود للإنسان؛ متوحِّشون وتمَّ القضاء عليهم هنا في دمشق من قبل المتأنسنين الذين ينحدرون منهم. وآدم ليس أبا البشر جميعًا، بل هو أبو البشر العاقلين، لأنَّه أوَّل من فكَّر في التوحيد والتعقُّل. وإنَّ أبناءه تزاوجوا مع بقايا الدوم الذين استأنسوا.

ويمكن للحكايات الدينيَّة، طبقًا لهذه النظريَّة المتوازنة، أن تكون صحيحة من دون أن نضطر إلى الخجل من أنَّ السلالة البشريَّة قائمة على زنا المحارم. ويمكن للعلماء أيضًا أن يكرِّسوا وقتهم الثمين لدراسة «الدوم» ونظريَّة التطوُّر من دون أن يضطرُّوا إلى الدخول في حوار الطرشان مع المتديِّنين.

ينفض بيت آداد الغبار عن التاريخ ويستعيد روحه. بدت جدرانُه أكثرَ شبابًا، وغرفُه أكثرَ حرارة. وتتوافد طواقم التصوير عليه لتوثِّقه وتستنطقه، في حين كان سامي غارقًا في قراءة مذكَّرات الخال.

في هذه الأثناء، في مكان ليس ببعيد عنه، كان أربعة أولاد لا يتجاوز أكبرهم السادسةَ عشرة، يشترون بخَّاخًا أحمر اللون، يتسلُّون برقش عبارات عديدة على الجدران. شغب ورغبة في ترك الأثر، والإعلان عن عواطفهم الملتبسة. يرسمون قلوب حبٍّ، أو يكتبون أسماءهم أو أحرفًا منها، بشقاوة وطفولة.

وفي لحظة هاربة من عبث القدر وشطحات المراهقة، بخّ أحدهم بخطٍّ رديء عبارةً بلا معنًى، «جاك الدور يا دكتور»، على جدار مليء بالشخابيط.

وحين نفد حبر البخاخ، حفر أحد المشاغبين الأربعة بقطعة معدنيَّة عبارةً أخرى سمعها في التلفزيون، الذي لا يتوقَّف عن بثّ أخبار تونس ومصر الشعب يريد إسقاط النظام. وسيعترف الصبيّ الذي خطَّ

العبارة لاحقًا بأنَّه حين خطّها لم يكن حتى يفهم معناها، وأنَّ الأمر لم يكن سوى تسلية لتزجية الوقت لأطفال ترك معظمهم المدرسة، ويمضي أغلبهم وقته في البحث عن عمل ما، أو في التسكُّع بلا هدف في طُرقات المدينة.

مرَّ كثيرون من الناس أمام العبارتين لعدَّة أيَّام، من دون أن تعني لهم شيئًا، حتى ذلك اليوم المشؤوم، حين جاءت مجموعة أخرى من أولاد، لا دخل لهم بأدوات البخّ، لتلعب الكرة أمام مرأب عسكريّ قرب كولبة للحراسة. كان الملل يأكل وقت المجنَّد الجالس فيها كجذام، وهو يحاول أن يحتال على زمن الحراسة البطيء البارد، بإشعال سخّان بدائيّ يضع فوقه إبريقًا من الشاي، ويسهو وهو يقرأ جريدة «البعث» التي تعود إلى الأسبوع الماضي. يغفو الحارس ويبدأ سلطان النعاس بفرض سلطته عليه، ثم يستفيق مذعورًا حينما اصطدمت كرة الأطفال بجدار محرسه.

خرج غاضبًا ليلتقط الكرة بيد، ويمسك السكِّين التي يستخدمها عادة لفتح معلَّبات الطعام باليد الأخرى، ويشقّ الكرة الثمينة ويرميها للأولاد مهدِّدًا:

ـ هاي المرَّة سطَّحت الفطبول. المرَّة الجايي راح إسلخ جلد كلّ مين بيشوطه لهون.

انسحب الأطفال يتقاذفهم الغضب بسبب شقّ كرتهم المبخوشة. أوقدوا نارًا في الفناء القريب وهم يشتمون الكولبات والحرس. وحين انتهت موجة الغضب وهمُّوا بالرحيل، حمل أحدهم الجمرات المتبقِّية في علبة تنك ومشى في اتِّجاه الحارس المزهوّ، ليس لأنَّه أثار الرعب في قلوب الأطفال، بل لأنَّه كسر رتابة يومه، وقرَّر أن يكافئ نفسه بكأس عاشرة من الشاي.

رمى الولد الجمرات المشتعلة على المحرس وفرّ هاربًا، لتصيب إحداها مباشرة يد الحارس التي انلذعت، فيرجع إلى الخلف مذعورًا وينقلب الإبريق على السخَّان، ما يُحدث ماسًّا كهربائيًّا تسقط عليه الجريدة العتيقة وتبدأ بالاحتراق.

يحاول أن يُطفئ النار برفس السخَّان إلى الخارج لترتدّ إليه النار، فتشتعل ببنطاله. يخرج مرعوبًا منقذًا نفسه وبارودته فارغةَ الطلقات. يُطفئ بنطاله ويقف لا حول له، مُصابًا بحروق في يديه ورجليه وقد شاطت رموشه. يراقب من محرسه الذي شبّت فيه النيران الأطفالَ الذين أصابتهم الصدمة العارمة، ثم كمن انفكَّت عنهم لعنة الجمود هربوا مسرعين وأقدامهم تلامس مؤخِّراتهم.

اتَّصل المجنَّد برئيسه المباشر الذي جاء مسرعًا برفقة دوريَّة مخابرات. يترجّل منها ضابطٌ متعجرف، وبعد استجوابٍ قصير للحارس يأمر بنقله، ليس إلى المستشفى بالطبع، بل إلى السجن مع حلق شعره عقوبةً أوَّليَّة قبل أن يعالج أيّ شيء.

يولّع سيجارته ويتأمَّل المحرس المحروق بغباء. يلتفت إلى حائط المدرسة المرقوش بأسماء عشرات المشخبطين، فتلوح له تلك العبارة المبخوخة في لحظة طيش ضاحكة: جاك الدور يا دكتور.

يقترب أكثر. يعاين بقيَّة الشخابيط وعقله يعمل في أعلى مستوى من التحليل الهولمزيّ، ليربط خيوط المؤامرة، ويستنتج بعبقريَّة أنَّ من كتب هذه العبارات هو من أحرق هذه الكولبة. وبسرعة، استدعى مدير المدرسة يأمره:

ـ بدِّي قائمة بأسماء كلّ ابن منيوكة كاتب اسمه على الحيط مع سجلِّه الحزبيّ.

جمع المدير، خلال ساعات، طاقمَ المدرِّسين والإداريين وعمَّال النظافة، الذين أخذوا بجرد كلّ الأسماء المكتوبة على الحيطان. أرسل قوائمها إلى فرع المخابرات الذي استنفر كلّ عناصره، وبدأت سيَّاراته تجوب المدينة مداهمة البيوت لتعتقل الأولاد!

المفارقة أنَّ بعض الأسماء التي خطَّها أصحابها منذ سنوات، بعضهم صار في العشرينيَّات، فأُلقي القبض عليهم وسِيقُوا إلى المعتقل.

لم تمرّ بضعة أيَّام إلَّا وامتلأت زنازين الفرع بعشرات الأولاد، وأُعِدَّت لهم حفلة تعذيب، ثم تقلّص العدد إلى عشرين ولدًا تتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والسادسة عشرة.

كان أحد الآباء البعثيِّين، ممَّن كان يقدِّم خدمات جليلة إلى الأمن لسنوات طويلة، يتولَّى بنفسه نزع الاعترافات من ابنه الذي لم تشمله قوائم الاعتقال، ليتوصَّل إلى نتيجة بأنَّ ابنه كان أحد المشاركين في لعب الكرة أمام المحرس، فقاده بنفسه وسلَّمه إلى الأمن قائلًا:

- ربّوه، حتى ما يعيدها

كان الفرع الأمنيّ غارقًا في الفساد وفي جني أرباح منطقة الجمارك ومصادرة الأراضي بخديعةٍ جرّدَتْ أكثر من ألف مُزارع من أراضيهم بأسعار بخسة. وليحرِّف النظر عن فساده بالظهور في مظهر المخلص للنظام، رفع مديره تقريره، مدّعيًا وجود شبكات منظَّمة تعمل على إثارة الفتن. وأرفق في التقرير أنَّه سحق المؤامرة بإمساكه بأوَّل مجموعة منها، محوِّلًا الأطفال إلى فرع المنطقة في السويداء، الذي بدوره وجد أنَّ الأمر أعلى بكثير من صلاحيَّته، حين قرأ التقرير المرفق، فتمّ تحويلهم إلى فرع الأمن العسكريّ الجهنَّميّ في دمشق.

وبعيدًا عن هذا كلّه، كانت مجموعة من الشباب المدنيِّين المنتمين إلى بقايا مخلّفات الأحزاب اليساريَّة، تنشط على شبكة الإنترنت، وتراقب ما يحدث في تونس ومصر وليبيا واليمن.

كان الشباب يودُّون النزول إلى الشارع ورفع شعارات إسقاط المحافظ الفاسد. وأعلى سقفٍ يتمنُّون الوصول إليه، هو سماح السلطة لهم ولأحزابهم بالمشاركة السياسيَّة.

بعض هؤلاء الشباب محزَّب، وبعضهم ناشط، وبعضهم متحمِّسٌ. وأغلبيَّتهم لا ترغب أبدًا في إسقاط النظام، بل تريد تأكيد حضورها في المشهد العامّ. عددهم لا يتجاوز مئة وخمسين ناشطًا، وجلُّهم لم يسمع حتى عن اعتقال الأطفال. كانت أعينهم مشرَّعة على صفحات الإنترنت.

في استوكهولم في السويد، شابٌّ في العشرينيَّات من العمر وُلِد خارج سورية، من أب ينتمي إلى جماعة الأخوان المسلمين وأمٍّ لا حول لها ولا قوَّة سوى تنفيذ أوامر الأب. كان يحاول في غرفته الباردة أن يبتكر صفحةً جامعةً تشبه صفحة «كلّنا خالد سعيد» المصريَّة التي كانت بمثابة بوصلة للحراك الشعبيّ في القاهرة.

كان أوَّل عنوانٍ وضعه للصفحة هو «الثورة السوريَّة ضدّ حزب البعث»، ودعا من خلالها إلى التظاهر. كانت النتيجة الكثير من الجعجعة والقليل من الطحن. غيّر اسم الصفحة إلى «الثورة السوريَّة ضدّ العلويّين»، فكانت النتيجة الكثير من الاشمئزاز والقرف من أيِّ تحرُّك، وبالطبع لم ينزل أحد إلى الشارع.

جرَّب عبارة بدت ساذجة للغاية، فوقع اختياره على «الثورة السوريَّة ضدّ بشّار الأسد»، في أثناء محاولاته إيجادَ الاسم المناسب

للتحرُّك، فوجدت قبولًا أكبر في نطاق الجماعة الإسلاميَّة المجروحة بجوهرها والمطرودة لعقود خارج البلد. ودعا إلى التظاهر في يوم ١٥ آذار ٢٠١١.

استجاب بضع عشرات من الشباب، فخرجت المظاهرة الثانية الموثّقة في دمشق، وبضع مظاهرات أخرى في بانياس ودُومَا وحمص، من دون أن يتمّ توثيقها

نزولٌ عفويٌّ فوضويٌّ بلا تنظيم في جوهره. مجرَّد تحدٍّ خفيف وجسٌّ لنبض الوحش.

لم يستطع الشباب في درعا في ذلك اليوم حتى التجمُّع. بقيت اللافتات المكتوبة حبيسةً بين طيَّات الثياب، لأنَّ عدد رجال الأمن في ذلك الثلاثاء التاريخيّ (١٥ ـ ٣ ـ ٢٠١١) كان يفوق عددهم بأضعاف. فمن المستحيل التفكير في التجمّع في أيِّ مكان عام، لا جامعة ولا مدرسة ولا ساحة. هناك مكان واحد لا غير يمكن أن يلتمُّوا فيه، هو الجامع في خلال صلاة الجمعة. لم يكن معظم هؤلاء الشباب من روَّاد الجوامع، لكنَّهم أبناء بيئتها، ويعرفون طقوسها وقيمتها المعنويَّة لدى الناس. انقسموا إلى مجموعات، وتوزَّعوا على ثلاثة مساجد كبيرة. كانت التوقُّعات بحدوث أمر ما فيها تصل بشكل مُضمَر إلى قوى الأمن، وتناهت إلى أهالي الأطفال المعتقلين، والذين حاولوا أن يتدخّلوا ويسألوا عن أبنائهم، فجاءهم ردٌّ فجٌّ من حاجب أحد قادة فروع الأمن:

ـ انسوا ولادكم، وروحوا جيبوا غيرهم.

(ثمَّة رواية تقول إنَّ الأهالي سمعوا ذلك من رئيس فرع الأمن السياسيّ، وهو ابن خالة الرئيس الغضوب الغبيّ شخصيًّا).

في جامع حمزة أبو العبَّاس، وقفتْ في الصفوف الوسطى من المصلّين مجموعةٌ من الشباب الحالم بمظاهرة، وبعضٌ من أقرباء الأطفال الذين سمعوا الأهوال عن تعذيب أبنائهم، وفقراء لا حول لهم، سُرقت أراضيهم، وحشدٌ من المصلّين الذين يؤمنون بشعار: سلطانٌ غشوم خير من فتنة تدوم.

انتهى الإمام من خطبة الجمعة متقيّدًا حرفيًّا بأفكارها كما وردت من فرع الأمن السياسيّ. وحين أعلن نهاية الخطبة، انفضّ المصلُّون وبدأوا بالخروج، لكنّ واحدًا من الشباب تجرَّأ على رفع الصوت هاتفًا الله أكبر، حرِّيَّة.

هتافٌ جعل القسم الأكبر من الموجودين يسارع في الخروج رعبًا، في حين تأنَّى القسم الآخر مُبطئًا الخُطى، مستجمعًا كلّ تلك الشجاعة الاستثنائيّة، ومتجاوزًا إرثَ خمسين عامًا من القمع والخوف، ليردِّد الهتافات مع المردِّدين كما العدوى.

كانت صرخةٌ واحدة كافيةً لتحرِّر الصوت وتنتشر. يتلاحم الخارجون. يشدّون الأكتاف، بعضها إلى بعض، يتلبّكون في هذا الفضاء الذي أضحى مُلكَهم من غير قصد.

يجسّون نبض النهار، ويزدادون شجاعةً مع كلّ خطوة. يتحمَّس الشباب للمزيد من الهتافات، ورفع سويَّتها، فصاح أحدهم:

ـ الشعب يريد إسقاط المحافظ.

ـ بدِّنا أولادنا من السجون.

ـ الله، سورية، حرِّيَّة وبسّ.

ينتفض شباب يحملون موروث خمسين عامًا من الظلم ووجع ثلاث حقائق تراكمت في المكان. يحتشدون، وسط دهشة رجال الأمن

وتراجعهم، ويمشون إلى حيث لا يدرون. يلتقون أشخاصًا آخرين خارجين من جوامع أخرى. يصطفّ البعض على الجانبين مراقبًا، ويصوِّر البعض كيف تبدأ الشرارة بالاشتعال وتنتقل رويدًا رويدًا لتواجه الاستبداد والفساد والغضب والعنجهيّة، وينفجر المكانُ والزمان في اللحظة نفسها

يتمّ في مكتب المحافظ استدعاء اللجنة الأمنيَّة من بعثيّين ورؤساء فروع المخابرات، إلى اجتماع عاجل، ليجدوا أنفسهم جميعًا بلا أيّ خطَّة لاحتواء ما يجري، سوى تلك التي يتقن عملَها أمثالُهم عبر التاريخ: خطَّة السحق بيدٍ من حديد لهؤلاء الرعاع الذين يتجرَّأون على أسيادهم.

وتمَّ، عوضًا عن التريُّث والهدوء، دلقُ صهاريج من بنزين الكراهية على شررٍ صغيرٍ كان يكفيه دلو ماءٍ واحد من التفهُّم والاحترام لإطفائه.

في الشارع، حين يمتزج الخوف بالشجاعة، ويختلط الظلم بهواء التغيير، فإنَّ آخر ما يمكن أن يُعيد الناس إلى مستنقع حياتهم هو الرصاص الذي بدأ بالانهمار عليهم، حاملًا كلَّ أنواع الحقد، فيسقط أوَّل الشهداء، معلنًا قدوم توقيتٍ جديدٍ إلى البلاد والعباد، ويبدأ زمن الدم.

داخل البيت، كان أشخاص ممَّن شهدوا الأيَّام الأولى، جلبتهم سامية ليختفوا عن عيون الأمن، يروون ما حدث لسامي وأنيس، ويتابعون الأخبار عن حصار الجيش للمدينة التي أعلنت الغضب.

(٢٠)

ليل

أيقظها عادل صباحًا وقد أعدَّ الفطور ونسكافيه بالحليب. وبدلًا من أن يفتح التلفزيون على الأخبار كعادته في الصباح، وضع فيروز. كانت أغنية كأنَّها تكمل ما حدث البارحة:

«قالوا غمرني مرَّتين وشدّ

ولا ردّتو إيدي ولا هو ارتدّ

شو بيفضحوا أسرار.

مشوار. .»

حاول تقبيلها. أحسّت بأنَّها عالقة بين عالمين، لا تريد لألبارحة أن ينتهي، وعليها أن تنهض لتواجه اليومَ بكلٍّ ثقله وحقائقه. تُصغي إلى صوته وهو يهمس لها:

زوجك مانو خيّالك.

أنت فرس أصيلة، وهو من طينة أخرى. قد يكون أروع إنسان في العالم لكنَّه ليس خيّالك.

يحاول عادل التودُّد إليها، فقطع عليها استيهامها. ومع كلّ لمسة

منه، يضع حجرًا في مدماك الرفض. ولم ينتبه، مع هياجه المباغت، إلى أنَّها تحاول صدَّه، فكان يصرّ مدفوعًا بإحساسه بالتقصير ليلة البارحة.

استسلمت له مغمضة العينين، ليكدّ قليلًا. وما إن يلج حتى يقذف بسرعة من جديد. تسمع تأوُّهاته المكظومة. تفتح عينيها لترى وجهه مفغور الفم، بعيدًا ونائيًا، ليرتمي هامدًا فوقها.

* * *

بدأ الطلاق النفسيّ في هذا الصباح. لم يعد هذا الرجل يعني لها كالسابق. تبذل جهدًا لإبعاده، يهمس:

ـ قومي حضَّرتلك الفطور.

ـ لاحقتك.

كلّ ما تريده هو بضعُ دقائق كي تستردّ توازنها. آخر ما رجته هذا الصباح هو المزيدُ من الثقل. الكحول يولول في رأسها، ويخترق إحساسٌ بالضعف والإثم جسدَها. جرّت قدميها إلى الحمَّام وأغلقت الباب طقَّتين. كان وجهها كارثة صباحيَّة منتفخة، وجعلتها لطخاتُ المكياج غير المنظَّف تُشيح به بسرعة عن المرآة. لقشت حفنات الماء بسرعة، وخلعت ثيابها وانسلَّت تحت رشيش الماء الحارّ تفرك رأسها بكلِّ قوَّة. تشدّ خصل الشعر من جذورها، تدعكها بالشامبو والصابون. تنظِّف الجسد حدَّ الاحمرار. تنتابها رغبة ملحَّة في الانعتاق من كلّ شيء: من جلدها؛ من جسمها؛ من رغبتها؛ ويباغتُها شلَّالٌ من الدمع كأنَّها اكتشفت لحظة الخذلان الداخليَّة اليائسة. تتوقَّف وهي لا تكاد تستطيع التنفُّس، وتحوّل مجرى الماء من الساخن إلى البارد.

ـ أح. أحو.

أوقفت الصدمة الهبوط النفسيّ، وجعلتها تتوازن من جديد. تتنشّف، وتقرِّر إخبار عادل بكلِّ شيء.

بدا متفاعلًا يحاول أن يكون خفيف الظلِّ. أصبحت فجأة كلُّ حركة من حركاته ثقيلةً على القلب. مزحاته لا تُحتمل، وشكله حزين، وخالٍ من الحياة:

ـ آسف منشان البارحة. واليوم.

أمسكت بكوب القهوة، رشفت منه بهدوء، وأجابته بهمهمة لا تكاد تُسمع:

ـ بسيطة.

ـ تأخَّرنا مبارح لإنُّو الدكتور بديع أصرّ يعزمنا على قاسيون نشوف الشام من فوق. بتصدّقي هَيْ أوَّل مرَّة بطلع لهونيك؟

اخترق سيخ من نارٍ رأسَها رفعت نظرها بهدوء، مستكشفةً إن كان يلمّح إلى شيء، وأضاف:

ـ لو تشوفي سيَّارات العشَّاق، بتحسّي الجبل عمَّا يهزّ.

وأردف عبارةً لم تسمعها منه من قبل:

ـ شرمطة علنيّة. ما بعرف وين الأمن الجنائيّ عنُّن!

استجمعت كلّ طاقتها، ورسمت وجهًا صارمًا جاهزًا للاعتراف والمواجهة:

ـ عادل، شو بدَّك تقول بالظبط؟

ـ لا، ولا شيء. كنت بدِّي قلِّك تعي نطلع شي يوم على قاسيون، بسّ الوضع فوق مشموس.

ـ لا سيدي، شو بدَّك بالطلعة لفوق، أنت إنزل لتحت، لإنُّو الوضع هون معتم.

ضحك لقولها، واقترب:

ـ زعلانة منِّي؟ والله ما قدرت ما روح. إلك عليّ اليوم نرجع عرسان. وبعدين رجعت لقيتك نايمة طبّ. حسِّيت إنُّو خذلتك مبارح وبدِّي عوّضك اليوم.

ـ تعوِّضني عن شو؟ بشرفك عادل.   اتَّصلت بالأولاد؟

ـ لإنُّو تركتك.

نفخت وجنتيها، وأطلقت زفيرًا ليفهم أنَّها لا تريد أن تتكلَّم في الموضوع، فغيَّر مجرى الحديث:

ـ ما اتَّصلت ببيت أخي، قلت بكِّير بيكونوا الأولاد لسَّا نايمين.

ـ شو ناوي تعمل اليوم؟

ـ عازميني الشباب على يعفور، كلّ شباب الدفعة، راح نلتقي مع الدكتور سعد. بصراحة، مبارح لمّح عن إمكانيَّة الشراكة معو، أنا وإنت. ما عطيته شي، بس راح يكون ممتاز، أخيرًا منخلص من الشغل عند الناس ومنبلِّش بهيك مشروع مضمون.

لم تعد تسمع شيئًا. غابت في شرود تفاصيل البارحة. اطمأنَّت إلى أنَّ الأمر مجرَّد مصادفة مرعبة. تخيَّلت لو أنَّ عادل وأصدقاءه ضبطوها في تلك القبلة العميقة مع فيديل في السيَّارة. كيف ستكون تراجيديا الموقف؟ ضحك قلبها من الخوف والشقاوة واللذَّة معًا شعور غريب، ومخيف.

ـ ليل، إنت مو على بعضك.

ـ لا، ما في شي، فاقدة للأولاد. مالنا معوَّدين يناموا برَّا البيت.

ـ طيِّب شو رأيك؟

ـ بشو؟

ـ والله، إنت مو سامعة ولا كلمة، خلص بقا، غلطنا وطالبين السماح. بدِّك نعمل شي مشروع اليوم، ولّا بروح مع الشباب على يعفور؟

ـ أنا ما بقدر، جايي لعندي سامية.

كذبت. كانت تودّ أن يغادر بسرعة، ويتركها وشأنها:

ـ بس إنت لازم تروح. مو معقول كلّ طلّاب دفعتك مجتمعين وإنتَ هون. مو كلّ يوم راح تجتمعوا نحنا لاحقين على كلّ شيء.

ـ يسلم تمّك، وأنا هيك عم قول. راح فوت جهِّز حالي لكان.

ـ تمام.

حملت فنجان النسكافيه إلى المجلى، جالت ببصرها إلى الخارج. تنهّدت بارتياح لأنَّها ستكون وحيدة. كانت محتاجة بشكل لا يُصدَّق إلى هذه الوحدة؛ تحتاج إلى أن تختلي بنفسها بهدوء، لعلّها تفهم ما يحدث من علامات وتفاعلات وأحاديث ومناظر واجتياحات لداخلها الفوّار لملامسة ذلك الشعور الفاخر الذي لم تعرفْه من قبل. لكن، لماذا لم تستطع إخباره على الرَّغم من ذلك كلّه؟

ما إن غادر وانصفق الباب وراءه، حتى أطلقت تنهيدة كبيرة، وسارعت إلى الموبايل. فتحته، ورأت رسالة منه خفق لها قلبها

«دكتورتي. لم أستحمّ، أريد لرائحتك أن تبقى معي أطولَ وقت ممكن. ما زال صوتك عالقًا مثلَ عطرك على ثيابي. كنت أعرف أنَّ دمشق ستكون كريمة معي، لكن لم أتوقَّع أن تكون بهذا السخاء. سأذكرك كثيرًا، وأتذكَّر ضَياعنا ليلة البارحة.

سنلتقي».

أعادت قراءة الرسالة مرّاتٍ ومرّات. كتبت ومحت. كتبت

ومحت. رجفان ونشفان ريق. شيء يجذب كمغناطيس لا يُقاوَم. ماذا يحدث؟ أين العقل؟ أين التماسك؟ أين هي؟ كانت تطفو في هواء خفيف في عالم لا يتَّسع لهذا الفيض. وفي خضمّ مشاعر غامضة، بعثت الرسالة:

«حبِّيت ضيع معك».

عضَّت على شفتها وأغمضت عينيها وقرَّبت الموبايل إلى صدرها ثم طلبت الرقم. لا، ليس رقمه كما كانت تريد، بل رقم صديقتها الوحيدة التي يمكن أن تبوح لها بما حدث:

ـ سامية دخيلك. الحقيني.

ـ خير؟!

ـ محتاجتك. اتركي كلّ شي وتعالي.

ـ لِكْ خير، خير. شو في!

ـ ما فيني إحكي عالتلفون. محتاجتك. قضيَّة حياة أو موت.

ـ أوف لهالدرجة! خلص. خلص. بجبلك شي معي؟

ـ لا، ولا شي. لا تتأخَّري. ولّا قلِّك: جيبي باكيت دخّان.

ـ دخّاان؟ معناتها الوضع محروق عندك عالآخر. مثل الطير الطاير بكون عندك.

كان بوحًا ممزوجًا بالسعادة والخوف وطلب النصيحة والرعب من الفضيحة. انداحت فناجين القهوة، واشتعلت السجائر، وروت لصديقتها احتراق كلّ رماد قلبها.

لم تملك سامية المندهشة بعد هذا البوح الصادم سوى أن تضمّ صديقتها إلى صدرها، وتهمس لها:

ـ الحقي قلبك. ما في شي راح يوقفك. بس انتبهي. الثمن

يمكن يكون كتير كبير، إنت وقعتِ وما حدا سمّى عليكِ.

بكت على كتف صديقتها عمرًا مجدبًا. بكت مثلما تبكي السيِّدات في الأربعين بحرقةٍ وأمل.

ـ ليش نحنا ما بيجينا الحبّ إلَّا بالوقت الضايع؟ ليش منتزوَّج بلا حبّ؟ ليش منخلِّف بلا حبّ؟ دخيل الله يا سامية شو هوِّي الحبّ؟

هدَّأتها صديقتها. وقرَّرتا، بقليلٍ من الرويّة والحكمة، أن تحفظا السرّ عميقًا، وأن تتركا الوقت يرتِّب كلّ شيء. في كلِّ حال، فالمحبوب بعيد ولا يشكِّل خطرًا. حتى وجودُه ليس مهمًّا. المهمّ ما وُلِدَ فيها من طاقةٍ وقدرةٍ وغَمرٍ وفيض.

ـ راح كون أحلى وأقوى. ما راح فرِّط بهذا الشعور، وما بسمح يجرفني. جايي على بالي حبّ بلا قيود ولا امتلاك. وإذا حبّني بهذا الشعور النبيل راح كون أسعد إمرأة بالعالم. راح عيش على أمل اللقاء، وإسعى بقوَّة إنُّو ما نلتقي.

ـ مجنونة أنت؟

ـ لا سامية. بعتقد عرفت شو لازم أعمل. ما حدا درس الحبّ أو عرفو أو فهمو. وغالبًا رغم إنُّو الحبّ واحد من أعظم التجارب الإنسانيَّة وأغربها، فبعدو لليوم غامض السبب والنتيجة. غامض كيف بيجي! وغامض كيف بيخلص! لا الأغاني بتعرف تقوله، ولا الكلمات بتعرف تحكيه. بيغيِّرلنا عاداتنا، وحياتنا. بيعرّينا من أوهامنا، وبيكسينا تصوُّرات عنَّا ما كنّا منعرفها من قبل. وغالبًا ما منعرف لا نحتفل فيه ولا نسمِّيه، ولا نستقبله، ولا نودِّعه. عين المحبّ كليلة عن عيوب المحبوب. وباللحظة يلِّي بيخلص الحبّ ما بتعرفي من وين بتطلع العيوب.

ـ الله الله. معقول بأسبوع يصير فيكِ هيك؟ ما عم صدّق يلّي عم بسمعو. شو نسيتي يوم كنت تضطهدينا كلّ ما حكينا عن زوجين بيحبّوا بعض، أو عن قصّة حبّ، أو نقلّك اسمعي هالغنيَّة عن الحبّ، كيف كنتِ تتجهّمي وتبرمي بوزك، وبعدين تطرقينا هديك المحاضرة إنُّو بلا سخافة وقلّة عقل، ما في شي إسمو حبّ؟!!

ـ هلَّق ما تستغلِّي وضعي. يا ستِّي لأ مو من أسبوع، هي فترة طويلة من الاختمار. كنت محتاجة بس حدا يشعِّل الفتيل. شي يخضّ العقل والقلب والروح، يذكِّرني: إنتِ عايشة، إنتِ موجودة، إنتِ حيَّة، بعد هالعمر يلِّي نسيت فيه حالي. نحنا بارعين بإهدار أعمارنا بالانتظار أو تبرير الخيبة. الحبّ هو الصفعة يلِّي بتكشف كلّ الحقائق دفعة واحدة.

ـ بتعرفي ليل؟ هالحكي بيخوِّف. يمكن ما فيني إحكيه لحالي، بعرفو وبتجاهلو. بس من كم يوم صار معي شي، هلَّأ كأنَّك عمَّا تحكي بلساني. أكيد ما حسِّيت مثلك، بس فيني إفهم تمامًا شو قصدك.

ـ عن جدّ؟ وساكتة؟ لازم تحكيلي بالتفاصيل.

ـ ما فيني إحكيلك التفاصيل، بس بدِّي قلِّك: وحدة قياس أيّ شعور بالعاطفة هو قدِّيش بيدفع لقدَّام وبيعطيكِ حافز. والأهمّ يكشفلك كلّ خلل بحياتك.

ـ الحبّ بجوهره معرفة كلّ شيء عظيم: الله، الاعتقاد، البلد. بالحبّ بيصير لهالأشياء قيمة.

ـ بسّ الحبّ للمتزوّجين خطير، لأنَّك برِجليك بتدخلي بتهمة الخيانة.

ـ الخيانة كلمة اخترعها الرجال لتصفية حساباتهم مع بني جنسهم من الذكور. النساء يوم عرفوا سرّها صارت وسيلة يستخدموها لتلقين الذكورة دروس في التواضع. على كلّ حال، الموقف عندي مختلف. أنا محتاجة للآخَر لأعرف نفسي، لأحسم أمري مع عادل، لأقدر حطّ حدّ بشجاعة. لازم ظلّ قويَّة والأهمّ إنُّو فيديل بعد يومين راح يخلِّص شغل ويسافر. حاليًّا قومي نعمل غدا. من مبارح أنا بلا أكل مثل العالم. شي فلافل، شي موزة ملتهبة.

وضحكت من كلّ قلبها حين تذكَّرت الموزة الملتهبة.

ـ سامية لازم تحكيلي متل ما حكيتلك. ما راح إعتقك.

ـ ما راح إقدر إتغدَّا معك، لازم روح قبل ما يجي زوجك المصون. بتعرفي من آخر مرَّة مالو طايقني. ثانيًا يا قلبي إجتني رسالة عمَّا تخبِّرني إنُّو الذكورة عمَّا تستنَّاني.

حملت سامية حقيبتها وانسلَّت من إصرار ليل التي لحقتها إلى الباب تتضاحكان:

ـ وين بدِّك تهربي. بدِّك تحكي، يعني بدِّك تحكي.

(٢١)

عادل

يتكفَّل إلٰه المصادفات بفضح الحبّ، لكنَّ الغراميَّات لا يكتشفها أحد.

كان قد نسي كمبيوتره الشخصيّ في العمل، ففتح جهازها المحمول ليبعث منه بإيميل ضروريّ. كانت كلمة سرِّ إيميلها محفوظة بشكل تلقائيّ، فانفتح أمامه بريدُها. لمحة بصر جعلته ينتبه لوجود رسالة، فقاده فضوله إلى البحث في سلّة المحذوفات. كانت قد حذفت مجموعة أخرى ونسيت أن تفرغ السلَّة. قام بإرسالها واحدة واحدة إلى إيميله، وأغلق الجهاز وغادر إلى مكتبه. طبعها كلّها لم يصدِّق ما تراه عيناه. كانت واحدة من أكبر الصدمات في حياته. صار يغلي فوق مرجل من القهر. حاول استرداد توازنه، وحكمته. وتمالك نفسه حتى عاد إلى البيت.

أضحى قلبها بين قدميها حين اقتحم غرفة النوم وسألها وهو يلهث:

ـ مين فيديل العبد الله؟

تابعت الكيّ. ربّما ضغطت أكثر قليلًا على مكبس الرذاذ، مثل من يتوقَّع هذا عاجلًا أم آجلًا أكملت عملها وهو واقف أمامها يحمل الرسائل التي طبعها من إيميلها ويواجهها بها. بدا مرذولًا بوجه مشبوح، وقد تجمَّع الزبد عند حافَّة شفتيه. ندّت عنها كلمة وحيدة:

ـ أخيرًا.

ـ أخيرًا شو؟

فصلت قابس الكهرباء عن المكواة، وأعادت جحش الكيّ إلى وضعيَّته. طوت القميص بأناقة، ووضعته في الخزانة بهدوء.

أحسَّ بنفسه عاريًا، ومُهانًا، وملتصقًا لا يقوى على الحركة. استفزَّه هدوؤها، فخرج زفيره مضمَّخًا بصلياتٍ من الغضب الجارف:

ـ بدّي أعرف كلّ شيء. كلّ شي. فهمتي: كلّ شي.

وأطلق زعيقًا حادًّا راميًا بما يحمله عليه.

لم تستدر مباشرة. اعتراها مسٌّ من الجليد. لطالما عرفت أنَّ هذه اللحظة قادمة لا ريب فيها. اقترب منها، فتلها إليه، أمسكها بعنف من كتفيها صارخًا:

ـ اطّلعي فيني. حطّي عينك بعيني.

فعلت كما أمرها اطمأنّت قليلًا وجدت عيني رجل عاجز ومخذول، وأضعف من أن يقوم بأيِّ حماقة.

ـ بدّي أعرف كلّ شيء، كلّ شيء عم قلّك. فهمانة؟

ـ حاضر. تكرم عينك. إهدا، وكلّ شيء بصير مثل ما بدّك.

ـ لِكْ. لِكْ.

رفع قبضته يريد صفعها، غير أنَّه لم يقوَ على ذلك. ظلَّت صامتة وهادئة. لم تحاول حتى أن تنظر إلى عينيه.

ـ راح إختنق. على كلّ، ماشي. راح إهدا. عمّا بستنَّاكِ بالصالون. قبل ما يجو الأولاد. بدِّي نحكي بهدوء.

تغيَّرت لهجته إلى عتب هامس:

ـ ليل، دمَّرتينا.

ثم استردَّ غضبه بسرعة وعاود الصراخ:

ـ رتِّبي حكايتك منيح، لإنُّو بدِّي أعرف كلّ شي، عم تفهمي، كلّ شي، وصفق الباب.

وقبل أن تلتقط أنفاسها، عاد وفتحه:

ـ إعطيني تلفونك.

أشارت إليه إلى جوار الكومودينة قرب السرير.

أخذه، وبدأ يفتِّش فيه بعصبيَّة. لم يجد شيئًا، رماه إلى الحائط فتحوَّل إلى قطع متناثرة.مكتبة الرمحي أحمد

لم تبدُ عليها أيّ علامةٍ من علامات الخوف. فكّرت فقط في الحكمة التي جعلتها تقتني هاتفًا آخر للتواصل مع فيديل. خرج عادل صافقًا الباب.

استجمعت نفسها بهدوء. أخرجت التلفون السرِّي، من جيب جاكيتها الأسود في الخزانة، وأرسلت إليه:

عرف. ما بعرف كيف؟ بأوَّل فرصة بحاكيك، لا تتّصل مهما صار.

أقفلت الجهاز، بعد أن أعادت ضبط إعداداته، حاذفةً كلَّ محفوظاته، وأخفته من جديد. تنفَّست بهدوء. ربطت شعرها ذيلَ حصان، ورسمت على وجهها علامات الحزن. لا شيء يمكن أن يعادل فجيعة زوج مخذول مثل وجهٍ محايد، وخرجت. كان في

الصالون ينتظرها. جلست قبالته، قاومت رغبتها في أن تدخِّن سيجارة، لكنَّه أمسك العلبة وعرض عليها واحدة، أخذتها.

- أنا السبب؟ بشو قصّرت معك؟

ذكّرته بتلك الليلة التي دعته فيها مستنجدةً به، وحاولت اللجوء إليه. سردت له كلّ تفصيل ممكن. ذكّرته بأنَّ موضوع انفصالهما مطروح منذ ثلاث سنوات، وليس الآن. هدأ، انفرجت علامات وجهه. أخبرته بأنَّ الأمر بدأ بلا نوايا، لكنَّها تورَّطت.

- عادل لمَّا ما قدرت تسمعني هداك اليوم قبل ما إقدم على شي، صار من المستحيل إنُّو تسمعني لاحقًا. والأكثر استحالة إنُّو خبَّرك بشي. بشكر الله إنَّك عرفت. أنا ما خنتك جسديًّا.

- بتحبِّيه.

- عادل، الأمر مجرَّد تنفيس. ما التقينا غير بسهرة بمطعم، ورجعت عالبيت.

«بتحبِّيه». أعاد السؤال بإصرار أكبر.

أخبرته بربع الحقيقة، بإقناع كامل. دُهشت من قدرتها على السرد الواثق.

- لكنَّ الرسائل بتقول إنُّو تباوستو.

كنت سكرانة، وخايفة، وغضبانة منك. كانت بوسة انتقام.

وهنا استلمت الحديث، لتطيح به تمامًا:

- يومها ما اشتهيت رجل بالعالم قدَّك. ما كان بدِّي غيرك، ما حلمت برجل إلَّا إنت.

افهمني عادل، الله يخلِّيك. إنت حبيبي وتاج راسي وأبو ولادي. إلي معك ١٥ سنة مثل الليرة الذهب. على الحلوة والمُرَّة. ما عرفت

رجل غيرك، لكن يمكن استغلّ ضعفي.

قالتها وهي متألِّمة، لأنَّها تعرف أنَّ فيديل لم يستغلّ شيئًا. كان لا بدَّ لها من اللعب على فكرة نذالة الرجال التاريخيَّة.

ـ باسني بالسيَّارة. لفظت اسمك، تراجع، واعتذر، ووصّلني على البيت. بعدها الأمور معك ما كانت بخير. كنت أهرب لهالمساحة، مع شخص بعيد، وما ممكن شوفه. شي من الولدنة والمراهقة إلّي بتعيشها المرأة وهي بالأربعين. الأربعين شي مخيف يا عادل، الأمر بالوعي والذكاء. منحتاج اهتمام مضاعف، مثل المراهقات. أقسم بحياة ولادنا، جسدي ما مسّه ذكر غيرك، سامحني واغفر لي. وبعمل شو ما بدَّك لترتاح. كان بدِّي هالخضَّة.

ـ برتاح إذا خبَّرتيني الحقيقة. جاوبيني ليل: بتحبِّيه؟

ـ إيه، مشاعري قويَّة.

ـ وأنا.

ـ أيّ إجابة راح قلَّك ياها هلَّق ما راح تقنعك. عادل الزمن هوي راح يخبّرك.

حضنها بقوَّة، من دون سابق إنذار، وقبَّلها بشهوة عارمة لم يعهدها بنفسه من قبل، وسألها:

ـ باسك هون؟

لم تردّ.

ـ باسك على رقبتك؟

وقبل أن تُجيب، كان يقبِّلها كما لم يفعل من قبل. مزَّق ثيابها تمزيقًا بأسنانه ويديه. مدّدها على الصوفا، خلع ثيابه وأولج فيها بقوَّة. لا يتوقَّف عن التواتر القوي الهاتك الامتلاكي. استلذَّت روحها، ألمَّت

بها رغبة عارمة في أن يؤلمها أكثر؛ أن يصفعها؛ أن يخرمشها؛ يبقّعها؛ يضربها بقبضته القاسية. قالت له:

ـ اضربني.

صفعها، فَنْجَرَتْ عينيها، وغمرتها قشعريرة مذهلة بدأت تكتسحها.

ـ اضربني أكثر.

انهال عليها صفعًا بكلتا يديه كأنَّه كان ينتظر هذا وهو يضاجعها تَفَلَ في وجهها. أحسَّت بأنَّ امرأة أخرى لم تعرفها جيِّدًا تسيطر على جسدها أخرجت تلك المرأة آهةً مدوّية جعلتها تمسك ردفي زوجها تغرز بهما أظافرها. تستحثُّه أكثر. تطالبه بأن يشتمها؛ يعنِّفها؛ يمتطيها؛ يتحكَّم فيها؛ يكون سيِّدها كانت تلهج بجملٍ غريبة عنها: جمل من البذاءة التي لم تتوقَّع يومًا أنَّها تعرفها كأنَّ امرأة أخرى ترتدي جسدها؛ امرأة تعشق العنف وتبجِّله ولا تنتشي إلَّا به.

بدأ بالقذف. وصار يبصق عليها بكلِّ قوَّة وهو يقذف فيها، فتفتح فمها، وتقول له:

ـ ملِّيني.

جعر وهو فوقها. ووصلا في اللحظة نفسها إلى انفجار نشوة عظيم، ثم حلّ السكون.

* * *

لم تعد تستطيع حزر نواياه. دخل كلّ شيء دائرةَ الشكوك المريبة. صار يراقب الشاردة والواردة. احتاج إلى أيَّام ليستردّ نفسه. بكى مرَّتين. انشلع قلبها عليه في المرَّة الأولى، وأحسَّت بالإثم.

وأحسَّت في المرَّة الثانية بالشفقة. وضمَّته في كلتا المرَّتين،

وأعطته عصارة جسدها، فكان يهجع وينام.

أراد اعتذارًا فناله، ووعدًا بأن تتوقَّف عن مراسلة فيديل فحصل عليه. ثم بدأت قائمة الشكوك المريعة والإهانات المستدامة. لم تعد تستطيع مجادلته في أيِّ شيء، ولا أن تشاهد برفقته حتى مسلسلًا على التلفزيون. كان أيُّ حوار عن أبسط البديهيَّات ينتهي بتذكيرها بخيانتها. فحين يفشل الزواج، يتحوَّل الزوجان إلى أخطبوط وقنفذ، يتبادلان الرغبة في الابتلاع والدفاع.

حلُّ الطلاق، مثله مثل الزواج. الفارق الوحيد بينهما أنَّ الناس يسألون عن سبب الطلاق لأنَّهم يتوقَّعون فضيحة تُرضي فضولهم: لماذا انفصلتما؟ لكن أحدًا لا يسأل لماذا ارتبطتما؟

لاحقًا، خفّ النزق والألم، وبقي أثرهما في النظرات. جاء مساء وقال:

ـ بكرا رايحين نسهر بڤيلَّا الدكتور سعد الدين.

ـ بس أنا مو قادرة.

ـ هلَّق بطَّلتي قادرة؟ مو على كيفك. السهرة رسميَّة ولازم تكوني موجودة، وتقريبًا الأوراق صارت جاهزة للشراكة. راح كون شريك براس المال، وراح إحتاج منك شويَّة مصاري.

ـ مصاري؟! قدِّيش يعني؟

ـ مليوني دولار.

ـ أوف، بس ما معي هالمبلغ، وإنت بتعرف.

ـ راح تبيعي حصَّتك بالمشفى، ونبيع الذهبات، وراح بيع بيت التجارة. والله ما عمّ بسألك لتوافقي أو ترفضي. هيك راح يصير.

ـ بس يا عادل، دكتور سعد سمعتو مو منيحة، إذا ما قلنا زفت.

ـ أهلين. يعني إنت يلّي سمعتك مسك معطّر، شو ممكن يحكوا الناس على سمعتك إذا عرفوا؟

فهمت أنَّ العقاب قد بدأ للتوّ. تهديد مبطّن، ثم تجريدها من كلّ عناصر قوّتها، واستلام زمام السيطرة المادّيّة بالكامل، قبل التدمير القادم لا محالة.

كان قد رتّب كلّ شيء خلال الأسابيع الماضية. استغلّ التوكيل القديم ونقل ملكيّة البيت والسيّارة إلى اسمه. حتى حسابها في البنك، لم يترك فيه إلّا القليل.

كانت سهرة عامرة في منزل الدكتور سعد الدين، في حديقة الڤيلّا استأجر مطربين، ونخبة من نجوم الدراما والفنّ والمجتمع. رجال أعمال جدد من محدثي النعمة. ضبّاط جيش ومخابرات ببذلات أرماني تناسب استثماراتهم. ساعات الرولكس تشعّ في المعاصم. نُخَبٌ متخمة بالأموال والتبجُّح. ممثّلون ومخرجون لإضفاء جوٍّ من المرح الكركوزي على الصفقات التي ستُعقد الليلة.

تناوب نجوم التمثيل على تسلية الحضور بالنكات والغناء. شيء من الرُّخص والابتذال. كانت تريد أن تهمس لزوجها معلِّقة على الصخب والنكات والتفاهة التي تحدث، فأحجمت، وهي تعرف أنّها ستنال تلك النظرة الساخرة، ويعاود ترديد أيّ كلام تقوله بتهكُّم.

طلب منهما النادلُ أن يدخلا القاعة الخاصّة بكبار الضيوف. كانت الڤيلّا محتشدة بكلِّ أنواع الفخامة. الذوق الطاغي راقٍ ومدروس. عَزَتْ ذلك إلى زوجة الدكتور سعد الدين، وفاء عمّاري. رفضت أن تحتسي أيّ كأس، اكتفت بالعصير. رسمت ابتسامة طيِّبة على وجهها، متجنِّبة قدر الإمكان محاولاتِ زوجها إغراقَها في مستنقع

الازدراء والمسخرة على كلّ ما تقول أو تفعل.

كان الدكتور سعد الدين يجلس قبالتها إلى الطاولة، ولا يتوقَّف عن رمقها بتلك النظرات الحادَّة والتعليقات ثقيلة الظلِّ:

ـ دكتور عادل، شراكتنا مرتبطة بمباركة الدكتورة ليل. أنا بدِّي ياها معنا.

أجاب عادل متحمِّسًا:

ـ طبعًا، ليل أصلًا هي يلِّي عمّ تشجِّعني لحطّ إيدي بإيدك.

ومدّ سعد الدين يده إلى الدكتورة وهو يستعدّ للوقوف:

ـ لكن بعد إذنك راح مدّ إيدي وأخطف الدكتورة خمس دقايق ضروري، لاستشارة عاجلة.

نظرت إلى زوجها مستغيثةً به ليتدخَّل، لكنَّها وجدت في عينيه نظرةً راضية تشجِّعها، بينما لسانه ينطق تلك الجملة التي أسعفته بها بديهته:

ـ ولا يهمّك حبيبتي، إنت مع الدكتور سعد الدين بأيدٍ أمينة.

حرّكت يدها تسلِّمها إلى اليد الممتدَّة غليظة الأصابع، فسحبها بعيدًا وهو يقول لعادل:

ـ تمامًا. مثل البترول السوري.

وأردف العبارة بضحكة مجلجلة.

أحد الحضور، ممَّن فهموا النكتة السمجة، تكفَّل بشرح الفكرة التي يتداولها العامَّة: سأل أحد أعضاء مجلس الشعب الكاريكاتوريين مرَّة:

ـ أين عائد البترول السوري؟ وهل يدخل في الميزانيَّة؟

فأجابه رئيس مجلس الشعب بسخرية وزَجْرٍ:

ـ لا تخف ولا تسأل. البترول في أيدٍ أمينة.

وطبعًا يعرف الجميع بلا شرح، أنّه يدخل مباشرة ميزانيَّة القصر والعائلة الحاكمة وحاشيتها.

توجَّهت الأنظار إلى عادل، تملأها الشفقة والازدراء. فكلّ الموجودين يعرفون مغامرات الدكتور سعد الدين النسائيَّة. فهو، كما يقولون، مثل المقبرة لا يردُّ ميّتًا.

أفلتت يدها بعد قليل حين بدأت أصابعه تتحسَّسها. أوقفته:

ـ خير دكتور؟!

ـ بدّي فرجيك على مجسَّم المشفى جوّا بالمكتب.

ـ آسفة، بس من غير المناسب حاليًّا نحكي بالشغل، لا المكان ولا الزمان مناسبين. وبعتقد إنُّو هالحركة يلِّي عملتها فيها إحراج إلي ولزوجي ولزوجتك وللموجودين.

ضحك وهو يفترسها بنظرة لاهثة مستفزَّة:

ـ لزوجتي ما بعتقد، لزوجك أكيد، للموجودين ما بيهمّني. أنا حابب قلِّك إنِّي مهتمّ فيكِ شخصيًّا، لسببين. الأوَّل إنَّك ناجحة فعلًا وسيرتك المهنيَّة مدهشة. والثانية إنَّك جاذبتيني دكتورة.

ـ شكرًا، بس إنت، عدم المؤاخذة، معروف دكتور إنُّو أيّ امرأة بتجذبك.

ـ لا، لا أنا ما بوفِّر أيّ امرأة بتقابلني صحيح، بس إنتِ بالذات الموضوع معك فيه شي مختلف. لازم نكتشفوا سوا

ـ دكتور سعد شكرًا، بس عن جدّ، لا نفسيّتي ولا طبيعتي ولا حياتي فيها تتقبَّل أيّ نوع من أنواع التجريب. أرجوك. بكلِّ احترام عمَّا أطلب منك ما تحطّني بأيِّ موقف محرج. أنا مرتاحة بشغلي وبيتي

ومع ولادي وزوجي. وإذا بدَّك أكثر من هيك، أنا عمّ ناشد شهامتك ما تدخّلني بأيّ شغل بينك وبين عادل.

رمقها بنظرة باردة، وأخذ وجهه يتقطَّر لؤمًا:

ـ أنا ما بضغط على حدا دكتورة، ولَكُون واضح معك تمامًا: أنا مالي مهتمّ بالشراكة مع زوجك لأسباب مختلفة، أهمَّها إنُّو زوجك من العائلات يلِّي ممنوع تدخل مجالنا الحيوي.

ـ ما فهمت دكتور!

ـ أخوال زوجك أخوان مسلمين من حماه يا دكتورة، وهالشي من المحرَّمات. ممنوع يفوتوا على دوائر الاستثمارات الوطنيَّة السياديَّة. أنا ويلِّي معي مهتمِّين بالشراكة معك إنتِ. أهلك معروفين مين هنِّي وهالشي مو شخصي، هالشي عملي. «سيستم» البلد هيك ماشي. بالإضافة إنُّو إنت إلك تجربة ناجحة بهالمجال.

أمَّا السبب الثاني فهو شخصيّ. الدكتور عادل دكتور جيِّد، وأنا بدِّي أطبَّاء لامعين. شخصيًّا أنا حتى غير مهتمّ إنُّو يكون بالكادر الطبِّي، مشفى سما دمشق، دامس سكاي هوسبيتال، راح يكون درّة طبِّيَّة وعلميَّة بالشرق الأوسط. ومنشان كون أوضح، الستاندر المطلوب أعلى بكثير من عادل وقريب كثير منك. يلِّي بيملك ٥١ بالميَّة بهالمشفى هو أكبر جرَّاح بسورية.

ـ مين؟

ـ بعرفك أذكى من هيك دكتورة. مين يعني الجرَّاح يلِّي جرحه لا شفاء منه؟

لفَّتها حيرة مبهمة، وانتابتها رغبة كبيرة في التدخين لتهرب من ثقل تلك النظرات الباردة التي تحدِّق في فمها وذقنها ورقبتها. عليها أن

تنهي هذا الموقف بأيٍّ ثمن.

ـ إن شاء الله خير دكتور. بفكّر وبردلّك خبر.

ـ للأسف، ما في وقت كثير. إذا بدِّك تكوني معنا بالفريق، هاي عنوان شقَّتي بأبو رمَّانة. بعد بكرا الساعة ستَّة المسا تعالي ومنحكي بالتفاصيل.

ودسَّ بيدها كرته الخاصّ، فأخذته بهدوء:

ـ عن إذنك.

مشت خطوتين، تصنّعت ابتسامةً مبهمة، وعادت إلى الطاولة. كان زوجها غارقًا في حديث صاخب. جلست إلى جانبه، انتظرته حتى انتهى. همست له: لازم نمشي.

ـ مو هلَّأ

صبرت جالسةً على مسامير القلق، راسمةً ابتسامةً مصطنعة، محاولة أن تستجير بزوجها ليُخرجها من هذه المصيبة وهذه الجلسة، ويطوّقها بحمايته. كانت تفكّر في أنَّه لا يوجد بؤسٌ في العالم يعادل امرأة مكشوفة إلى هذا الحدّ.

(٢٢)

أنيس

تحوَّل كلّ الفرح بوجود سامي إلى قلق حين رأى ابنه يذوب بشغفٍ في الحراك الذي بدأ يعمّ سورية.

كان يعرف أنَّ سكوتهم عنه موقَّت نظرًا إلى صدمتهم بما حدث، وارتجالِهِم قراراتٍ متناقضةً متردِّدة في توصيف الانتفاضة التي بدت كأنّها تهزُّ الصخور الثابتة في كيانيَّة البلد.

ـ سامي، أعرف أنَّك متحمِّسٌ للغاية، لكن سأطلب منك أن تعود إلى لندن؟

ـ «كيف»؟ سأل باستغراب، وهو غير مصدِّق ما يسمع:

ـ بابا، لأوَّل مرَّةٍ أنتمي إلى هذا المكان وإلى هؤلاء الناس، وتريدني أن أخرج؟ صار لي رفاق في السجن، وصار عندي قضيَّة، أتريدني أن أترك هؤلاء الشجعان الآن؟

كان يحاول أن يتكلَّم بالعربيَّة الفصيحة ويمزجها بالإنكليزيَّة:

ـ لكنَّ الأمر ذاهب إلى الأقصى يا سامي. أنا أعرف هذا المكان وناسه أكثر منك. بدأ البلد ينشرخ قسمين، وكتلة العناد لديهما أقسى

من الصوّان نفسه. لن يتنازلوا أبدًا ولن يتوقّفوا.

ـ أيًّا يكن فلن أغادر. اذهب أنت إذا كنت خائفًا، أمَّا أنا فلن أغادر. لو لم تكن تريدني هنا لما حرصت طوال تلك السنين على استخراج جواز سفرٍ سوري لي وتجديدِه بشكل دائم، وإثارةِ فضولي كلَّما سألتك عن سورية. الآن تأخَّر الوقت لتقول لي إنَّ هذا المكان لا يعنيك.

كان سامي وثلاثة من أصدقائه مشغولين في المنزل الكبير بأجهزتهم المحمولة، وليل تنوح برفقة سامية التي تحاول تهدئتها ومتابعة ما يحدث. أمَّا الدكتور أنيس فكان في انتظار عيسى الذي أخبره بأنَّه يحمل أخبارًا عاجلة.

كانت الرسالة واضحة من عبَّاس جوهر

ـ أخبر أصدقاءك بأنَّ هذا آخر ما يمكنني أن أقدِّمه إليهم. ستتمّ مداهمة البيت الليلة.

نادى أنيس على الجميع وأبلغهم الرسالة. أصرّ عيسى على أنَّه تحذير جدِّي وعليهم التعامل معه بجدِّيَّة أيضًا وهنا، صار أنيس حازمًا مع سامي:

ـ أرجوك، غادر فورًا.

وعده بأنّه سيفعل ذلك في أقربِ وقت. فحين رأى الغضب والرعب في عيني أبيه فهم أنَّ الأمر أكبر كثيرًا من حلم رومانسيّ بدأ للتوّ يداعب روحه.

انتقل الشباب برفقة سامي إلى مكان آخر، بينما كان هناك مَن ينتظر سامية لنقلها إلى ريف دمشق، وأصرّ الدكتور أنيس على البقاء في

البيت. أمَّا ليل فاتَّصلت بقريبةٍ لها أمَّنت مكانًا لبَياتها ريثما تنجلي الأمور.

دُوهم البيت فعلًا بعد منتصف الليل، واستُدعي الدكتور أنيس إلى التحقيق وبقي محتجزًا عدَّة ساعات في فرع المخابرات الجوّيّة. كان احتجازًا بسيطًا. حاول ضبّاط التحقيق أن يشرحوا له أنَّ الأمر لم يعد يخصّ المطالب المحقّة للشعب، بل يتعلّق بمندسِّين بين الناس هدفهم التخريب. وفي الحقيقة، لم يجدوا أيَّ دليل على نشاطه، ومع ذلك فقد وُضِعَ على قائمة الممنوعين من السفر

غادر سامي بعد عدَّة أيّام سورية مكرهًا، وقد وعده أبوه بأن يسوّي وضعه ويلحق به.

وسلَّمه توكيلًا لمتابعة إجراءات استقالته والحصول على تعويضاته من عمله في مستشفى تشلسي.

كان هذا أفضل حلّ ليتمكَّن أنيس من التركيز في ما هو فيه، وطلب من سامي أن يرسل إليه بعض المال، وسلَّمه رسالة خطِّيَّة إلى حنّة يشرح لها أنَّ الأمر لا يخصّ امراة بمقدار ما يخصّ حقيقة جديدة عليه أن يواجهها، معتذرًا إليها عن كلّ ما سبَّبه لها من اضطراب في هذه الفترة.

تملَّكته راحة كبيرة بعد مغادرة ابنه، وإنهاء التزامه الأخلاقيّ والعمليّ بلندن. التقى أحد المحامين النافذين ووكّله شطب اسمه من قائمة المنع على الحدود. كانت مهمَّته قد تمَّت وأصبح فائضًا عن حاجة المكان، وخصوصًا بعد اختفاء سامية ومحاولاته التي باءت بالفشل للوصول إليها

ساد الارتباك وقلَّةُ الفعاليَّة والعنفُ المفرط وارتجالُ القرارات

وعدمُ الاعتراف بحقيقة ما يجري، ما جعل البلاد تنزلق شيئًا فشيئًا إلى المجهول الدمويّ.

كانت شحنة الأمل تدفعه إلى الانخراط أكثر برفقة عيسى المخمور بنشوة الثورة، وفي وسط شباب في العشرينيَّات بمثل عمر سامي أو أكبر بقليل. يتأمَّلهم وهم يعملون في أحد البيوت السرِّيَّة. يتساءل كيف لهذا الجيل أن يكون بهذه الشجاعة؟ وكيف تخلّص من إرث الخوف البهيم الذي لاحقه هو وجيله ومن سبقهم. قال عيسى:

ـ البلد تحيض. الدم يقول: إنَّها لم تعد عاقرًا وإنَّها قادرة على الولادة.

جيل شجاع كهذا من كلّ المشارب والأطياف والمستويات وجد التعويذة المضادّة للعقم والخوف والموت. يسطِّرون ملحمة شجاعة في أكثر من ألف وخمسمئة نقطة تظاهر في بلد كان يمكن أن يزجَّ بك في المعتقل بتهمة التآمر وإضعاف الشعور القوميّ لمجرَّد أن تقول نكتة عن النظام.

ـ لكنَّ الأمر يجب ألَّا يطول يا عيسى، فإلى متى يبقى الناس يتظاهرون فيُقتلون، ويذهبون لدفن قتلاهم متظاهرين فيُقتلون؟!

ـ لن يتوقَّفوا عن القتل، لأنَّهم في اليوم الذي يتوقَّفون فيه سيمتلئ الشارع بملايين البشر. إنَّهم يدفعون الناس إلى التسلُّح، وها هم يطلقون قيادات إسلاميَّة جهاديَّة من المعتقلات، ويزجُّون بشباب الحراك السلميّ في السجون.

حماسة عيسى للثورة تجعله لا يفكِّر كثيرًا في حسابات الدكتور أنيس:

ـ هذا ما انتظرته طوال عمري، وهذا ما يجب أن يكون. أحد

أصدقائي يا أنيس كان رفيقي في المعتقل، يرتدي كلّ يوم جمعة بذلة عرسه. يتأنَّق ويتعطَّر، وينزل على الرَّغم من سِنِي عمره المديدة إلى أماكن التظاهر، ويعود في كلّ مرَّة ليقول لي: لا أصدِّق أنّي عشت وشفت هاليوم.

ـ لكنَّك لا تسمع إلَّا ما تريد سماعه، ولا تفرِّق بين انتقامك الشخصيّ لإذلال من أذلُّوك وبين من سيدفع الثمن.

هنا ردّ أحد الموجودين:

ـ هذا البلد لن يُشفى إلَّا بالدم، وهل تتوقَّع إن توقَّفت الثورة غدًا ما الذي سيحدث؟ ليس لدى النظام أيُّ مشروع، فكلّ إصلاحٍ يعني انهياره، ثم إنَّهم حاقدون كيف تجرَّأ عليهم العبيد. إنَّ بطش النظام اليوم لن يساوي شيئًا ممَّا سيفعله بنا إن توقَّفت الثورة الآن.

كان أنيس يُصغي إلى كلّ هذه الحوارات ويجدها ناضجة وصحيحة في شكلها، لكنَّها مليئة في جوهرها بالجهل. هناك قصور في فهم طبيعة النظام، فما يحدث الآن غير مسبوق ولا يمكن القياس عليه، لا بعِلمِ الثورات، ولا بحركة التاريخ، ولا بالسياسة الدوليَّة. أقرب شبه للثورة السوريَّة هو ثورة سبارتكوس. فالعبيد لا يثورون عادة. لكن إن حدث وأعلنوا الرفض وجهروا بالغضب فمعناه أنَّهم ذهبوا إلى اللاعودة.

ـ أعتقد أنَّ البلد ذهب إلى اللاعودة، فهل من طريقة لإيجاد حلٍّ.

ـ الحلّ الوحيد هو رحيل المجرم.

ـ وإن لم يرحل؟

ـ سنستمرّ.

ـ قصدك سيستمرُّون يا عيسى. إنَّ ما تفعلونه ليس إلَّا الزهو بانتقامكم الشخصيّ، ومن دون برنامج عمل.

ـ أنت كنت في لندن يا دكتور، لم تعش ما عشناه، ولم تعرف ما عرفناه.

صرخ عيسى بغضب، وأدرك أنَّه سيبدأ بخسارة صديقه إن استمرَّ الحديث على هذا المنوال:

ـ عليك ألَّا تكتفي بالانتقاد يا أنيس، أعطنا حلًّا؟

ردَّ أنيس بهدوء:

ـ لا أحد غير ربّك بيعرف الحلّ.

هذا بعض ما حدث في مكان انفتحت فجأة كلُّ صمَّاماته وتكلَّم الجميع دفعة واحدة. خمسون عامًا من الصمت تنفجر فجأة. والبلد، كلّ لبنة للناس فيه تقابلها لبنة للنظام.

انفتح الطريق على المجهول، ولم يعد من خيار سوى المسير نحو المصير الغامض.

(٢٣)

ليل

ـ أنا بمحنة يا عادل.

استهلَّت حديثها ما إن ركبا السيَّارة خارجين من ڤيلَّا الدكتور سعد. لم يُجب، بقي يقود صامتًا. وجهه قطعة من صخرةٍ باردة، فآثرتِ السكوت.

نصف ساعة من الصمت الثقيل كانت تطفو فوق تساؤلاتٍ ساذجة في الرأس. أشاحت بوجهها تراقب الطريق من يعفور إلى دمشق. أضواء شاحبة وطريق صحراويّ. اكتسى وجهها بالغمِّ الغامض، وجسدها بالعجز، ورأسها باللاشيء، وانتظرت.

سمعته يهمس بصوت بارد:

ـ إنتِ يلِّي حطَّيتينا بهالموقف. الدكتور سعد هوِّي اللِّي نبَّهني لصورك ورسائلك، لا تسأليني كيف؟ بالطبع كان قد اكتشف الأمر مصادفة، ولكنَّ سعد الدين أيضًا كان مطّلعًا، عن طريق عبّاس جوهر، على تلك الليلة الكارثيَّة.

مادت الدنيا بها، وسط إحساس بالغثيان.

ـ كيف يعني هوِّي يلِّي نبَّهك؟ كيف بتسمحلو؟ شو عم يصير؟ يعني إنت بتعرف شو بدُّو منِّي؟

انفجرت به، لا تدري كيف تخرج الأسئلة من فمها، ويداها تصارعان الهواء، وجسدها مضغوط بحزام الأمان.

فما كان منه إلَّا أن حرَّك يده بكلِّ ما لديه من قوَّة، وضربها بقفا يده المتشنِّجة وجعل أنفها ينزف:

ـ اخرسي. أصلًا، كلُّو منك. كلُّو منك.

أخرستْها الصدمة والألم والمباغتة. رفعت وجهها إلى الأعلى محاولةً إيقاف رعافها ودموعها.

كانت هذه الليلة الأولى التي ينام فيها في الصالون. بقيت مستيقظة، لم يغمض لها جفن أبدًا.

حين صدح أذان الفجر يملأ فضاء المدينة النائمة، تركت السرير وفتحت الباب. وجدته جالسًا في العتمة، وشاشة التلفزيون الصامت مُضاءة. كان يُدخِّن.

جعل ضوء الشاشة وجهه مشبوحًا بالخذلان. سَرَتْ موجة من الشفقة عليه، اقتربت بهدوء، وضعت يدها على كتفه، وهمست له:

ـ هيك ما راح ينحلّ شي. لازم نحكي.

أبعد يدها عنه نترًا، وأومأ إليها أن تجلس.

ـ الدكتور سعد بدُّو ياني روح على شقتو بأبو رمَّانة. وما بدُّو يشاركك إلك؟

ـ قلّك السبب؟

ـ سبب سخيف، إنَّك إنت مانك من الطائفة الكريمة، وأخوالك إلهن تاريخ مع الإخوان المسلمين.

ـ بسيطة، بتنزلي إنتِ شريكة وبتعمليلي توكيل عامّ؟

ـ وشو منشان الروحة عالشقّة؟

ـ هاد قرارك.

ـ مستحيل، حتى لو كان الموضوع ملكيَّة المشفى كلُّو، مستحيل. يا عادل محتاجتك تحميني.

ـ وأنا محتاج أحمي أولادي ومستقبلن. أكيد حضرتك راح تلاقي حلّ.

بدت المتابعة في هذا السجال ضربًا من العبث. فمن الواضح أنَّ عادل قد حسم أمره.

عادت إلى غرفة النوم. قاومت رغبتها في الحديث مع فيديل، لكنَّ الهدوء المطمئن بدأ ينسرب إليها حين فكَّرت في أنَّها ستشرب القهوة في الصباح الباكر مع الرجل الوحيد الذي يمكن أن يحميها في هذا العالم.

أخذت حمَّامًا باردًا أيقظ كلَّ خلاياها. ساعدت الولدين للتوجُّه إلى المدرسة وجهَّزت لهما الفطور. انسحب عادل إلى غرفة النوم، وغادرت هي قاصدة منطقة المهاجرين.

كان أبوها وأمّها قد استيقظا للتوّ، حضنتهما بحبّ. منزل الطفولة هو ملجأ أمانها تهرَّبت من أسئلة أمِّها عن الكدمة على وجهها حدَّقت في صورها مع أخوتها التي تملأ ڤيترينات الصالون، وتساءلت عن عمر مضى بلمح البصر.

انفردت بأبيها حين تركت أمّها الشرفة لتحضير الفطور، وعاجلته بإخباره بنصف الحقيقة. أخفت عنه قصَّة فيديل وموقف زوجها، وأخبرته بالمحنة التي تواجهها.

أطرق من دون ردّ. مرّت فترة من الصمت، لا يقطعها إلَّا أحاديث أمِّها من المطبخ، فترفع نبرة صوتها لتحكي معهما بلا انقطاع عن أيِّ شيء وكلِّ شيء، ولا تتلقَّى جوابًا.

كادت تنفجر. همس لها:

ـ إحكِي لزوجك، خلِّيه يتصرَّف؟

ـ يا بابا، عادل متحمِّس كثير، وما قادر يشوف غير الشراكة مع هدول الناس؟

ـ عادل حاكاني يا ليل، وخبَّرني شو صار معكم بالضبط.

ـ حكالك عن شو؟

ـ عن رسائلك، وبصراحة عيني منُّو بالأرض.

ـ بابا ما تصدِّق أنا ما عملت شي؟ واعتذرت لعادل وعندي استعداد قضِّي كلّ حياتي للتكفير عن هفوة صغيرة. بس مشكلتي أكبر من هيك يا بابا. إنت بتعرف هدول العالم ولاد السلطة والنظام، انصحني، أنا مالي غيرك؟

ـ نصيحتي إنُّو تحمي نفسك بأيِّ طريقة، يلِّي عمَّا تسمِّيه هفوة هوِّي يلِّي ذَلّ عادل.

تركها تغرق في بحيرة حيرتها، ودخل مكتبه ليعود بعد قليل، حاملًا مظروفًا، رماه أمامها، واستدار ليطلّ من حافَّة الشرفة يحدِّق في المجهول.

فتحت المظروف. كانت صورها مع فيديل في البار؛ في شوارع الشام؛ في قاسيون؛ في السيَّارة وهما في وضعيَّة القبلة. أرجعت الصور بسرعة، وعرفت أنَّ زوجها وأباها وحياتها كلّها في مهبِّ الابتزاز، وأنَّ الموضوع أكبر ممَّا كانت تظنّ، أكبرُ من أبيها ومن

زوجها ومنها، وأنَّه لم يعد لها سوى أن تسلّم كلّ شيء لهم. دسَّت المظروف في حقيبتها وخرجت. استوقفتها أمّها مستغربة استعجالَها، فلم تجد ما تقوله. ففرَّت منها دموع حارقة وأسرعت هاربة.

أعادت في سيَّارتها النظر إلى الصور. بدأت تصوِّرها وترسلها واحدةً واحدة إلى السافل الذي ورَّطها في ذلك كلِّه. وقبل أن تنتهي من إرسال الصورة الأخيرة، كان جوالها يرنّ، كبست على زرّ الردّ بعصبيَّة وعاجلته:

ـ كلُّو بسببك؟ الله لا يوفّقك.

صوته الملهوف في الجهة المقابلة يقول لها:

ـ إهدي واحكيلي.

وما إن تماسكت قليلًا وأوقفت بكاءها حتى أخبرته بكلِّ شيء. ومن دون تردُّد أتاها صوته حاسمًا قاطعًا:

ـ أوّل شي، إذا بتروحي اليوم على شقَّة هالعرصة بدِّي إكسر رجلك. وثاني شي كلُّو بينحلّ. أنا ما راح إتخلَّى عنك. أنا ورّطتك بكلّ هاد وما راح إتركك؟ بس إهدي. بترجّاكِ تهدي.

أخيرًا، أحسَّت بشيء من الأمان. فالإنسان الذي خربط كلّ شيء في حياتها، منحها الآن فسحة وحيدة من الإحساس النقي بالقوَّة والحصانة. أرادت فقط أن تصدِّق صوته المليء بالثقة على الرَّغم من أنَّ كلّ شيء حولها يوحي باللاثقة. اكتسحتها رعشة من الامتنان والفرح والطاقة والشوق، ولم تدرِ كيف خرجت من فمها تلك الكلمة:

ـ بحبّك.

لكنَّه كان قد أقفل الخطّ.

لم تذهب إلى موعدها مع الدكتور سعد. لم تجب على الهاتف

الذي ما انفكّ يرنّ، ولم تذهب إلى عملها في المستشفى، ولم تعد إلى البيت.

كانت فقط تمشي في شوارع الشام. تمشي بهدوء وبثقة، بصمت وألم، تقطع سوق الحميديَّة إلى الجامع الأمويّ. ترتدي غطاء الرأس، وتدخل حرم الجامع الفسيح. تمسك بسياج الحديد لمقام يوحنَّا المعمدان، ولا تعرف كيف بدأت بالدعاء الدامع.

بكت بكلٍّ استطاعتها، حتى أزاحت أكداسًا من الصخر عن صدرها. تراخت مسندة ظهرها إلى سياج المقام، تراقب النوافذ الملوَّنة وهي ترشح الضوء من داخلها.

بدا أنَّ كلّ هموم العالم يمكن أن تؤجَّل، فهي تريد أن تكون وحيدة فقط مع طيف هذا الرجل الذي يُسمَّى فيديل.

إذن، هذا هو الحبّ. يقوِّي، يجعل لكلِّ شيء معنى، يحصِّن. لا يمكن الاعتراف بالحبِّ إلَّا في بيتٍ من بيوت الله. فرحت لأنَّها في المكان المناسب. همست بعمق:

ـ يا ربّ ساعدني.

لم تدرِ كم مرّ من الزمن، لكن صوت التكبير، وهرج اصطفاف الناس للصلاة، أيقظاها. دُهشت حين رأت النساء ينتظمن في المكان نفسه. إنَّه الجامع الوحيد في البلد الذي يصلِّي فيه الرجال والنساء معًا. بين مقام يوحنَّا المعمدان وبقايا جدران معبد الإلٰه بعل وأداد، وأثر كنيسٍ يهوديّ، يؤمّه الدروز والعلويَّة والإسماعليَّة للتبرُّك بمقام الخضر، والمسيحيُّون لتفقد روح يوحنَّا، والسيَّاحُ لتفقد أثر روما والآلهة الوثنيَّة قبل التوحيد.

تنبعث طاقة روحيَّة مدهشة من قلب الأموي إلى دمشق فتغمر

العالم. إنه المكان الأمثل للاعتراف بالحب. وهي في وسط هذا الائتلاف المدهش. فجأة انفجر المكان بالهتاف. كانت أُولى الصيحات المدهشة التي لم تستطع استبيانها، تأتي من صحن الجامع الخارجي، وصوتٌ متوتِّرٌ متصاعد بدأ يقول: سِلْمِيّة، سِلْمِيّة، سِلْمِيّة.

خرج كثيرون ممَّن في الداخل ووقفوا على عتبات الأبواب. كان الإمام يحاول إعادتهم متابعًا دعوته المصلِّين: انتظموا للصلاة. انتظموا للصلاة، يرحمنا ويرحمكم الله.

لكنَّ الحشد الذي تكتّل بدأ يأخذ شكل مظاهرةٍ تهتف: بالروح، بالدم، نفديك يا درعا.

وهتاف آخر يهزّ مرقد كلٍّ من عبد الملك بن مروان وصلاح الدين الأيُوبي وأكثر من ألف فيلسوف ومفكِّر وقائد تاريخي يرقدون تحت تراب دمشق.

الله، سورية، حرِّيَّة وبس. الله، سورية، حرِّيَّة وبسّ.

كادت تظنُّ لوهلة أنَّ ما يحدث أمامها هو استجابة لدعائها، وأنَّ الأدرنالين قد تفجَّر في دمها. كانت شفتاها ترتجفان. تنظر إلى الوجوه الصائحة الريَّانة بالغضب والجمال. لأوَّل مرَّة ترى شباب بلدها في هذا الوضوح والعنفوان والقوَّة والتحدِّي. كانت خائفة وسعيدة، منذهلة وغير مصدِّقة، ليدخل الشباب داخل الجامع الدامع في تلك الجمعة العظيمة، ويعلو الهتاف: الله أكبر. ثم ينفجر المكان بصوت واحد: حرِّيَّة، حرِّيَّة، حرِّيَّة.

خرجت الكلمة لهّاثة، مخضّبة، مخرّشةً، كأنَّها تولد من رحم العتمة. توقَّف صوت الإمام عن دعوة الناس إلى الانتظام للصلاة، ودخلت جحافل من رجال الأمن، وبدأت بالضرب العشوائي. سُحِبَ

الشباب الهاتفون، واحدًا تلو الآخر، وفرّت الجموع من الأبواب. حملت حذاءها تحت إبطها وتسلَّلت مع الجموع لتجد نفسها في الشارع غير مصدِّقة ما حدث. وقفت أمام مقهى «خبّيني»، كما يُسمّى منذ العهد العثمانيّ، حين كان العثمانيُّون يعمدون إلى البحث عن الشباب لِسوْقهم إلى الخدمة العسكريَّة في إبَّان حرب السفر برلك، وكان الشاويش ينزل إلى الأسواق بحثًا عنهم وهو يعتمر قبَّعة طويلة من اللُّبَّاد، فينبِّه الناسُ بعضهم بعضًا لمروره، ويأخذ المطلوبون للعسكريَّة الحذرَ ويصرخون: عباية. عباية. وهكذا يتمكَّن الشباب من الهرب إلى المقهى، ملاذِهم الوحيد، ويتوجَّهون إلى مالكه ويقولون: خبِّيني.

رأت مجموعة من الشباب يهربون في اتِّجاه المقهى، لكن بدلًا من أن يقوم مالكه بمساعدتهم على الاختباء، صاح برجال الأمن:

ـ لَيْكُنْ هون، لَيْكُنْ هون.

هربتْ بعيدًا إلى أوَّل سوق الحميديَّة. اشترت كيلو بوظة عربيَّة من بكداش، لتلتقط أنفاسها في محلِّه المزدحم طوال أيَّام السنة، ثم تابعت سيرها إلى الشارع العامّ. وبمعجزة وجدت سيَّارة تاكسي تأخذها إلى البيت.

استقبلها ولداها بخوف:

ـ وينك ماما، انشغل بالنا عليك؟

ـ كنت بالجامع الأموي؟

ـ ليش من إيمتا بتروحي عالجوامع؟

أجاب عادل بغضب.

ـ عادل، أنا شفت مظاهرة طلعت من قلب الجامع، شي ما بيتصدَّق.

ـ بالله شو؟ هاد يلِّي ناقص. شويَّة زعران بدهن يخربوا البلد وحضرتك رايحة تتفرَّجي عليهم.

ـ لأ مو زعران، هدول ولاد البلد، ويلِّي عمَّا يصير بدرعا لازم ما ينسكت عنُّو، الناس بدها حرِّيَّة.

ـ حرِّيّة. الناس. لِكْ إنت شو صايرلك؟ حرِّيّة مثل حرِّيّتك، حرِّيّة شَرمطة ولَّا حرِّيّة عصابات مسلَّحة؟

كظم آخر الجملة كي لا يسمعها الولدان المشغولان بأكل بوظة بكداش.

دخل عادل وراءها. أخذ نَفَسًا عميقًا، وحاول أن يغيِّر حالة اللؤم إلى هدوء مصطنع:

ـ ليكي ليل، ما دخلك بهالمؤامرة يلِّي عمَّا تصير على البلد. خلِّيك بعيدة. أنا بعتذر. كنت متمنِّي تلاقي حلّ لمشكلتنا أهمّ من تضييعك للوقت.

ـ مشكلتنا، إنت عم تقول مشكلتنا، ومو مشكلتي لحالي.

ـ أنا معك ليل، محتاجين نتجاوز هالأمر، في أصدقاء إلي ممكن نشتغل معهم ونرتاح جميعًا. بكرا السبت عزمتهم عالعشا. أنا جبت تقريبًا كلّ شيء.

ـ مين؟

ـ صديق إلي وزوجته بإجازة جايين من كندا؟

ـ أصدقاءك ما إلن أسماء.

ـ طبعًا المهندس رجا وزوجته إلهام صديقان من أيَّام الجامعة بباريس.

زفرت بارتياح عميق. أخيرًا بدأ يتصرَّف بطبيعيَّة، فردَّت بحماسة:

ـ ماشي. راح حضَّر عشا.

ـ إيه والأولاد طلبو منِّي يروحوا عالزبداني، وأنا وافقت؟ بيهمّني كثير يكون شي بيفتح العين.

ـ حاضر. تكرم عينك.

هل من المعقول أن يكون الله سريع الاستجابة إلى هذا الحدّ؟

حدَّقت في المرآة مبتسمة، لكنَّها شعرت بالضيق من سخريَّتها، فاستغفرت لنفسها. لم تكن تريد أن تضيّع هذه الطاقة التي تلبَّستها في ذلك المكان المليء بالروحانيَّة.

حرَّرتها الهتافات، وجعلتها قويَّة من جديد. كانت تودّ أن تحفظ هذا الشعور الغامر بالتحدِّي كتعويذة في داخلها ولا تتخلَّى عنه أبدًا بعد اليوم.

انتصب عادل ثانية أمام باب الغرفة فجأة:

ـ حابب قلِّك إنُّو إلهام كثير ست شيك، حابك تكوني على آخر طرز بس يجو.

حدَّقت في انعكاس صورته في المرآة. لم تكن عيناه تنظران إليها حاولت سبر ما وراء وجهه المعكَّر وصوته الرخو، لكنَّها لم تصل إلى شيء، سوى أنَّ هذا الرجل صار غريبًا، وأنَّ الأمر مسألة وقت حتى تعلن غضبها وتطلق العنان لصراخها وغضبها في وجهه.

همست مبتسمة:

ـ حاضر.

رمقها باحتقار وغادر. سمعت صوت الباب الخارجيّ ينغلق بقوَّة. وتعالى صوتا الولدين من غرفتها وهما يدندنان أغنية روك على الغيتار الكهربائيّ الذي يحوّل أعصابها إلى أوتار متوتِّرة عادة. لكن عمق

سلامها الداخلي هذه المرَّة، لم تستطع حتى الخبطات المتواترة المجنونة لكارلوس سنتانا أن تنال منه.

ذهبت إلى موعدها في الصالون صباحًا. تحتاج إلى عناية إسعافيَّة، فعلاقتها بجسدها ليست في أحسن أحوالها لم تهمل نفسها يومًا، لكنَّها لم تبالغ في الاهتمام أيضًا. كان طقسًا كاملًا بين يدي السيِّدة فلك الحلبي. أربع ساعات من النتف والحف والتنظيف والتصفيف لتنظر إلى المرأة بعين الرضى. السيِّدة المختصَّة بالتجميل تمتلك المهارة لجعل هذا الوقت الطويل ممتعًا، بالقصّ والحكايات والطرائف والنميمة عن أحوال الطبقة المخمليَّة وأخبارها التي لا تنتهي.

ترغب المرأة، في لحظات اكتشاف جمال الذات، في أن ينظر إليها العالم بالطبع، لكن كلّ ما تريده في الحقيقة في هذه اللحظات أن يراها شخص واحد.

بعثت إليه بصورة التقطتها لها فلك، مع عبارة تُقال بلا عمد لكلِّ المعارف المقرَّبين، لكنَّها عنتها بكلّ معنى الكلمة:

ـ اشتقتلَّك.

لم يتأخَّر. كان صوته على الطرف المقابل يجعلها ترتعش فرحًا أخبرته عن عزومة الليلة وما آلت إليه الأمور. بسهولة يُخلَق بينهما فضاء من الوجد الخالص؛ من الشوق الطيِّب الهامس؛ من الوداعة التي تمسِّد القلب؛ من الوهج الذي يسري في العروق ويجعل الوجه نضرًا.

تقفل الهاتف وينفتح الهمس الخفيّ الجوّاني. إيه بحبّه.

دخلت البيت. طلبت العشاء من أرقى مطاعم البلد. اختارت ما

سوف ترتديه، واستعانت بسيِّدتين لتساعداها على الترتيب الدقيق وإعداد المائدة. قامت بإخراج صحون الكريستال، والملاعق الفضِّيَّة، وانطلقت روائح الشموع الطيِّبة، وصوت موسيقى هامسة ينبعث برقَّة. وحين وصل عادل وجدها متألِّقة مشعّة، تفيض أنوثة، وفي مزاج منشرح.

كأنَّه صُدِم. فاق المشهد توقُّعه، وبدلًا من أن يمدحها، انتابته موجة من النزق الحادّ جعلت السيِّدتين اللتين تساعدانها تخرجان بسرعة بعد أن دفع لهما وطلب مغادرتهما على الفور.

كظمت غيظها. لم تكن تريد أن تدخل في أيِّ نوعٍ من أنواع الجدال معه، بشأن قلَّة ذوقه في معاملة امرأتين فقيرتين على باب الله، وهو أمر لو حدث فسيكلِّفها سماع بضع عبارات تهزُّ بدنها المسترخي.

دخلت غرفتها وشغلت نفسها بأيّ شيء، حتى سمعت صوته على الهاتف. خرجت بعد دقائق. مشت في اتِّجاه الباب الذي قُرع جرسه، راسمةً ابتسامةً طيِّبة، مرتفعة عن الأرض عشرة سنتمترات بفعل الكعب العالي. فتحت الباب. تجمّدت الابتسامة على الوجه والدمُ في العروق، كأنَّ الكعب العالي اخترق الحذاء ودخل في نقيّ عظام قدميها.

نظرت إلى الوراء لعلّها ترى زوجها ليساعدها على فهم ما يحدث، فلم تجده. أرادت أن تصفق الباب لكنَّها لم تقوَ، فسألها:

ـ شو بدِّك تضلِّك موقّفتيني على الباب؟

ـ لا طبعًا، أهلًا وسهلًا دكتور سعد!

تناول يدها وقرَّبها من فمه وطبع عليها قبلة جعلت بصيلات شعرها تهتزّ قرفًا.

سحبت يدها وقالت له:

ـ تفضَّل.

سارعت أمامه لتُداري صدمتها، فخرج عادل مرحّبًا. لم تصدِّق عينيها لا ضيوف إذن ولا من يحزنون.

توارت في غرفتها محطَّمة من الغيظ والقهر. أمسكت جوّالها وبعثت برسالةٍ عاجلة، وأخفته تحت المخدَّة. دخل زوجها بوجه مفترس وحقد يتطاير من عينيه:

ـ هلَّق بتقومي بتقعدي معو، وما بيطلع من هون إلَّا بتكوني موقَّعة الأوراق. فهمانة وليه.

عرفت أنَّ من دبَّر هذا كلّه بالطبع فكَّر في ردود فعلها، وأنَّها لن تستطيع المجابهة بعد أن حاصرها من كلِّ الجهات. لم تجد سوى أن تذعن صاغرة. ترسم ابتسامة بلهاء على وجهها، وتتقدَّم إلى الصالون بحبور مبالغ فيه:

ـ دكتور سعد، ليش ما جبت المدام معك؟

ـ المدام جاية على الطريق، بس اضطرّت تتأخَّر شوي.

أغمضت عينيها في المطبخ، وأنصتت إلى أصوات تمدّها بالقوَّة؛ صوته وهو يقول لها: أنا معك، وأصواتهم وهي تهتف في صحن الجامع الأموي.

استعادت ثقتها بنفسها ورجعت إلى الرجلين الغريبين. لم تترك حديثًا لم تفتحه، ثرثرت عن كلّ شيء، أضحكت الضيف والزوج معًا، ودعتهما إلى الانتقال إلى المائدة. سكبت لهما السلطات، وجاء عادل بقنِّينة عرق. سكب للجميع، ورفع كأسه:

ـ بصحَّة مشفى سما الشام.

جاملتهما برشفة. نظرات الدكتور سعد المنتصرة تنخرها، بينما يتجنَّب عادل أيّ اشتباك لنظراتهما. يسترسل الدكتور سعد في الحديث عن المستشفى ومراكز الأبحاث التي ستكون رديفة، ومشاريعه المستقبليَّة لتأسيس الكوادر الطبِّيَّة. رنّ تلفون عادل، فأجاب بصوت أعلى من اللازم شوَّش على الحديث الدائر

ـ معقول؟ ما بيتأجَّل؟! طيِّب ماشي، ربع ساعة وبكون عندكن؟

أغلق الخطّ ووقف ليعلن:

ـ حالة إسعافيّة طارئة لازم روح. على كلٍّ ما بتأخّر.

أمسك جاكيته وأدخل يديه بكمَّيْه وهو يقول:

ـ دكتور سعد، إنت من أهل البيت. ساعة زمن بس، بتعرف مريض طوارئ ما بتأخَّر، عن إذنك.

رحَّب الدكتور سعد بهدوء بمغادرة عادل. لم تكن الصدمة أكبر ممَّا تخيَّلت، فهذا الرجل لم يعد فيه من الرجولة شيء يُذكر سوى هيكله. هضمت المكيدة بهدوء، وقامت بواجب ادّعاء الحزن ووقفت لتساعده على ترتيب نفسه. مشت معه إلى الباب، وقبل أن يمضي همست له:

ـ إخجل من نفسك إذا فيك بقيَّة كرامة.

ـ لِكْ مين عمَّا يحكي عن الكرامة. إنت أرخص من إنُّو تحاضري بالعفاف. وقِّعي الأوراق. فهمتِ؟

صفق الباب، فعادت إلى الطاولة، بوجه مشعٍّ بالتحدِّي:

ـ إسمع سعد، والله لو ما ظلّ بالدنيا رجَّال غيرك ما راح تنال شعرة منِّي؟

كرع ما تبقَّى من كأسه ووقف:

ـ إنت راسك كبير وبدو تكسير، على كلّ هاي الأوراق جاهزة.

أمسكت بها بهدوء وشقّتها إلى نصفين، من دون أن تقرأ حرفًا، وهي تنظر إلى عينيه، ثم تابعت تمزيقها من جديد ورمتها أمامه وهي تقول:

ـ اتفضل من غير مطرود. اطلع من بيتي.

اكتسى وجهه بمعالم وحشيَّة. نهض واقترب منها بهدوء، ثم صفعها فوقعت أرضًا، وقبل أن تتمالك نفسها، انقضّ عليها بكلِّ قوَّته، جاثمًا فوقها ويده تكمّ فمها، يرغي بسيلٍ من الشتائم القذرة، فلم يوقفه إلّا قرع جرس الباب. جفل فأطلقت صرخة، سارعت يده إلى لَكْمِها، وتناول عن الطاولة سكّينًا، وضعها على رقبتها:

ـ ليكي وْلِي، حقّك غرزة سكّين.

يُقرع الجرس بعنف وإصرار. شهّلها عن الأرض وهو يقول لها:

ـ بتقومي بتفتحي وبتطرديه مين ما كان يكون، وإلّا الليلة إنت وقوّادك وولادك بخبر كان.

هزّت رأسها موافقة، بعينين مبحلقتين مليئتين بالرعب غير مصدّقتين. وحرَّر فمها بالتدريج، وعاد ليجلس بهدوء على كرسيِّه بينما قامت إلى الباب لتجد صديقتها نوّار:

ـ وصلتني رسالتك، إجيت كرفتة. لِكْ خير شو في؟

أمسكت بيدها وجرّتها خارجًا:

ـ خديني من هون. دخيلك.

وقف وحيدًا في الصالون. أمسك هاتفه وطلب رقم عادل ليقول له بكلِّ غضب:

ـ نصيحة، شوفلك بلد ثاني إنت وعيلتك أحسن إلك.

(٢٤)

سامية

كان أنيس يتمزَّق بين رؤيته أشجع شباب البلد في عمر ابنه، يتساقطون ويصرُّون على المضيّ إلى الأعمق، وبين ماكينات العنف التي بدأت تتصرَّف بحقد أعمى لسحق الآخر. ما شاهده وسمعه وعاشه في أسابيع يعادل كلّ معرفته وتجربته طوال عقود.

وجد نفسه مشتّتًا ومشتاقًا إلى تلك الحبيبة المتخفّية في منطقةٍ محاصَرة، ورغبتِه في الخروج من هذا المكان الذي بدأت تثقل ظلاله كلّ يوم. العزاء الوحيد أن يلتقيها ولو مرَّة واحدة. ربَّما يفلح في إقناعها بالخروج معه والعمل من الخارج. باتت الطُّرُق مقطوعة إلى الريف، لكن كان يطمئنّ عليها برسائل تصل إليه بين حين وآخر، تقول فيها إنَّها في منطقة محميَّة من جنود انشقُّوا عن الجيش ويحمون المظاهرات التي تملأ الشاشات.

لم يكن يعيش انتظار شيء ما. كان كلّ يوم، في حدِّ ذاته، يمثّل تشابكًا بين الموت والحياة؛ بين الإشاعة والحقيقة؛ بين القلب والعقل؛ بين الخوف والشجاعة. تُمْتَحَن هذه البقعة الجغرافيَّة من

العالم بأسئلة ملحميَّة. بشر في منتهى العاديَّة وُضِعوا في مواقف تحتاج إلى آلهة وأنصاف آلهة للاختيار بينها

كيف يمكن للمرء أن ينشقَّ عن النظام؟ وإن انشقَّ فإلى أين؟ وإن قَبِلَه الفريق الآخر فماذا يفعل؟ إنَّ ما يحدث اليوم، إن سُمِح له بالتفشِّي، فسيؤثر في روح العالم لبقيَّة هذا القرن.

الأيَّام المخمورة بالسوء، المتوَّجة بالمزيد من الموت، الغريبة الرهيبة السريعة، جعلته يفكِّر هل يُعْقَل أنَّه مَرَّ قُرابة العام على وجوده هنا؟ يُمضي وقته بالتطوُّع في المستشفيات العامَّة لمساعدة الناس، والغرق في عالم كتب الخال، والانخراط في الحلقات الخاصَّة بالأصدقاء لمتابعة الحديث عمَّا يجري.

وصلت إليه رسالتها وبعد انتظار عدَّة أيَّام غامر بكلِّ شيء، ودخل تهريبًا، برفقة مجموعة من الشباب، المنطقةَ المحاصَرة. اجتاز برزخًا رهيبًا، لا يمكن لأحد أن يصدِّق أنَّ المسافة التي لا تبعد سوى بضعة كيلومترات تحتاج إلى نصف يوم حتى يمكن الوصول إليها.

وصل إلى شقَّة مغلقة، تمَّ بناء جدران عزل تامّ لها، حتى الشبابيك، وكانت مجهَّزة بإنترنت فضائي ومركز توثيق وتنسيق بين كلّ المناطق الثائرة.

استقبلته بحفاوة. كان حولها عدد من العاملين والعاملات في المركز، حضنته عيناها ويدها تصافحه. كانت لا تريد أيّ ملاحظة خاصَّة من العاملين معها، فهي تحظى باحترام الجميع، وخصوصًا المتديّنين منهم.

ـ أخت سامية ما عرَّفتينا على زوج حضرتك؟

لعثمها السؤال. نظرت حولها بسرعة، فرأت العيون الفضوليَّة

جميعها تسأل عن هذا الرجل الذي طلبت منهم أن يخاطروا ويُحضروه إلى هنا. تصرَّفت بسرعة:

ـ يا شباب ويا صبايا بعرِّفكم على الدكتور أنيس. بالحقيقة نحنا متزوِّجين جديد، بسّ كان لازم نخفي الموضوع نظرًا للظروف.

تلاشت النظرات المتحفِّظة. دقَّ قلبه بفرح للكذبة التي ارتجلتها للتوّ. شكر من أوصله إلى هنا، وطلب منهم ألَّا ينشغلوا به ويتابعوا عملهم.

ـ مدام سامية خذي الدكتور يرتاح ونحنا منكمِّل. لا تشغلي بالك.

خرجا بصحبة أحد الشباب من المكتب في اتِّجاه مكان إقامتها في الجوار. وفي الطريق سألها أنيس:

ـ عن جدّ شو عمَّا تعملي هون؟

ـ شو بتتخيَّل كيف ممكن ما نكون كلّنا هون؟ هدول الأطفال يلّي عمَّا يشوفوا الموت بيصيروا ولادك يا أنيس. وجودي معهم مهمّ كتير.

ـ واضح يا سامية إنَّه عم يجرّكم للحقد؟

ـ الحقد والغضب ضروريّان للفعل. ولإنُّو منعرف إنُّو عم يلعب بورقة الطائفيَّة، نحنا هون مثلًا أنا علويَّة، ونصّ الشباب والصبايا يلّي عمَّا نشتغل سوا بمناطق الثورة من كلّ المكوّنات السوريَّة.

ـ المشكلة أكيد ليست بالناس العاديِّين، في متطرِّفين وأصحاب أجندات، معركتهم أبدًا مو معركة حرِّيَّة يا سامية، بل معركة بحجَّة نصرة الدين وإخراج البشر من حديقة حيوان الأسد ووضعهم في أقفاص أضيق.

ـ منشان هيك نحنا هون، لهلأ كلّ شيء معقول، لكن إذا استمرّ

القتل راح يكون إلّلي خايفين منُّو قاعدين عليه.

كانت وهي تتكلَّم تتجلّى، تحلو، تعلو. قاطعها ويده تمتدّ إلى يدها، حدَّقت فيه كأنَّها انتبهت للتوّ لوجوده. التقت النظرات وتشابكت ليفترّ الوجهان عن ابتسامتين تنعكسان من قلبين ريَّانين بالعاطفة. وبدلًا من أن يقول لها ما الذي يعتمل في داخله في تلك اللحظة همس لها:

ـ أنا فخور إنّي عرفتك.

يُستخدم البيت الذي وصلا إليه مكتبًا للتنسيق والمعيشة. وكانت، وهي مكلَّلة بغار العاطفة، تحتاج إلى الالتجاء إلى صدر هذا الرجل. اقتربت وحضنته.

الغَمْر الفريد الذي وجدا نفسيهما يلوذان به، مردُّه إلى الحبِّ في زمن الحرب. تتدخَّل الطبيعة بعنف مضادّ للعنف، تريد إكثار البشر حين يُقتلون. تعمل الهورمونات بطاقتها القصوى. تخصّب النطاف الأرحام. يتزايد عدد المواليد، وتستعر الرغبات. لا شيء يعادل حبًّا وسط الحرب، يُطلق شراسة العاطفة؛ يُوقف عملَ المنطق؛ يدمِّر الخوفَ على الصورة؛ يفتِّت رأي الناس فيك. أجمل ما حدث للنفس البشريَّة وانفجاراتها وإبداعها كان في زمن الحرب.

هذا ما توصَّل إليه عقل الدكتور أنيس، المُصاب بهزَّة من التعاسة لفقدانه القدرة على السيطرة على مشاعره، في أيَّام أمضاها بالقرب من سامية. في منطقة مُصابة بطاقة الحياة الرهيبة الخارجة عن سلطة سجن طويل، بدأ الناس يُخرجون أعظم ما فيهم وأسوأ ما لديهم معًا. كان العمل على كلّ شيء. تدريس جديد، إعلام لنقل الحقائق. إيثار وتقاسم للأعباء. حياة كاملة منسَّقة أشرفت عليها لجان وإدارات جديدة من الشباب الجامعيين، والأهالي المتديِّنين والملحدين، أغنياء وفقراء،

رجالًا ونساء، وكانت محميَّة ببنادق قليلة من الجنود المنشقِّين من أهالي المنطقة نفسها وبعض رفاقهم. كانت كتلة حياة تشتعل بالمكان، والإيمان بالانتصار يتجدَّد. كلّ يوم كانت سامية تبكي بعد كلّ مظاهرة صاخبة، تهمس لأنيس:

ـ تخيَّل هالشعب المتَّهم بالتفاهة يلِّي ما كان يسترجي يحكي نكتة بالسياسة، ليك كيف صار. تخيَّل طاقة هالناس لمَّا بتتحرَّر كلّ البلد شو ممكن تعمل.

لكنَّ الخبر الذي رُوِيَ بعاديَّة وحاولت سامية التقليل من شأنه، أقلق أنيس.

ـ شو قصَّة هالتهديد سامية؟

ـ لا تشغل بالك. ورقة سخيفة لقيناها على باب المركز.

ـ شو مكتوب فيها؟

ـ تهديد طفولي بخطّ مفشكل: ستنالون القصاص أيُّها النصيريَّة الجواسيس.

ـ قلتيلي تهديد طفولي! وشو عملتو؟

ردَّت متذمِّرة كأنَّها لا تريد أن يوقظ مخاوفها:

ـ أنيس قلتلك لا تشغل بالك، عنَّا شباب الانضباط ومنسّق مع الجيش الحرّ، خبَّرناهم. وكمِّيَّة الدعم يلي إجانا من الناس كثير كبيرة. المهمّ هلَّأ بدِّي نروح سوا على المشفى الميداني، لآخذ رأيك بشو ممكن تساعدنا

كان قد انخرط مع الأطبَّاء خلال ساعات، في تقييم عام للوضع والأجهزة والأدوية. ووضع قائمة بأهمّ ما يحتاجون إليه. قال مدير المركز، وهو طبيب مرموق يعمل معه أكثر من عشرين طبيبًا وممرِّضًا:

ـ الأمر سيسوء أكثر. ما زلنا مسيطرين على الوضع حتى الآن. بعض الجرحى ممَّن يدخلون مستشفيات الحكومة تتمّ تصفيتهم بدم بارد أو سحبهم فورًا إلى المعتقلات. لا يمكن الوثوق بأيٍّ شيء من النظام. علينا الاعتماد على أنفسنا.

وقدَّم إلى سامية ورقةً طويلة:

ـ نحتاج إلى هذه القائمة من الأدوية.

ـ منحاول نأمِّنها بأسرع وقت ممكن.

عادا إلى غرفتها، ووجدت أحد الشباب متوتِّرًا في انتظارها

ـ خير مصعب شو في؟

ـ في جامع بالبلدة المجاورة اليوم كان في دعوة إنُّو الجمعة الجاية تطهير الغوطة من أرجاس العلمانيَّة والعلويَّة والجواسيس، معظم الهائجين من المساجين المطلق سراحهم والمحكومين جنائيًّا، شي اغتصاب أطفال وشي سرقة بقوَّة السلاح. حاليًّا عاملين فيها مشايخ ومعهم كمِّيَّات كبيرة من المصاري، وجمعة عن جمعة عمَّا تكتر الناس حواليهم.

ـ ما فينا نحكي مع حدا من قيادتهم؟

ـ الحقيقة اليوم اعتدوا على حسَّان وجمال، وجابوا سيرتك.

ـ شو حكوا؟

نظر مصعب إلى الدكتور أنيس متردِّدًا:

ـ آسف كثير مدام سامية، بسّ عمَّا يقولوا إنُّو إنت والدكتور غير متزوِّجين، وبخلوة غير شرعيَّة. وإنُّو إلهن ناس بسجلِّ النفوس مطلِّعين بياناتك، والخانة تبعك مطلَّقة، وهاي صورة عنها.

أخذت الورقة منه بهدوء:

ـ عقد زواجنا ظلّ بالبيت نتيجة الظروف وهو عقد شرعي عند شيخ. الوقت ما كان بيسمح نروح على المحكمة ونسجِّله. في كلّ حال، الدكتور بكرا رايح يشرف على تأمين شحنة الدواء، وبس يرجع بيجيب العقد معو. لا تهكل همّ.

سلَّم عليهما بابتسامة باردة وقفل عائدًا. كان هذا إنذارًا عجّل في خروج الدكتور أنيس، على أن يرتِّب عقدًا مزوَّرًا للزواج بمساعدة أحد الشباب.

ـ بأسرع وقت إنت أمّنها وفي مين يوصلنا إيَّاها.

ـ سامية أنا مو مرتاح، تعالي معي، فيكي تخدمي الثورة من برّا؟

ردَّت بعصبيَّة أعادت إلى ذاكرته شخصيَّة امرأة الريح، يوم التقاها أوَّل مرَّة:

ـ هادا حكي فاضي وحجَّة للهرب. بلَّشت إسمعها من كتيرين، الثورات ما بتنخدم غير من أرضها. أنا ما بطلع من هون غير عالقبر.

ـ سامية، ونحنا؟

ـ أنا معك وإلك وإنت نبض قلبي، تعال لهون ومنكون سوا

لم يكن يدري، وهو يودِّعها في ذلك المساء الغارق في الترقُّب، أنَّه سيغادر ولن يعود مرَّة أخرى إلى هذا المكان الذي سيتعرَّض لعمليَّة إبادة بالغاز السامّ، محوِّلًا إيَّاه إلى أكبر مقبرة مفتوحة للأجساد المنهكة أمام الكاميرات، التي ستكون الشاهد الصامت على مجازر تكفي واحدة منها لتضع العالم أجمع في قفص الإدانة.

ـ خلِّي هالموبايل معك، بس توصل على خطوط التماس الشباب راح ياخذوك مشي من طرق خاصَّة، وفي سيَّارة راح تنقلك على بيت خاصّ. فيك تتواصل مع أيِّ منظَّمة لتأمين هاي الطلبات. في شيء

موجود بالبلد، وفي شيء لازم يفوت تهريب.

راح يكون معك ناس تساعدك بشو ما بدَّك وما تهكل همّ، أيّ شي صار بفوت على البلد. الحدود أصلًا فلتت. بعد كمّ يوم بلّش تحرّك، كلّ ساعة ابعتلي ولو رسالة فاضية على الرقم المخزَّن بالموبايل. إذا صار شيء إبعث أيّ حرف، أيّ كلمة، ساعتها راح أعرف إنّك اعتقلت.

ما إن دخل دمشق حتى حاصرت قوَّات الأمن السيَّارة التي كانت تقلُّه. سُحِبَ بعنف إلى فرع التحقيق، لكنَّه كان قد نجح في كتابة كلمة كاملة، وأرسلها:

بحبّك.

(٢٥)

عادل

كان البلد، يسير إلى المجهول، والدم ينطرش في نشرات الأخبار، وليل تشاهد حياتها وهي تنهار. خسر عادل كلّ ما دفعه، وطُرد من عمله. وصارت هي، من دون سابق إنذار، بلا عمل ومطرودةً أيضًا اعتكفت في غرفتها في بيت أهلها مجلَّلةً بالعار والألم بعد أن غادرت بيت حُدُد. وغرق أبوها تحت سياط الأعين المتَّهِمَة في صمت مذلّ. وحملت اتّصالات أخواتها مزيجًا من العتب والاتّهام بسبب ما زجَّت نفسها وعائلتها فيه.

كان أصعب ما يمكن لها أن تقوم به، هو أن تشرح لولديها ميَّار ونوّار ما حدث. سمح أبوهما لهما بالذهاب إلى الزبداني إلى دار العمّ بعيدًا عن عين العاصفة.

لم يعد أحد يردّ على اتّصالاتها، وباتت العائلة منبوذةً تعيش بين أمواج الخوف وملوحة الواقع. البلد مشدوهٌ من انفجار الصمت، يتشقَّق بين إصرار أخرق على الانتقام من نظام لا يملك ما يقدِّمه سوى العنف والعناد، وإصرار المنتفضين ضدَّه على الاستمرار. كلَّما أوغل

في دمهم ازدادت انتفاضتهم تأجُّجًا أمَّا هي فلم تمنعها مأساتها الشخصيَّة من ارتداء ثوب الرماد، فانزوت في منطقة حياديَّة مثل شريحة واسعة من السوريين. ترتعد خوفًا من بطش النظام، الذي بدأ يصنِّف الناس على أساس: من ليس معي فهو ضدّي، وبين حراك يتعرَّض للتشويش والاستقطاب الحادّ بين شعارات وطنيَّة جامعة ورغبة مبهمة في أسلمته وجعله ذا صبغة دينيَّة، تقول أيضًا: من ليس مثلي فهو ضدِّي.

أصابت جلطة دماغيَّة عادل وكادت تفتك به. سمعت الخبر متأخِّرة، وتبرَّع أحد الأصدقاء القدماء بإجراء عمليَّة عاجلة له، متحدِّيًا الحظر الذي فرضته سلطة الدكتور سعد وشركائه على العائلة. أنقذته العمليَّة من الموت، لكنَّها جعلت منه كومة رجل مهدود يحتاج إلى نقاهةٍ طويلة وتكلفة رهيبة لمتابعة العلاج.

وصلت إلى المستشفى الصغير، شكرت الدكتور هاني من أعماق قلبها، وقرَّرت أن تكون إلى جانب عادل. حنقها وغضبها ورغبتها في موته أكيدة، لكن بمجرَّد أن رأت انخطاف ماء وجهَي الصغيرين حزنًا على والدهما، صار جُلُّ همّها أن يعيش. وعلى عادة الأنثى، وارت سخطها في قاع قلبها وفتحت قدرتها على العفو والمسامحة، فاختفى الغضب وحلَّت مكانه الشفقة الباردة.

بدأ يتحسَّن بسرعة واستردَّ الولدان الضحكة الذاوية. كان تكاتف العائلة خير ما يمكن فعله في تلك المصيبة، فلم تستسلم. تقدَّمت للعمل في مجمَّع طبِّي، وبدأت تعدّ العدّة لفتح عيادتها الخاصَّة. كانت تدور في الخفاء حربٌ عليها، إذ قال لها مدير المركز وهو يطرق خجلًا:

ـ دكتورة ليل، مضطرّ خبّرك إنّك ما فيك تكمّلي معنا، شي أبدًا ما بخصّ مهنيّتك وعملك؟ شي أكبر منّي، وفهمك كفاية. كلّ يلّي بدّي قلّك ياه الله يعينك ويكون بعونك.

ـ ولا يهمّك دكتور، شكرًا على كلّ شي.

أضاف الدكتور هاني:

ـ رح حطّ رقمك كطبيبة بيت، يعني تزوري المرضى ببيوتهم، وكمان هذا رقم شقيقي، علاقته جيّدة مع يلّي فوق، فهمانة عليّ مين بقصد.

وغمز بعينه، في إشارة إلى أنَّ شقيقه على صلة بأصحاب النفوذ، ثم قال:

ـ حاولي تتواصلي معو وتشرحي له القضيَّة. إذا حبَّيتي بسّ خبريه إنَّك من طرف الدكتور هاني وهو بيتصرَّف بالباقي.

ـ كثَّر خيرك دكتور هاني، ما قصَّرت.

تُجيب بأسى يشلع القلب. تدَّعي التوازن والتقدير وهي تغلي من الغيظ والخذلان. اتَّصلت بعد عدَّة أيَّام بشقيق هاني، وحين عرَّفته إلى نفسها قال لها بحدَّة:

ـ آسف أخت ليل، ما فيني ساعدك بشي، ورجاء ما عاد تتّصلي لهون.

حُكم مبرم بالدمار، تكرَّر عدّة مرَّات. حتى محاولاتها الاستنجادَ بأصدقاء الكلّيَّة، في حلب أو اللاذقيَّة، فشلت. كانت متَّهمة بالتعاطف مع الثورة بحكم علاقتها بالناشطة سامية سعيد وبسبب بضعة أيَّام أمضتها في منزل الدكتور أنيس في أثناء هجرها بيتها.

وحدها نوّار، صديقتها القديمة التي تقطن في جرمانا، استقبلتها

بكلِّ حبٍّ، وأعطتها مفاتيح عيادتها الخاصَّة لتستخدمها مكانًا للإقامة إن أرادت، أو مكانًا للعمل في حال احتاجت إليها.

وظلَّت حياتها تدور في هذه الدوَّامة، إلى أن تلقَّت اتِّصالًا هاتفيًّا غامضًا يقول لها بالحرف:

ـ إذا فتحتي تمِّك بكلمة عالدكتور سعد الدين، راح نحسب الله ما خلقك، إنت وولادك، يا مندسّة يا خاينة. لازم تشكري ربِّك إنُّو الموضوع انتهى على هيك. ما عاد إلك مكان بسورية كلّها ولا حتى بلبنان. نصيحة بتخرسي وبتطلعي من البلد أحسن إلك.

لم تردّ بحرف. فهمت رسالة التهديد بوضوح، وتقبَّلت الهزيمة بهدوء. اعتكفت على رعاية زوجها الذي أخذ يستردّ عافيته، وكان يراها تحجل حوله، تعتني به، تزيل مخلَّفاته، تحمِّمه، تشدّ أزره. اكتفى بالصمت المرّ والنظرة الحامضة في البداية، ثم حلّ محلَّهما عينان غائرتان تصفوان كلَّما رآها إلى جواره تهتمّ بأمره، فتتلبّدان بدمعة سخيَّة. همس لها:

ـ ليل، سامحيني.

نظرت إليه بهدوء، ومن دون أن تتوقَّف عن ترتيب الزهور وتنسيقها:

ـ مو وقت هالحكي.

ـ لازم قلّك إنت بنت أصل، واللحظة يلِّي ما قدرت إحميك فيها هي اللحظة إلِّلي وصَّلتني لهون.

بدأ الغضب يتسرَّب إليها:

ـ عادل المطلوب حاليًّا إنَّك تخفّ بسرعة، نحنا بحاجتك. المهمّ

نقدر نحمي الأولاد، وتستردّ حالك وصحّتك بأسرع وقت. نحنا كثير بحاجة ترجعلنا

ـ بعدك بتحبّيني؟

ـ بأيّ لحظة ممكن يجو الأولاد، رجاء غيّر هالحديث.

ـ ليل، بس قوليلي في أيّ أمل إنَّك ممكن ترجعي تحبّيني.

ـ عادل أرجوك بلاه هالموضوع، ركّز على صحّتك، أنا حدَّك ومعك ومع الأولاد. برجع بقلّك نحنا محتاجينك.

أجهش بالبكاء، مثل أيّ مهزوم تورّط بشعور الذنب والخيبة وقهره المرض. كان بكاء مُرًّا، وضعيفًا، واستجدائيًّا:

ـ والله بموت. أنا بموت ليل إذا بتتركيني، عطيني فرصة من جوّاتك، أنا عارف إنُّو عم تعملي هيك منشان الأولاد. إنت بداخلك بتحتقريني. شو ما عملت راح تضلّي تحتقريني.

لم تعد تحتمل أن تسمع كلمة واحدة منه بعد، ففقدت كلّ توازنها الهشّ، واتّجهت إلى الباب بسرعة وصرخت به:

ـ لك منشان الله خلص. بيكفّي. خلص.

وخرجت صافقةً الباب خلفها وهي تقول:

ـ يلعن أبوك عرص.

تركته غارقًا في مرارة الخيبة، مع رغبة كبيرة في التبوُّل، فبلَّل نفسه قبل أن يستطيع النهوض والتحرُّك إلى الحمَّام.

ردّت على التلفون أخيرًا.

ـ ليل، سمعت بكلّ شي صار؟

ـ فيديل أرجوك اتركني بسلام.

ـ ليل ما راح إتركك، أنا كنت الحجَّة والسبب لكلِّ هالبلا يلّي

إنتِ فيه، وما راح إتركك.

لم تعد تقدر على ضبط أعصابها أكثر، فشرعت ترشُّه بصليات من عبارات العتاب القاسية:

ـ تركتني ومشي الحال. تركتني لوحدي مع قطيع ذئاب. أصلًا إنت شو صار عليك، أنا يلِّي دفعت الثمن وحدي. أنا بستاهل هيك وأكثر. إنت بأمان، شغلك وعلاقاتك ونسوانك ومدنك. شو راح يتغيَّر عليك. زادوا نسوانك امرأة جديدة محطَّمة، ضيفها لقاموسك.

ـ ليل.

صرخ على الهاتف، موقفًا سيل غضبها. لأوَّل مرَّة تسمع صوته الحافي العاري الآمر القويّ. ثمَّة ارتعاشة مباغتة، رغبة لذيذة في الامتثال. همست بتسليم:

ـ شو؟

ـ اسمعي، إنت لازم تجي على دبي، أمّنت لك مقابلة مضمونة للعمل بمشفى خاصّ كبير. من حيث المبدأ، ما عندو مشكلة صاحب المشفى. بسّ لازم تجي. في إجراءات للمقابلة وتعديل للشهادة. اتركي الشام، بأسرع وقت. فيك تجي بأوَّل الشهر الجاي، راح أبعثلك الڤيزا وتكت الطيران، وكلّ تكاليف الإقامة عليّ.

هدأت، ذاب الغضب، مثل كتلة من الملح صُبّ عليها ماء غزير:

ـ لحظة، الشهر الماضي إجتني دعوة للمشاركة بمؤتمر طبِّي، مفكِّريني بعدني بالشغل. هنِّي متكفّلين بكلٍّ شيء، راح إتأكّد من الوقت والحجز، وإذا كانت الدعوة بعدها سارية، وبخبّرك.

ـ اليوم ردّيلي خبر. لازم تطلعوا من البلد، إنت والأولاد وعادل.

ـ عادل بوضع سيِّئ وبيحتاج لمتابعة علاج.

ـ ولا يهمّك. اتركي كلّ هذا عليّ، ركِّزي من جديد. وتعالي.

ـ راح إستناكِ ليل.

ـ يا إلٰهي. ما بدِّي قول شكرًا. بسّ عن جدّ يلعنك كيف بتحيي فيني الأمل.

ـ ما بدِّي شكرًا. نفِّذي وبس.

قطع الخطّ. نظرت إلى الشاشة للحظة، ثم سارعت إلى الإيميل.

(٢٦)

أنيس

وضعوه في مهجع كبير، فور وصوله إلى الفرع. كان ذلك المهجع في الأساس حقلًا للرماية داخل الفرع نفسه، حيث احتوى على العديد من الآلات الغريبة، بينما كانت الجدران كلّها ملبّسة بالخشب والفلّين والكاوتشوك لصدّ طلقات التدريب. يقع المكان مسافة طابقين تحت الأرض، إلى يسار مدخل قاعة الاحتجاز. أمّا إلى اليمين فتوجد زنزانات عديدة للمعتقلين.

عدد المحتجزين في حقل الرماية قرابة ثلاثمئة معتقل، وكانوا يتناوبون على النوم جالسين. ويتمّ ضربهم خلال الأيّام الستَّة الأولى بشكل جماعي. ينهال العناصر عليهم بوحشيَّة بالسياط. ينال كلّ معتقل ما بين مئة ومئة وخمسين جلدة يوميًا. كانوا يتجاهلونه عن قصد، فالأذى الذي يُلحق به أقلُّ من البقيَّة.

مضى الأسبوع الأوَّل، حاول فيه التماسك والبقاء يقظًا. استدعاه الحارس ليلًا

مشى معه إلى آخر الممرّ المعتم. دخل غرفة المحقِّق الذي أشار

إليه بهدوء أن يجلس:

ـ إنت بتعرف إنُّو موصَّى فيك ما حدا يمدّ إيدو عليك، اعتبر هاي سياحة ومعاملة خمس نجوم دكتور. هلّق صار لازم نحكي.

ـ شو المطلوب منِّي بالضبط؟

ـ مطلوب تسلِّمنا سامية.

ـ بس أنا ما بعرف وينها

ـ بس أكيد فيك توصل إلها. موجودة بالغوطة. الأمر بسيط. الليلة بتتحمَّم وبتنام بغرفة نظيفة، ومن بكرا بتطلع الصبح وبتبلِّش تتواصل معها. معك ثلاثة أيَّام. إذا قدرت تسلِّمنا إيَّاها، بتحمل حالك معزَّز مكرَّم وبترجع على لندن. وإذا ما سلَّمتنا إيّاها راح تندم عالساعة يلِّي ولدتك إمّك فيها.

ـ وشو الضمان إنُّو إطلع من هون، بعد ما تستلموها.

سأل محاولًا أن يستجمع قوَّته لتبدو نبرة صوته واثقة، فانفجر المحقِّق بعنف في وجهه صائحًا للمجنّد:

ـ خدو لهالحيوان على المهجع ستَّة. واضح إنُّو المعاملة الكويسة ما بتمشي معو.

ـ بدِّي إحكي مع السفارة البريطانيَّة.

ـ أهلين سفارة. يا عميل يا وسخ. مفكِّر حالك بسكتلانديار يا بخش القلب؟

خدو خلِّي يحكي مع السفير.

كان للتوّ قد بدأ تعامله مع الجحيم وأهله. أُدخل غرفة التعذيب. تمَّ تجريده من ثيابه وربطه من يديه ورفعه على بَكَرة حتى أصبح كتلة من اللحم المتدلِّي، وقدماه لا تلمسان الأرض.

استدعى المساعد ثلاثة عناصر قائلًا لهم:

ـ اسمع إنت ويّاه. هادا واحد من أعداء الوطن والخونة عميل للمخابرات البريطانيَّة، ضبطناه وهو عمّ يحطّ متفجِّرات بالسوق. إنتو الثلاثة بدِّي شوف مين أكثر واحد فيكم بحبّ سيادة الرئيس، بينزل ضرب بالكبل بدون ما تتعب إيده. ويلي بوقف منكم بالأوَّل راح ينحرم من الإجازة، وآخر وأكثر واحد بيصمد فيكم بينزل ليلتين مبيت وبياخذ صورة مع برواز لسيادة الدكتور بشَّار. جاهزين؟ واحد، اثنين، ثلاثة.

انطلق المتسابقون الثلاثة في جَلْدٍ وحشيٍّ همجيٍّ. صراع لتدمير قطعةِ اللحمِ المشبوحة. فَقَدَ بعد دقائق الإحساس بأيّ شيء. كانت السياط تهوي على جسده تاركةً علاماتها للدم المحبوس في الظهر والبطن والمؤخّرة والرِّجلين. يغيب عن الوعي لتوقظه رشقة ماء بارد. ينظر إلى الثلاثة وقد كدّهم التعب وانهار أحدهم من اللهاث.

فكَّ المساعد وثاقه فانهار ككومة لحم. شحطه أحد السجَّانين من قدميه منفِّذًا الأمر

ـ خدوه لهالخنزير عالمهجع رقم ثلاثة.

يسمُّونه مهجع الموت، تُستبدل فيه يوميًا جثَّة رجل حيٍّ أو أكثر بجثَّة ميِّت من نزلائه. حافظ المكان على احتشاده. الموت والعدد أربعة وأربعون ثابتان هناك. كان عليه، بأضلاع مكسورة وركبة متورِّمة، وظهر متشقِّق، التعايشُ مع عالم جديد على مساحة بلاطة ونصف بلاطة، في غرفة لا تتجاوز الأربعة أمتار طولًا وثلاثة أمتار عرضًا. يُوسع له معتقل آخر مكانًا وهو يقول:

ـ مبارح مات ثلاثة معتقلين، وأنت إجيت لحالك.

ثم قرأ آياتٍ من القرآن على كسرة خبزٍ مبلّلة ووضعها على مكان

أكثر الجروح نزفًا.

ـ بإذن الله سيخفّ الألم.

ـ ونِعْمَ بالله.

أجابه من دون أن يجد القدرة على رفض كرمه معه. ففي اللحظة الأولى ما بعد التعذيب تصبح أيّ لحظة تعاطف، مهما تكن بسيطة أو ساذجة، لا تُقدَّر بثمن.

مساحة البلاطة ونصف البلاطة الخاصَّةُ بك هي حيِّزُك في هذا العالم، وكلٌّ ما تملكه الآن على هذه الأرض. تحيا فيها إن استطعت، أو تستجدي عزرائيل كي يحرِّرك من ثقل الجسد وكثافته. التجويع منظّم، والطعام لا يأتي إلّا وفق مزاج إدارة معتقل الجحيم. مرَّة يرمون بضعة أرغفة يابسة على كلّ رغيف منها ملعقةٌ من الحمّص. وفي الظهيرة، يأتون بدلو من المرق على شكل شوربة عدس، هو في الحقيقة ماء مسخَّن بطعم المازوت، وبضعة أرغفة في المساء وخمس حبَّات زيتون بالعدد لكلّ واحد.

لشيخ الخالديَّة الحمصي صوت رخيم ومخزون لا ينضب من حكايا الأنبياء والصحابة. يمزج فيها الواقع بالخيال، والمكتوبَ بالموجود. يُثير الإعجاب بقدرته على تهدئة المعتقلين وإخبارهم بأنَّهم كلَّما كانت عقوباتهم وألمهم أشدَّ كانت مغفرتهم أكبر.

يقول لهم إنَّهم أشبه بالقدِّيسين والمصطَفين وأحفاد النبيّ أيُّوب. فالصبر ليس مفتاحًا للفرج فحسب، بل هو المقاومة الوحيدة للفوز برضى الله. كان شيخ الخالديَّة المتنفَّس الوحيد في هذا الضيق. يبدأ كلّ ليلة بتلاوة القرآن بصوت شجيّ هامس، فتخفت الأنَّات وآهات المتوجِّعين والنازفين ومكسَّري الأضلاع. يُتبعه بقصّة يونس بن متى

وكيف رماه القوم في البحر فحمله الحوت في ظلمات بطنه، فلم يشكّ يونس ولم يَخَف ولم يفزع على الرَّغم من الألم والجوع والمرض، بل كان يستغفر الله ويردِّد دعاءه: لا إله إلَّا أنت سبحانكَ إنِّي كنت من الظالمين. يجاهد شيخ الخالديَّة في جعل ظروف يونس في بطن الحوت تشبه حال المعتقلين. كانت الحكايات وسيلتهم الوحيدة للتشبُّث بالأمل والنجاة. ينطلق الخيال مع الصوت الرخيم، فتهمد قطعان الأوجاع. وبقوَّة الحكاية، يشتمُّون روائح المسك والعنبر بدلًا من النتانة والعفن والتفسُّخ، ويغرقون في لذَّة الخيال. يعقدون رايات الأمل: سننجو مثل يونس، وسيلفظنا الحوت إلى الشاطئ، وسنجد الناس وقد آمنت بانتظارنا.

وفي لحظة التجلِّي تلك، والخدرُ اللذيذ يبلسم الأجساد المنتهَكة العاجزة، ينطلق صوت مشروخ من الزاوية المقابلة لأحدهم وقد انتصب واقفًا:

ـ وينو الله وينو. كس أختكن. يلعن سماكم.

ثم يركض متعثِّرًا بالأجساد المتكوِّمة وهو يتبوَّل على نفسه، وسط محاولات المعتقلين تثبيتَه بالأرض وتكميم فمه، خوفًا من قدوم السجَّان والعقوبة التي ستطال الجميع.

يهمس أحدهم في الجوار:

ـ فَصَلْ. هيك عم يصير كلّ فترة، بيفصل واحد، بيطق عقلو وبيفقد السيطرة وبلِّش يخربط.

نجحوا في تثبيته، فاقترب شيخ الخالديَّة من أذنه وبدأ بتلاوة القرآن حتى هدأ

سُحِبَ الشيخ من مهجع الإبادة إلى مهجع الترقيم، في صباح

اليوم التالي، وهذا يعني أنَّه سيعذَّب حتى الموت، وينتهي برقم مُلصَق على جبينه، وتؤخذ له صورة للأرشيف، ويُبعَد جسده إلى مقبرة جماعيَّة مجهولة المكان.

تفشَّى المرض بعد عدَّة أسابيع: جرب، قمل، إنتانات، وجاءت جائحة الإسهال. تحوَّل المهجع إلى غرفة خليط من القيح والدم والبراز والبول البشريّ.

كانت الرائحة النافذة والمناظر المقزِّزة بمثابة تعذيب معكوس للسجَّانين، فأصبح المعاقِبون منهم المشرفين على المعاقَبين. كان يفتح الباب وهو يسدّ أنفه بخرقة ويحاول ألَّا يلمس أحدًا من الموجودين. وباتت الجثث تخرج يوميًّا، من ثلاث إلى أربع، وتطوّع أنيس لإخراجها مع آخرين. يرمون إليهم ببطَّانيَّة يضعون عليها الجثَّة، ويحملون كومة الكائن البشريّ المبقَّع بالقروح ويمشون بها إلى الممرّ، ثم يديرون وجههم إلى الحائط، حتى يوضع لكلّ جثَّة رقمٌ على جبينها، ويسحبونها إلى الأسفل، متكوّمة في مستودع ريثما تأتي سيَّارة الدفن لنقلها إلى الخارج. كانت تلك اللحظات بمثابة المتنفَّس الوحيد والفرصة لإخفاء أيّ شيء قد يكون مفيدًا.

حتى تمّ نقله إلى مهجع الصدر.

مساحة لا تتعدَّى ثلاثين مترًا مربَّعًا يتكدّس فيها تقريبًا ما بين مئة وستِّين ومئة وسبعين معتقلًا شروطه أحسن قليلًا، فالشمس تدخله. أمَّا المتَّهَمون فيه فهم شرائح من كلّ أنحاء البلاد. مراهقون وعجزة، أغنياء وفقراء، متديِّنون وملحدون، أبناء ريف وأبناء مدن، بَدْوٌ رُحَّل وأكراد. يعملون في كلّ أنواع المهن. أساتذة جامعات وأطِبَّاء ومهندسون وعمَّال مياومون ومزارعون.

كانت البلاد معتقلة لأنَّ أهلها طلبوا مساحة أكبر من قبر فأعطوهم هنا مساحة بلاطة ونصف بلاطة. أن تكتظّ مع هذا الحشد البشريّ الخانق، وتلتحم معه، يعني أن تصبح كائنًا ذا رؤوس كثيرة، جسدُك متَّصل بأجساد الآخرين، وأيُّ حركة من أيّ جانب قد تسبِّب لك الألم. أدخلوهم من الباب، وحين أراد الحارس إغلاقه لم يفلح بسبب الاكتظاظ، فاستعان بسجَّانين ليشاركوا معه بكلِّ عزمهم في دفع الباب الحديديّ، عاصرين الأجساد، بعضها على بعض، وهو يكيل لهم كلّ أنواع الشتائم، مهدِّدًا بأنَّه إذا سمع صوتًا:

ـ راح إحسب الله ما خلقكم.

ينغلق الباب ويبدأ القدماء بتنظيم الأمور. هنا تتقلَّص المساحة إلى البلاطة وربع البلاطة حيِّزك. يجلس المعتقل ويفتح قدميه ليجلس آخر في حضنه، ويأتي الكبيس وهو أضخم الموجودين يضغط بقدميه ليكدس الموجودين. في مهجع التكديس هذا يتناوب الواقفون والجالسون، ويصبح الكسر الوحيد للروتين تغيير المكان الذي يؤلم، وصوتُ الأسبيراتور يمتزج بالتوجُّعات والتفجُّعات والأدعية والاستغفارات والاستغاثات لله. تتفشَّى الهستيريا فيبدأ أصحابها بالهذيان، والتبوُّل، والصراخ، أو كلّ ذلك معًا.

إذا قُدِّر للعالم يومًا أن يرى حقيقة ما يجري فقط داخل هذا الفرع المخيف، لاستحى من الكلام على الهمجيَّة والإرهاب.

تعطَّل شافط الهواء فجأة، وخلال يوم واحد كان أكثر من أربعين معتقلًا قد قضوا من الاختناق، ليغادروا مبتسمين إلى غرفة الترقيم. ارتاحوا أخيرًا تاركين مساحةً أكبر لمن بقي.

بدا روتين العذابات رتيبًا. ترقُّبٌ مكرور. قصصٌ مُعادة للمرَّة

الألف. أنينُ توجُّعٍ مكظوم. دعاءٌ واستجداءٌ للسماء البكماء. يتصمّغ الزمن. يتخيَّل الدكتور ما هي ردَّة فعل القيِّمين على المجتمع العلميِّ والطبِّيّ في لندن إن أخبرهم بأنَّه كان شاهد عيان على أمراض وأوبئة تُعَدّ منقرضة، ولم تعد تدرَّس إلَّا في تاريخ الأدب الطبِّي: سلّ؛ جَرَب؛ بثور إنتانيَّة غريبة؛ موات والتهابات نوعيَّة وغير نوعيَّة؛ إسهالات وهستريا وانهيارات عصبيَّة؛ جوائح تفتك بالعشرات خلال زمن وجيز كان هذا نتيجة طبيعيَّة لغياب الشمس والهواء النقيّ وتردِّي حال النظافة والاكتظاظ الشديد وسوء التغذية، كمًّا ونوعًا وكيفًا.

البلاد كلّها تتعرَّض لجائحة، والسعيد من يموت بهدوء، أو يهرب منها وينقذ ما يمكن إنقاذه.

كان يودُّ فقط أن يرى سامي. وفي اللحظة التي فكَّر فيها في ابنه انتبه إلى أنَّهما يشتركان في الاسم نفسه: سامي وسامية. كيف تعطيك الحياة هذا النوع من العلامات، ولا تنتبه!

اشتاق إلى بيته في ويلزدن، وإلى عمله، وإلى لندن الباردة، الراسخة والصامتة، والتي لم يحبّها يومًا، لكنَّها اليوم تبدو المكان الوحيد في العالم الذي يجب أن يكون فيه.

استدعاه الحارس قبل صلاة الفجر، فتوجَّه إليه يسير بصعوبة شديدة. كان صوته هادئًا وخاليًا من الشتائم. دخل غرفة التحقيق في آخر الممرّ. أمره المحقِّق بالجلوس بهدوء. طلب له كأسًا من الشاي وقنِّينة ماء وصحن فاكهة فيه بضعُ حبَّات من التفَّاح والبرتقال والموز. لم يصدِّق ما يرى. كانت هذه الأشياء بمثابة وجبة من الجنَّة. نظر في وجه الضابط مشكِّكًا. شعر بأنَّه يعرف هذا الرجل. لقد التقاه في مكان ما. لم تطل حيرته حين قال:

ـ آخر شي كنت إتوقَّعه إنِّي شوفك هون!

ذكَّره بأنَّه كان مرافقًا لزوجته في لندن منذ سنوات حين أجرى لها الدكتور أنيس نفسه عمليَّة قلب مفتوح.

ـ بتذكَّرك.

جعله الاحتراس من كلّ الفخاخ باردًا. كان الجوع في تلك اللحظة أعلى من كلّ الآمال التي حملها له وجود رجل يقدِّر مكانة الدكتور. لم يمدّ يده إلى شيء، فما زال يتوقَّع الأسوأ، وأنَّ في الأمر مكيدةً ما عاجله بتبديد غيوم الشكوك: راح إتركك عشر دقائق وراجعلك. خوذ راحتك. وبس إرجع منحكي.

وغادر، تاركًا إيَّاه مع هذا النعيم غير المتوقَّع.

حين عاد، كانت معدته التي داهمتها الوليمة تقدِّم فروض الامتنان صوتيًا.

ـ دكتور أنيس، من بكرا إنت راح تنتقل على غير مكان، إنت مكانك مو هون. حتى الليلة ما ترجع على المهجع تبعك.

كانت لديه رغبة في توديع من تركهم هناك. فبشر تلتصق بهم كلّ تلك الأيَّام الجحيميَّة سيكون صعبًا عليك أن تتخيَّل حياتك من دونهم في لحظة نزعك عنهم. لكنَّه لم يقل ذلك. خاف أن يُفصح عن هذه الرغبة الحقيقيَّة. ركّز في طوق النجاة خوفًا من خسارة هذا الأمل الذي أشرق من قاع العدم.

تابع الضابط الغامض كلامه بهدوء:

ـ سيتمّ نقلك إلى مكان مريح. لا أعرف أين تحديدًا لكن أعلم بأنَّ هناك واسطة قويَّة من أجلك.

علَّمته تجربته ألَّا يجادل، وألَّا يستفسر. يصغي فقط بهدوء، ولا

يبني آمالًا ولا يتوقَّع إلَّا الأسوأ.

ـ ستستعيد عافيتك في البداية، وبعدها ستكون أمورك بخير.

جمع كلّ طاقته الداخليَّة وسأله بصوت خجول:

ـ هل سيكون هناك إفراج؟

ظهرت علامات الامتعاض على وجهه:

ـ لا دكتور، جريمتك كبيرة، وعقابها الموت بالعفن هون. كلّ شي بقدر أعمِّلك ياه هو إنَّك ما تموت هون أو ما تموت هلأ راح تتحمَّم الليلة، وبكرا بيشوفك طبيب الفرع، وبعد كم يوم بتنتقل من هون. هاد أقصى شي فيني أعملَّك ياه.

ـ لوين حتنقلوني؟

ـ لمكان أفضل بكثير. لكن إذا كنت غبي وما بعتقد إنَّك هيك، راح ترجع لهون، وساعتها لا أنا ولا غيري منقدر نعملَّك شي.

قاطعه، ليستعمل ورقته الأخيرة التي تركها حتى اللحظة:

ـ إسمع، أتذكَّرك جيِّدًا يوم خرجت من غرفة العمليَّات، وأخبرتك بنجاح العمليَّة لزوجتك. أتذكر دمعتك، وامتنانك وشكرك، أتذكر أنَّك قلت لي شو بتطلب دكتور، رقبتي سدّادة. أنا ما بدِّي شي، بسّ بدِّي أعرف لوين؟

ـ راح تكون بمكان، ما بعرف عنه شي غير إنُّو أفضل بألف مرَّة من هالمهجع. من يوم عرفت إنَّك هون وأنا عمَّا فكِّر بطريقة لطالعك، يمكن ما يعجبك، يمكن ترفض، بس على الأقلّ بكون أنا برِّيت ذمتي تجاهك.

دكتور، نحنا ما عدنا شعب واحد، نحنا صرنا بحرب يا قاتل يا مقتول. محتاج إخلص من عبء مساعدتك بأيِّ طريقة، لأعرف

إشتغل. من يوم ما عرفت إنَّك هون وأنا مشوَّش. رغم إنّي مدرّب على فصل شغلي عن حياتي. وجودك موجِّعني، برجع عالبيت وبشوف زوجتي وولادي، بحسّ بالامتنان إلك.

مطرح ما إنت رايح مو مكان مثالي كثير، ويلِّي بعرفوا عنُّو قليل. لكنّي عملت المستحيل لإقدر إطرح اسمك. أكثر من هيك ما عندي. وهيك منكون خالصين دكتور.

قرع الجرس فجاء الحارس:

ـ وصّل الدكتور على غرفة المبيت تبعي، خلِّيه يتحمَّم وعطيه ملابس جديدة.

بدا الحارس المليء باللؤم والغباء مضحكًا وهو يتعامل معه. فقال وهو يرشده بقرف إلى الغرفة:

ـ كلّكن أخوات منيوكة.

ويخرج صافقًا الباب.

كانت الليلة الأولى التي يحظى فيها بسرير وملابس نظيفة منذ أسابيع طويلة. كان شيئًا أقرب إلى اللاتصديق. لم يحسن التعامل مع كلّ هذه المساحة. بدت له هذه الغرفة، على صِغَرِها، شاسعةً أكثر ممَّا ينبغي لها، فكاد يضيع فيها ولا يعرف كيف يجلس. تحوَّل السرير إلى فراش من المسامير المدبّبة التي تنغرز في مساماته. كان تعذيبًا من نوع آخر وأشدّ فتكًا لمجرَّد التفكير في القابعين على بعد أمتار منه في الزنازين. غادر التخت ليتكوَّر في الزاوية بمساحة بلاطة ونصف بلاطة. حينها فقط استطاع أن يغفو.

(٢٧)

فيديل

وصلتْ إلى دبي بعد تلك المكالمة بشهر. وفي فندق حياة ريجنسي، الطابق الخامس، وضعت حقائبها، ووضَّبت نفسها، واتَّصلت به:

ـ ألو.

سألها بصوت بارد بمباغتة ومن دون ترحيب:

وين إنت؟

ردَّت وهي مُصابة برشقة قويَّة من الخذلان:

ـ في حياة ريجنسي؟

ـ عشرين دقيقة بسّ وبكون عندك، نزِّلي معك جواز سفرك.

أقفل الخطّ، تاركًا إيَّاها في خيبة مباغتة. كانت تتوقَّع احتفاليَّةً ما حين يسمع صوتها عزّت نفسها بأنَّه سيأتي. لا بدّ من أنَّه مشغول، أو برفقته أحد ما ولا يستطيع الكلام.

كانت جاهزة تمامًا. حمَّام ساخن سلخ عنها كلَّ دمشق. عدَّة بخّات من الشانيل ٥. تتمعَّن في أدقِّ التفاصيل، على الرَّغم من التعب

والهمّ. نظرت في المرآة إلى الوجه الخالي من العيوب. أعادت فتح الحقيبة، وزادت بخّتين إضافيّتين خلف الأذنين، كانت تريد أن تتضمّخ بعطر يحبّه:

نزلت بهدوء. لم يطل الانتظار، وصلت إليها رسالة:

ـ اطلعي لبرّا فورًا.

ضحكت من صيغة الأمر واعتراها الفرح. كانت تريد فعلًا أن تسلِّم حياتها لرجل يتقن إصدار الأوامر. خرجت من الباب المتحرِّك، لتجد سيَّارته في انتظارها مفتوحة الباب، دخلت. كان يضع سمّاعتين على أذنيه ويتابع الحديث على التلفون. أغلقت الباب، فمال عليها، وقبَّلها على خدِّها وما إن شمّ عطرها حتى غمس أنفه بين طيَّات شعرها ورقبتها ولثمها على كتفها، ثم حدَّق فيها بعينيه الشقيَّتين. ابتسم باتِّساع وعاد إلى وضعيَّة استقامة السائق. حلّ فرام اليد وقاد متابعًا حديثه:

ـ إنتِ الحقّ عليكِ. لا ما فيني إجي. لا واليوم ما فيني شوفِك، قلتلِك رفيقتي جاية من الشام. إي راح كون معها

تناهى إليها الصوت العالي للمرأة الغاضبة على الطرف الآخر من الهاتف. ردّ عليها بنزق حاسم:

ـ ما دخلك. بسّ إفضى بحاكيكِ، باي.

أعاد الموبايل بحركة عصبيَّة إلى مسنده في التابلو ونزع السمَّاعتين من أذنيه واستدار إليها

ـ لِكْ أهلين. الحمد الله عالسلامة.

صاح محتفلًا بقدومها ابتسمت بتكلُّف. هضمت الصدمة، لكن غصّة كبيرة علقت في قلبها.

قطع أوتوستراد الشيخ زايد. يده تمتدّ كلّ بضع دقائق لتلمسها، وفمه يقول:

ـ أخيرًا إنت هون.

وانفتح الحديث. كثّفت كلّ ما حدث. أخبرته بما لم تستطع قوله على التلفون. تناثر كلّ شيء نُتَفًا من كلّ حكاية. قاطعها بودّ وهو يعطف السيَّارة في اتِّجاه طريق الجميرة:

ـ سنمضي أوَّلًا إلى المستشفى لتقابلي المدير.

ـ بسّ مالي محضَّرة حالي.

ـ مو مطلوب منك تحضِّري شي، بس يشوفك وتحكوا، وتعرفي شو لازم تعملي وكيف تعدّلي الشهادة بسرعة، وتعطيه جواز سفرك فورًا ليبلِّش إجراءات إقامة العمل مباشرة.

ثم نظر إليها بحنوٍّ، وظلّه الخفيف يخيِّم على روحها:

ـ كلّ شي جاهز. إنت بسّ حطّي الرِّجْل اليمين، وبالأخصّ الشمال، بالميّ الباردة.

شرنقها الأمان. تسلِّم قدرها لرجل لا تعرفه، وليس لديها من حلٍّ سوى أن تثق به. شيء لم يحدث من قبل أصلًا، لكن ما الذي تريده المرأة غير ذلك؟ فاضت روحها المليئة بالترقُّب بومضاتٍ من الفرح. أودعت جسدها في رجفات لذَّة غامرة وهي تفكِّر في أنَّها في حضرة رجل حياتها.

تمّ اللقاء بسرعة وهدوء، فكلّ شيء مرتَّبٌ سلفًا رحَّب مدير المستشفى بهما بمبالغة، وسارت الأمور بوضوح ويسر أنهيا فنجاني القهوة وخرجا بعد أن سلَّمته جواز سفرها ووقَّعت عقد العمل. أخبرها بأنَّها كونها حائزة شهادة البورد الأميركيّ، فهي ربَّما لا تحتاج حتى إلى

معادلة الشهادة. والراتب مُغرٍ وشروطه ممتازة. وأردف:

ـ المهمّ يكون الأستاذ فيديل رضيان. ولا يهمّك.

سألته في السيّارة:

ـ كيف صار هيك؟

ـ شركتنا المسؤولة عن كلّ الإعلانات للمشفى. أعطيتهم حسم خاصّ. على كلّ، لا تشغلي بالك بهالإشيا. هلّق خبريني وين بدّك تتغدّي.

ـ في احتمالات؟

ـ إيه. سمك بمطعم تحت البحر؛ ستيك بمطعم لاتيني؛ لبنة وزعتر عندي بالبيت.

ضحكت:

ـ بتعرف السمك بسبّبلي حساسيَّة، ومالي صحبة مع الستيك واللحوم.

ـ معناتها أحلى عروسة لبنة وزعتر وكاسة شاي فوقهم، عيشي بهالنعيم.

وانطلق يقود السيَّارة بجنون. يسير في خطّ متعرّج بين السيَّارات. وفي غمرة توحُّدها مع عالم هذا الرفيق والصديق، رنَّ هاتفه. كان اسم المتَّصلة وصورتها يومضان في الشاشة المعلَّقة أمامها:

ـ بعد إذنك.

ومن دون أن ينتظر الإجابة فتح السبيكر

ـ أهلين إلهامو.

ـ وينك إنت؟

ـ برَّا البيت، معي صديقة واصلة تازة من الشام.

ـ فيني شوفك؟

ـ في شي ضروريّ؟

ـ لك إنت شو. إنُّو شوفك بحدّ ذاتها ضرورة.

أودعت ضحكته المجلجة ليل في غمٍّ مفاجئ من جديد. غابت. لم تعد تريد أن تسمع هذا الغزل المباشر الفجّ. فتحت الشبَّاك وأخرجت يدها لتصطدم بالهواء المشبَع بالرطوبة. أنهى حديثه والتفت إليها:

ـ شو بكِ؟

ـ ما في شي؟

ـ إحكي شو بكِ؟

ـ على الأقلّ احترم وجودي.

ـ احترم وجودك يعني كون صادق معك وكون على طبيعتي، مثل ما أنا.

ـ فكَّرت إلّلي بيناتنا شي خاصّ. طلعت بتحكي مع كلّ النسوان بالطريقة نفسها؟

ـ ما فيني ردّ على هالشي. ما بعتقد إنَّك سألتيني شي وما خبَّرتك الحقيقة أو كذبت عليكِ؟ أنا رجل أعزب وواضح، علاقتي فيك خاصَّة ولازم تعرفيني بكلِّ الأحوال منشان ما يكون عندك ولا عندي أيّ التباس. إلي صديقات وعلاقات كثيرة. هذا ما دخلوا بعلاقتي فيكِ. إذا فيكِ تقبليني متل ما أنا راح كون سعيد كثير، وإذا ما فيكِ راح إحترم خيارك، بسّ الأهمّ إنُّو أنا ما بكذب عليكِ ولا على نفسي ولا على غيرك.

ـ حقَّك، بس أنا كنت بظنّ إنُّو في بيناتنا شي خاصّ؟

ـ خاصّ كيف؟

ـ إيه. هيك كنت مفكِّرة، ومعك حقّ. أنا ما سألتك. بس أكيد ما توقَّعت إنُّو كلّ هالحبّ يلِّي وصلني منك هو جزء من عاداتك اليوميَّة. مو خصوصيَّة كنت مفكّرتها معي أنا؟

ـ إنتِ ما بتشبهي حدا، مكانتك وحضورك وخصوصيّتك بمحلّها، بس أنا عايش هيك. قبل ما نوصل على البيت إنت بتقرّري. بدِّك منطلع، أو بودِّيك من مطرح ما جبتك.

ـ فظيع إنت!!

تملَّكها الغيظ ورغبة عارمة في صفعه. خرجت الكلمات من فمها بكلِّ غضب ممتزجةً بالصراخ وبعض الدموع.

ـ على أساس إنت بريء وحرّ وديموقراطي. إنت برأيك ستّ متلي عندها القدرة تنحطّ بهالاختبارات الوجوديَّة تبعك؟ إنت واحد سافل، انتهازي، لئيم، سخيف. ما بدِّي منك شي. وقِّف السيَّارة؟

صرخت في وجهه بكلِّ قوَّتها:

ـ وقِّف السيَّارة عم قلَّك. نزِّلني هون. مو الحقّ عليك. أنا ما بدِّي منك شي، مثلك مثل كلّ الرجال، مثلك مثل سعد وعادل. مانك أحسن منهم. لأ، على الأقلّ هنن واضحين إنَّهم أنذال، إنت نذل مغلَّف بثوب ملاك. نزِّلني هون. نزِّلني.

تجمَّد وشحب مثل رجل من شمع. تركها تنفِّس كلّ ما لديها، وتابع قيادته التي أصبحت هادئة من دون أن يعبأ بكلامها اكتسى وجهه بطبقة محايدة من المشاعر. لم يجرؤ على النظر إليها وهي تتكوَّم في مقعدها تذرف بكاء حارًّا. لم يوقفها شيء سوى دخول السيَّارة

مرأبًا أسفل بناية سكنه، واقترابه منها ليضمّها إلى صدره، بينما هي تجدِّد موجة البكاء الحارق، فتتفشّى بقعة واسعة من دمعها على قميصه، قبل أن يصعدا إلى الأعلى.

* * *

إلى اليسار مطبخ عصريّ مفتوح بنافذة كبيرة على صالون واسع، تتخلَّله طاولة طعام لستَّة أشخاص، يقود إلى شرفة تُطلّ على بحيرات اصطناعيَّة.

أفيشات أفلام ومسرحيَّات عالميَّة مؤطَّرة على الجدران. لوحة لتشارلي شابلن. عدَّة كاميرات من كلّ الأنواع مصفوفة على رفّ. أرائك حمراء اللون وستائر سميكة بلون الأرائك. مسرح منزلي مع شاشة عملاقة. وكلّ ما يخطر في البال من التقنيَّة. مكتبة مزدحمة بالكتب المجلَّدة، معظمها موسوعات مصوَّرة. عالم متكامل لإنتاج الصورة، ما إن وطأته حتى لفحتها حرارة أجواء مليئة بالحركة والمتعة والغموض.

قادها بفرح في أرجاء الشقَّة: غرفة إلى اليسار؛ مكتبة تصل إلى السقف مع جهازي آبل وآلة مونتاجٍ رقميّ. شرح لها:

ـ إنَّه «فاينل كات برو»، راقٍ وأنيق ولذيذ. إلو مزاجو. بوقّف فجأة بس يجي ع بالو، لكن بظلّ أفضل من «الآفيد» السميك البلا روح مع «استرج» ب ١٦ تيرا مخزَّن فيه بشكل كامل كلّ الأفلام والإعلانات يلِّي بعشقها. فيك تعتبريه صومعتي لأيَّام السغب والجوع.

لم تفهم شيئًا لكن طريقته في الحديث عن الأشياء، وكيف يمنحها العواطف ويؤنسن وجودها، تجعلها ممتعة حتى لو لم تَعِ ماهيَّتها

كان رجلًا مكتظًّا بمعرفته. مشكلته على عكس الكثير من البشر، أنَّ عليه أن يتخفَّف ممَّا يملك.

أشار إلى غرفة نوم للضيوف إلى اليمين، فيها حمّامٌ خاصّ:

ـ راح جهِّز سندويشات اللبنة. هاي الغرفة اعتبريها غرفتك، بالخزانة في مناشف وشراشف نظيفة، وكلّ شي بتحتاجيه.

وأغلق عليها الباب. شكرته بصوت مسموع. نعم كانت تحتاج إلى فاصل من الخصوصيَّة. كم هو رائع أن يفهم الرجل هذا التفصيل الحميم. حين تجالس امرأة لأكثر من ثلاث ساعات، امنحها فرصة لتختلي بنفسها بهدوء، لتبتلع على مهل كلَّ المفاجآت.

في شقَّته المطلَّة على أبراج بحيرات الجميرا، من شرفة تغصُّ بالنباتات، وغرفٍ تحتشد بالتكنولوجيا، ومساءٍ يتقّطر بالرغبة، أوصدتِ الكلامَ واللغة والعتب.

خرجت من الحمَّام بعد نصف ساعة، جلست على أريكة مفردة طحينيَّة اللون، تتأمَّل اللوحات الفنِّيَّة التي تعجّ بها جدران صالونه. حدّقت في لوحة لثلاث نساء صلعاوات، تمطَّت أجسادهنّ في غرفة فارغة. همست له وهي تتناول من يده كأسًا من النبيذ الأبيض، وإميليا البرتغاليَّة تُطلق آهات موسيقى الفادو في الجوِّ:

ـ اللوحة مؤثِّرة فعلًا

هي لوحة للفنَّانة رؤيا عيسى، مدهشة، تُحيل الكوابيس إلى صور. تستغني في لوحاتها عن شَعرِ المرأة، فلا أحد يريد تحجيب امرأةٍ صلعاء. تجسِّد اللوحة السرطان في العالم الخارجي، ومواجهة المجتمع مثل العلاج الكيماوي.

ـ أوه لا   مدهش هذا التفسير!

أشار إلى لوحة غرافيك:

ـ وهذا ياسر صافي، حفَّار عظيم، لوحته تحمل نبوءات عن كائن متوحِّش سيأتي ليلتهم اللون ويُبقي المكان بالأبيض والأسود. وهذا عبد الرزّاق شبلوط، يرسم الواقع بأدقّ تفصيل ممكن.

ـ لا تقل لي إنَّ هذه اللوحة مرسومة، وليست فوتوغرافًا؟

ـ بل سأقول.

ـ مستحيل!

صرخت بطفوليَّةٍ وانتفضت من مكانها لتحدِّق في اللوحة عن قرب. وحين لمستها انزاحت من المسمار المعلَّقة عليه. حاولت أن تمنعها من السقوط بإسنادها إلى الحائط. وبحركة غريزيَّة، مدَّ يده يثبِّتها أيضًا، ليجد جسده قد التصق بجسدها، وهما محبوسا الأنفاس. أنزلا ببطء اللوحة إلى الأرض، واستدارت لتواجه شفتيه. كأنَّ كلّ كثافة الرّغبة واللون والشغف والسفر والشوق تجمَّعت في لحظة واحدة، وجاءت أخيرًا تلك القبلةُ التي حلمت بها طوال الأشهر الماضية من غير موعد، لينتهيا عاريين على الصوفا تنتشر ملابسهما في أرجاء الصالون.

هكذا إذن، حدّثت نفسها. كلّ هذا الشغف ينتهي في أقلّ من ربع ساعة. لم يكن هناك حتى كلمة حبّ واحدة. كانت شهوة عارمة انقضت بسرعة خارقة. هل من المعقول أن يلخِّص ما حدث للتوّ كلَّ الحكاية؟ كان منقلبًا على ظهره مغمضَ العينين، وسائله المنوي الذي قذفه على بطنها يجفّ متكرمشًا. حدَّقت ثانية في لوحة الفراغ، كأنَّها تشبه المرأة الصلعاء. لا تزال الرغبة تستعر في جسدها. وصلت إلى مشارف ذروة سريعة، لكن خياره أن يسحبه ويقذف خارجًا جعلها تعلق في برزخ اللذَّة.

في الحمَّام، وتحت الدشّ، عاد القلق البرّاق ليطلّ برأسه في المرآة. ترى صورتها بلا شعر صلعاء تمامًا.

انبعثت من الصالون موسيقى تعرفها، تحمل شيئًا جنائزيًا. باخ على الأغلب. حمدت الله أنَّ إميليا اختفت. لم يكن موفَّقًا في اختياره. تذكِّرها إميليا بكلِّ جروحها دفعة واحدة. لكن هذا النزق في الموسيقى الصادر من الصالون يذكِّرها بعذاب الله. كانت ترتدي ملابسها، حين بدأت الحركة الثانية في السيمفونيَّة، وتدعو الله أن يساعدها كانت حياتها المهتزّة بين طيّات أورغن كنائسيّ تُعزَف أمامها بلا حول ولا قوَّة. اشتاقت إلى رؤية ولديها في الحقيقة، كلَّما خاب عشق السيِّدات المتزوِّجات ينكصن إلى أولادهنّ، كأنَّهنَّ يتذكَّرنهم فجأة. ردُّ فعلٍ طبيعيٌّ لمقاومة تأنيب الضمير. فالخيانة الزوجيَّة عادة يتبعها تمجيد لفكرة عالية، وليس هناك أفضل من ممارسة الأمومة لتساعد على استعادة التوازن.

هل أحبّه؟ سألت نفسها بشيء من الشكّ. لكنّ كيف يمكن أن يُحَبّ رجل مثله. الله وحده يعلم كم امرأة يضاجع في الأسبوع؟

هل تحبِّينه؟ سألها الصوت الداخلي مثل نغمة أورغن؟

جاءتها الإجابة، مثلَ صوت حركة اليد التي تمرّ على مفاتيح البيانو لأوَّل مرَّة. كانت مزيجًا من اختلاط العلامات ولذّة الرهبة؟

يعني الشكّ في الحبّ أنَّه ليس حبًّا المهمّ أنت آمنة الآن. اسعي لإرضاء جسدكِ ما دمت معه، كي تكون الخيبة أقلّ.

نعم، انحسبت عليّ الخيانة هذا اليوم. إنَّني متزوِّجة ترتضي أن ينام معها رجل عازب غريب الأطوار. فليكن يومًا من اللذّة ولتدع شؤون ترتيب ذلك كلّه للعقل. سيحتاج جسدها إلى ألف وصول.

جسدها الأربعينيّ يمور بالحياة، يحتاج إلى السقاية وليقذف فيها، هي في المرحلة الآمنة من الشهر وليملكْ كلّ ڤيروسات العدوى، فهي لم تعد تعبأ بشيء.

ستساعده ليستردّ حيويَّته وانتصابه وشغفه، فعلى الأقلّ هناك شبهة الحبّ. شعور عارم بتفضيل هذا الذكر دونًا عن كلّ ذكور العالم، وقبوله بكلِّ سيِّئاته؛ بالذهاب معه إلى أقصى ما يمكن أن تُنتجه معزوفة الجسد. لتكن خيانة كاملة.

(٢٨)

أنيس

تمَّ نقله في اليوم الثاني إلى المستشفى العسكري. وبدأ خلال أقلّ من شهر يستعيد صحَّته.

جاء بعدها أمر نقله إلى المركز الثقافيّ.

وُضع في ڤان مغلق بعد أن قُيِّدت يداه وطُمِّشت عيناه، وساروا به ما يُقارب ساعة ونصف الساعة بدأت فيها أصوات الضجيج تنخفض، فقدَّر أنَّه صار خارج دمشق.

أدخلوه مطمّشًا إلى الداخل. كانت الأصوات الهامسة خالية من الشتائم واللغة السوقيَّة التي اعتاد سماعها في الفرع، وحتى في المستشفى.

قاده الحارس عبر الدرج نزولًا عدّ أكثر من ثلاثين درجة. أمره بالوقوف، وسمعه يتحدَّث مع شخص آخر يقول له:

ـ هذا هو الدكتور.

تمَّ اقتياده بعد لحظات من جديد. فُتح باب ما وأُدخل منه. فُكَّت قيوده وحُرِّرت عيناه من الطمَّاشة. وحين استعاد الرؤية وجد نفسه في

غرفة مرتَّبة ونظيفة للغاية: فيها سرير نظيف، وخزانة ثياب، وطاولة صغيرة مع كرسيٍّ وفريزر صغير وبتوغاز صغير وبضع كؤوس وفناجين وصحون. .غادر الحارس من دون أن يتكلَّم معه وأقفل الباب من الخارج.

مرَّت أيَّام، كلّ ما يفعله هو استقبال طعامه والانتظار. الزمن لا يتغيَّر. فقط الحارس يفتح الباب من الخارج ليقدِّم الطعام ثلاث مرَّات، يعرف من خلالها الفارق بين الصباح والمساء. الجوّ المعتدل وعدم شعوره بالبرد يؤكِّدان أنَّ الوقت في الربيع أو على أعتاب الصيف. بقي الأمر هكذا حتى دخل عليه رجل في منتهى الأناقة يرتدي بذلة بيضاء، مشذَّب الشارب، وتفوح منه رائحة عطر ثمين.

سأله بمزيج من الودّ واللؤم:

ـ إنشالله مرتاح بالغرفة. فيك تسمِّيني المدير.

ـ كلّ شي تمام.

ـ أكيد عندك أسئلة. باختصار صار وقت الشغل.

ـ أيّ نوع من الشغل؟

ـ هون عنَّا متبرِّعين بقلوبهم. مهمَّتك ببساطة أن تجري عمليَّات نقل القلب برفقة فريق طبِّي. سمعت إنَّك كنت تشتغل بلندن، وإنَّك جرَّاح ممتاز.

ـ بتقصد إنِّي راح أعمل عمليَّات زراعة القلب هون؟

ـ لأ، بس عمليَّات نزع القلب هون، الزراعة راح تتمّ بمكان آخر.

ـ مين هنن المتبرِّعين؟

استفسر لإسكات الشكوك التي بدأت تشرقط في رأسه.

ـ ما دخلك بهالموضوع. على كلٍّ، راح يكون في بعض الطلبات الإضافيَّة، مثل الكبد والقرنيَّة والكلى. بعتقد إنَّك بارع وما راح يصعب عليك شي. لكن حاليًّا راح نكتفي بالعمليَّات يلِّي بتتقنها، وبدِّي ياك تستعدّ من اليوم.

ـ ما جاوبتني، مين هنن المتبرِّعين؟

ـ بنصحك دكتور ما تسأل كثير. قوم بعملك بهدوء، وجهِّز نفسك لغرفة العمليَّات. إذا احتجت أيّ شي خاصّ اكتبه ومنأمنلك ياه.

لم يطل الوقت. دخل غرفة عمليَّات مجهَّزة بشكل معقول. أنهى التعقيم وتقدّم إلى طاولة المريض يتفقَّد الأدوات، يرافقه ثلاثة مساعدين. كان المريض الأوَّل تحت التخدير العميق وعلاماته الحيويَّة جيِّدة. نظر في العيون المطلّة من خلف الأقنعة الطبِّيَّة، كانت جامدة وقلقة. تظهر على الجسد العاري المسجَّى أمامه علاماتُ الهزال الشديد. يبدو شابًّا لم يتجاوز الثلاثين من العمر. وقف متجمِّدًا. ما سيقوم به عمليَّة إعدام لإنسان حيٍّ.

تراجع إلى الخلف واستدار في اتِّجاه الباب. رفض الحارس خروجه، واستدعى المدير عبر الهاتف فجاء بسرعة غاضبًا، آمرًا الحارس بأن يرافقه إلى غرفته، وتبعه إلى هناك بعد دقائق:

ـ اسمع دكتور، عادة هون ما بتتم الأمور بهالطريقة. عندي بعض الأصدقاء مهتمِّين بأمرك وكرمالهم عم عاملك بالحُسنى. إنت هون ما بتملك خيارات. مهمَّتك تنفِّذ وبسّ. راح إتغاضى عن سلوكك لأنَّه على ما يبدو ما فهمت الأمر كما يجب. الأمر ما بيحتمل التأجيل. ما عنّا وقت، يا بتقوم بمهمَّتك منيح يا برجعك مطرح ما جيت. أنا لا بحبّ التهديد ولا الوعيد، ولا بجبُر حدا يشتغل معي.

بدا الأمر خيارًا وحيدًا أو العودة إلى مهجع الجحيم. هنا على الأقلّ يستطيع البدء بالبحث عن مخرج. هناك معناه التعفُّن والموت في أيٍّ لحظة.

ـ مهما حاولت ما راح إقدر أقتل إنسان.

ـ مو مطلوب منك تقتل حدا، اعمل يلي إنت شاطر فيه، طلِّع القلب معافًى وسليم وغادر غرفة العمليَّات. معك دقيقتين، لا تضيِّع الوقت رجاء. ماني حابب رجّعك عالفرع. واضح إنُّو مالك غبي. يلِّي بشتغل معهم ما حدا منهم ممكن يسمعك أو يناقشك. صحيح أنا صبور وبتفهّم، بس بصراحة ما عندي وقت لإقناعك.

بدت بعدها لهجته هادئة وودودة:

ـ كلّ يلِّي بقدر ساعدك فيه هو حطّلك موسيقى مناسبة لعملك الفنِّي. شو رأيك بيناسبك فاغنر، ولَّا بتفضِّل شتراوس، بس إيَّاك تقول موزارت، بزعل منك.

صدمة لا يصدِّقها يحاول فتح عينيه. ربَّما كان في كابوس ويجب الاستيقاظ منه في أسرع وقت.

ـ بعد دقيقتين، اطلع لحالك والحارس بيوصّلك لغرفة العمليَّات، دقيقتين ونصف، بتطلع من هون عالفرع. بعتقد إنَّك ذكي فلا تمتحن جدِّيّتي.

تركه عالقًا في شِباك عنكبوت ضخمة، تبصق عليه خيوطَها مثبِّتةً إيَّاه في حمأة من دبق غامر. كان واقعًا حقيقيًّا وعليه التعامل معه. التملُّص منه مستحيل وجدِّيَّته واضحة. لم يكن مستعدًّا للمقامرة أو المناورة. كان عليه أن ينجو مهما كلَّف الأمر. نتر نفسه من خيوط هواجسه، وحزم أمره. فتح الباب وقال للحارس:

ـ خذني لغرفة العمليّات.

بدأ بالعمل كأنَّه مخدَّر تمامًا، على موسيقى فاغنر تذكَّر أنَّ الهولوكوست كانت تنفَّذ على إيقاع موسيقى فاغنر المتعطِّشة إلى القوَّة، وحتى اللحظة لا أحد يحبّ سماع فاغنر في إسرائيل. تذكَّر أنَّه قرأ شيئًا كهذا

طاقة تنزعُ منك العاطفة، وتحرّض فيك تلك البقعَ السوداء المبهمة التي لا تحفل بالتفاصيل الصغيرة. موسيقى تحتفي بالعظمة والمجد، شقَّ على إيقاعها العسكريّ الصاخب المدوّي الجِلْدَ، ونشر القفص الصدري، وقطع الشرايين بسرعة ودقَّة، ونزع القلب، هذه الكتلة الحمراء النابضة، فتناوله منه أحد المساعدين ليضعه في صندوق مبرّد خاصّ بالحفظ، يغلقه بإحكام وينطلق به خارجًا غادر بتثاقل إلى الحمَّام. تقيَّأ ما في جوفه، عاجزًا عن التفكير. يطفو فوق هلام من الكوابيس. كلّ ما يتمنَّاه أن يستيقظ منه. يكاد لا يصدِّق أنَّه فعلها بهذه البساطة. لقد قتل إنسانًا للتوّ.

(٢٩)

الشمّ

صارت تمشي في أرجاء الشقَّة بثقة أكبر. قرّرت أنَّ هذه اللحظات لها. ستعيشها كما ينبغي لها بلا خوف ولا ندم، تتحرَّر كأنَّها خُلِقت للتوّ، ولا تأمل بطلوع غد.

دخلت غرفة مكتبة ضخمة تحتلّ جدارًا كاملًا، طاولة عليها جهازا كومبيوتر ماك وعشرات التوصيلات. طابعة ومونيتر صغير وشاشة بلازما معلَّقة على الحائط. وفي الجهة المقابلة، عشراتُ كاميرات التصوير القديمة. صورٌ، بوسترات، وقصاصات ورق وإسكتشات لإعلانات غير منتهية.

كم نهلك في وهم العاطفة الذي يمنعنا من رؤية الكثير من جمال من نحبّ:

ـ إنت رجل الإعلانات المثالي. حتى ببيتك بتشتغل بالإعلان.

ـ إيه فيكِ تقولي هيك؟ بالنسبة إلي، الإعلان مو بس شغل. هوّي طريقة فهم للحياة. ناس كتير بتستخفّ بالإعلان، لكنَّه بالحقيقة سرّ أسرار الحياة المعاصرة. من يمتلكِ الإعلان يمتلكِ المنتَج والمستهِلك معًا.

ـ أنا محصّنة من الإعلانات.

ـ أبدًا، لا وجود لأيّ إنسان عاقل محصَّن. وحدهم المجانين والممسوسون بالحبِّ فقط محصَّنون.

ـ أنا لا أشاهدها، أغيِّر المحطَّة عند الفاصل الإعلاني. لا أنظر إليها، ولا أنصت إلى التنزيلات، ولا ألتفت إلى اللوحات، ولا أقرأ المكتوب عليها ولو من باب الفضول.

ـ هذه آثار الإعلانات، والحقيقة أخطر كثيرًا من ذلك. كلٌّ منّا يبحث عن سلعته، ومنتِجو السلع لا يعلنون فقط في وسائل الإعلام. بمجرَّد أن تختاري ثيابك أو الموسيقى أو أصدقاءك أو مهنتك أو إيمانك، فاعرفي أنَّك خاضعة لعصر الإعلان، وأنَّك بدأت بالاستهلاك، وهناك من سيقبض ثمن رغباتك.

ـ أنت تعقِّد الموضوع؟ هذا طبيعي!

ـ نعم هذا طبيعي، اليوم المفاضلة هي في نوعيَّة السلعة. انظري: حتى اللهُ نفسُه تحوَّل إلى سلعة. الإيمان سلعة. الحرب باسم الله سلعة. كلّها منتجات، أمثالي يقومون بتنظيمها

والترويج لمن يدفع لنا أكثر. قريبًا سنبيع روائح الجنَّة، وسنجد من يشتري. انظري: هذه آخر حملة إعلانيَّة من أجل منتجات للحبّ.

قرأ لها البروشور بالإنكليزيَّة وأخذ يترجمه لها بدا لها طرحُ رجل الإعلانات قريبًا من الجدِّيَّة، وبدتْ فكرته عن معمل الروائح قابلةً عمليًّا وعلميًّا للتحقّق. شرح لها بعد استفاضة العلاقةَ بين الشمّ وسلوك الحيوانات الجنسيّ:

ـ حاستا الشمّ والتذوُّق حاسَّتان كيميائيَّتان بامتياز. وحاسَّة الشمّ، لا يمكن لها أن تتوقَّف عن العمل لأنَّها مرتبطة بالتنفُّس، بعكس البصر والسمع والتذوُّق واللمس.

هي حاسَّة غامضة علميًّا، وأغلب الناس يعتقدون أنَّ الحياة لا تتأثَّر كثيرًا بفقدانها. شنَّ أفلاطون حملةً على العطور، يومها كانت العاهرات فقط يتعطَّرن. ربط أفلاطون السمع والبصر بالأنشطة النبيلة، واحتقر الشمّ واللمس، واعتبر أنَّ السوقيين فقط هم من يستلذّون بهما، ممَّن لا يقدِّرون معنى الكمال ولا يَعُونه.

قوارير صغيرة فيها روائحُ عظيمة. لم تترك رواية العطر واردة أو شاردة عن العطور إلَّا ووصفتها، وأعادت إلى الإنسان المعاصر الانتباهَ إلى حاسَّة ثانويَّة، يُعتقد أنَّ فقدانها لا يعني شيئًا نحن نعيش في عالم دمَّر الشمّ، وعطب مركزه في الدماغ، وبالتالي أوقف عمل أحد الهورمونات الأساسيَّة التي

كان يتحلّى بها إنسان ترنديال.

الشمّ الذي يولِّد الطاقة للدفاع عن الذات أو التكاثر، استعضنا عنه بحاسَّة البصر. فتحوَّل الإنسان تدريجيًّا إلى الاعتماد شبه الكلِّي على عينيه، وخصوصًا في موضوع الجسد. أصبح مثله مثل القرود، التي تُستثار بالبصر أوَّلًا وأمام هول الأشياء التي تدمِّر سائر الحواسّ وتمنح البصر السيطرةَ، تلاشت الانفعالات الشمِّيَّة إلى حدود دكاكين العطور وترويجها فَقَدَ الإنسان الاتِّصال بأعظم هورمونٍ كاشف للرغبة. فلو تمَّ تنشيط هذا الهورمون، فسيجد الإنسان من جديد المدخلَ إلى المعرفة الحسِّيَّة الحقَّة.

يتمّ في داخل الرحم، التشبُّعُ بتراكم الرائحة. وأغلى الخلاصات هي التي يتمّ فرزها وتقطيرها من المشيمة، فهي القسم الأكثر أهمِّيَّة من إفرازات الثدي الذي يطرح الحليب أوَّل مرَّة. سنأخذ اللزقات الماصَّة للروائح مع قطرات من الصمغ، الرشقة الأولى للحليب، فرائحتها ما زالت تفرز طبيعيًّا.

أسوأ ما يقوم به اليوم تجَّار الشموع والزيوت المؤذية أنَّهم يخلقون رومنسيَّة الصورة ولا يُحاكون طبيعة الرغبة، التي تقوم في المقام الأوَّل على الرائحة.

من مملكة عالم الروائح سيتمّ الاصطفاء الأثير لخدمة الإنسان المعاصر الشاعريّ والحداثيّ، والذي يملك مالًا لذلك. الفئة المستهدَفة لدينا هي العاملون في قطاع الإبداع

والفنّ، والنبلاء المعاصرون الذوّيقة، ممَّن يقدِّرون قيمة هذا المنتَج.

ـ يعني أنا بشوف هذا من الكماليَّات، وما بعرف إذا فيكن تضحكوا على الناس بهيك إشيا.

ـ لا تخافي، يلِّي قدر يقنع العالم بالبيف باف، وضرورة السحق والمحق والفتك بالكائنات المقزّزة، بيقدر يبيعهن هالمنتج. موادّ محرِّضة على العشق لمصلحة شركة هولَّنديَّة ستبدأ ببيعها في محالّ الجنس والرغبة، والصيدليَّات أيضًا والآن أعمل على كتابة التوصيف الإعلاني. لم أَنْتَهِ منه بعد:

«عزيزي الزبون الخاصّ ممَّن يقدِّرون هبة الطبيعة: الجنس بعضُه مخفوقٌ مع كريمة الحبّ. بعضُه معجونٌ بفطائر الجسد المقمَّرة، مرشوش عليه فلفل العاطفة. بعضه جسد يتّحد بالجسد، تحت لواء الحبّ. المهمّ، في كلّ تلك الحالات اللانهائيَّة، أخذُ إغفاءة لترتيب القلب، وتهدئةِ الاضطراب، وإعادة دوران الدم الذي تدفَّق في الشرايين بفعل أمطار الرغبة.

اللحظة بعد الذروة هي لحظة خارقة، يتمّ تدميرها بالحديث والسؤال. لحظة خالية من الندم والأمل معًا، من الماضي والمستقبل. يذهب الخيال للتنزُّه بعيدًا عن حدائق المتوقَّع والمشتهى. تنهمر عليك لوحات مذهلة الصور. الروح تنفتح على مسامات التنفُّس.

أصوات هامسة تخرج من مكامن مزروعةٍ فيك، تتقاطر

الروائح وفوّاحُ الرغوة والزبد، ونثيثٌ ورذاذ غامران يجعلانك في لحظة صفاء ما بعد الجنس.

وسادتنا تساعدك على التنفُّس لتغرف وتغوص وتُطيل ذروة السعادة.

وسادتنا تساعد المبتكرين والفنَّانين والمبدعين وأصحاب العقول النيِّرة والأفكار الإبداعيَّة على الوصول إلى حلول لم تخطر في بال.

وسادتنا، ما إن تضع رأسك عليها، حتى تأخذك إلى عمق الفكرة المبدعة، إلى مكمن الجمال والعبقريَّة، وتجعلك تصل إلى الحلول المستعصية».

وأمام دهشتها لجدِّيَّته ولغرابة الفكرة، ازداد حماسة لشرح المزيد:

ـ هذه الصور التوضيحيَّة، عبارة عن مخدَّة مفلوقة فلقتين، تشبه مخدَّة الرقبة في الطائرات، في داخلها خلطة من ريش نعام وطواويس وموادَّ رهيفة، مع عبوات عطريَّة صغيرة. حويصلات من العطور، مصمَّمة من قبل خُبراء الروائح الإيروتيكيَّة، في العالم.

حين يرتخي الرأس على المخدَّة ينغمر وسط ملمس حريريٍّ، يعطي إحساسًا بالانتعاش، فتبدأ الحويصلات المرتَّبة بعضها فوق بعض، بالانفجار التدريجيّ. عطور بريَّة خالصة،

روح الصنوبر، والأشجار الراتنجيَّة، تتغلغل في الأنف، بمسّ خفيف يكاد لا يُشَمّ. يُستنشق بهدوء، ويتسلَّل إلى الدم، ويُعيد ترتيب العوالم الداخليَّة التي تصل إلى أقصى اضطرابها، وخضَّها.

هذا هو السلوغن الخاصّ بالحملة واسم المنتج.

«كوما دونيا»، استغراقٌ في أعماق لم نطأها من قبل.

ضحكت. ظنَّت أنَّه يبالغ، يشطح، يزاود:

ـ معقول في جهاز بهذه المواصفات؟

ـ طبيعي. كلّ شركات الإعلان التي أعمل معها تدفع لي، ليس لأنِّي أروِّج منتجات أو أبتكر إعلانات ناجحة، بل لأنَّني أمدّها بأفكار لاختراعات تبيعها لشركات تصنيع، مع حقّي الحصري في الإعلان عنها، وهكذا

ـ تطلب منك سلعًا بناءً على دراسات السوق؟

ـ لا أبدًا، لا دراسات ولا تفاهات من يلِّي بتسمعي عنها

المبدأ أنَّني أعمل على الفكرة التالية. كلّ رغبة سلعة.

ـ حتى الحبّ؟

ـ الحبّ، هذا اللفظ الجبَّار، لا ليس سلعة، لكن يجب تفريقه عن العشق والهوى والوَلَه وكلّ صفاتها. هل تدرين أنَّ

لمعاني الحبّ في اللغة العربيَّة ١٨ لفظًا، كلُّها من مشتقَّات الحبِّ وأطواره ومنازله وصفاته، تحت مُسمّى جناح الحبّ. يا صديقتي، العشق رغبة، لكنَّ الحبّ غير ذلك. الحبّ ليس له عكس. لذلك تتحوَّل الكراهية أيضًا إلى رغبة. كلّ ما ترغبين فيه يمكن أن يتحوَّل إلى الشيء ونقيضه، ونحن نصنعه ونعلن عنه ونبيعه ليساعدك.

أرادت أن تعود إلى الموضوع الذي يشغلها: كيف يرى المرأةَ هذا الباردُ المتبجِّح.

ـ أنتم تصنعون من المرأة سلعة رخيصة في الإعلان؟

ضحك بعنف، وقال: «هِهِه».

ـ الحقيقة، الرجل هو السلعة الرخيصة. نحن نستخدم المرأة من أجل أن يدفع الرجل. فـ ٨٥ في المئة من ثروات العالم اليوم في أيدي الرجال. كلّ سلعة تحتاج إلى التسويق، وكلّ تسويق يريد الإعلان، وكلّ إعلان بلا محاكاة للرغبة فاشل.

ـ طيِّب، سأقبل معك، لكن أخبرني: هل الحبّ رغبة وقابل للإعلان؟

ـ العشق كذلك. لكن بما أنَّ العشق صفة أو جزء من الحبِّ، فيمكن، من خلال فهم الجزء، أن نستوضح بعض الكل. انظري إلى الهوى أو الغرام. تلتقين أحدًا ما، في لحظة

ما، تظنِّين أنَّها لحظة خاصَّة ببساطة لأنَّك تركِّزين فيها يتحرَّر العشق من الماضي، لكن لا يتخلّص منه. يبقى رهينة له. بمعنى، لأؤجِّلْ عمل اليوم إلى الغد، وأحيَ لحظتي.

العشق لا يكون عشقًا إلَّا بالإعلان. أُعلن عشقي لك، فيُعلن المعشوق عشقه أو لا يعلنه. في لحظة الإعلان، أي التصريح والإخبار، تتحرَّك غريزة التملُّك. أريد امتلاك حصّتي بعد أن أعلنت عنها، والويل لمن يقترب منها يا عزيزتي، لا تُقلِّلي من أهمِّيَّة الإعلان وحصصه، فهو من يحدِّد لك قيمتك في سوق الحياة.

اقتربت منه لمسافة أصبح وجهها قريبًا من وجهه، وهو يلفظ خاتمة حديثه:

ـ يبدأ الحبّ الحقيقي حين نتوقَّف عن أن نكون عشَّاقًا.

صمت فجأة ليلتقط نَفَسَه الذي تغيَّر مع اقتراب وجهها منه. كانت تحدِّث نفسها. سأنتقل إلى هنا، حيث العالم مشغول بحديث غير الثورة والنظام، غير الهلاك والجنون، غير الانتقام والتوسُّل. وهنا، سأرتِّب حياتي كما يجب. أنجز الطلاق بهدوء مع عادل، وأؤمِّن لولديَّ مكانًا خاليًا من القلق، وأركِّز في عملي حتى أستعيد نفسي وأفتح عيادتي. في المدن الطبيعيَّة، الحياةُ واضحة وبسيطة وخالية من التعقيد. أمورك واضحة. تمتلك مهنتك وتعمل بجدّ، وتحقِّق استقرارك.

سألها:

- فِيمَ شردت؟

- كانت حصَّتي منك قبلةً في دمشق، وصورًا فضحتني ودمَّرتني في سوق الحياة.

(٣٠)

ليل

فتحت عينيها بعد التاسعة صباحًا لتجده متكوِّرًا إلى جانبها يلاعب شعرها ويغمرها بقبلات خفيفة. وما هي إلَّا لحظات حتى كانا في مهبِّ الجسد من جديد. كان ارتواءً كاملًا متتابعًا راعشًا. انقلب على ظهره. أولع سيجارته. أغمض عينيه وتركها تذوي في فمه. وغرق في عالمه. تركته بضع دقائق وهي تتذكَّر كلّ ما حدث بشعور غامر بالرضى.

حدَّقت في وجهه. كان بلا ملامح. عيناه مغمضتان، والسيجارة التي تحترق بهدوء تُخرج دخانها البطيء، الراسخ، الفادح الحضور على الريق.

ـ شو باك؟

سألته وهي تراقب خصلات شعره الطويلة قليلًا والمبلَّلة بعرق لامع. تدخل من النافذة أشعَّة شمس دبي، والضوضاءُ البعيدة عادت إلى مسمعها، والزنخةُ الشهيَّة بعد الجنس تزكمها. يستعيد قلبها هدوءه. أركت جسدها الممدَّد عاريًا على يديها بالقرب من جسده

المسجّى. بدا لها، في السيجارة المشتعلة في فمه وتضاريس جسمه المنحوتة، مثلَ هديَّة كونيَّة لم تكن تتوقَّع الحصول عليها بعد كلّ ما حدث.

كان مسالمًا مثل قطعة رخاميَّة تومض فوقها أشعَّةُ شمس هامسة. رائحة العرق الممزوج بعطريهما تتشكَّل خلفيَّةً لبقايا السيجارة المحترقة، تظلِّل سحابتُها وجهَه الغارق في الطمأنينة، والمستغرقَ في مكان عميق. انتباتها رغبة لو أنَّها تدخل كالدخان إلى رئتيه، تسري في دمه، في أوردته، تصل إلى عقله، وتنظر أين هو الآن وماذا يرى؟ وأين يمضي؟

في هذه اللحظة بالذات من الائتلاف المطمئن، بدأت تتلبَّسها فكرة فقدانه.

كرَّرت السؤال، خائفة من هذا العالم المتناغم الهشّ الحريريّ الذي أخذ يتعنكب بينهما:

ـ شو باك؟

أشار إليها ممتعضًا أن تسكت، مطفئًا السيجارة على حافَّة السرير وراميًا عقبها في اتِّجاه سلَّة المهملات من دون أن يغيِّر جلسته. أعاد تسجية يديه إلى جانب عريه الشهيّ، وتنفَّس بهدوء غارقًا في عوالمه القصيّة، والتي أرادت إخراجه منها. تلبَّسها شعور مذهل بالفقد. تريد عودته إليها خائفة وقلقة ممَّا سيحدث. مرَّرت يديها على جبينه، وسؤالها يحوم من جديد، يستفسر عن سبب تكوُّره في مملكة صمته:

ـ شو باك؟

تنفتح عيناه الرائقتان. يجعل تفريغُ الجسد العيونَ المتعبة تلمع، فلا تضاهى بمسحة البراءة والجمال، وخصوصًا وهي تطيِّر بريقها

المغموس بالعسليّ المشعّ. افترَّت شفتاه المرسومتان بعناية على ابتسامة غائمة. همس بالإنكليزيَّة:

- Shut up.

صُدمت:

- شو ولاه. إنت إخرس.

كبرت ضحكته. غطَّت وجهه. جلس على حافَّة السرير متذمِّرًا، انتصب وذهب إلى الحمَّام. بدا من الخلف مثل محارب قديم. حتى الترهُّل الطفيف عند خصره بدا لها جذَّابًا. وقف قبل الدخول، نصفه الأسفل يلوذ بالجدار، ووجهه يطلّ على استلقائها العاري.

- هالمرَّة مسامحة. لكن المرَّة الجاية اتركيني. بحبّ كثير آخذ إغفاءة بعد الطوشة، خلِّي الصخب الداخلي يهدا على مهلو. لا كلام، لا همس، لا حركة، لا سؤال، لا اغتسال، خلِّي كلّ شي يهدا شوي شوي.

- أها. منيح إنَّك خبَّرتني.

- إيه كمان سؤالك العبقري، شو باك، يعني بيعجز فرويد عن الإجابة عليه. فبلاه دخيلك. أسوأ سؤالين بالحياة: شو باك؟ ومن وين جاي؟

- يعني ما فيك بلا فذلكة. حاضر، كنت بدِّي قلك.

تركها متأرجحة بشعور غير مريح. كيف يجرؤ على الحديث معي بهذه الطريقة؟ ولماذا هذا الغرور غير المبرَّر؟ مزيج من الغضب وقلَّة الحيلة والفرح. عزت أسلوبه إلى تنازلاتها الكثيرة، ومعرفته ما يريد، وقدومها إليه خفية، ومشاعر الذنب التي بدأت تنبض في جسدها

قطع صوته القادم من الحمَّام عليها مشاعر التبكيت التي بدأت تتكوَّر في جوفها

ـ اعمليلنا فنجانين قهوة.

بدأ الغضب يتصاعد، فأخذت تمدّ لسانها وتقلّد بهمس تعابير كلامه ووجهه كأنَّها تقول: شو مفكّر حالك لكون خدَّامة عند يلّي نفضك!

صرخ بها من الحمَّام كأنَّه يراها:

ـ بلا مياعة شايفك؟

ـ «العمى إذا صحيح»، همست لنفسها وكتمت ضحكتها. نطَّت تتفقَّد الغرفة إن كان فيها كاميرات مراقبة، وهي تقول:

ـ إيه تكرم.

تصاعد صوته من الحمَّام يغنِّي. وقفت تتأمَّل نفسها في مرآة غرفة النوم. أذهلها كيف تورَّد وجهها، وأُشبعت روحها، واختفت مسحة الشحوب عنه. لمحت صندوقًا صغيرًا، إلى جانب المرآة. مدّت يدها تفتحه بهدوء، لتتشجَّع أكثر حين شاهدت ما فيه. فتحته كاملًا، فانتابتها رغبة حانقة في قلب محتوياته والبحث عمَّا أخذه منها في دمشق. كان يعجّ بالأقراط. حدَّقت جيِّدًا، كلّها أقراط مفردة. صارت تبحث بينها عن قرط الفراشة، وبصعوبة وجدته. أعادت المحتويات إلى الصندوق وأغلقته وهي بين الصدمة والدهشة معًا. كان يجمع الأقراط من آذان النساء اللاتي ينام معهنّ.

ـ كلّ هدول؟!

أعادت فتح الصندوق، وهي تحدِّث نفسها مذهولة بأشكال الأقراط.

ـ العمى بقلبك أكثر من ثلاثمئة امرأة يا وغد! أغلقت الصندوق وهي تهمس:

ـ الله لا يشبعك.

رتَّبت نفسها بسرعة ومضت إلى المطبخ. وضعت دلَّة القهوة على النار، وهي تفكِّر في أسباب سخطها. هل كانت تتوقَّع غير هذا؟ كانت تتوقَّع ذلك، أجل، لكنَّها كانت تتمنَّى ألَّا تكتشفه في يومهما الأوَّل؟ غالبًا، مهما تكن المرأة واثقة بأنَّ شريكها دونجوان كهذا، فهي تتمنَّى على الأقلّ أن تتوهَّم قصَّة عظيمة، وخصوصًا في البدايات.

أمَّا بعد أن يتمّ الاتِّصال الجسديّ، فجلُّ ما تتمنَّاه هو أن تُرضي فضولًا ينهشها، ليُسمعها جملة تُرضي أنوثتها عن فرادتها بين الأخريات. كانت تعرف أنَّ هذا غير مهمّ، لكنَّها تتحرَّق إلى سماع رأيه فيها. كانت تودّ أن تسأله: كيف وجدتني؟ لكنَّها طردت الفكرة السخيفة، فهذا الرجل المحصَّن خلف ألف قناع، سيحوِّل سؤالها إلى محاضرة ساخرة.

أوقفت شعورَها الغامض بعدم الرضى، رؤيةُ هاتفه النقَّال في المطبخ. فتحته وقرأت بعض الرسائل التي تصل إليه. معظمها من نساء. لم يتوقَّف طوال الليل عن استقبال الرسائل الحميميَّة بصمت. غلا الدم في رأسها انتابها شعور عارم بالغيرة، مع لمسة من الاحتقار الذاتي لاستراقها النظر إلى هاتفه. توقَّفت هنا هل ينبع الشعور بعدم الرضى فعلًا من كونها متلصِّصة؟! أم من أنَّها ملّكتْه نفسها بسهولة؟

وضعت الهاتف في مكانه وتشاغلت في انتظار انتهائه من حمَّامه. انتبهت لشيء يسيل بين فخذيها. سارعت إلى حقيبتها. انتابها الحنق لكونها لا تحمل فوطها الصحِّيَّة. فاجأتها الدورة الشهريَّة في غير موعدها. أصلًا، لم تكن تتوقَّع قدومها من دون مقدِّماتها الثابتة، كالصداع وألم المفاصل وتحجّر الثديين واعتلالٍ وجوديٍّ في المزاج.

رنَّ هاتفها النقَّال، في هذه اللحظة بالذات. كيف نسيت أن تضعه على الصامت؟ جعلها اسم زوجها ترتعش. كان يومض على شاشة الهاتف كأنَّه يراها. تشجنَّت معدتها أكثر، وأرادت أن تتقيَّأ ثمَّة دفقٌ أقوى بدأ يمغص رحمها ويسيل بين فخذيها. سمعت في هذه الأثناء صوت وشيش قادم من المطبخ. لقد فارت القهوة التي نسيتها، فأسكتت الهاتف ودحشته في جوف حقيبتها، وأسرعت إلى البوتوغاز وهي في قمَّة العجز والاضطراب، لا تدري ماذا تفعل، مع كلّ هذه الأمور التي تجمَّعت دفعة واحدة: صوته المتخرِّش القادم من الحمَّام؛ رنين الهاتف واسم زوجها الذي عاود الاتِّصال بإصرار؛ صوت وشيش الغاز الذي اندلقت عليه القهوة؛ تقلُّصات معدتها وكركعتها وقدوم الدورة الشهريَّة المباغت.

تجمَّدت لبرهة في مكانها، في أعلى درجات الخوف والارتباك والسخط. وبحركة عصبيَّة، فيها الكثير من الحزم، استعادت تحكُّمها في نفسها عالجت أمر الخلوي أوَّلًا، فوضعته على الصامت، ثم أطفأت الغاز، ووضعت الدلَّة في المجلى. أمسكت بدستة مناديل من علبة المحارم، دسَّتها بين فخذيها، وأخرى مسحت بها آثار القهوة. ارتدت ثيابها على عجل، وخرجت وأطبقت الباب.

خُيِّل إليها أنَّ صوته المخرش ما زال يتبعها، حتى المصعد، ثم بدأ يتلاشى رويدًا رويدًا. استقلَّت سيَّارة الأجرة:

ـ حياة ريجنسي هوتيل، بليز.

بعثت رسالة إلى زوجها: بحكيك بعد ساعة، أنا في قاعة المؤتمر.

وصل إليها الردّ مباشرة: أوكي، كنت قلقان عليك؟ ما في شي.

مفتقدك. واليوم شتي بالشام. واشتقتلك.

أجَّجت الرسالة فيها حالة الغضب.

كمان صرت رومانسي يا طيـ.   لم تستطع أن تطلق هذه الكلمة. أدارت وجهها المكدَّر بالاحتقان والغيظ، غطَّته بنظَّارتها السميكة وانهمرت دموع لا بدَّ منها. شعرت بأنَّها تذرف صوّان الألم، ثم تتنهَّد بنهنهة مريحة محدِّثة نفسها: كم هو رائع أن تمتلك النساء طاقة البكاء حين يشتهين! وقبل أن تصل إلى الفندق، فتحت هاتفها من جديد، تفقَّدته للمرَّة المئة على الأغلب، لم يتَّصل ولم يبعث بشيء. لم يفتقدها، تُرى ماذا كانت ردَّة فعله حين خرج من الحمَّام ولم يجدها؟!

بدأت تتضايق وتبربس وحدها:

معقول هيك ما سأل؟ يحرق ديبو شو لوح. وأنا ما راح إتّصل، لشوف مين راسو أكبر!

همَّت بدسّ الهاتف في الحقيبة، لكن بدلًا من ذلك كتبت له:

ـ شكرًا على روائح الحلم الذي لا يصدَّق، وآسفة لأنَّني لم أشرب القهوة معك.

انتظرت قليلًا، لم يجب. زاد شعورها سوءًا. ترجَّلت من التاكسي من دون أن تتنظر حتى أن يُعيد إليها السائق بقيَّة المئة الدرهم. صعدت إلى غرفتها. وجدت علبة فوط صحِّيَّة في حقيبة سفرها، ارتاحت قليلًا، دخلت تحت زخَّات الدوش، فألهب انهمار الماء الساخن ظهرَها. نظرت في المرآة الجانبيَّة إلى جوار البانيو، كانت علاماته التي أودعها على جسدها واضحة. كدمات وخموش وبقع زرقاء. كان لوميض الألم نبضٌ من السعادة لا تعرف كيف تشرحه. مدَّت يدها تتلمَّس الخدوش. تنشَّفت وعادت لتستعدّ للنزول

إلى قاعة المؤتمرات. على الهاتف رسالة غير مقروءة مبعوثة منه، فتحتها وهي مليئة بالتوقُّع، راسمةً ابتسامة على وجهها، خبتت بهدوء حين قرأت:

ـ هالمرَّة عملتيها، المرَّة الجاية إذا بتعملي فيني هيك يا ويلك. على كلّ ما راح يمرّ يلِّي عملتيه بدون عقاب. جهِّزي حالك.

مرَّت أيَّام المؤتمر، شغلت نفسها فيه بكلِّ طاقتها. كانت تتفقَّد هاتفها كلّ خمس دقائق لتجد الفراغ نفسه وبعضَ رسائل غزل من زوجها، لم تعد تكلِّف نفسها عناء فتحها.

حزمت أمرها سأكون صارمةً وطيِّبة معه، لقد وصلنا إلى النهاية. أتمنَّى له حياة رائعة. أشكره على مساعدته، وأختم هذا الفصل قبل أن يبدأ. كانت نزوة وانتهت ولن أستمرّ فيها. لكن، بمجرَّد تنشّقها رائحة عطر ما، كانت حواسُّها تقودها إليه، وما إن تفقد التركيز قليلًا حتى تحملها الصور إلى صدره.

غاضبة من تطنيشه ومن رسالته السخيفة. مَن هو ليعاقبني؟ لماذا يستخدم هذه اللغة؟ وتعترف، في الوقت نفسه، بأنَّ في داخلها ميلًا جارفًا لأن يعاقبها ظلَّت صامدة. لم تتَّصل به، لم تحاول أن تكلِّمه أو تتواصل معه، فانخفض مزاجها إلى الحضيض، ووجدت نفسها أخيرًا وقد انتهت مدَّة إقامتها بالفندق بعد انتهاء المؤتمر.

لا تدري: هل تمدِّد إقامتها على الأقلّ لتحصل على جواب جدّي من المستشفى، أم أنَّها فعلًا معاقَبة، وأنَّ الأمر انتهى على أسوأ ما يمكن أن يكون!

لم تَطُل حيرتها، فمندوب المستشفى اتَّصل بها ليُخبرها بأنَّ إقامتها جاهزة وعليها أن تبدأ بتجهيز أوراقها فورًا، وأنَّها ستنتقل إلى

فندق موقَّت ريثما تنتهي الإجراءات وتستطيع استئجار شقَّة لها. وأضاف أنَّ عليها أن تمرّ إلى مكتبه لتوقيع بعض الأوراق.

صار مبرّرًا الآن أن تتكلَّم معه، وتستمرّ في ادِّعاء الغضب. أمسكت الهاتف وطلبت الرقم وهي تأخذ شهيقًا عميقًا. سمعت صوته، بعد ثلاث رنَّات، مقتحمًا وحادًّا. لم يسمح لها حتى بالنطق:

ـ إذا مالك متذكّرة العنوان، راح إبعثلك ياه، كوني عندي الساعة تسعة.

همَّت بالحديث، لكنَّه أقفل الخطّ.

ـ خراي عليك حيوان.

هي لا تشتم عادة، لكن في تلك اللحظة كانت تستطيع سحقه صفعًا ورفسًا.

سأذهب لأضعه عند حدّه، وأعلِّمه قَدْره. شو مفكِّر حالو؟

برد هياج غضبها حين وصلت إلى برّ الاستنتاج الحاسم لإنهاء هذا الفصل العبثيّ وَردّ اعتبارها ووضعه أمام حقيقته. ستطالبه بالاعتذار لأنَّه سبب كلّ البلاوي التي مرّت فيها. لن تقبل أقلّ من اعتذار صريح يليق بها.

في تمام التاسعة كانت ترنّ جرس الباب. وفي التاسعة وعشر دقائق كانا عاريين، يتبادلان القبلات والصفعات والشتائم.

(٣١)

العصف

تحوَّلت حياتها خلال شهرين من هذا العصف الجامح، من القاع إلى أعمق أعماقه. الحبّ يفتك ويهدم ويحفر. لا تفهم شيئًا ولا تقدر على تفسير شيء. تختفي فجأة بضعة كيلوغرامات من الشحوم المكدَّسة على جسدك، ويختفي معها العالم. لا تستطيع أن تركِّز مع أحد، ولا في أحد، إلَّا إذا كان فيه شيء من المحبوب.

استلاب تامّ. عقلك يعمل بطاقته القصوى. عاطفتك بألف حصان. ولأنَّ المحبوب يحبّ جسدك تبدأ بالعناية به. تعدّه كما تعدُّ الوليمةَ لمفترسها، تعتني بكلِّ تفصيل فيه، حتى إذا ما ظهرت بثرة صغيرة على سطحه تشنّ عليها حرب إبادة.

تنتقل خلال ثلاثة أسابيع إلى العمل في مستشفى كبير بصفة استشاريَّةٍ. أربعة أيَّام عمل في الأسبوع براتب جيِّد مع مسكن. استأجرت بيتًا واسعًا لها وللعائلة في تلال الإمارات، لا يبعد عن سكنه سوى عشر دقائق بالسيَّارة. استخرجت شهادة قيادة، وابتاعت سيَّارة دفع رباعي كحليَّة اللون، وسجّلت في ثلاثة نوادٍ رياضيَّة، واحد

منها للكركيت والغولف، لا لشيء سوى لأنَّه يمارسهما. وتفرَّغت له. بدأت بإزاحة النساء اللواتي يلتقينه، من حياته، واحدةً تلو واحدة.

صنَّفتهنّ، وصادقت بعضهنّ، ومارست كلُّ القدرات التي تملكها المرأة للدفاع عن ذَكَرِها، ليتركنه لها. لهنَّ كلُّ رجال العالم، لكن ستحطِّم (=) كلّ من تقترب منه وتدمِّرها وتسحقها. توعَّدت نساء الأرض، بهدوء وخبث لم تعرف يومًا أنَّها تملكهما.

أمَّا عنه هو بالذات، فكانت تردِّد دائمًا تلك الحكمة التي توصَّلت إليها بنفسها: أعامله كعدوٍّ، وأحبّه بكلِّ ما لديَّ.

العدوّ لا تثق به، تدرسه، تشرِّحه، تهادنه، تعقد معه الصفقات. باختصار، اكتشفت تلك المعادلة الخطيرة: إن كنتِ لا تتحمَّلين أن ينكح غيرك فعليك أن تقنعيه بأنَّه بين يديك أفحل ذَكَر عرفه التاريخ.

سيتمرَّد بالطبع، دعيه يغضب. والأهمّ إن كان متعدّدًا، وأغلب الظنّ أنَّه سيروي لك بعض التفاصيل عن مغامراته، فجاريه بأن تروي له من دون أيّ رتوش، لحظةً صحيحة عشتها أخبريه بأنَّك مثله، بل تفوقينه. لقِّميه الغيرة التي تشتعل بك بحكاية لطيفة بريئة، طعّميها بجملة واحدة مفادها أنَّ شريكك الماضي كان رائعًا بالتقبيل مثلًا، أو لمِّحي له بأنَّ شهوتك تفتَّحت بين يدَي عاشق عظيم. وهذا ما فعلتْ: حاربته بمخيِّلته.

أخبرته عن زوجها بأنَّه يملك بضاعة فاخرة، لكنَّه بائع سيِّئ لا يعرف قيمتها وكانت هذه الإشارة كفيلةً بفتح باب جحيم الاستنطاق. وكلَّما تورَّط أكثر في الغيرة، نسفت له بديهيَّة من بديهيَّاته.

كانت حياته الماضية تحتاج إلى ساعات من الإنصات. وضبط الانفعال كي لا تنفجر. كانت طوال الوقت تحاول تجنُّب عشيقاته

المسعورات الساعيات للانتقام. أن تحبّ المرأة رجلًا مثل فيديل، يعني أن تمشي زاحفة في طريق من الجمر، لا تعرف متى ينفجر بها اللغم. استنزافٌ تامّ. حياة خوف ورعب ورهبة ووحشيَّة مصحوبة بسلام ولذَّة، لا يمكن تصوُّرها.

كانت ترعاه. لديها مفاتيح بيته. اطَّلعت على أسراره، كتابته، إيميلاته. صنَّفت عشيقاته. رصدت مزاجه. عاينته ووضعته على مشرّح البحث، وعرفت أنَّها تتعامل مع كائن فائق الحساسيَّة، متطرِّف الحواسّ، يحمل نقيضين لا يجتمعان: فهو إباحيٌّ عَدَميٌّ مدمّرٌ بنزعة ساديَّة؛ ومؤمنٌ متديِّنٌ زاهدٌ بشغفٍ صوفيّ. مع الشخصيَّة الأولى كان عليها أن تُعِدَّ له بعضًا من معجَّنات الجسد التي لم يتذوَّقها من قبل، وفي الثانية كان عليها أن تتحصَّن بكلٍّ ما يلزم من يوغا وريكي وصيام وإيمان لتجاريه.

أمَّا حزرُ نيَّته متى يراها قدِّيسةً لتكونها، أو عاهرة للتظاهر بها، فكان رهنًا بقدرتها على الإمساك بإغواء خياله. المرأة الغبيَّة فقط هي التي تغوي جسد الرجل من دون خياله. أمَّا الرجل فهو دائم الغباء، لا دخل له في هذه المعادلة.

مع مرور هذه الأيَّام، وجدت أنَّها لا تعرف نفسها. دمّر بديهيَّاتها وجعلها تكتشف تلك الحقيقة المرعبة، ومفادها أنَّ الأخلاق تشكِّل ثلاثة أرباع سلوكنا في الحياة، والجنس يمثِّل ربعها.

فهذا الاندغام بالربع الملتبس من سلوكيَّاتنا هو سبب معظم أمراضنا. تعلَّمتْ أنَّ الكرامة الشخصيَّة لا تتَّسق مع تجربة الحبّ، وأنَّ الحبَّ العظيم لا يقبل بغير الكشف؛ كشف حقيقة الذات وجوهرها. كلّ ذلك لم يكن ليتحقَّق لولا ما يحدث في البلد، فهذا جعل الناس

يعفُّون عن مراقبة بعضهم البعض، ووضعهم على محكّات البقاء أو الفناء، فانفجرت الأمراض الشخصيَّة.

كانت تشعر أحيانًا بالخجل من عاطفتها أمام أَلَم بلدها وكلَّما زاد النزف هناك، احترقت أكثر بهذا الجنون الذي لا يشبهها. كم من امرأة ورجل لم يتقشَّرا بعد، أو يعرفا قوَّتَهما الحقيقيَّة وضعفَهما الأصيل، كي تروِّضنا الحياة وتحوِّلنا إلى كائنات غارقة في التفاهة والتشابه!

يجعل العنف الرهيب الغرائزَ متفجِّرة. الجنس هنا ليس سؤالًا، بل هو جزء من الإجابات العامَّة. أمَّا الجسد فيقول نفسَه بأقصى ما لديه من لغة للتعبير، ويخجل العقل والأخلاق من الاعتراف بهذه اللغة.

كان الطريق للخلاص من هذه المحنة العاطفيَّة وإنهاء علاقتهما، في الذهاب إلى الأقصى معه قبل قدوم عائلتها وبداية النهاية هي أن تسمعه يقولها: لقد انتهت النزوة، فلنعد إلى الحياة. كان كلّ واحد ينتظر سماعها من الآخر، ويتَّهم الآخر بأنَّه يسوِّق لها.

في نادي جبل علي، وعلى الشاطئ الرمليّ الفذّ، سبحا حتى عوَّامة خشبيَّة. مارسا الجنس تحت الماء. تتشبَّثت هي بسلّم معدني وهو يتشبَّث بها، ويشعران معًا بإيلاج مالح. يعاندان مقاومة الماء ليبقيا متداخلين، غير عابئين بصفَّارة المنقذ ولا بالشمس تسوطهما بوهجها الحارق. رجعا إلى الشاطئ. تمكَّن الكحول والشمس من جسدين ريَّانين بالشغف. يراقب الغروب الرهيب. والحبُّ الذي يفيض خارج حدود المعقول هو حبٌّ مذنب، والذنب يصنع الشغف العظيم.

بعد أن غابت الشمس وبدأت جموع المتشمّسين بالمغادرة، حمل المنشفة الكبيرة وشدّها من يديها، وفرشها بين كرسيين طويلين

مخصَّصين للتشمُّس وبطحها وناما معًا ببساطة وهدوء تحت سماء منجّمة مفتوحة وهمسات خافتة وخوف من مداهمة رجال أمن المنتجع. كانت تلك هي اللحظة التي همس لها فيها: «أحبّك».

وكانت تلك اللحظة بالذات هي التي بدأت تُعيدها إلى الواقع، بعد أن صارت متساوية معه وتستعدّ لاستلام المبادرة. أخذتهما الغفوة في ذلك الفضاء الليلي الذي تعزف فيه الأمواج لحن أبديَّتها وسألته حين استيقظا

ـ إيمتى بدَّك إبعث الڤيزا لعادل والأولاد؟

لم يُجب، فتابعت:

ـ إنت بتعرف إنِّي راح وقِّف شوفك لمَّا يجو!!

ليست متأكِّدة من أنَّها جاهزة لهذا القرار، لكنَّها تتوقَّع أن يساعدها ويقول: لا

كانت تخشى أن يتكلَّم، وتكره أن يبقى صامتًا، فباتت تنتظر، كأنَّ الليل احتشد بقطيع من الذئاب الشرهة التي تلتهم لحم الترقُّب.

خبط بقفا يده على وجهها. وقبل أن تفيق من المباغتة، كان قد قلبها على بطنها وامتطاها مباعدًا بين رجليها، مخترقًا مؤخِّرتها، لاهثًا بحقد فوقها، شاتمًا مخرمشًا، صفعًا ثاقبًا وثقيلًا، ليسكب ماءه، ثم يسحب عضوه، ويمضي إلى الموج. يتوارى في الظلام يصرخ ويشتم. ينغمس سابحًا في بحر دامس، تاركًا إيَّاها ملقوحة على بطنها، مصدومةً متفاجئة. تبكي غير مصدِّقة مع شعور باللذَّة لا تريد أن تعترف به. تنهمر دموعها مخفِّفة عنها ضغطَ اللحظة وألمَها الكبير المنبعث، لا ليس من القلب، بل من المؤخّرة.

* * *

وصل عادل وولداها، بعد ثلاثة أسابيع من واقعة الشاطئ. اتَّخذت القرار باستدعائهم. فالڤيزا كانت جاهزة، ولم يتبقَّ إلَّا حجز تذاكر الطيران.

اتَّصلت به تخبره، فقال ببرود:

ـ يوصلوا بالسلامة.

وأقفل الخطّ. كان عليها تجهيز نفسها لمرحلة ما بعد فيديل. نعم، المرأة أقوى ممَّا تتخيَّل، إنْ قرَّرَتْ، لكن من يجهلن قيمة القوَّة في دواخلهنَّ ينتهين مستسلمات. وهي لن تستلم أبدًا. هل هي خاضعة؟ هل تتعرَّض لابتزاز ذكوريٍّ؟ هل هذه العلاقة تشبهها حقًّا؟

بدأت تعي رويدًا أنَّه قويّ لأنَّها ضعيفة، وأنَّه مسيطر لأنَّها أعطته الفرصة للتلاعب فيها. أمَّا في داخلها فكانت تجد في علاقتها به ما يشفي غليلها من عادل. تتوالى الأسئلة، وتقابلها شلّالات الإجابات الغامضة. تكره نفسها. تتماسك وتُدرك أنَّها في منطقة رماديَّة عاجزة عن الانتقال.

ستبذل هذه المرَّةَ كلَّ ما في وسعها للتخلُّص منه، فتنشغل حتى الثمالة بأمر القادمين من دمشق. تابعت العلاج لعادل من دون أيِّ شعور بالذنب تجاهه. فحين تكتشف أسوأ امرأة في العالم أنَّ زوجها قد يبيعها في مقابل أنانيَّة السلطة أو المال، يمكن لها أن تصبح قحبةً لكلِّ رجال العالم، لكنَّها ستبقى تحتقره هو بالذات دونًا عن كلّ الناس، والعكس صحيح أيضًا

انخرطت بكلِّ طاقتها في الترفيه عن الولدين وتعويضهما فترةَ الغياب، وقبلتْ أن توجد في حياة اجتماعيَّة طبيعيَّة مستقرَّة مملّة كي تفرم الوقت وتمرِّر خيبة الزمن الخالي من عصف الحبّ.

كانت الأخبار التي حملوها من دمشق تدعو لا إلى القلق فقط، بل إلى الرعب أيضًا فبدأت تتعرَّف إلى النخبة الثريّة الهاربة من سورية، والتي أخذت تشتري المنازل وتنقل أموالها إلى دبي. فعجّت المناطق الراقية بأثرياء سورية. وهنا توصَّلت إلى نتيجة لم تقلها أو تفصح عنها إلَّا بعد سنوات: إنَّ الأثرياء الموالين لديكتاتور دمشق هم حقيقة أثرياء مزيَّفون وضعاء، يمتلكون أخسَّ صفات الانتهازيَّة. صحيح أنَّ المنحازين إلى الثورة فيهم الكثير من الانتهازيين والمنتقمين؛ لكنَّها لم تَلْتَقِ أبدًا شخصًا ذا أخلاق أو نبيلًا واحدًا من قائمة المدافعين عن نظام سورية. كانوا يمجِّدون القتل، وينوحون على هدأة البال. يتّهمون الفقراء وأهل الثورة بالرعاع ويصفونهم بالحيوانات. لكنَّها، في لحظة لم تعد تُحتمل، نطقت ببضع جملٍ خرَّبت مزاجهم:

ـ الشعب الذي لطالما احتقرتموه يثور عليكم.

في الحياة كما في الطبِّ، إن لم تستطيعوا التشخيص الصحيح فلن تعالجوا شيئًا، وإن لم تعرفوا أنَّها ثورة فستسحكقم أنتم ونظامكم.

انفتحت عليها بعد صمتٍ صادم جواميقُ التشبيح بالاتِّهام والإدانة. سمعتْ تهديدًا ووعيدًا صادمًا من تاجرٍ مخابراتيٍّ أهانها أمام عادل، الذي لم يكن سوى ظلٍّ لشبحٍ مسروق الروح. ردَّت الإهانة وخرجت. وبعدها، لم تعد تشاركهم في أيِّ شيء، لا فنجان قهوة لتذكُّر الوطن الجميل، ولا غداء على أطلال حنين النفاق.

كان أسوأ ما حدث في الشهر الثالث للغياب هو محاولة عادل أن يبدو زوجًا طبيعيًّا، وخصوصًا في السرير. لا شيء يدعو إلى الاحتقار أكثر من أن تشعر المرأة بالذنب تجاه عشيقها حين تنام مع زوجها. إنَّه احتقارٌ ثلاثيُّ الأبعاد، لنفسها ولزوجها ولعشيقها. لكنَّه غالبًا ينتهي

بتحميل الزوج كلَّ المسؤوليَّة، ولصقِ كلّ وضاعة الوضاعة به باعتباره السببَ المباشر لهذا. لكنَّ الحقيقة أنَّ أيّ خيانة للمؤسَّسة الزوجيَّة حدثت في العالم وستحدث لاحقًا، للزوج أو الزوجة نصيبُ الثلث فيها في أقصى الحالات، والباقي للخائن نفسه ولشريكه.

انتظمت الحياة الجديدة. كان الثمن كبيرًا، فالعلاقة الميِّتة مع عادل جعلت ولديها ينحازان إليه. عذّبها كثيرًا أنَّه أخبرهما بالحكاية من وجهة نظره فقط. أصبح بعد المرض بارعًا في الابتزاز العاطفيّ. وموقفها الحادّ من أهل أصدقاء ولديها جعلهما يتحمَّلان آراء ساخرةً وغمزات مبطّنة عنها حين يزوران أولادًا سوريين من أصدقائهما. فباتت تكره الخروج من البيت.

ساعدتها اليوغا ودروسها ثلاث مرَّاتٍ في الأسبوع. حاولت أن تجد صديقة من عالم آخر بعيدة عن هذا كلّه، فأنقذتها عيُّوش العراقيَّة، التي عاشت طوال حياتها في الإمارات، والتي تزوَّجت من ثريٍّ وتطلَّقت منه، وعملت بجدّ لتبني حياتها من جديد. حصلت على وظيفة مرموقة في أبو ظبي، وكانت تأتي إلى دبي في نهاية كلّ أسبوع لتمضيا وقتًا ممتعًا معًا. كانت محتاجة إلى هذه البساطة الآسرة في التعاطي مع الحياة؛ إلى أحداث أقلّ تعقيدًا؛ إلى الحديث عن فيديل قدر المستطاع؛ إلى المشاركة في العزاء العظيم للنساء الخائبات.

(٣٢)

الشيف

أصبح هناك عدّة غرف جديدة في الطابق مع دخول أطبّاء جدد، وأضحت لقاءاته مع المدير تقلّ. عرف أنَّ المكان بناء ضخم خارج دمشق وقريب من الجبال الشرقيَّة، من خلال نتف الكلام وبعض الجمل المبتورة هنا أو هناك، وما يتناهى إليه من أحاديث الحرَّاس.

دخل بكامل أناقته المتناقضة مع مكان كهذا، يضع في عروة بذلته وردةً حمراء، وبشرته تشعُّ بالصحَّة، وقد أغرق نفسه بالعطر. يحمل بيده أوراق شدّة يتلاعب فيها بخفَّة. استجمع كلّ قواه وقالها بشكل مباشر:

ـ أودّ أنَّ أعرض عليك صفقة.

ـ إنّي أستمع إليكِ.

ـ سمعتَ أنّي أملك بيت جُدُدْ، وهو منزل كبير لم أوافق على بيعه. الخروج من هنا في مقابل البيت.

ـ بيتك الآن لا يساوي شيئًا. وبعمل شهر هنا أحصل على أكثر من قيمته.

ـ أنت لست رجل أعمالٍ فقط، أنت مختلف لأنَّك تقدّر الفنّ ولك فيه رأي خاصّ. ستحصل على مُتحف صغير، مكان لا يُقَدَّر بثمن. وبعد أن تنتهي الحرب ستكون قيمة البيت مئة ضعف قيمته الآن.

ـ شخصيًا، خروجك من هنا إلى غير القبر أو فروع التعذيب التي تعرفها، يعني قتلي في اليوم التالي. أنت مُلاحَظٌ أمنيًا يا دكتور، وموصًى بك. لا توجد طريقةٌ لإخراجِك من هنا. إنَّهم يتفقَّدونك كلّ أسبوع وأحيانًا ثلاثَ مرَّات في الأسبوع. وجودك هنا على مسؤوليَّتي. هل تفهم ما أقول؟

ـ بعبقريَّتك ستعرف الطريق كي تحصل لي على عفو!

شيء ما عقصه وجعله ينفخ في وجه أنيس زفيرًا كالفحيح:

ـ ها أنت تسخر منّي الآن. تظنّ نفسك مختلفًا عنّي؟ إيَّاك أن تستخدم معي هذه اللغة التافهة من التملُّق.

ـ لا أتملَّقك ولا أنفشك، أنت طوق نجاتي، بالأحرى لم يعد لديَّ أحد سواك. نعم، في البداية كان صعبًا عليَّ هذا الأمر. اليوم أجد فيه نوعًا من الرضى. وأَصْدُقُك القول: اليوم الذي لا أعمل فيه يكون مزاجي فيها سيِّئًا.

حدَّق فيه بنظرة تخترق داخله، ليعرف إن كان يعني ما يقول. لا بدّ من أنَّه شعر بأنَّ ما يقوله قريب من الصدق، وأنَّه فعلًا كان يعني ما يقول، فهدأ وعادت عيناه الزرقاوان إلى صفائهما الخبيث:

ـ آه، سعيد في أنّك تتكلَّم أخيرًا بهذا العمق. أريد أن أسألك: هل قامرتَ في حياتك؟

ـ عفوًا.

ـ هل لعبت القمار في حياتك؟ هل تعرف أيّ لعبة من ألعاب القمار؟

ـ نعم، بضع مرّات للتسلية مع الأصدقاء.

ـ هل تَعِدّ نفسك شخصًا محظوظًا؟

ـ كيفما نظرتُ إلى نفسي، فمجرّد وجودي هنا له معنى واحد هو أنّني من أقلّ الناس حظًّا فوق سطح الأرض.

ضحك المدير، واكتسى وجهه الأبيض ببعض الحمرة، وسأل:

ـ سبعة ونصّ أم بلاك جاك أم بوكر؟

تجول أوراق اللعب في رأسه ليجد أنّه يعرف بعضًا من لمام هذه الألعاب، لكنّه لا يتذكّر تفاصيل أيٍّ منها. يقول له:

ـ أعتقد أنّي أعرف، لكنّي لا أتذكّر.

ـ سنلعب على الفكرة، إن فزت فسأحاول أن أفكّر في عرضك، وإن خسرتَ تنس هذا الأمر.

خلط الأوراق ووزّعها. كان لديه زوج من البنات، طلب ورقة أخرى فجاءت الثالثة. الحظّ يبتسم له. الورقة الرابعة كانت التسعة، أمّا الخامسة فهي بنت أيضًا.

وحين كشفا ما لديهما، نظر المدير إلى أوراق أنيس بإعجاب:

ـ أسوأ أنواع الحظّ هو الحظّ الجيّد الذي يأتي في الوقت السيّئ. في كلّ حال، سأحاول أن أجد شيئًا ما يساعدك يا دكتور.

غيّر المقامرةَ إلى الباصرة. ومع تغيير اللعبة تغيّر مزاج الحديث:

ـ نحن لدينا فرصة لا تتكرّر في التاريخ. ما يسمّونه شرًّا أسمّيه حقيقة. أنا وأنت يا دكتور وصلنا إلى مرحلة لا يبلغها الكثيرون. إنّنا في حالة تنوير عظيم. هو يخلق ونحن نحدّد النهايات ونمنح الحياة

لآخرين. ما يأنف رؤيتَه الضعفاء، نعايشه ونتنفّسه ونلمسه. نفتح الجسد البشري، ونتمعَّن في أعجوبة الخلق. حين تنهي أنت عمليَّتك تبدأ عمليَّتي، أتأمَّل كيف يغدو اللون مليئًا بالطاقة. وكيف تنسحب الحياة من الألوان.

تابعا اللعب. بدا سعيدًا في أنَّه يهذر وأنَّ أنيس يستمع إليه. كان هذا الكائن وحيدًا إلى درجة الوحشة. يودُّ المشاركة والحديث. فعزلتُه وصمته وعمله مع أسياده جعلت داخله يطفح ويريد التنفيس. وجد في الأسير المرآة ليسمع صوته يخرج منه من دون أن يكون خائفًا كان يتكلَّم الإنكليزيَّة بطلاقة وبلكنة بريطانيَّة، والشذرات التي أفلتت منه تقول إنَّه كان هناك يومًا ما درس الطبّ لبضع سنوات، أو أنَّه طبيبٌ فعلًا، على مشارف الخمسينيَّات من العمر، ومن العوائل الثريَّة والقريبة من النظام. تابع أنيس الإصغاء محاولًا أن يجد أيّ بصيص يعوّل عليه وسط تبادل الأوراق:

ـ لكن، هل تظنّ أنَّ أمثالنا يستطيعون أن يعيشوا مع تفاهة الحياة وجحيم الفراغ وما يسمُّونه البساطةَ والهدوء. هل تظنّ أنَّنا بعد أن اكتشفنا هذا كلَّه، سنقدر على أن نكون بين الآخرين، أو كالآخرين. نحن ننتمي إلى هنا، لا مكان آخر في هذا العالم يمكن أن يحتملنا أو نحتمله.

ابق هنا يا دكتور. الخارجُ مريضٌ وكاذبٌ ومزوّرٌ ومرعب. صراعات الناس ومشاعرهم، أنانيَّتهم وتفاهتهم، لا تعادل كلُّها لمس طحال واحد مشبع بالجمال والجلال والنبض، وبمذاق الحياة نفسها من لم يلتهم كبدًا بشريًّا لم يعرف معنى التذوّق.

استفاض مستذكرًا فيلم هنيبعل، معتبرًا ليكترا إحدى أعظم

الشخصيَّات التي مرَّت على الأرض. قاطعه بهدوء وهو يسحب ورقةً جديدةً ويرمي بأخرى:

ـ اسمع يا سيادة المدير، في الأيَّام الأولى، ربَّما كان إنصاتي إليك بدافع التملُّق والخوف، لكنَّني أُقِرُّ الآن بأنِّي بتُّ أفهمك. لا أقول إنِّي أوافقك أو أقبل بمنطقك، بل ثمَّة شيء أخطر من هذا. إنِّي لست ساخطًا عليك، ولا أدينك.

رفع كأسه:

ـ الآن، نستطيع أن نشرب نخب بداية صداقتنا يا دكتور. بصحَّتك، أنت تستحقّ أن أُصغي إليك لأنَّك بدأت تكون واقعيًّا، وكنت أعوّل على هذا!

حانت الفرصة. حاول ضبط جمله بأقلّ قدر من العاطفة التي تستثيره ولا يحبّ سماعها، فيُخرج الكلمات عاريةً أقرب إلى الجليد:

ـ أنت كنت تعي ما تريد، لذلك لم يُصبك ما أصابني. أحتاج إلى رؤية ابني لمرَّة واحدة على الأقلّ، وأحتاج إلى رؤية سامية مرَّة أخرى، فذكراها تُضعفني.

قاطعه بنزق:

ـ هذا ضعف. إذن لن تصل إلى الكمال يا دكتور أنيس.

ـ حتى صديقك هنيبعل ليكترا كان يحتاج إلى كلاريس.

ـ الفارق بيننا وبين أفراد هذه السلالة العظيمة من القدِّيسين: فريتس هيرمان، إيد جين، جوكيم كارول وألبرت فيش، أنَّهم اضطرُّوا إلى العيش في وقت السلم، فبدت معجزاتهم كأنَّها جرائم مروّعة. ما يفعله الأثرياء في الفقراء أشدّ وحشيَّة ألفَ مرَّة، لكنَّهم يتقنّعون. إنَّهم يُتْلِفون مئات القلوب كلَّ يوم، ويحرقون عشرات الأكباد، ويلتهمون

الطبيعة من أجل تكديس الدهون في أجسادهم. هذه كلّها ليست جرائم؟!!

يحاسبون الصادقين من أمثالنا ويتَّهمونهم بأشنع الصفات، ويُنزلون فيهم العقاب. ليس حفاظًا على المجتمع والأخلاق، بل لأنَّ هؤلاء فقط من السلسلة الحقيقيَّة العظيمة، يكشفون الكذب على هذه الأرض.

ـ أريد الخروج يا حضرة المدير. أحتاج إلى أن أمتحن ما حصلت عليه. أحتاج إلى اختبار الإيمان الجديد.

سأفكِّر في الأمر، لكن لن أعدك بشيء.

أنزل أوراقه دفعة واحدة، وعلامات الانتصار تعلو وجهه. وقف مستعدًا للمغادرة ورمقه بنظرةٍ موَّارة ملؤها الثقة بالنفس:

ـ بعد اليوم، لا تُسمِّني المدير. قل يا حضرة الشيف. ويومًا ما سنصل إلى تذوّق الخلود معًا.

خرج مودِّعًا إيَّاه وهو في حال من القهر العميم، فخرجت منه شتيمةٌ كظمها خوفًا من تلك العين التي تراقبه عبر الكاميرا في الزاوية. حاول الحفاظ على تعابير وجهه الباردة، المرسومة باللامبالاة، ممسكًا بورق الشدَّة الذي تركه يخلطه من جديد، وحيدًا يسلّي نفسه بالتبصير. وعلى العشاء، كانت الوجبة مرفقة برسالةٍ مع قنِّينة نبيذٍ فاخر

جرّب هذا الطبق الرباعي وأعطني رأيك. قطعتُ لك القطعةَ الأنفس، الغدَّة النخاميَّة مطهوَّةً بزيت الزيتون مع تتبيلة الحامض والكزبرة والثوم. أمَّا القلب فهو لعذراء بديعة، والكبد لملاكم، وأترك لك التكهُّن: ماذا في القسم الرابع؟ أحتاج إلى أن تشاركني في الوليمة. سنتكلَّم على استثناء خروجك لاحقًا. استمتع الآن.

بدا ما قرأه مثل مزحة سمجة، كأنَّه نوع من اللعب المتهتِّك

والذي بدأ هذا الأخرق يستلذّ به.

جلس بلا حراك، أمام الصحن فاره الرائحة. رفع رأسه إلى زاوية الغرفة. كانت الكاميرا مصوَّبة عليه. سكب كأس النبيذ، وأمسك بالسكِّين والشوكة. حزّ قطعة كبيرة من الدماغ المطهوّ بمهارة، وضعها في فمه ولاكها على مهلٍ مستلذًّا بالطعم المذهل، رافعًا كأس النبيذ في وجه الكاميرا، ومنكبًّا على إنهاء الوجبة بلذَّة تزداد مع كلّ لقمة جديدة.

كان غير عابئٍ فعلًا إن كان ما يتذوَّقه بشريًّا، أم أنَّ الأمر مجرَّد مزحةٍ من سفَّاحٍ بارد.

(٣٣)

طاهر

أصبحت ليل، بالنسبة إلى عادل، بمثابة بطاقة بنكيَّة. والقطيعة بينهما بدأت تأخذ شكل علاقة هادئة خالية من الانفعال، وصورة مهذَّبة للخارج.

لم تستسلم أمام عاطفة الولدين المنحازة إلى والدهما. تلقَّت نزقهما بابتسامة. حاصرتهما بالودِّ. قابلت إنكارهما بمزيد من العطاء، فنجحت بعد عدَّة أشهر في عقد توازن معهما. أمَّا شغلها الشاغل فكان التخلُّص من الآثار الجانبيَّة لتلك العاطفة المعقَّدة التي كادت تدمِّرها. كان الخلود إلى التأمُّل وطلب السلام الروحي بمثابة تخفيف المواجع وإعادة الانتباه. الغريب أنَّ هذه الأحاسيس الفيّاضة الغامرة لم تكن تخصّ سواه حين غاب.

عادت إلى ليل الهامسة، الطِّيْبةُ الخالية من الرغبات. من أين تأتي الرغبة؟ وأين تختفي؟ كان البحث عن قوَّة الحبِّ وفهمه يقود إلى المزيد من الغموض، لأنَّه ببساطة ليس شيئًا، لا غايةً ولا وسيلة. إنَّه كلّ شيء. في لذَّته قبسٌ من لذائذ الجنَّة، وجحيمُه استعارٌ بنار جهنَّم.

لم يكن شغفها يُشبه سوى مكابدات قوافل من المتصوِّفة، العشّاقِ العظام الذين طلبوا الفناء في المحبوب.

يستدعي العلاج الاعتراف بالمرض والرغبة في التعافي منه، لأنَّ من كوارث الغرام أن تتعايش مع السقم وتألفه وتصبح مستمتعًا به. فالرغبة في عذاب الحبِّ تكرَّست عبر تاريخ من تمجيد الفراق واللذَّة في الهجر والإمعان في الصدود، ويكفي الإنصات إلى الغناء العربيّ لنعرف تضاريس الألم العاطفيّ وتحوُّل الوجدنيَّات إلى التهابات مازوخيَّة مزمنة.

قادها منطق الدكتور طاهر إلى عيادته. وبعد عدَّة جلسات كانت تستعيد السيطرة للخروج من دوَّامة الهلاك.

العالمُ الروحيّ الجديد؛ التماسُ الطاقة الهائلة بالدين؛ صيامُ شهر رمضان كاملًا مع بعض طقوس الصلاة والعبادات لترويض النفس وشهواتها باتت أفضل كثيرًا، وصارت إطلالاته على عقلها ونفسها تتباعد.

ضاعفت أيَّام عملها من أربعة إلى خمسة، معتمدة المَثَلَ الألمانيَّ القائل بأنَّ الإغراق في العمل يحميك من الفقر والفراغ والرذيلة. وهذا الأمر زاد في مردودها المادِّيّ أيضًا، وجعلها تحسّن كثيرًا شروط حياة العائلة. تركت فيديل عابرًا سرِّيًا للحياة بلا مصير، مركونًا هناك في برزخ غامض بين الحقيقة والخيال، بين البقاء والفناء، بين الزواج والحبّ.

لم تعد تتعمَّد الذهاب إلى حيث يمكن أن تصادفه، أو المرورَ قرب بيته، أو الاحتراقَ بلامبالاته، أو الذوبانَ حين تتخيَّل أنَّه لن يحسّ أبدًا بفراغ بسبب عدم وجودها، وأنَّهنَّ يتابعن المرور على سريره

ليعمّدهنَّ بزيت الشقاء الأبديّ. قال الدكتور طاهر

ـ أريد أن أُصارحك في شيء: أخاف عليك من الانتكاسة أكثر من المرض نفسه. يريد عقلك أن يصنِّف شيئًا غير قابل للترتيب أو الفهم ولا يخضع لمعايير القياس. الآن أنت في هدنة مع هذه العاصفة، وكلّ ما تفعلينه هو الاحتيال عليها ومحاولة بناء سور قويّ في وجهها. لديَّ خوف كبير من أنَّ هذا البناء لن يصمد في الموجة الثانية من التسونامي. أنت من القليلات اللواتي يَعِيْنَ هذه التجربة، ويتصارعن معها. لكن سأقول لك إنَّ كلّ من يرفض حقيقة الحبّ ينتهي به المطاف رافضًا حبَّ الحقيقة.

ما تقومين به الآن هو إخفاء الحقيقة، لا علاجها لم تنجزي تحوُّلك لأنَّك تألَّمت، فكلّ برهان منطقي على الحبّ يحطّمه ويُبعدك عنه.

هذه الحالة العاطفيَّة العاصفة، سمِّها ما شئت، لم يتمّ التعاملُ معها بجدِّيَّة حتى اليوم. لذلك أرى تفريعاتها أديانًا، سحرًا، شعوذةً، هوسًا جماعيًّا في التنجيم والاستهلاك. تزدهر كلّ عوارضها الجانبيَّة بينما يغوص جوهرها أكثر في بحر الغموض.

لقد لَمستْ هذه الطاقة شيئًا من قاعك وغرفك المظلمة، وقادتك إلى سلوك لا يمكن قبوله وتفسيره. إشهار حقيقة ما عشته يعني اضطرابًا في محيطك العامّ. ولأنَّني أجزم بأنَّ ما عشته ما زال في البداية، فهو وُلِدَ فجأة فيك. لم يكن لديك أيّ خبرة بالتعامل مع هذا النوع من المشاعر القويَّة، وهذا يحتاج إلى وقت طويل للشفاء منه.

ـ تقصد يا دكتور أنَّه لا شفاء منه، وأنِّي معرَّضة للنكوص؟

ـ أقول إنَّك تبالغين في ردَّة فعلك للخلاص. الحبّ يجعل الوقت

يمضي، والوقت يجعل الحبّ يمضي. باختصار، لا تقسي على نفسك، إن حدث النكوص أو الانهيار. أريدك أن تعرفي أنَّك مرحَّب بك على هذه الأريكة، ولا محاكمة أخلاقيَّة لك هنا.

ـ معك حقّ يا دكتور. حين تعيش حبًّا محتضرًا يتحوَّل في داخلك إلى جثَّة ترفض الانصياع للدفن. لكن، هل تظنّ أنَّه أحبَّني أو يحبّني؟ بصراحة، يمزّقني الفضول لأعرف الإجابة عن هذا السؤال.

أطرق قليلًا، ثم قال بحزم:

ـ ليس مهمًّا يا دكتورة ليل، لكن منذ زمن بعيد جدًّا، ومن خلال تاريخ تأثّر الإنسان بعواطفه ومحاولته فهمها أو تعيينها، ربَّما هناك جملة قالها مسرحيّ أو شاعر تلخِّص رأي الذكور في المرأة عمومًا، وربَّما تساعدك على فهم الإجابة:

«ما يخلب لُبَّ الرجل ليس جمال المرأة ولا جاذبيَّتها ولا شقاوتها في الفراش، بل نبلُها». وما يؤلم المرأة أكثر من إنكارها، أنه لا يرى نبلها.

لم تقلق من كلام الدكتور طاهر. كانت تُدرك أنَّها كلّ يوم تبتعد أكثر فأكثر عن تلك الحالة القاهرة من الاستلاب.

تركت العيادة وذهبت للقاء عيُّوش. كلّ ما فيها ينضح بالغواية: عباءتُها المكسَّمة؛ غُرَّتُها المنسدلة على جبهتها السمراء؛ عيناها المكحولتان الواسعتان فاتكتا النظرات؛ فمُها المكتنز الموروث من نساء ظفار السمراوات؛ القامةُ الفارعة؛ طولُ الجسدِ الممتلئ والنهدان الثقيلان المتكوِّران.

درست عيُّوش في لندن إدارة أعمال. وهي من عائلة عراقيَّة عُمانيَّة، وتحمل الآن الجنسيَّة الإماراتيَّة، وتعمل في الحكومة براتب

كبير. ميزتها أنَّها تعطي ما لله وما لقيصر لقيصر. تعرف كيف تعيش واقعها وتحتال عليه.

هي إماراتيَّة وفق ما يريده المجتمع والسلطة منها، وبنتُ الحياة وفق ما تريد لنفسها. تزوَّجت مرَّتين وتطلَّقت ولديها ولد وبنت. تتصرَّف في أبو ظبي وفق المرسوم والمحدَّد لها، الشيلة والعباءة المحتشمة، وتضع في السوق الخمار على الوجه.

تغيِّر السيَّارة مرسيدس ٥٠٠ كلّ عام بالموديل نفسه مع سائق، وتستعمل في نهاية الأسبوع والعُطَل بي أم أكس ٦ أو اللكزس حين تذهب إلى دبي برفقة صديقاتها.

سهرة نهاية الأسبوع في أحد النوادي الفخمة للتانغو أو السالسا أو الرقص الحرّ. يخلعن العباءة والشيلة. ينزلن ليُثِرن عاصفة من الجموح. يَعُدْنَ نساء طبيعيَّات، لا لينتمين إلى أحد، سوى أنفسهنّ. مغامراتهنّ هذه خالية من الكحول الذي لا يتذوَّقنه، ليس لدواعٍ دينيَّة بل لعدم استساغته. وأيضًا لا يوجد علاقات عميقة أو مواعدات جسديَّة. في أكثر المرَّات قبولًا انتهت بجعل دزِّينة من الشباب يُصابون بمسٍّ من الجنون وهم يحاولون تصيُّد هذا الغنج المجهول الجنسيَّة والفائر والمثير. وكُنَّ يلعبن، يتسلَّين. لا يوجد رجل لا يستطعن جرَّه وراءهنَّ وتحويله إلى كَركوز يثير الضحك في جلساتهنَّ.

تعرَّفت في المستشفى إلى عيُّوش. كانت بصحبة صديقة لها. تشلع الهمّ من القلب. خَبِرَتْ برفقتها معنى الحماية النسائيَّة، والقوَّةَ والليونة. فهي مستقلَّة ومتفوِّقة في عملها، وفي الوقت نفسه في منتهى الأنوثة والبساطة. في أواسط الثلاثينيَّات، مسلَّحة بفهم راسخ لواقع حياتها.

ثم التقتها في نادي بازاراتي. كانت تمور بالطاقة والحياة.

ـ إش بيك حبيبتي ليل.

ـ بتعرفي، كثير بحبّ هاللهجة تبعك عيُّوش: العراقي على الخليجيّ.

ـ وإنت لهجتج غاوية يا الشاميَّة. شو شاغلك؟

ـ ما في شي، بسّ كنت عند دكتور نفسي وعمَّا فكِّر بكلامه.

ـ خليش من هذيلة الدكاترة وخرابيطهم.

ـ إيه، خرابيط فعلًا يعني التحليل النفسي بدُّو يانا نفكِّر إنُّو هذول الرجال حيوانات جنسيَّة.

ـ ضحكت عيُّوش. العمى لعاد أنا، ليش كلّ يلِّي بلتقيهم يطلعون حيوانات أليفة؟

وخلال ربع ساعة، كانت عينا ليل تشرّان دموعًا ضاحكة من أحاديث عيُّوش وخفّة ظلِّها وحضورها الآسر وقوّة الطبيعة التي تضجّ بها.

تسحرها سخريَّتُها من نفسها ومن الآخرين، وقدرتُها في الوقت نفسه على خلق توازنها وترسيم حدودها واستقلالها الماديّ، والنجاةِ من التصنيفات القاتلة في مجتمع شديد المحافظة والانفتاح في الوقت عينه.

أعلنت عيُّوش ببساطة أنَّها تستطيع أن تسافر إلى أيِّ بلد في العالم وقتما تشاء، وتفعل ما تريده أينما تشاء. لا تعتمد على أحد. ما دامت منتجة فهي القويَّة. لا تسمح لشيء بأن يحبسها أو يأسرها، لا عاطفة ولا زوج. في نظرها زمن النساء العبيدات قد وَلَّى.

سألتها:

ـ ألا تعتقدين أنَّ الثورات العربيَّة يمكن لها أن تصل إلى الخليج؟

ـ ما نَبيها. أنا سأكون ضدَّها. ستجلب لنا الثورات المتأسلمين. هنا لدينا عَقد اجتماعيّ معقول مع الحكّام. الوضع ليس مثاليًا، لكنَّه رائع للنساء تحديدًا انظري اليوم مؤسَّسات الدولة تعجُّ بالنساء. مشكلتنا هي مع القبيلة وليست مع الحكومة. على الأقلّ هنا في الإمارات.

أنهى وصول صديقتين لعيُّوش الحديث الجدِّيّ، وجعلها تجلس مع هؤلاء النسوة العربيّات بإحساس كبير بالقوَّة والرضى والانعتاق لرؤية الحياة، ليس من خرم باب زنزانة، بل من أعلى تلَّةٍ يمكن الوصول إليها والتمتُّع بجلاء البصر.

وعلى الرَّغم من هذه اللحظات من التجلِّي الجميل والانشراح العالي، فقد أحسَّت بدوار غريب كأنَّها تسقط من شاهق. لم تعد تستطيع التنفُّس، وكادت تفقد السيطرة على جسدها أمسكت بيد عيُّوش وقالت لها: خذيني من هون.

كان فيديل عبد الله في الطرف الآخر من المكان يمسك بقنِّينة بيرة ويجول بنظره في اتِّجاه البحر. بمجرَّد أن لمحته، قاربت على الانهيار.

* * *

ـ لا تهربي من الحقيقة، واجهيها.

فها هي تنهار بنظرة واحدة فقط، بعد كلّ هذا العذاب والوصول إلى الحدِّ الأدنى من الأمان العائليّ، وكسرِ الجليد مع ولديها، وتحسُّنِ صحَّة عادل وعودته إلى العمل من جديد، والشعورِ العام بالأمان والنجاح في العمل كلّه.

ـ دكتور طاهر، انصحني.

ـ مهنيًّا لا أستطيع، لا يمكن لي أن أقول لك: افعلي هذا أو لا

تفعلي هذا. ما أستطيع فعله، أن أصارحك: لا تهربي من المواجهة الحقيقيَّة. وأيضًا لا أريد أن أصف لك «بروزاك» أو أيِّ مهدِّئات. ليل، أنت طبيبة وتعرفين أنَّك لست في حاجة إلى دواء، بل إلى قوَّةٍ داخليَّة.

وبعد ألف تردُّد، أرسلت إليه كلمتين:

ـ بدِّي شوفك.

بقيت تحدِّق في الجوَّال. تطفو فوق غيم الانتظار بين الانهمار والانهيار.

ردَّ بعد دقائق:

ـ بتعرفي وين تلاقيني؟

بعثت بأخرى:

ـ بدِّي شوفك بمكان عامّ.

أرسل إليها:

ـ فندق بونينغتون بالبار. اليوم الساعة ستّة المسا.

كانت في أوَّل خمس دقائق تحدِّق في وجهه فقط، ولا تقوى على الكلام. كان هناك انكسار ما في داخله. طالت لحيته، كأنَّه يخفي وراءها ألمًا عظيمًا همس بهدوء:

ـ قولي لي ستّ ليل، كيف فيني إخدمك؟

قالت له: اسمع.

وأغرقته بكلِّ ما لديها، كأنَّها تزيح حملًا، وتشتكي إلى أب، وتعاتب حبيبًا.

كان يصغي وملامح وجهه ثابتة، ولم يأتِ بأيِّ حركة، حتى انتهت وتغيَّر إيقاع صوتها.

ـ أنا بحبّك يا بني آدم وبدّي تساعدني!

ـ ليل، من يوم دخلتي حياتي، وفي شي فيني بلّش ينقلب. ومن يوم جيتي على دبي تخربط وجودي. ليل، أنا ما بعرف إحكي عن الحبّ، وما بعرف كَنُّو فيني حِبّ، بس بعرف شي واحد بحِلّ كلّ هالقصَّة: تزوّجيني.

قالها بحزم وثقة؛ بيقين لا يقبل الشكّ. إن كان هناك رضى كامل في الحياة أو سعادة حقيقيَّة أو قيمة لأيِّ شيء في العالم، فقد عاشتها تلك اللحظة:

ـ إذا بتزوَّجك بتدمرني.

ـ يمكن. ما بعرف. الشي الوحيد يلّي متأكِّد منُّو هلَّق إنُّو عمَّا صحِّح أسوأ شيء عملتو بحياتي، يوم قبلت شارك وإشتغل مع هالمجرمين لشوِّش عالحقيقة بسورية.

لم تكن تريد أن تذهب في الحديث إلى السياسة. كانت تودّ أن تبقى تعيش اللحظة، تتمسَّك بها، تتشبَّث بها، بما حملته من إخلاص وأمان أكبر كثيرًا ممّا كانت تظنّ أو تتوقَّع.

تركها معلَّقة في أفكارها الرومنسيَّة، ليتابع الحديث عمَّا يحدث في أكثر كارثة تعقيدًا في التاريخ الحديث.

ـ لم أكن محايدًا أبدًا أو حتى مواليًا. كنت من صُنَّاع المجزرة. رَشَوْنا صحافيّين كبارًا، وعملنا بشكل منسَّق ومنظَّم على خلق رواية أخرى، وأبعدنا بقوَّةِ الإعلامِ والعلاقات كلَّ الحقائق الأساسيَّة، وألهينا العالم بالتفاصيل.

بدأ التغيير، ليس بسبب صحوة ضمير، لا أعتقد أنّي حتى أفكِّر في هذا، بل بدأ من لحظة إحساسي العميق بك في حياتي. لم أُدرك ذلك إلَّا في هذه الفترة من القطيعة والغياب.

ليل، يقولون: نحن لا نختار من نولد بينهم ولا نختار حتى من نعيش معهم. الخيار الوحيد هو اختيارنا أُناسًا نظنّ أنّنا لا نستطيع أن نعيش من دونهم.

أنا اليوم مُصاب بالضعف والوهن. لم يساعدني هذه المرَّةَ فضل، ولا الذهابُ إلى الله، وضيَّعت فيديل، ولا أعرف كيف أستردّه.

تزوَّجي بي لنتخلَّص أنا وأنت من الوهم. أنا ما بعرف إذا كنت بحبِّك أو لأ ما بعرف إذا كان هالشي الغامض يلِّي الناس بتحكي عنُّو موجود ولَّا مجرَّد شبح بيتخيَّل كثير من الناس إنَّهم شافوه، واسمو الحبّ.

ليل، إنت وجّعتيني على قد ما وجّعتك. حرَّرتيني على قد ما قيَّدتك. الخلاص هوِّي نشيل المانع والحاجز، أو يختفي واحد منَّا. وإذا كان ولا بدَّ، حتمًا لازم كون أنا.

ـ خذني لعندك.

كان منزله لا يبعد عن الفندق أكثر من خمس دقائق بالسيَّارة. قاد كلٌّ منهما سيَّارته، أحسَّت بأنَّ تلك الدقائق الخمس تعادل خمسة آلاف سنة ضوئيَّة.

لا شيء يعادل تلك اللحظة التي تغرق فيها بكلِّ تسليم المحبّ في لجَّة الجسد. نالت الإشارة. لم يعد في إمكان شيء أن يوقف النكوص. لم يكن نكوصًا. كان دمارًا، حربًا ضارية، قصفًا متواصلًا، نزفًا لا يلتئم إلَّا ليتفتَّق.

ـ واجهي حقيقة الأشياء. توقَّفي عن البناء على أسس مزعزعة. أينما تكن الحقيقة اذهبي إليها وحدِّقي فيها، حينها فقط تستطيعين أن تختاري ما تريدين، وتعالجي نفسك، أو ستكتشفين أنَّك أصلًا لا تُعانين شيئًا، بل هي ببساطة حقيقتك.

كانت كلمات الدكتور طاهر تشعل الحافز لديها على كسر هذا الالتصاق بين عالمين.

أوصلت ولديها إلى بيت أصدقائهما لم يكلِّماها طوال الطريق. جلسا في المقعد الخلفيّ ورفض أيّ منهما أن يجلس إلى جانبها.

قال ميَّار حين نزلا:

ـ لو سمحتِ، خلِّي بابا يجي ياخذنا. ما تجي إنت.

وصفق الباب بقوَّة قبل أن يسمع الجواب وغادر.

كادت تنفجر من الغيظ، لكنَّها آثرت الهدوء. أخذت نَفَسًا عميقًا وعادت. جهَّزت القهوة وفنجانين، وانضمّت إليه أمام التلفزيون الذي يتحدَّث عن أمواج النزوح، وقصف المدن، والدم اليوميّ الذي لم يتوقَّف منذ ما يُقارب أربع سنوات.

صبَّت القهوة. قدَّمت إليه فنجانه. أمسكت الريموت كونترول ووضعت التلفاز على الصامت:

ـ عادل، بدِّي إحكي معك؟

كان يحدِّق في فنجان القهوة بصمت. لم يغيِّر تحديقته. أعادت الجملة بوضوح أكثر:

ـ حابَّة حاكيك بموضوع.

نبتت على شفتيه بضع كلمات، فهمت منها:

ـ قهوة، عملتيلنا قهوة يا ليل؟!

ـ إي وبلا سكَّر كمان. بتعرف إنُّو أنا وإنت مالنا شربانين قهوة من زمان.

ـ أصلًا، إنت حتى ما منتبهة إنُّو أنا ممنوع إشرب قهوة!

انتبهت فعلًا حملت الفنجانين بسرعة وأخذتهما إلى المطبخ.

أفرغتهما ووضعتهما تحت صنبور الماء، ليطوف السواد ويملأ حوض المجلى. زادت في دفق الماء. رأت كيف يتلاشى الثفل بعد طوافه في دوَّامات صغيرة تبتلعها المصفاة إلى أن يسودّ الماء، ويختفي الثفل ولونُه. أغلقت الصنبور، حين صفا الماء تمامًا. وتوجَّهت إلى الصالون من جديد. كان عادل يجلس شابكًا أصابعه، منحنيًا قليلًا إلى الأمام، يحدِّق في المكان ذاته الذي وضعت فيه قبل قليل فنجان القهوة.

قالت له بكلٍّ هدوء وبشكل مباشر:

ـ أريد الطلاق يا عادل.

لم يُغيِّر جلسته، لكنَّه رفع نظره إليها وقال:

ـ أخيرًا قلتيها، شو رجعتي للعلاقة مع المخرج.

ـ الأمر ما بيخصّ حدا. الأمر بيخصّنا معًا.

ـ سأختصر عليكِ الأمر. ميَّار لا مشكلة لديه. صار في السادسة عشرة، نوَّار هو من يُعاني. عمَّا نعمل على تهوين الفكرة عليه.

ـ هيك، لكان هذا يفسِّر كلّ شيء. عم تحرِّض أولادي عليّ، وهذا سبب كراهيَّتهم.

ـ على العكس، ما بدِّي دافع عن نفسي، كلّ ما في الأمر عم حاول خلِّيهم يستعدُّوا

ـ عادل شو خبَّرت أولادي عنِّي؟

ـ لا يا ليل، سلوكك يلِّي خبَّرهم. كلّ الناس عمَّا تحكي عنك، وبيعرفوا بقصَّتك.

ـ مين كلّ الناس، هذول الشبِّيحة التافهين.

ـ كانوا أصدقاءك بالبلد، هذول الناس كمان إلهم رأي، مالهم أغبياء ولا شبِّيحة. على كلٍّ، الأولاد عرفوا من أصدقائهم. أنا طول

الفترة الماضية عم حاول عالج الموضوع.

طفا الثقل في قلبها، حتى لم تعد تستطيع التحمُّل:

ـ وحضرتك يعني ضحيَّة العاهرة يلِّي متحمّلها بنزاهة وبطولة كرمال الأولاد. الأبواب مفتوحة لشهامتك ونبلك. وما حدا بيعرف إنَّك كنت. قوًّا.

ـ خلاص. اخرسي.

جعر مثل ثور جريح، وهبَّ واقفًا.

ـ ليل، لا تغلطي لإنُّو مالي ناوي إغلط معك. اعملي يلِّي بدِّك ياه، وبعد خمس شهور بتاخذي ورقة طلاقك منِّي.

ـ ليش خمس شهور.

ـ هاد يلِّي عندي.

استدار وتركها تتفتَّت بالقهر، وتفكِّر في أيّ نوع من الألعاب يمارسها. بعد خمسة أشهر يكون عمر نوَّار أصبح ١٤ سنة، ويتجاوز تمامًا عمر الحضانة.

دخلت غرفة الولدين. فتحت خزانة ملابسهما. تشمّمت روائحهما، كأنَّها لم ترهما منذ سنين. على الحائط، كانت الصور تجمعهما بأبيهما. لم تجد نفسها. لم تجد أثرًا لها. كانت منفيَّة من حياتهما ولا وجود لها.

ركبت سيَّارتها، وخرجت تقود بغير هدًى. وجدت نفسها بعد ساعتين في مرأب بيته، تحملها قدماها إلى شقَّته، إلى حيث المكان الوحيد الذي تنتمي إليه، وتحترق فيه.

على باب الأسانسير، كان كلّ شيء يهبط وحده. قَدَرُها كان يصعد.

(٣٤)

أنيس

أعجب ما في الإنسان أنَّه يعتاد ويتكيّف. ما يؤذيه أنَّ رغبته في البقاء حيًّا تزداد شراسة، وما يزعجه أنَّه لم تمرّ في رأسه، مرَّةً واحدة، أيُّ رغبة في الانتحار! كيف نتشبَّث بالبقاء ونحن بهذا القرب من الموت؟ ثمَّة فجوة سوداء في داخله بدأت تكبر، مثلَ ثقب أسود يشفط كلّ المشاعر والأحاسيس والأحلام، ويجعل وجهه صفحةً باردة. المشاعر هي التي تسبّب الانتحار، وحين تتبلّد تصبح غريزةُ البقاء أقوى من كلّ شيء.

اليوم كان لديه ثلاث عمليَّات نفَّذها بهدوء، والأنكى أنَّه بات يختار موسيقى منير بشير في أثناء العمل. ويستمتع بعدها بأكل قرنين من البوظة.

عاد إلى غرفته التي وجد فيها تلفونًا داخليًّا، مصمّمًا لاستقبال المكالمات لا غير. لم تمض بضع دقائق إلَّا وسمع رنينه. سحب السمَّاعة بهدوء، لينصت إلى صوت المدير ـ الشيف:

ـ جهِّز نفسك للعشاء الليلة. في عندي أخبار حلوة.

ـ في أمل بالإفراج؟

ـ ما بدّي إلعب بأعصابك دكتور. إي في أمل كبير بالإفراج. منحكي عالعشاء.

فلفلُ الخوف الحارّ يشتعل في داخله. ما إن بدأت أفكار الخروج ترعى في الخارج حتى رافقها سيلٌ كاملٌ من مشاعر الذنب والرعب. كيف له أن يتصالح مع هذا الذي فعله هنا، ويعاود البدء من جديد؟

كان وجه سامية قد غدا مشوّشًا، بينما ظلَّ وجه سامي نضرًا ويكاد يعرف كلّ تفصيل فيه، وبقي وجه حنّة جامدًا. اكتشف هنا أنَّها منذ خانته قبل سنوات عديدة، ذَوَتْ في داخله حتى تلاشت. ومن كوارث الاعتقال أنَّه يُخرج إلى السطح أقلَّ تفصيل متروكٍ هناك في القاع، يدغم الألم بالأمل، ويُظهره عاريًا من التبرير أو النكران.

وبينما يُسلَق على نار الانتظار الهادئة، تخرج منه فقّاعة الذكريات السامَّة. رنّ الهاتف من جديد. رفع السمّاعة وعاجله من دون إنذار آمرًا بصوته العميق:

ـ في الخزانة بذلتان اخترتهما لك بنفسي. حضِّر نفسك جيّدا لأنَّنا سنقابل بعض الضيوف.

أريدك أنَّ تكون في كامل أناقتك ومستعدًّا بعد ساعتين.

كانت بدلة أرماني كحليَّة فاخرة مع قميص أزرق فاتح وربطة عنق من نوع فرانسيسكو سمالتو مقلَّمة بالأحمر ومنديلٍ حريريٍّ باللون نفسه، يشبه ذلك الذي يضعه الشيف في جيب سترته.

رافقه الحارس عبر السرداب إلى مطلع الدرج، وصعد من هناك إلى الطابق الأعلى، علمًا بأنَّه حتى وهو فوق لا يزال موجودًا تحت الأرض. وصل إلى صالة كبيرة فاخرة، فيها طاولة مزدانة بالشموع ومنسَّقة بذوق فنِّي خالص يعادل المطاعم الكبرى.

كان المدير ـ الشيف متألِّقًا بقامته الطويلة، وعيناه الملوَّنتان تبرقان، وابتسامة ترتسم على فمه الدقيق:

عاجله بسؤال بين الجدِّ والمزاح:

ـ يبدو أنَّنا سنحتفل. بشِّرني بالأخبار السعيدة!

حدَّق في وجهه، فمه يقول نعم، ونظرته تقول: لعلّه كذلك!

ـ دعنا نأخذ كأسًا.

صبَّ كأسين من النبيذ الأبيض، ارتشف أنيس جرعة كبيرة من دون حتى الانتظار ليقرع كأسه، وقال:

ـ أنا اليوم نباتي. أرجوك لا أريد المزيد من اللحوم.

ـ تذكَّر يا دكتور أنَّني لم أُجبرك على شيء. إن كنت خائفًا من مضاعفات اللحوم البشريَّة فهي أُكلت عبر التاريخ ولم تنقطع يومًا، وستستمرّ حتى آخر الأيَّام.

ـ هل تقصد حقًّا أنَّ ما بعثته لي كان فعلًا ؟

لم يستطع لفظها ارتسمت ابتسامةٌ مقزّزة غامضة على وجهه، وتابع استعراضه المثير للغثيان:

ـ الكاريبي مشتقٌّ من الكاريب، أي الوحشيَّة، أو أَكَلة لحوم البشر، وهي منطقة كاملة كانت تعتاش على ذلك. القبائل البدائيَّة المعروفة بأكل اللحم البشري تحدَّث عنها علماء الأنثربولوجيا، وهذه الممارسة لم تؤثِّر في السلوك البشريّ الطبيعيّ.

إنّ كلّ التحذيرات بشأن أكل اللحم البشريّ لا تعدو كونها تحذيرات خرافيَّة أو أخلاقيَّة. والذي يصيب من يتناول وجبةً مطبوخة من اللحم البشري لا يتعدَّى ما يمكن أن يتعرّض له من أكل أيّ لحم حيوانيٍّ آخر.

فأكل اللحم البشري حزنًا على الميِّت ولأخذ بعض صفاته، كان تقليدًا. تمنحك نوعيَّة الحيوان المأكول بعضًا ممَّا كان يتحلًّى به. اليوم، يلتهم العالم الدجاج المسمّن، والحيواناتِ المدجَّنةَ والمحقونةَ بالهورمونات، لذلك ترى هذه البلادة المخيفة. لم يعرف كوكب الأرض تكدّس أرطالٍ من الدهون السامّة على أجساد البشر مثل هذه المرحلة المقزّزة من التعليف المنهجيّ للجسد بكلِّ أنواع الكائنات الداجنة المخدّرة، فأصبح العالم أنانيًّا دجاجيًّا، همّه أن يكدِّس طعامه ويرفِّهَ عن نفسه ريثما يتمّ ذبحه.

أرى العالم المتحضِّر اليوم مدجنةً عظيمة، فيها كلُّ أنواع الترفيه والاستهلاك، كي لا ينتبه الإنسان لذبحه في آخر المطاف. أمَّا الشرق الأوسط فهو مَزارع السادة، والسادةُ يقتلون بطريقة وحشيَّة تُثير سخط المداجن الأخرى، فهم لا يعترضون على القتل بل على طريقته.

كان عليه مقاطعته بحكم الخبرة، وإلَّا فسيضطرّ إلى الاستماع لساعات إلى هذا السرد التاريخيّ لأكلة لحوم البشر وأنواعهم:

ـ أنت تُثير فضولي حقًّا. ماذا تفعلون غير نقل الأعضاء في هذا المركز؟

ـ يا عزيزي أنيس، نحن خارج هذا وذاك صنّاع الذوق. عملنا العقولُ الحرَّة. نمنح الأذكياء فرصة اختبار ما لا يمكن أن يُتاح لهم بعد هيمنة الرعاع على المشهد. الكلّ يأكل، لكن قلَّةً تتذوَّق. توثيق السلوك الإنسانيّ الحقيقيّ نادر. العلماء يعانون ويهدرون الوقت بسبب المنظَّمات التافهة. ويحتاج الفنَّانون العظماء إلى موارد أخرى لإنتاج موسيقى عظيمة ولون حارٍّ حُرّ. العقولُ الرهيبة المجنونة التي تدفع العالم إلى الأمام وتحاصرها التفاهة والقوانين، تريد أنواعًا من

التجارب لا يمكن أن تحظى بها إلّا في مثل هذه المراكز الثقافيَّة الحُرّة تمامًا.

وأخرج عبوة صغيرة على شكل قطّارة العين من جيبه، في داخلها بودرة بيضاء ناصعة:

ـ أنصحك أوّلًا بأن تنتشي قليلًا.

رسم خيطًا من الكوكايين على زجاج الطاولة ليتنشَّقه دفعة واحدة:

ـ إن لم تجرّبه من قبل فبلِّل سبَّابتك، وضَعْ بعضًا منه على نيرتك العليا، فهذا أفضل.

تردّد قليلًا، ثم أخذ مكبس سبّابة من المسحوق وفرك به نيرته، فما يعرفه أنَّ الكوكايين يحتاج إلى ثلاث دقائق للوصول إلى الدماغ عن طريق الشمِّ، وثلاثين ثانية عن طريق الدم، وسبعِ دقائق عبر امتصاصه من اللثّة.

مع نهاية الكأس الثانية كان تدفُّقُ الدم وارتفاعُ ضغطه يسرّعان ضربات قلبه المصحوبةَ بتموُّجات متواصلة من الصفاء العقلي والحبور الغرائبي.

إن كانت الأنا العليا للإنسان تُبنى خلال ثمانية عشر عامًا، قطعةً قطعةً، ونصيحةً في إثر أخرى، وقيمًا تُكتسب بالتعلُّم والتجربة لتشكُّل هذه الأنا الاجتماعيَّة المتورِّمة الحامية، فتكفي شمَّة كوكايين واحدة وكأس من النبيذ لتذويبها في بضع دقائق، ليواجه الإنسانُ العالمَ خاليًا من القِيَم والمُثل، عاريًا من الداخل، مباشرًا في وعيه. يتفتَّح عقله، الذي تُضَخُّ به كميّاتٌ كبيرة من الهورمونات المنشّطة والمركّزة، على عوالم أخرى، مصحوبًا بنشاط جسديٍّ غير مسبوق، وخاليًا من الوهن والتعب طوال فترة الانتشاء.

مضى بصحبة الشيف في جولة في ملكوت مركزه. تختلط الوقائع بالهذيانات القادمة من حجرات السراديب الرهيبة.

ـ هنا نؤدِّي أعمالًا عظيمةً للبشريَّة في جناح المختبرات. نستقبل الطلبيَّات من الأكاديميَّات العريقة، ومن علماء محتشدين بالغيرة ومسكونين بالتنافس النذل لنيل نوبل وملحقاتها.

يتمّ في غرفة الانتحاريين تحليلُ عقول رجالٍ قُبِضَ عليهم قبل أن يُفَجِّروا أنفسهم. هؤلاء يكلِّفوننا أقلّ القليل. فهم محكومون بالإعدام ممَّن أرسلهم، ومن المرسَلين إليهم.

ستعرف في مهجع المقامرة معنى السلوك البشريّ في أبهى حالاته، حين يتعرَّض الإنسان للحقائق المطلقة.

هنا يلعبون الروليت الروسي كلَّ يوم. يتعلَّم هؤلاء قيمة الزمن والحظّ، عددهم ثلاثة عشر. في كلّ حفلة تجري القرعة لينجو ستَّة ويغادرنا ستَّة، ويبقى الثالث عشر معفيًّا لمدَّة ثلاث حفلاتٍ من اللعب. طلب منَّا البروفسورُ المشرف على الاختبار أن نضع رصاصةً واحدةً في كلّ حفلة لستَّة مسدَّسات. أحيانًا لا نضع أيّ رصاصة، وأحيانًا نحشو كلّ المسدَّسات. تُصوِّر الكاميرات وينضمّ المقامرون من كلّ العالم إلينا عبر السكايب. إنَّنا نقدِّم أفضل ما يمكن لإرضاء زبائننا ما دامنا نملك ما لا يملكه أحد: القوّة والمعرفة والرغبة في خدمة الحقيقة.

كان فاغر الفمّ يراقب المهجع الهادئ وقاطنيه المسترخين في أسرَّتهم. كلّ منهم يحمل أوراق اللعب بين يديه ويحدِّق فيها، يلعب مع نفسه، يتدرَّب على أسرار الحظّ، أو يتسلَّى كي يمرِّر الزمن الذي لا يتحرَّك إلَّا من فوهة مسدَّس. يزداد التشويش في رأسه، وتخرج كلمات الشيف ممطوطة متقطِّعة متهدِّجة:

ـ جميعهم كانوا مصابين بأمراض مختلفة. أتدري أنَّ الأدرينالين الذي تضخّه أجسادهم ساعد بعضهم على الشفاء.

قبل أن نرسلهم إلى منضدتك يا دكتور، هناك مَن هو مهتمّ بهم: علماءُ نفس، خبراءُ إرهاب، علماءُ اجتماع، علماءُ بيولوجيا وأعصاب. كلّ منهم يطلب اختباراته وطلبات عيّناته، ونحن نتولّى مدّهم بالنتائج المطلوبة. كما ترى، خدماتنا لا تُضاهى ولا تُقدَّر بثمن، ولا يمكن أن يجد زبائننا مثل هذه البضاعة وجودَتها في أيِّ مكان في العالم.

منذ عدَّة أعوام فقط اعتذرت حكومة الولايات المتَّحدة إلى مواطني غواتيمالا عن التجارب التي أجراها علماء أميركيُّون على مرض السفلس هناك، بالتعاون مع نظامهم وسجونه. ولولا تلك البحوث لكان السفلس اليوم مثل الإنفولونزا يا حكيم.

التجارب الجراحيَّة التي أُجريت على العبيد هي التي أوصلتك إلى أن تكون جرَّاحًا بارعًا. ولولا ما تسمّيه شرًّا لكان البشر اليوم يموتون بانفجار الزائدة الدوديَّة.

أَجْرَت الوحدة ٧٣١ في الجيش الإمبراطوريّ اليابانيّ تجارب على أكثر من مئتي ألف صينيّ، ولولا هذه التجاربُ لكنَّا لا نزال نموت من بكتيريا سخيفة. أتظنُّ أنَّ البشريَّة تخلَّصت من التيفوئيد والحصبة والسلّ بلا ثمن؟

الثمن كان التجاربَ التي أُجْرِيت على الإنسان، لا على الجرذان والفئران التي أصبح لها في الغرب السخيف مَن يدافع عن حقوقها أيضًا. تجارب على بشر أصحَّاء في معتقلات ألمانيا واليابان، التي باعت المنتصرين في الحرب خلاصات بحوثها العظيمة، وخرّست الحكومات المتشدِّقة بحقوق الإنسان لأنَّها تدرك عظمة هذه الأعمال.

الحرب ضرورة، ولولاها لأفنت البشريَّةَ تفاهاتُ السلام. فالمراكز الثقافيَّة الغبيَّة لا تُنتج إلَّا البلادةَ وقتلَ المخيِّلة والسأمَ. هنا الصورة الحقّة عن الثقافة يا حكيم.

هذه أقسام الفنون البصريّة والمسرح. نُحْضِر بعض زبائننا بطائرات خاصَّة إلى هنا. يحتاج تحضير العرض إلى وقته ونحن نجهّز حاليًّا العرض الرابع، يصل ثمن التذكرة إلى ربع مليون دولار للمتفرّج ونصف مليون للمشارك.

ـ مسرح وزبائن؟ عن جدّ عم تحكي؟! كيف تستطيعون أن تحصلوا دومًا على موادّ أوَّليَّة لهذا كلّه. أليس لدى هؤلاء البشر أهل وأقرباء وأصدقاء، ومنظَّمات تتابع سبب اختفائهم، ومحامون على الأقلّ! كيف تحافظون على سرّيّة هذا المكان؟

ـ ما يمدّنا به الأعداء أحيانًا أكثرُ ممًّا نحصل عليه من فروعنا الأمنيَّة.

أنا شخصيًّا لا أحبّذ التعامل مع فروع الموت والمخابرات السوريَّة، فهي كلاسيكيَّة وغبيَّة وفاسدة بالمطلق، وليس لدى قادتها الخيالُ والذكاء. يسبّبون لنا وجع الرأس فنتعامل معهم بحذر شديد. كلُّهم أغبياء، هواةُ سلطة لا صنّاعُ سلطة. لذا لدينا من يدرس الملفَّات جيِّدًا كما فعلنا مع حضرتك، لكن البضاعة القادمة من عندهم غالبًا ما تكون معطوبة وليست نخبًا أوَّل. في المقابل، لدينا تنظيمات هي في الأساس من صناعة التحديث والتطوير، يمدّنا القيِّمون عليها بخبراتٍ وافرة وجيناتٍ مختلفة. أنت تعرف أنَّ متطلّبات الزبائن من العلماء تكون دقيقة. كلّ من لدينا هنا هو في حكم المتوفَّى، لكن بدلًا من أن يتحوَّل إلى جثَّة مرقّمة يتمّ تسريبها من فروع المخابرات للضغط علينا،

نوفِّر له شرف المساهمة في التقدُّم والحضارة بتحويله إلى شيء مهمّ ومفيد. وحتى لا تقول إنَّني بلا رحمة، فأصحاب البعض من بضاعتنا نحقِّق لهم حياةً وأمنيات في أيَّامهم الأخيرة، لو عاشوا ألف عام لما حلموا بها.

أدخله غرفة الميديا المحصّنةَ ببصمته الشخصيّة وبأرقام سرّيّة. جلسا في غرفة المونتاج، ففتح خزانة أرشيف للمئات من الأقراص المدمجة وأشرطة الفيديو. وبقيَّةُ المساحة منطقةٌ فسيحة مفروشة بالسجّاد ومؤطَّرة بالشموع والورود يتوسَّطها تمثال بوذا. بدا وجود بوذا في هذا المسلخ الحيّ نوعًا من السورياليّة والعبثيّة معًا.

ـ هذه غرفتي الخاصّة كما ترى. هنا أُعِدّ السيناريوهات. يمدّهم الله بالحياة، وأنا أرسم لهم النهايات المجيدة.

لا بدَّ من أنَّك تتساءل عن سبب وجود بوذا هنا. إنَّه من أرشدني إلى هنا وجعلني في مقام الصفاء، في أعلى درجات الآتما، متّحدًا معها، مكتشفًا المعنى الجوهريّ للخلق.

وضع شريط فيديو للمسرح الذي رآه قبل قليل، لتظهر لقطات طيّرت نشوةَ لحسةِ البودرة البيضاء ليحلّ محلَّها نشفانٌ رهيب في الريق. يعجّ فضاء المسرح بأجساد عارية مشبوحة متدلِّية مكمّمة، تتلوّى تحت أنظار زبائن من كلّ أنحاء العالم، جمعتهم شهوتهم لإرواء البقع السوداء الغامضة في دواخلهم.

كانت مشاهد حيّة من فيلم الهاوية التي وقع فيها. انتهاء جرعة المخدِّر رافقه غثيانُ المشاهد، فوقف مشيرًا إلى الشيف بأنَّه اكتفى، منكِّدًا عليه لذّتَه في الاستعراض.

وجد في أثناء العودة إلى المائدة، مدعوِّين جُدُدًا جالسين إليها.

رحَّب بهم الشيف وعرَّفه إلى أحدهم:

ـ الدكتور مالك المنزل، السيِّد كراماني، المهتمّ بشراء منزلك.

تكلَّم كراماني بعربيَّة مكسَّرة، بلهجة أقرب إلى الفارسيَّة، بعد أن أثنى على المنزل الذي كان يعرفه حقَّ المعرفة، ثم سأله مباشرة كم شخصًا يعرف بوجود السرداب الداخلي في البيت؟ نظر إلى الشيف مستفسرًا؟

ـ هل قام السيِّد بزيارة المنزل؟

ـ بالطبع يا عزيزي، الحاجّ كراماني أحد أكبر المستثمرين الحاليِّين في البلد، وسيكون له ولشركته الدور الأكبر في إعادة الإعمار بعد أن تنتهي الأزمة.

ـ الأزمة! يا لها من كلمة لطيفة لواقع حال البلد!

جعلت سخريَّته التي أفلتت منه الرجالَ المتحلِّقين حول الطاولة الفخمة في حال غضب متأهِّب. كان عليه التصرُّف بسرعة قبل أن يخرِّب فرصته اليتيمة لاحتمال النجاة.

ـ يا أستاذ، أقصد يا حاجّ، نعم بضعة أشخاص يعرفون السرداب وما فيه.

ـ نريد تفاصيل أسمائهم، وكلَّ ما يعرفونه، وأسماءَ من راسلتموهم أو استشرتموهم بشأن السرداب في البيت.

نظر في وجه مرافق كراماني. كان صخريًّا، مكسوًّا بقشرةٍ من الكراهية والاحتقار، وعيناه تخترقانه بعنف كأنَّه سيهبُّ في اللحظة التالية لتمزيقه بأسنانه.

كان عليه أن يحاول تذكُّر أسماء من جلبتهم سامية إلى المنزل، فأنقذه الشيف بأن ناوله دفترًا كبيرًا وقلمًا:

ـ اكتب كلّ ما تعرفه. لا تُنقص أيّ شيء مهما بدا لك تافهًا، وأنا سآخذ ضيوفنا في جولة في المركز.

ثم أخرج من جيبه الداخليّ قطّارة العيون ووضعها إلى جوار الدفتر، ناظرًا إليّه بشفقة وتعاطف، غامزًا وهو يغادر مع المجموعة:

ـ قد تحتاج إلى أن تقطر في عينيك. لا تهمل أيّ تفصيل. ليس من السهل أن تحظى باهتمام الحاجّ كراماني.

رسم خطًّا خفيفًا على السكّين، وقرّبه من أنفه. أخذ ذلك النشوق الفتّاك الذي جعله يكتب أكثر من عشر صفحات كاملة: عن كلّ من دخل بيت حُدُدْ وما يحويه من إرث عظيم وسراديب سرّيّة، متجاهلًا شيئًا واحدًا عن سابق عمد وتصميم، هو مخطّط البناء ومذكّرات الخال، غير عابئ بشيء سوى بأوهام الخلاص من هذا الجحيم الرهيب الذي بدا كأنّه بلا نهاية.

(٣٥)

الحلّاج

كان قد رتّب صورَهما معًا. وضع موسيقى «هزّة الشيطان» لجوزيبي تارتيني على الخلفيَّة المنبعثة بخفوت يخرمش القلب. صنع فيلمًا من وحي عالمهما بمزاجه الفيّاضِ بالغرائب.

كانت صورهما سلسلة متَّصلة من الانهمار المتتابع المتدفّق الفائق الحضور، وعلى الشاشة صارت تظهر تلك الكلمات التي كتبها.

أجلسها كملكة بعد أن فلش شعرها على كتفيها وغطّى جسدها العاري بشرشف من حرير أبيض شفّاف. أطفأ الإنارة، وشغّل آلة العرض. باتت الكلمات تخرج من صوته المسجَّل، وترتسم بهدوء أمامها على الشاشة.

ليل.. مغريةٌ أنتِ، كرفعٍ متعمّدٍ لمقام الحضرة، واندلاق الماء من كثيب العطش.

ليل. مغريةٌ بروائح الملح الفائحةِ من قديد ذكرياتك؛ من الذاكرة المخزَّنة في حواسّك عن الطعوم والروائح والفوائح، ومدهشةٌ بإصرارك على خلق الحياة من فسيح الموت، والنهوضِ من قاع الكبوات.

ليل. سيبدو أيُّ توصيفٍ عاجزًا عن الإحاطة بك. فلو تعرفين كيف أراك، وبأيِّ عين أُبصرك، وبأيِّ بصيرة أنبض بك. يكفي حرفٌ منك ليتَّسع قلبي ويصبح العالمُ منفضةَ سجائر لبقايا رماد تبغك. أكاد أُنصت في هذا الصباح الفوّاح بك، إلى تقلُّبِ مزاجِكِ على إيقاعِ مشيئة الريح التي تهبُّ من أعماقك. أتذوَّق زيتون وداعتك وتينَ نهديك، وحين أهمّ باستذكار نهدكِ البارق في العتمة كخوذة بِيضاء، يفيض لساني بقطر الحياة.

كيف أشرح حضورَكِ في مهبّ حياتي، عصفًا أم أكثر، قصفًا أم هذيانًا.

كانت أصابعه تمسِّد شعرها، تجوس في هفافة ملمس كتفيها، وشساعة ظهرها.

وكانت تتفتَّت إلى أقسام متشظِّية في فضاء معتم يُضيء وينطفئ بموسيقى «هزَّة الشيطان»، تضيء وتعتم مع كلّ لمسة، وتتحرَّر وتندحر مع كلّ نَفَسٍ.

أسلمته مقود لحظتها يسيِّرها على إيقاع خبطات قوس الكمان. لم تجد مفرًّا سوى الإصغار لهذه النار، لعلَّ الحريق يأتي عليها. ارتضت أن تكون محكومةً له، لمزاجه، لحضوره، لغيابه، لجنونه، لحزنه، لشكوكه، لألقه، لفرحه، لقدرته المذهلة على خلق الحياة من أيِّ شيء. كان رجلًا لا يعيش، بل يمزِّق الزمن، ويُخرج من أحشائه الجمالَ والجلال والموسيقى وعصف الرغبة الخام.

روحها مخضوضة من الترقُّب، وجسدها مرضوضٌ من أفعال المَرَّة الماضية.

يغمرها بفتاتٍ من العاطفة الطيِّبة. يُشبعُ عصافيرَ قلبها الريَّان رويدًا

رويدًا. يطرق باب الغياب. يتحوَّل وجهه الحلو إلى وجهِ ذئبٍ شريد، ينقضُّ عليها.

يتفقَّد أثره من المرّة الماضية. ازرقاقٌ عند النهدين. بُقعٌ في الظهر. علاماتٌ تحت الرقبة، وأثرُ انغرازِ الأظافرِ كأثلامٍ على جسدها.

يغرق في بكاء مُرّ، يركع ليطلب الصفح.

ـ سامحيني، ببوس رجليك سامحيني. وجّعتك يا عمري. وجّعتك يا روحي.

يستمرّ في انكسارِهِ المخضّبِ بالدموع حتى تعاود الخطأَ ذاته، فتمنحه الصفح. تعرف أنَّها إذا لم تصفح فسيغرق في أتون الحزن المدمّر، وإن منحته الغفران فسيعاود الكرّة.

ولا فرار من إعادة الدوران.

ما إن تبدأ بتطييب خاطره المكسور يستردُّ شراسته. يُدخل يديه القاسيتين بين العنق والرأس. يكمش شعرها ويجوّده، يبدأ بالهذر والهذيان، ويدوّر رأسها مرَّات ومرَّات. يكاد يشلع فروته، يلويه في دوارنٍ أفعوانيّ مدوِّخ. يمدِّدها ويتعرَّى.

يُنهي سيجارته على مهلٍ. يتقدَّمُ ببطءٍ، تتوهّم أنَّه قد هدأ، فينزل من جديد.

لَسعٌ خفيفٌ يُطلق صيحاتها. تختلط الرغبة المبهمة العمياء، بألمٍ يفور من منابع الروح. تتصبّب عرقًا. يصبح نحيبها لحنًا على مقامِ الصبا، فيهفو عليها بردًا وسلامًا.

تنحني. يزحف فمها حتى مشارف ركبته، تتسلَّق إلى الأعلى.

تراه مستقيمًا، يرهز بجلال الانتصاب. ترتفع إليه كعابدةٍ صاغرة

تبتغي لقاء وجهه. فشوقها إليه كطريق الصوفيّ المليء بالوعورة، من الإثم حتى التطهير.

على الشاشة تظهر عبارة:

«من وصل إلى النظر استغنى عن الخبر. الحقيقة بالنظر تغنيك عن الخبر».

يرتعش جسدها، يتكثّف دمها: أنتِ في مقام النظر.

تريد أن تبلغ الزبى، في داخلها يستحيل السيل أنهارًا. متلاطمةُ الأمواج، مقدّسة المطلب، مكدّسة بكلِّ أنواع الطاعة. تظهر جملة برّاقة تفحّ بحروفها الفضِّيَّة على خلفيَّة الصورة.

«ما شرّع الحقُّ إليه طريقًا إلّا وأوَّلُه التلفُ».

لا يمكن أن تبدأ الطريق إلى الحقيقة بلا تلف. أَتْلِفْ كبرياءك المزعومة. أَهْلِكْ كرامتَك الفاقعة. تخلَّ عمَّا تعلَّمته وأوهمك. أَزِحْ نير عقلك عن أرض روحك. ازحف. صلِّ. ترجَّ واستغفرْ. مطلقك مشرئبُّ الصورةِ أمامَك، فانسكبْ.

كان يدري أنَّ كلّ آياتها البيِّنات لا تخصّه كرجل، بل كروح، أودعها به خالقها وحبيبها، هو صورة الحبّ وليس الحبيب، به الطريق، وحضوره الطارق، وله تشرّع الأبواب.

«أرشد إلى التوحيد وضلّل سبل الطاعة».

أمام جلال كماله وبهائه تخشع، ليمنحها كرمه المنتظر. تصلِّي له. تشدّه إليها. تطربُ في محرابه لهمس تمتمته. تحجّ إليه. تطوف حول قداسة سطوته. تصوم صمتًا في انتظار أمره. يتّقدُ قلبها بالعطش. يخلو عقلها من كلِّ شيء إلَّا من رغبة الوصول إليه. تراه من الأسفل، من تحت باهِهِ المبارك يُبقي الشوق متأجِّجًا بالفراغ. الإطباق الكامل.

الاحتكاك المشبع. يروي الغليل. حقَّ الحقُّ ولا حقيقة سواه.

«الفراشة تطير حول المصباح إلى الصباح، ثم تعودُ إلى الأشكال تخبرها عن الحال بألطف مقال. تمرح بدلالٍ طمعًا بالكمال».

وهي تطير حول انتصابه الوضّاء، تتعرّف إلى الإنزال بأعذب حال، تذوُّقًا وشمًّا ونظرًا ولمسًا. تنصت إلى دبيب الشهوة والدم والمني في عروقه. تحتضنه بفمها، وتطفئ حرارته برضابها.

ـ ضوء المصباح، علم الحقيقة.

حرارة المصباح، حقيقة الحقيقة.

الوصول إليه حقّ الحقيقة.

يهطل عليها أمرُه مثل انكشاف الحجاب عن وجه الطالب والراغب والواصل بعد رحلة الشقاء. فيطلق صرخته في وجهها مستجديًا بصيغة الأمر:

ـ خذيه، هو لك.

تهمس له: أمرك يا سيدي، يا خالق هذه الحال بي.

فتحرز بصبرها ما سعت إليه أخيرًا. تتلذّذ بما انتظرته طويلًا هذا جزاء احتمالها. تلتقمه. تذوق وتغترف، ومن تحته ترنو إليه، مطلقًا آهاتٍ وحشيَّةً. يتلوَّن وجهه بالقنوط وحدَّة الألم، ساعة القبول والرحمة.

تتجلّى صبوتها، تستردّ قوّتها، تملكه من وسطه، تثبّته وتتشبّث به، تتحكّم في مركز قوّته. يصبح صاغرًا أمام هول عبادتها. يزأر يئنّ، آن أن يتفتّت بين يديها.

يصيح بها: يا أنتِ، تقول له: يا أنا.

فيخبُّ ويجعرُ ويهرسُ ويسحقُ ويحرثُ ويضربُ ويدقُّ وينيخ

ويفتكُ ويفتقُ ويغرزُ ويشلخ في مكمن شهوتها.

ثم ينهمد كحيوان أُصيب في مقتله. ينهار كسدٍّ غلبه الطوفان. يرتجف كعارٍ في الثلج. يتكوَّر كجنين يطلق نهنهاتٍ طفوليَّة.

تقترب منه، تضّمه إلى صدرها، تمسح شعره، تواسي وحدته الشائخة، فيتحوَّل من المجير إلى المستجير.

تظهر على الشاشة العبارة التي تملأ قلبها بالوجد الصافي:

ـ أستغفركِ سامحيني، من بين كلّ مَن عرفت منذ الأزل إلى الأبد ستبقين يا من تملكين هذه الروح تثيرين فيّ روحَ المعصية عليّ.

في معركة الإنسان مع الإله، يخسر دائمًا الإنسان، لكن ما يدهش القدير أنَّه دائمًا يستمتع بشجاعة هذا الكائن الضعيف الخفيف الذي تكفي نفخة واحدة عليه ليتلاشى. كيف يصرّ على المقاومة.

في هذا الكون السحيق، المتعة العظيمة الوحيدة للخالق هي رؤية هذه العلقة التافهة، التي تُسمَّى الإنسان، تقاوم. لذا لا يتردَّد أحيانًا في أن يزيد في جرعات حضوره، يتلبَّس ما خلقه من لدنه. يعجبه أن يكون أسير القميص ليتعرَّف إلى أسرار الإنسان كيف بقي في قيد الحياة وهو لا يملك سوى جسد تافه سريع العطب. دهشته كيف يحمل هذا الوضيعُ مخيِّلةً تفوق صانع المخيِّلات؟

وأحيانًا، تنتابه غيرةٌ مذهلة من هذا الفاني؛ غيرةُ الموجود بلا أملٍ من الزائل. كيف يقاوم ليبقى الأمل؟

تستمع إلى هذياناته وهو متكوِّم في انهماده، متكوّرٌ في رحم وحدته، تكسوه طبقةٌ من نور فلا تقوى على درء العناق الأخير، ولا تجد فيها أدنى شعورٍ بالغضب منه. تسامحه ثانية، فيغطّ على زندها في نوم عميق. تتركه في مهبّ وحدته داخل عرائش مملكته وتغادر.

تصل إلى البيت. تدخل عالمًا ينبذها ولا يكاد يراها. تتفقَّد في الحمَّام العلامات، وتتحسَّس الخدوش، على الرقبة والصدر والفحذين.

تتكوَّر تحت الماء الفاتر. تبكي حتى تُفرغ بعض ما طفح بها من امتلاء.

تكرهه. تشتمه. تحلف ألَّا تعود إليه. تتمنَّى موته؛ اختفاءَه؛ قتلَه ألف مرّةٍ والتحرُّرَ منه.

وبعد عدَّة أيَّام لا تسمع عنه أو منه شيئًا، ثم تجد تلك الرسالة من جديد:

ـ وينك. تعالي عمّا بستنّاكِ.

(٣٦)

كراماني

لا شيء يقرِّبك من الانهيار في الاعتقال مثل الاقتراب من أمل زائف بالخروج، فالأمل قد يكون إفطارًا جيِّدًا، لكنَّه عشاء سيِّئ للغاية.

مرَّ شهر من دون أن يرنَّ الهاتف، أو تصل أيّ رسالة من الشيف. يلتهم الروتين أيَّامه. الزمن عنده يُقاس بالأجساد المخدَّرة التي يتركها جثثًا فارغة الصدر والبطن، في هذا المسلخ البشري المحصَّن. يتغيَّر الحرَّاس، ولا يتغيَّر صمتهم ولا نظراتُهم الزائغة. جرّب أن يسجِّل على قائمة الطلبات، بالإضافة إلى الأكل والويسكي والتبغ، قطرةَ عين. فأصبحت تأتيه كلّ بضعة أيَّام البودرة الجليلة التي بات أسيرَها.

وبينما هو في لحظة انتشاء، يسبح على مدرّجات موسيقى تجمع صرخات الهنود الحمر ونفحات آلة نفخيَّة ضخمة، أيقظه الرنين المتواصل للهاتف، وبالكاد وصل إلى السمَّاعة:

ـ حصلت لك على موافقة الخروج من هنا. جهِّز نفسك. سيأتي السيِّد كراماني لأخذ توقيعك وبصماتك على صكّ بيع البيت.

كان خبرًا يطيِّر العقل إلى سابع سماء وأعلى. تكثَّفت النشوة في

جسده، ورغبةٌ قاصمة في الحياة سَرَتْ في دمه لتُعيد إليه الانتصاب. واستجلب تحت شلّال الماء المنهمر في الحمّام اللذّةَ لأوّل مرّة منذ اعتُقل، عاصرًا من الذاكرة شهوةً لجسد سامية المختمر بالسمار.

كانت الأوراق مفروشة على الطاولة بحضور السيِّد كرماني ومرافقه، الذي بدا وجهه مألوفًا، قريبًا، معروفًا له بين ضباب الرؤية ونظّارة وجهه المنتفخ. وحين خرج صوته مرحِّبًا، لمع اسمه في رأس الدكتور مثلَ نصلٍ حادّ: المحامي راجح الآغا، هو بعينه صاحب الصوت الذي كان السبب في تحويل حياته إلى ما هي عليه.

اجتاح جسدَه سربٌ من الجراد، وبدا وجهه يهرم ويتخدَّد. كان مثل بقايا كائن. هو مجرَّد هيكل عظميّ. طبقٌ حيٌّ على مائدة الشيف يفترسه قطيع من الضباع. جفَّ حلقه، وتشقَّق فمه، ونشفت كلّ كلمة يمكن أن يقولها.

حدَّق فيه كأنَّما ينظر إلى عيني القدر نفسه. كان وجهه مخطوف اللون، وعيناه زائغتين، تهربان ثم تستقرّان كأنَّهما تقولان له: ألم أقل لك؟

تدخَّل الشيف بصبِّ كأس من الماء، وطلب من الجميع الجلوس، كراماني مع مرافقه ذي الوجه المفترس والمحامي راجح الآغا. وعلى طرف الطاولة، أمسك الشيف بالكاميرا وأعطى إشارة البدء.

تلا راجح الاتّفاق، وبدأه بعبارة:

الموضوع: بيع عقار

إنَّه في يوم الإثنين ١٢ شباط/ فبراير عام ٢٠١٢، وبحضور السيِّدين أنيس جلال الأغواني الذي يُشار إليه بالطرف الأوَّل، مع السيِّد علي حسن كراماني الذي يُشار إليه بالطرف الثاني.

وتنبَّه إلى أنَّ هناك خطأً ما فقاطعه:

ـ عفوًا، شو منشان التاريخ، قصدك سنة ٢٠١٤!!

تدخَّل الشيف على الفور:

ـ دكتور، أرجو عدم المقاطعة. رجاء أيّ استفسارات اتركها لبعدين.

فهم على الفور أنَّه لم يعد موجودًا منذ ذلك التاريخ. أعاد المحامي القراءة من جديد أمام الكاميرا التي أعادت التسجيل. وحين انتهى، قرَّب المحامي الأوراق فوقّع، ثم غمس إبهامه الأيسر بالحبر وبصم على كلّ الصفحات، منهيًا هذه الصفقة التي كلَّفته ما لا يُعوَّض. تابع بقيَّة الإجراءات المصوَّرة، من تقديم شيك بقيمة ثلاثمئة مليون ليرة سورية، لينتهي هذا كلّه بمصافحة مشفوعة بابتسامةٍ مصطنعة. توقَّف التصوير، فجمع المحامي الأوراق على عجل، وأعاد الشيك إلى كراماني الذي مزّقه، وأخرج حقيبة كبيرة من تحت الطاولة أعطاها للشيف، وأخذ نسخته من العقد وغادر قاعة الطعام. تبعهما المحامي الذي انتحى به الشيف جانبًا، لينادي على الحارس ليتولَّى أمر إخراجه. لمحه آخر مرَّة أمام الباب ينظر إليه بعين مليئة بالشفقة قبل أن يعطيه الحارس عصبة يطمّش بها عينيه ويسحبه بعيدًا.

تقدَّم الشيف منه وهو يحمل قنِّينة نبيذ.

ـ اسمع. كان الأمر صعبًا جدًّا، فأنا عادة لا أتدخَّل في كلّ هذا الهراء. لكن أفضل ما يمكنني أن أفعله لك هو ما تمَّ الآن. ستخرج من هنا، لكن لن تكون حرًّا للأسف.

حين أخبرتني سابقًا بأنَّ لديك أمنيتين: أن ترى ابنك أو سامية تلك، عملتُ جاهدًا على تحصيل أفضل عرض لك وفق الواقع الذي لا تعرف عنه شيئًا أنت في الخارج مطلوب بشدَّة. زوجتك وابنك لم

يتركا منظَّمةً ولا وسيطًا إلَّا وناشداهما وأدخلاهما في قائمة المطالبين بالبحث عنك. اسمك يزعج القيادة. وكما تعلم، فإنَّ من المستحيل المغامرةَ في إخراجك من هنا. قدّمت إليهم كلّ الضمانات. أريتهم كلّ الڤيديوهات التي توثّق تورّطك في إدارة عمليَّات بيع الأعضاء، وأنَّه من المستحيل أن تتفوّه بأيّ كلمة، وأنَّك مستعدٌّ لترديد أيّ رواية يقترحونها لغيابك، كالادِّعاء مثلًا أنَّك كنت مختطَفًا لدى العصابات الإرهابيَّة وتمَّ تحريرك، ثم تقوم بلقاءات إعلاميَّة مع المنظَّمات الدوليَّة والصحافة العالميَّة.

لكنَّ الأوامر جاءت بعدم خروجك حيًّا، وعدم المغامرة أبدًا في ذلك. فحقيقة ما تعرفه أنت يا دكتور يساوي موتك، والجواب على طلب خروجك جاء قاطعًا بالنفي.

لم يعد يريد سماع أيّ شيء آخر، لكنَّه تابع بهدوء:

ـ استطعت أن أحصل لك على عرض قد يعجبك، سامية مختطَفة منذ زمن لدى تنظيم إرهابيٍّ في الغوطة، هي ومجموعتها. سيتمّ تسليمك إلى الإرهابيين في مقابل إطلاق سراحها. مقايضة تنقذ حياتها حتمًا، وتتركك بلا أمل بخروجك.

ـ إذا كانوا مع الثورة فربَّما يكون هناك أمل؟

ـ أعتقد أنَّك أصبحت بعيدًا جدًا عن الواقع، يا دكتور.

قبل سنتين، كانت سامية ومن يعمل معها أحدَ أهمّ مصادر توثيق الحقائق المزعجة للنظام وللثوَّار معًا. تمَّ استدعاؤها من المسلَّحين لسؤالٍ وردّ جوابه، وتمَّ اقتحام مقرّهم وأُخِذَت إلى فصيل آخر، باعها بدوره لفصيل ثالث، حتى وصلت سامية عند ما يُسَمّى تنظيم داعش.

ـ داعش؟

ـ نعم يا دكتور. في هذا البلد الرائع، سترى الكوميديا والتراجيديا والسورياليَّة والواقعيَّة في مشهد واحد؛ سترى الخيالَ متجسِّدًا والواقعَ خيالًا

أطرق بلا أيِّ رغبة أو فضول لمعرفة معلومات مجتزأة غير كاملة، لكنَّ الشيف قرَّب فمه من أذن أنيس، وهو يحاول أن يبدو لطيفًا، وهمس كما يفعل الأب مع ابنه:

ـ اليوم راح يكون التلفزيون بغرفتك وتشوف شو عم يصير بعينك. إقامتك هون معدودة. سيُطلَق سراحُ سامية وتُسلَّم أنت إلى داعش.

ـ ممكن شوفها؟

ـ يا دكتور، للأسف إن شفتها لن تخرج هي حيَّة؟ فكلّ من لديه فرصة أن يسمعك أو يتواصل معك يجب أن يغادرنا بعد أن أصبحت في استضافتنا. ليس لدى الجماعة فوق ترف المراهنات، ولا تصدِّق وعود أحد.

ستخرج سامية في صفقة تبادل معك، لكنَّها لن تعرف أبدًا أنَّك قمت بذلك. ستكون تضحية صامتة منك. إذا بتهمّك لهالدرجة طبعًا

ـ وهدول داعش شو راح يعملوا فيني؟

ـ سيطالبون بإطلاق سراح قادة منهم معتقلين في غوانتانامو أو الأردن، وربَّما في أماكن يكون للحكومة البريطانيَّة تأثير فيها. ستبتزُّ داعش الحكومةَ البريطانيَّة بك على الرَّغم من وثوقه بأنَّك لست مواطنًا إنكليزيًّا كاملًا. لكنَّ الضجَّة التي أُحدثت بسببك وتبنّي جهات رسميَّة في إنكلترا قضيَّتك، سيجعلان قادة داعش يستخدمونك للضغط على البريطانيين.

ـ وكيف تضمن أنَّني لن أحكي لداعش ما حدث هنا.

ـ يا دكتور، ستكتشف وحدك أنَّهم لن يسمعوك، وأنَّك بكلٍّ بساطة تبدِّل لغة المكان وليس حقيقة المكان. وكلّ ما سيحدث معك بعد أن تخرج من هنا لن يُجدي نفعًا.

سأفتقدك كثيرًا، كنت أتمنَّى أن نبقى معًا. أنت الرجل الوحيد الذي استطعت التكلُّم معه بلا قيود، وسأحرص على أن تكون أيَّامك الأخيرة في ضيافتي مريحة.

انتهى فصل الكلام، وبدأت تتوالى الصفحات الأخيرة إذن. لم يتبقَّ له سوى تحبيرها بدم الانتظار الفاسد. جاء الحارس ليرافقه للعودة إلى غرفته. خطر في باله سؤال أخير.

استدار إلى الشيف الذي ظلَّ جالسًا يرتشف كأسه، وخرج السؤال متلعثمًا:

ـ وماذا عن المحامي. إنَّه يعرف كلّ شيء. هل تثقون به أكثر منّي؟

رمقه بتلك النظرة الباردة التي يتقن تثليجها حين يسمع ما لا يعجبه، وهمس:

ـ تصبح على خير، دكتور.

عرف من خلال مشاهدته التلفاز الذي زار غرفته أخيرًا، أنَّه على مشارف نهاية عام ٢٠١٤. مرَّت ثلاثة أعوام. سيكون لديهم ڤيديو يثبت أنَّني بعت المنزل منذ البداية، وقبضت المبلغ الهائل، واختفيت.

تابع أخبار العالم كالمهووس من محطَّة إلى أخرى، وفهم ما يعنيه بداعش. حصار، وفصائل مسلَّحة، وخطف، واختفاء قسريّ، وتهجير، وتدمير، وتشويش. عالمٌ يتصارع في الخفاء. كلّ شياطين العالم أطلقت من سراحها في هذه الأرض الجحيميَّة التي تُسمَّى سورية.

عشرة أيَّام من الشَّرَه لمتابعة الأخبار، كانت كافية لتعوِّض سنوات

الخطف هذه. والصفقة التي جلبها له الشيف كانت مناسِبة ليتوقّف عن العمل، ويرفض القيام بأيّ عمليَّة جديدة، ويتابع يوميّاته بكتابة احتياجاته غير مبالٍ بشيء.

رنَّ الهاتف بعد صمت طويل. كان صوته يطلب بوداعةٍ أن يقوم بآخر عمليَّةٍ له. وجد في الرفض والتحدّي نوعًا من التفاهة المجّانيّة. لتكن آخر عمليَّة، فمن شرب هذا البحر من الدم فلن يغصَّ بكوب آخر.

كالمعتاد، تصدح الموسيقى الفاغنريَّة، وفريق الجريمة ينتصب كاملًا في مكانه. الجسد المسجّى مغطّى الوجه، غير موصول إلى جهاز التخطيط. الجثَّة طريَّة وما زالت ساخنة.

بدأ العمل أسرع من المعتاد. أخرج كلّ المطلوب. وفي آخر القائمة كان مطلوبًا استئصالُ القرنيَّتين. اقترب من الوجه المغطّى، ورفع الغطاء فتوقَّف المبضع أمام ملامح الوجه وتجمّدت أصابعه. فعلى الرَّغم من كلّ ما مرّ به، فإنَّ هذا الشيف المجرم ما زال قادرًا على مفاجأته.

أتاه الجواب عن ذلك السؤال الساذج الذي طرحه عند الباب بعد توقيعه العقد. كان وجه المحامي راجح الآغا فاغر الفم، وعلى الرقبة حزٌّ أحمر مزرقّ، يوضّح أنَّه مات خنقًا.

إنَّه يحتاج إلى الله فعلًا يحتاج إلى أن يكون موجودًا، ويخاف أن يكون موجودًا. كيف سيحاكمه؟ كيف سيقف بين يديه؟ هل يستطيع معاتبته على هذا القصاص المريع؟

كان في أمان، يملك ما يكفي من نعيم السلام. ما الذي يفعله هنا؟ ماذا فعل ليستحقّ أن يُوضع في هذا الاختبار المرير؟

هل يُعقل أن يكون هذا المجنون الجزّار على حقّ!؟

(٣٧)

عادل

ـ صباح الخير دكتورة.

ـ صباح النور، دَخْلي أوَّل مريض.

وضَعتِ السمَّاعة على الصدر. فحصته سريريًا، وأخذت نتيجة المخبر. كلّ ما هو في حاجة إليه، بعضُ البوتاسيوم. كان الطفل يعاني جفافًا بعد نزلةٍ معويَّة.

طلبت الحقنة، ووضعت السائل في الأنبوبة. تمتمت الممرِّضة:

ـ دكتورة، هذا بوتاسيوم.

ـ «بعرف إنُّو بوتاسيوم»، أجابت بنزق.

تابعت الشغل، وضعت السائل في الإبرة وهيَّأتها للحقن.

عاد صوتِ الممرِّضةِ ليشتِّت صورته الملتصقة أمام عينيها، وضحكاتِه المجنونةَ، واسترسالَه العظيم، وهو يهذر: أنا الإسكندر. وأنتِ البلاد.

كشفت عن ساق الرضيع. غرزت الإبرة، وفي اللحظة التي بدأ

فيها السائل ينساب في الوريد، شلّها صوت الممرِّضة التي انقضَّت على يديها:

ـ إنَّه پوتاسيوم. يا دكتورة پوتاسيوم.

انتبهت. بعض ميليمترات منه قد دخلت الوريد. سحبت الإبرة كالملسوعة، وحملت الطفل، وركضت به إلى غرفة الإنعاش. نادت الدكتور طارق والدكتور ناظم:

ـ «شو في؟» سأل الدكتور ناظم.

ـ عطيته حقنة بوتاسيوم بالوريد.

ـ شو عمَّا تقولي!!

فُجع الدكتور، وأخذ الرضيع من بين يديها، ثم لحقتهم الممرِّضة. جُهِّزت غرفة العناية، وبدأت عمليَّات الإنعاش. تمَّ إنقاذ الرضيع، ولفلفةُ الموضوع، وإعطاؤها إجازة مفتوحة.

لم يدر أهل الطفل أنَّه لولا الممرِّضة لكان ابنهم الآن في عداد الأموات. لا يمكن أن يُعطى الپوتاسيوم عن طريق الحَقن في الوريد، بديهيَّة يعرفها طالب طبٍّ في السنة الأولى. كان عليها أن تصحو.

نحن نستمتع حين نبدأ بالكثير من الأمور والعلاقات. نعطي البدايات كلَّ ما نملك، لكنَّنا لا نعرف كيف نُنهيها، فنعلق كأنَّنا في برزخٍ لا قدرة لنا على التراجع منه، أو القوَّة والدافع لنستمرّ في الخوض فيه.

نهرب، نكذب، نتغيّر. نقرأ كتب التنمية الذاتيَّة السخيفة، نتوسَّل الخلاص من الأبراج، أو نبحث عمّن يقاسمنا العزاء. في الحقيقة، لا يُجْدي كلُّ هذا نفعًا، فنسلِّم الأمر لصاحب الأمر. نبدأ بالاتِّكاء على آمال زائفة، والدورانِ في كنف الفراغ الذي يبدأ بوضع علاماته على

أجسادنا. كانت تحدِّث نفسها، وتسأل، ولا تصل إلى بَرِّ الإجابات الشافية. لكنَّها قالت للدكتور طاهر.

لا أعرف إن كنت حزينة أم أنَّ مسًّا من الجنون سحل عقلي حين أخبرني بأنَّه عائدٌ إلى دمشق.

كان عليه العودة إلى هناك. كلُّ هذه الرحلة الطويلة كانت ببساطة من أجل العودة إلى حيث يفرّ الجميع. لكن قبل ذلك لا بدَّ من إقفال هذا الفصل المؤلم. لا بدَّ من أن يريح هذه السيِّدة التي لن يفيها حقَّها أبدًا.

إن كان لفيديل أن يتحدّث عن الحبِّ، فقد وصل إلى استنتاج ساعده.

الحبّ هو أن تتخلَّى، لا أن تملك؛ أن تطلق محبوبك من أسرك وأقفاصك وأنانيَّتك. هي فعلت، لكنِّي لم أفعل.

وفي قلب دوَّامة حمّى القلق والتفكير والتساؤلات، آخر من ظنّ أنَّه سيطرق بابه في ذلك اليوم، زوجُها عادل. مرَّت في رأسه ألفُ خاطرة حين فتح الباب، وحدّق في هذا الوجه الذي لا يعرفه. وجه مرذول غاضب مليء بالكراهية والألم.

ـ آسف على إزعاجك، أنا عادل زوج ليل، وبدِّي إحكي معك كلمتين.

كانت لحظةً مُباغتة؛ مزيجًا من الرهبة والدهشة والخوف معًا.

ـ أكيد. تفضّل.

أفسح له المجال للدخول، لكن عادل بقي مسمّرًا مكانه:

ـ موضوعي بسيط. أنا جايي أعمل يلي ما بيعمله زوج في العالم، جايي على بيت عشيق زوجتي إترجاه يتركها بسلام. عم بطلب

منك، رجل لرجل، تتركنا بسلام. أنا هون مو لأنِّي بحبّ زوجتي، أنا هون منشان أولادها إذا كان عندك بقايا من الشهامة إبعد، لأنَّه ما في رجل متحضِّر وعنده الحدّ الأدنى من الأخلاق بيقيم علاقة مع سيِّدة متزوِّجة مهما كان السبب. فقط الوضعاء بيعملوا هيك. أرجوك يا سيِّد فيديل تكفّ شرّك عنَّا وتتركنا بسلام.

رشق ما لديه مرَّةً واحدة، ومن دون أن ينتظر الجواب، استدار وغادر.

بعدها بدقائق، كان قد حسم أمرين: الأوَّل أنَّه لن يُخبرها أبدًا بزيارة زوجها، والثاني أنَّه فعلًا قد حان الوقت لعتق حياة هذه المرأة النبيلة، والتي لا ذنب لها سوى أنَّها أحبَّت الرجل الخطأ في الزمن الخطأ.

* * *

ـ راح وثِّق شهادات لحكايات حقيقيَّة وإرجع. راح يكون أوَّل وثائقيٍ إلي. ضاق خلقي، وملِّيت من الإعلانات يا ليل، وحاسس بالذنب لأنِّي ساهمت بشكل أو بآخر بهالموت. يمكن هالفيلم يحرِّرني. يكون إلي شرف الاعتراف بالخطأ ومحاولة إصلاحه.

كانت منكسرة، موجوعة ومشتَّتة، وبالكاد خرجت منها جملة واحدة:

ـ وعدني إنَّك راح ترجع؟

وأُعطيت على مضض وعدًا يشبه من قرَّر أن يقفز من الطابق العشرين، وهو يأمل أن يضع له أحدهم شبكةً لينجو.

ـ ممكن يعتقلوك؟

ـ لأ، هنن بعثوا لي الدعوة. بيعتقدوا بعد بقدر قدِّملن خدمات.

ـ بدَّك تطمّني، إحلف بحياتي عندك.

ـ راح طمّنك ليل.

ـ ما تخلّي أكثر من ثلاثة أيَّام تمرّ من دون ما تبعث لي رسالة.

ـ «بوعدك»، قالها نترًا وهو يعرف أنَّه يكذب.

ـ شي تاني وأخير، بدّي وصّلك على المطار. أرجوك ما ترفض.

ـ موافق. خلص مثل ما بدّك.

ـ إيمتى سفرك؟

ـ بعد بكرا الصبح الساعة سبعة.

ـ راح إجي نام عندك بكرا، وأنا بوصّلك.

ـ بأيّ لحظة فيك تجي على البيت، لا تضيّعي المفاتيح.

ثم حاول أن يخفّف عنها ما هي فيه، محوّلًا الكارثة إلى تهكُّم:

ـ لكان بدّك تعطي الصبي پوتاسيوم يا دكتورة!

أجابت ببراءة طفلة:

ـ أصلًا كلُّو منّك.

انتهى الحديث على صدى ضحكته التي تورّق قلبَها، وأقفل خطّ الهاتف. ابتلع الضحكة المزوّرة ودخل المطار لتقلع طائرته إلى بيروت، ومنها إلى دمشق.

هذه المرَّة لم يكن قادمًا ليقف على أطلال الذاكرة، بل ليوثّق موار رحم الأرض التي ما زالت تعاني آلام الطلق منذ أربعة أعوام. لعلّه يرى أيّ مولودٍ جديدٍ سيجيء إلى هذا العالم.

(٣٨)

أنيس

جاء الشيف لرؤيته، قبل أن يتمَّ نقله من المركز الثقافي بساعات. لم يكن يقوم بأيِّ نوع من التحضيرات، سوى تغذية الأمل الزائف بأنَّ تغيير المكان ربَّما سيسمح بفرصة أفضل للهرب أو الخروج.

كأنَّه داخل لُجَّة من عصف الموت الصامت والمتوحِّش وغير المعلن، والذي يتلوَّث به كلُّ من يدخله، ويُصاب بلعنته كلّ من يساهم فيه. لا يمكنه التوقُّف أبدًا إلَّا بأن يَفني نفسه، أو ستكون حياته مثل المُصاب بداء التوحُّش، لا يُرضي ثقبَ روحه الأسود إلَّا المزيدُ من الضحايا.

دخل الشيف بوجهه هائل البرود. كان جاهزًا للترحيل. جال نظره في المكان:

ـ لا يوجد لديَّ أيُّ نوعٍ من المشاعر كما تعرف، فهذه الخاصِّيَّة الكريهة تربك يومي، وتجعلني في مزاج سيِّئ.

أجابه الدكتور بسخرية وبلا اكتراث:

ـ لا يوجد لديك مشاعر، لكنَّ لديك مزاجًا. وهذا فارق كبير.

ابتسم وتابع:

ـ سأفتقدك يا دكتور. في الحقيقة إنَّ فترة ثمانية عشر شهرًا معك هنا جعلت العمل ممتعًا. ستخلّف فراغًا حين ترحل.

ـ لن تعدم الحيلة، ستجد من يشغل هذا الفراغ، فعالمك مكتظٌّ هنا، حتى إنَّه لا وجود لك في الحياة. لا تبدو متزوِّجًا أو قادرًا على الزواج، ولا يبدو أنَّ لك أصدقاء أو عائلة. الوحدة تفتك بك ولا تثق بأحد. وعلى الرَّغم من كلّ ما لديك فإنَّك تنتظر مثلي دورك على طاولة التشريح.

فرقعت ضحكة الشيف المتشنِّجةُ أعلى من اللازم:

ـ سأعتبر ما قلته إطراءً. أنت تُبهجني يا دكتور فعلًا سيكون رحيلك خسارة. أتدري يا دكتور ما هو مثير فعلًا في هذه الحياة؟

هزَّ أنيس رأسه بغير مبالاة وهو يراقبه يتمختر بخطوات هادئة، ويُخرج كلماته بانتقاء ووضوح:

ـ السأم كمصدر ثريّ لينابيع الأفكار العظيمة. الرحم المولّدة لحقائق الحياة، وفوق ذلك، بحسب رأي ليوباردي: «السأم ذلك الشعور الذي لا يمكن لأيِّ شيءٍ دنيوي إرضاؤه». انظرْ إلى هذا الانفساح اللامحدود للفضاء وللشسوع والعدد المدهش للعوالم، تجدِ الأمر ضئيلًا أمام سعة النفس الهائلة. فَنَفْس الإنسان تتَّسع لكلِّ هذا العدد المطلق من الكواكب والنجوم.

السأم قليل لدى الإنسان الفارغ، فهو يملّ، والملل تفاهة أمام عظمة السأم، والسأم معدوم لدى الحيوانات.

قاطعه أنيس بتأفُّف:

ـ تعرف أنَّه خلال السنوات الماضية مررت بتجربتين: واحدة في

معتقلات المخابرات والثانية هنا. هناك كان الألم جسديًا. أمَّا هنا، فعلى الرَّغم من عدم تعرُّضي للتعذيب الجسدي ولا للقسوة أو العنف، فإنَّني انهرت تمامًا وخسرت كلّ شيء.

هنا تمَّ تدمير نفسي وروحي. نعم، يحقّ لك أن تشعر بالإطراء. فالندم يؤلمني لأنِّي كنت جبانًا وفضَّلت البقاء على قيد الحياة، خوفًا من التعذيب، فإذ بي أتشلَّخ من الداخل هنا. ولو عاد بي الزمن إلى الوراء لرفضت مساومتك، وفضَّلت أن أعود وأموت تحت التعذيب.

اقترب منه وربَّت على كتفه:

ـ أفهمك يا دكتور، ولا ألومك. لو كنت مكانك فلربَّما وصلت إلى استنتاجك نفسه. الفارق بيننا أنَّي كنت أذكى في الخيارات. انظر إلى نفسك، لا أحد أوصلك إلى هنا سوى قراراتك. عاطفتك أوَّلًا، وأناك العُليا ثانيًا. لو أنَّك أذكى قليلًا، لكنت الآن في بيتك في لندن بعد حصولك على ثروة، تستمتع بالتخطيط لتمضي سنوات تقاعدك الفارهة في رحلة حول العالم. لم يظلمك أحد يا دكتور، ولم تتعرَّض للخديعة. على العكس، بحسب ملفّك، أنت من القلائل الذين عوملوا باحترام. لقد صبروا عليك وعوّلوا على فطنتك.

لم تفهم ما حدث لأنَّك عاطفيّ ومثاليّ. في الوقائع الكبرى، لا يمكن للعاطفيّ والمثاليّ أن يُنتج سوى الحماقات.

كانت المرَّة الأولى التي يُدرك فيها حقًّا النّدّيَّةَ في التعامل مع هذا السجَّان. لم يُرِدْ أن يفوّت هذه الفرصة، لا ليقول له أو يقنعه، بل ليسمع نفسه ويعلن حقيقة ما يؤمن به:

ـ انحزتُ إلى ما يُرضي ضميري، ولست بنادمٍ على ذلك. إنَّها ثورة محقّة، ويجب أن يُدفع ثمنها. كنت متردِّدًا في شأنها، لكن بعد

التجربة هنا، صرت متأكِّدًا من ضرورتها.

ابتسامة ساخرة مشفوعة بتهكُّم مشبع بالغضب:

ـ أعرف أنَّك ستقول هذا.

ثم استردَّ بروده وتابع:

ـ المشكلة هي من أيّ زاوية تنظر. لأقرِّبها إليك: لنفترض أنَّها ثورة محقَّة، وثورة الكرامة ومحاولة الشعب لاسترداد الحقوق، فأقلّ تقدير هو أن تفهم من تثور عليه. النظام يمتلك مخزونًا من القوَّة والعنف الجذري في البلد، وانتزاعه يعني تهديم البلد. يعرف النظام أنَّه لو نجحت الثورة فلن يعود إلى الحكم، لذلك هو يتصرَّف بشكل نهائيّ وحاسم. مستحيل أن يترك البلد إلَّا دمارًا، على نحو يجعل الناس لمئة عام يقولون: سقى الله أيَّام النظام. هو من ماهيَّة الناس نفسها هنا. لن يقبل أن يذكر التاريخ أنَّ حكمه أنهته ثورة. سيقبل أن يُقال قُتل في حرب أو أُخرج بحربٍ كونيَّة، أمَّا أن يُقال أسقطه متظاهرون، فساذج كلّ من صدَّق ذلك، وأنت منهم يا دكتور.

هنا كان دور أنيس ليرسم ابتسامة متهكِّمة على وجهه:

ـ كنت أعرف أنَّك ستقول ذلك!

جعل اعتراضه هذا الشيف يذهب إلى تبريرات جاهزة:

ـ غدًا، سترى بعينيك بديل النظام. العالم كلّه اليوم وضع عواطفه ومثُله العليا جانبًا وأصبح يتصرَّف بواقعيَّة. أنا شخصيًّا أحبُّ أنَّ أكون هنا. وللعِلْم، لديَّ جنسيَّتان غربيتان، ويمكن لي أن أكون في أيٍّ بلد في العالم. لكنَّني هنا فقط أكون حقيقتي في المكان الذي يمنحني العمق والسلطة. طزّ بالمال، نعم للسلطة والقوَّة. الواقع الحقيقي، بعيدًا عن دروس التنمية الأنانيَّة، وتفاهات التعايش، ورغبات البشر

الضئيلة، وشعارات المساواة ونكتة الديموقراطيَّة. هنا أرى الحقائق عارية كما هي. فلا أوهام أنفق فيها حياتي، ولا تجميل أو مداهنة للفقراء والسخفاء والمثاليِّين والحالمين. يتمّ فضح الجميع، فثمن مثاليَّات هذا الكون محرمة تواليت، وكلّ معاهداته الدوليَّة لا تساوي يومًا في الجحيم والجنَّة السوريَّين اللذين يمثِّلان صورة حقيقيَّة عن حقيقة الإنسان.

كان الإنصات إلى كلامه مثل سفٍّ برادة الزجاج. ثقته ومنطقه الصلب الفولاذيّ يكمنان وراء هشاشة النفاق. معركة العالم في سورية هي معركته مع الشرِّ المطلق متجسِّدًا، وهذا الإبليس المريض يبرِّر الحقارة والوضاعة لا غير.

ـ أتدري أنَّني أمنحك شرف الإصغاء إلى تفاهتك وتبريراتك المسلِّية لا غير.

نجح في استفزازه، فأضاف:

ـ ستنتهي أيُّها الكائن الذي لا يجرؤ حتى على أن يكون له اسم، مثل أيّ ضبع مستأجَر. أنت مجهول وتافه ومجرم خسيس.

ومشى الشيف في اتِّجاه جهاز العرض. أخرج من جيبه الداخليّ قرصًا مدمجًا ووضعه فيه، وشغَّل بالرموت كونترول الشاشة، وهو لا يتوقَّف عن الكلام. في الصورة ظهرت سامية:

ـ أخيرًا عبَّرت عن مشاعرك. تحاول إزعاجي قبل أن ترحل. عليك أن تبذل جهدًا أكبر يا دكتور. أنا جئت إليك لأُخبرك بأمر آخر غير هذا الهراء غير المجدي. منذ ساعات، تمَّ إطلاق سراح سامية، وهي في طريقها إلى البيت. ربَّما ستكون خارج البلد خلال أيَّام. لستُ مجبرًا على إخبارك بهذا، لكن وجدت أنَّ من الجيِّد تقديمَ خدمة

إلى صديق سيُعدم ذبحًا أو حرقًا أو غرقًا هي حرَّة الآن بسببك، وبسبب احترامي لكلمتي معك أكثر من أيِّ شخص قابلتَه في حياتك.

كادت عيناه تخرجان من محجريهما وتلتصقان بالشاشة. ترتدي سامية حجابًا يحيط بوجه شاحب لم يَرَ الشمس منذ زمن. وتشعّ عيناها على الرَّغم من انكسار مشيتها، لكنَّها حيّة وحاضرة وقادرة على جعله يضطرب من جديد.

والتفت إليه قبل أن يخرج من الباب، وقال:

ـ دكتور أنيس، الآن يمكن لك أن تموت وأنت لا تشعر بالظلم المطلق، على الأقلِّ يكون لموتك فكرة ومعنى ما، وليس عبثيًّا مثل ثلاثة أرباع الحقائق في هذا العالم. لكنَّك، مثل كلّ هؤلاء الضعفاء، ناكر للجميل.

لم يغلق الباب خلفه، تركه مفتوحًا. دخل الحارس وسأله إن كان يريد أن يأخذ شيئًا معه. طلب منه أن ينتظره في الخارج خمس دقائق.

وافق على مضض. أعاد الشريط. أوقف الصورة عند وجهها، تأمَّله بعمق، استردَّه بعد أن كاد ينسى ملامحه. وقبل أن تنتهي الدقائق الخمس، كان جاهزًا للرحيل.

(٣٩)

ليل

رمى جوازات السفر أمامي. نظرت إلى عينيه. كان واثقًا من جديد. اختفى الانكسار الذي لازمه منذ فترة، وبدا قويًّا متماسكًا.

ـ معنا أسبوعان لنسافر؟

ـ نسافر!!

ـ ما راح إشرح كثير. راسلت الجامعة يلِّي تخرّجت منها وحصلت على عقد للعمل بالمشفى الجامعيّ. قدّمت الأوراق للسفارة لطلب اللجوء للعائلة. أخذوا الجوازات واليوم رجَّعوهم مع الڤيزا بعتقد صار لازم نغادر لمكان تاني كرمال الأولاد أوَّلًا وهاي فرصة نرجع نستردّ علاقتنا، أو حتى ننهيها كما يجب. المهمّ إنُّو أنا ما عاد أقدر كون بالحالة نفسها. إجا الوقت. إيه ليل صار الوقت. الأمر كلّه حاليًّا بإيدك لنبدا بمكان جديد وبشكل صحّي. إنت محتاجة تتركي هالمكان كمان، محتاجة ترتاحي من الشغل لفترة، تصفِّي ذهنك وتقرّبي من الأولاد من جديد، وعندي أمل إنُّو ممكن نقدر نتجاوز كلّ يلِّي صار. ممكن نكون أقرب. ما كان عندي استعداد خبِّرك شي مو واثق

منه. أنا عم بطلب منك هالمرَّة فرصة حقيقيَّة. ما بدِّي إجبرك على شي.

لن تنسى أنَّها ذهبت في ذلك الصباح الباكر إلى شقَّته، واستخدمت المفتاح بعد أن أعياها الانتظار. كانت شبه خالية، تخلَّص من كلّ شيء، تاركًا لها صندوقًا صغيرًا فيه خمس رزم من النقود، مع رسالة قصيرة:

«ليل، إن بقيت راح إقتلك أو تقتليني. وإن رحت راح يبقى في أمل إنُّو تنجي إنت على الأقلّ.

سامحيني يا أجلَّ النساء، على كلّ الألم إلِّلي سبّبتلك ياه. اغفري لي إذا قدرتِ. كان لازم إهرب لأنِّي بعرف إنُّو إذا صار وشفتك هالمرَّة ما راح إتركك أبدًا. ما راح إتِّصل فيكِ ولا راح تشوفيني مرَّة تانية. صار فيكِ تتخلّصي منِّي للأبد.

التوقيع: لعنتك ☺ (فيديل + فضل)»

لم تَنْهَرْ كما توقَّعت. قرأت مرَّة ثانية وثالثة، وكلّما وصلت إلى الوجه المبتسم الذي رسمه تحرَّكت شفتاها محاولة الابتسام.

تجوَّلت في الصالون وعادت ترى اللوحات وقد علَّق عليها ملصقات صغيرة، مكتوبًا عليها: «إذا حبَّيتيهم خديهم».

دخلت غرفة النوم. رأت صندوق الأقراط. فتحته، كان فيه رسالة صغيرة أخرى:

«من يوم استردّيتِ حلقك ما زاد عددهم أبدًا، بإيدك ليل ارمي هالصندوق بالزبالة».

بحثت في كلّ مكان. كانت واثقة بأنَّ هناك رسالة أخرى مخبَّأة في مكان ما. بحثت طويلًا وهي تتفقَّد أنحاء الشقَّة. كانت قد شارفت

على الخيبة حين دخلت الحمَّام لتجد الرسالة الأخيرة مطبوعة على المرآة بقلم حمرة يخصّها. نَصُّها جملة سمعتها من قبل تخصّ الشيخ ابن عربي، «الحبّ موتٌ صغير، وآن الأوان أن تستيقظي».

وبدلًا من أن تستيقظ، أصبحت كقاطرة ومقطورة تكرج في طريقٍ منحنٍ بلا مكابح. فانفجرت في بكاء عظيم، ولم تترك شتيمة تعرفها إلّا ووسمته بها.

ليست النائحةُ الحقَّة مثلَ النائحة المستأجَرة. كان ألمها حقيقيًا، وفقدها له فقدًا لروحها.

كلّ ما فيها تحوّل إلى نواح، وعويل. لكن بعد هذا النتح كلّه، والذرفِ المستمرّ للدموع، والصراخ، جاءت الراحة. فالله اخترع البكاء لتصفية حسابات الإنسان مع نفسه قبل أن يصل إليه.

حين عادت إلى البيت، كانت محتاجة إلى أحد، ولو كان ظلَّ إنسان، تعانقه كي تستطيع هضم هذا الفقد.

ما إن دخلت، حتى هبَّ عادل واقفًا، ليفتح ذراعيه لها، فارتمت على صدره.

حضنها بأبوَّةٍ، برفقٍ، بتفهُّم. لم يسأل ولم يدّع، بل اكتفى بأن همس: لا بأس، ستكونين بخير، ستكونين بخير. كان أكثر مخلوق في العالم يستطيع أن يتفهَّمها ويُدينها في الوقت ذاته. كان صمَّامَ أمانها وقابس قنبلة حياتها، وسببَ كارثتها والوحيدَ الذي يمكن أن ينطق بخلاصها. عادت إليه مستسلمة بعد أن كسرها الحبّ، فلم يكمل عليها كما يفعل الرجال عادة، بل تصرّف كما تتمنّى كلّ أنثى من الرجولة. الشهامة فقط من دون أسئلة أو تمنين أو استغلال أو شماتة.

بدت دبي كأنَّها تعود إلى ما قبل العمران في غياب فيديل، خاليةً

من البهرجة، قاسيةً وبسيطة، طبيعيَّة. أصعب أنواع الفقد ذلك الذي لا يمنحك أيّ معنى للعزاء. لا تستطيع الحديث عنه ولا تعداد مناقبه، ولا يمكن أن تشارك أحدًا في حكايته.

لن تنسى أبدًا تلك الجملة التي لفظها عادل:

ـ أعرف ما تشعرين به ليل، وأتفهَّمه.

كان تعاطفه الآن أقرب إلى الانتقام، أو ليتحرَّر من الذنب. فبعد أن نجا من الموت، شيء ما تغيَّر فيه، مثل من سقطت حياته في قاع جبّ مظلم. وحين خرج كان مبلَّلًا بالظلام. ألقى عليها فيديل عباءة الوداع، فلم يترك لها سوى النفي من المنفى، وأودعها هذا الزوال الأعمى.

الهجرُ نَحْرٌ. يصبح المهجور كطير مذبوح يفرفر نازفًا بين يدي جزَّار لا يرحم. ولا يستطيع المهجور أن يموت ولا يعرف كيف يعيش.

كان صدر عادل مثل خيمة لاجئٍ فاقد الأمل، مفغور القلب، مشتّت العقل، ممتنّ لبقايا الأمان. وكان اللجوء إليه وما يحمله من كلّ الالتباسات، بمثابة الخذلان الآمن الذي لا يملك الطريد سواه. فالولدان، على ما يبدو، يريدان أن يريا حطامها ويتأكَّدا منه حتى ينكسر الباب الوهمي ويدخلا إليها. أيُعْقَل لمن تربّيه في رحمك أن يكون جزَّارك، وفي الوقت نفسه خلاصَك؟

أخذت تتحسَّن بسرعة بسبب هبَّات التفهّم والاهتمام، وتسقط من شاهق الخجل، حين تبيَّنت أنَّهم يعرفون ما حدث؟ هل يوجد إحراج أكبر من أن يقدّم طفلكِ التشجيع لتجتازي إحباط العاطفة مع رجل غير أبيه؟

كان نوَّار هو الأقرب إلى التعاطف معها، وخصوصًا أنّ محنتها تزامنت مع تجربته العاطفيَّة الأولى كمراهق. جعله الحبّ، الذي تفتّح في قلبه، يشفّ عن تسامح كبير، ليقول لها مرَّة واحدة:

ـ ماما أنا معك مو لأنَّك أمِّي بسّ، أنا معك لإنُّو صرت بعرف شو يعني الإنسان يحبّ؟ أنا معك لأنَّك عم تتعذَّبي مثلي.

هذا الكائن الصغير الذي استهلك سنوات من حياتك وأنتِ تلبِّين حاجاته وتعلِّمينه وتساعدينه، كبر فجأة ليكون جدارًا يسندك، يمنعك من الانهدام. أمَّا ميَّار فتشبَّث بانحيازه إلى أوجاع أبيه.

وبعد مرور الوقت واسترداد الثقة ومحاولات ادِّعاء الشفاء، يأتي عادل ليرمي إليها بجواز السفر، واضعًا إيَّاها في خيارٍ وجودي يقارب المستحيل. الهجرة إلى فرنسا مع العائلة لصناعة المستقبل، أو البقاء في دبي برفقة أشباح الذكريات.

كان عليها اللجوء إلى أحدٍ ما تستطيع وضعه أمامها كمرآة لعلّها تتمكّن من تمييز خياراتها المعدومة.

لم تجد أحدًا، فاستسلمت مثل جثمان لرفقة الشاهدة في ألفة المقبرة. هناك حيث يتحلَّل الجسد من الثقل، بعد أن تنهشك ديدان الحياة، لترسلك طائعًا مُسجًّى إلى نقيّ التراب، فتبدأ بالشعور بالطمأنينة. لم يعد هناك ما يخيفك سوى أن ترى ما تبقَّى من وجهك في المرآة.

الألم في تلك اللحظة من الأمر الواقع، الذي وضعها عادل أمامه، كان مردُّه أنَّها لم تكن يومًا تملك زمام حياتها، بل إنَّ كلّ ما مرّت فيه مجرَّدُ ردود أفعال على ما يأتي منها من صدى لأفعال الآخرين ورغباتهم.

في لحظة التهالك، شيء في داخلك يرفض التصديق. تعود إلى

الصفر من جديد، لتكون ظلًّا لشبحٍ آخر. توضع لك المفارق المتناقضة. أن تنزلق على شفرة حادَّة أو تنشنق بشدِّ حبل تسلِّمه إلى أقرب الناس حولك. هنا يمكن لك أن تتوهَّج للمرَّة الأخيرة، وتشتعل وترفض، وأنت تعرف أنَّ ثمن مثل هذا السلوك ليس أقلّ من حياتك نفسها.

من حقِّها الآن أن تنهار؛ ألَّا تختار. من حقَّها أن تصمت؛ أن تبتلع ألف حبَّة فوستان وتنام إلى ما بعد الأبد. وبدلًا من أن تتفاعل بالحدِّ الأدنى من الامتنان، خرجت منها صرخة داخليَّة لم يسمعها: حلّ عنِّي، أنا لا بدِّي سافر ولا بدِّي صير لاجئة. لكن ما سمعه فعلًا كان العبارة التالية:

ـ اعطيني وقت.

ـ ليل، ما في وقت. أنا رايح جيب الأولاد من المدرسة، وبتمنَّى اليوم تكوني أخدتِ القرار.

ما أشدّ حاجتها الآن إلى سماع صوت فيديل، أو تلقِّي إشارة منه، أو سؤاله. ما أشدّ شوقها إلى سامية المغيَّبة وراء ستار مجهول. مسحتْ ذاكرتها، حاولت أن تستغيث بأيِّ أحد يقول لها افعلي هذا، ويريحها من ساطور الاختيار. كانت وحيدة تمامًا، مثل بيدق رماديّ وسط رقعة شطرنج، لا تعرف مع من تلعب: الأبيض أم الأسود، بينما اليد التي تتحكَّم في مصير البيادق تتركها تمامًا في وسط مربَّعات الحيرة.

أخذت تتَّصل بمن بقي في الشام، بأمِّها التي حوّلت المكالمة إلى ألم إضافي، ورمتها بسيل التحذيرات والإدانات وضرورة أن تهتمَّ بزوجها وولديها. تحاول أن تستشفَّ منها إن كان أبوها ما زال غاضبًا

عليها، فتغيِّر الأمّ دفَّة الحديث. إنَّه عقاب العائلة أجمع بعد تفشّي الخبر. ولولا الثورة وانشغال الناس بأخبار القصف والبلاء اليوميّ، لصارت ليل حديث البلد. ندمت كعادتها على اتّصالها بأمّها بعد ثلاث ثوان من بداية الاتّصال، ولم تعرف كيف تُنهيه. لكن رغبتها في أن تتكلَّم مع أحد في دمشق كانت ترجمة للهفتها إلى المكان الذي يوجد فيه فيديل، فطلبت رقم عيسى درويش.

بدا صوته مطحونًا، مثلَ كلّ المنكسرين من السوريين في الداخل الملعون، وإن كان مثلهم أيضًا يفيض كلامه بالسخرية والوجع. حديثٌ لم يقطعه سوى صخب قدوم الولدين وهما في حال انتشاء بعد علمهما بأمر السفر.

باح لها عيسى بجراح المكان وتربته التي تنغرس فيها مجرفةٌ تقلبِ أرضه رأسًا على عقب. بلد يُخرج أجمل ما فيه وأشنع ما لديه: انفجارَ احتقانات قديمة؛ تفتُّقَ الصديد من الدمامل المخفيَّة؛ انفتاحَ الجروح؛ التهابَ المواجع؛ انفلاتَ ذئاب الغرائز؛ وحشيَّةَ معاشرة الموت. ثم قال لها بشاعريَّته المعهودة:

ـ دمشق في صراعها الأخير، تروِّض الموت ويروِّضها، ولا نعرف من سينتصر.

وأسهب، وهو يروي لها قصصَ الناس كيف يتحوَّلون من التطرُّف إلى أقصاه؛ من الإيمان إلى الإلحاد؛ من البحث عن الله إلى قتل الإله. حدَّثها عن الفقر الذي تفشَّى، والظلمِ الذي استشرى، والغرباءِ الذين باتوا يتجوَّلون بأسلحتهم في دمشق:

ـ دمشق ما عرفت مثل هيك وجع بتاريخها يا ليل؟

تصوَّري إنُّو مبارح لقوا رجل ميِّت بالشارع من ثلاثة أيَّام، نبَّهتم

إليه رائحته. للنازحين قصص بتخلّي شعر الطفل يشيب، غير السرقة والخطف وطلب الفدية، والأسعار الجنونيَّة، سعر كيلو الكوسا يا ليل صار بـ ١٠٠٠ ليرة لموظَّف راتبه عشرة آلاف. شو ممكن تتخيَّلي.

ـ إنتَ كيفك؟

نسأل أحيانًا هذا السؤال، «أنت كيفك؟»، بعمق، ونشدِّد على مخارج الحروف، رغبة في أن نقول للآخر أنا لست بخير. فنريده أن يسألنا عن حالنا، وأن يتوقَّف عن الحديث عن نفسه وأخباره ويلتفت إلينا. لكن معظم البشر مولعون باستخدام اللسان، وسيِّئون في استخدام الأذن. يبدأون بالحديث، وسيعدُّون من يتقن الإصغاء صديقًا حقيقيًا. لكن ليل كانت مصغية من الطراز الرفيع إلى أصدقائها.

ـ أنا، بعدني صامد، أقاوم الرحيل. نصّ رجال البلد هاجروا مجنون كلّ رجل بيترك دمشق بظلّ هالنزف الحادّ لعدد الذكور. بين كلّ عشر نساء في الشارع لتلاقي رجل واحد. الكلّ يا مختفي، يا مهاجر، أو مسجون، أو مقتول، أو مطلوب عالجيش.

من بين الكمّ الهائل من الأخبار المعروفة التي سردها، نطق عيسى فجأة بجملة جعلت قلبها يرتعش:

ـ سامية تحرَّرت من إيدين الخاطفين يا ليل.

طلبتْ منه رقمها، وقلبها يخفق وصوتها يتهدَّج. أعطاها الرقم، وقال قبل أن يختم المخابرة:

ـ من عجائب الحياة أن يتحوَّل شخص، مثل فيديل عبد الله، إلى داعشي متطرِّف يُنتج أفلام القتل والذبح.

لكمها سماع اسمه، لكنَّه لم يفاجئها. كانت تحدس بأنَّها قريبة من سماع شيء ما عنه بعد هذه الأشهر المضنية من الهجر.

كان يكفي أن يُذكر اسمه حتى يتخربط كيانها، وينخطفَ لونها، وتأخذَ شهيقًا لا تعرف كيف تزفره.

لا يمكن أن تطمس الحبّ الملتهب. إنَّه لعق متواصل للنار في الحضور والغياب. يكفي أن يمرّ طيفه، أو يحضر اسمه، لتكون في حضرة الاتِّقاد والانهيار والصراخ المكتوم. تريد أن تستزيد منه مثل عطش لا يُروى.

كان صوتها بدأ بالتهدُّج بعد عدَّة مناورات مع سماع صوتَي الولديْن، فعاجلت في إنهاء المكالمة.

أكَّدت عليه أن يُرسل إليها رقم سامية، وأفلام فيديل، على الإيميل. ثم أقفلت الخطّ، وانشغلت بصخب القادمين، مرغمةً، منوَّمةً، حابسةً قلقًا مضطربًا عاد يغلي من جديد.

تركت الأمور تسير بهدوء. فأمام العائلة قائمة طويلة من العمل يجب إنجازها خلال أسبوعين. وضعت هي وزوجُها وولداها جدولًا لما يجب فعله وتصفيته. الاستقالةُ، وبيعُ الأثاثِ والسيَّارةِ، وإعلامُ المدرسة وأخذُ الأوراق المناسبة، إضافة إلى ما يجب حزمه من أغراض وما يجب تركه وتوزيعه. تحوَّل البيت فجأة إلى بيت سوري من بيوت الترحال والشتات الجديد.

كان هناك خلف قناع قبولها وجهٌ لا مَعالمَ له يحاول أن يستبصر الغيب وسؤالَ الأبراج، وانتظارَ الإشارة من المجهول، واللجوءَ إلى معجزة ما تساعدها على اتِّخاذ القرار. باتت الأيَّام الأخيرة تتقلَّب في مشواة الوقت المشتعل تحتها، على أيِّ جانب تتَّكئ كانت تحترق.

ودّعت الأصدقاء القلائل، وجهَّزت الحقائب، لكنَّها كانت لاشعوريًّا توضِّب أغراضها في حقائب منفصلة. وقبل السفر بيومين،

وصل إليها إيميل عيسى، وفيه رقم سامية والفيديوهات التي يُنتجها فيديل عن داعش. استجمعت كلّ طاقتها لتتفرَّج عليها.

كانت روابط لأفلام وثائقيَّة على الإنترنت عن قوَّة تنظيم الدولة، ورجاله وأشباله. صورة نقيَّة فخمة جذَّابة، تُظهر كيف يُنفِّذ التنظيم الإعدام بالمارقين والمرتدِّين والكَفَرة. نعم، الصور فيها أسلوب فيديل الإعلانيّ، لكن لا شيء يثبت أنَّه صانعها. رأت رقم سامية في الإيميل. أدركت أنَّها إذا لم تتَّصل بها اليوم فلن تتَّصل بها أبدًا

تردَّدت كثيرًا. كانت تخاف تغيّر مناخ الروح بعد هذا الوقت الذي انسرب مثل رمشة عين. تخاف أن تسمع صوت انكسار جديد أو إدانة لا تحتملها الآن. طلبت الرقم بنصف رغبة معصور عليها حامض الوسواس، وبدأت تعدّ الرنَّات، على أمل ألَّا يُجيبها أحد. وقبل أن تقرِّر إغلاق الخطّ، سمعت الصوت رخوًا، ومشكّكًا، وباردًا:

ـ ألو، مين؟

ـ أنا ليل يا سامية.

ـ ليل!! ليل. يا الله ما عمَّا صدِّق ليل!!

ـ إيه.

غصّ الهاتف بدموعهما، وتلبَّك الوجود نفسه. زفرت أنفاس الارتياح حين سمعت من سامية وهج كلماتها المحترقة بدخان سجائرها طافتا في حديث طويل متولِّد، موجوع، مُضحك، مُبكٍ. كانت الأصوات التي تأتي من دمشق حبالًا سرِّيَّةً تربط أولاد المدينة برحمها. وصوت سامية لم يكن حبلًا سرِّيًّا فحسب، بل كان رحمَ المدينة نفسها.

قالت سامية بقصدٍ واضحٍ، وبلا مقدِّمات:

ـ ليل، ما تصدِّقي أيّ شي بينقال عن فيديل. لا تصدِّقي عقلك. برجع بقلِّك اتبعي قلبك.

أنا حرّة يا ليل لإنُّو في رجل شهم ضحّى بكلّ ما يملك كرمالي، لو إنّي ما صدَّقت عقلي، كنت أنا ويّاه نجينا من هالتجربة. بالحرب يا ليل، العقل هو الغريزة، والقلب هو الصواب.

انتهت المكالمة مولِّدةً فيها موجات متتالية من المدّ الذي غمرها فجأة، وعاد لينجزر، مخلِّفًا في عقلها وضوحًا لما يجب أن تعمله، وقوَّةً لتحسم على نحوٍ صارم وقف لعبة الخيارات القاصمة.

خرج قرارها من لدن الشكوك المتوهِّجة مثلَ استلاب لنداء غواية لا تُقاوَم:

ـ راح إرجع عَ الشام.

(٤٠)

الكاميرا

لو نال ربعُ هذا الدمار لمدَّة شهر من أيِّ بلد في العالم لتحوَّل إلى أنقاض. لكنْ هنا، كلّ دمار تقابله حياة، ورفضٌ صارخ للموت في حضن الموت.

دمشق مختنقة بالحواجز، مدوِّخة بروائح البارود وصوتِ القصف الذي لا يتوقَّف. النوم على أصوات هدير الطائرات ودكِّ المدافع المستمرّ، والذي كان شبهَ مستحيل بالنسبة إليه، أصبح عادة يوميَّة لسكَّان المدينة الذين أَلِفُوا صوت الهاون وأزيز الرصاص. يتندَّرون بأنَّهم في اليوم الذي يتوقَّف فيه القصفُ لا يستطيعون النوم. لكنَّه المكان الوحيد في العالم الذي يخفِّف عنه وطأة الابتعاد عن تلك المرأة التي تسكن روحه، فلا يمكن الهرب من الحبِّ إلَّا إلى الحرب.

كان في حاجة إلى فريق عمل ونفوذ، أمَّا المال فلم يشكِّل مشكلة. أعطته الشركة تفويضًا بتغطية التكلفة.

كانت فكرة فيديل ببساطة بعد أربع سنوات، دخولَ الأماكن الحمراء الخطرة، وتوثيقَ ما يمكن توثيقُه من مشاهدات وشهادات

لتحويلها إلى فيلم وثائقي قبل أن تبتلع الصحافةُ اليوميَّةُ والرواياتُ المُخْتَلَقَةُ الحقيقةَ. هذا على نحوٍ عامّ. أمَّا على نحوٍ خاصّ، فقد كان السؤال الكبير عن الموت المدخلَ إلى كلِّ الإجابات المعلَّقة؛ السؤال عن معنى أن يمرّ الإنسان في هذه التجربة الغريبة الغامضة التي تُسمَّى الحياة.

الهروب من الحبِّ إلى الحرب يؤجِّج كليهما، لكنَّه يصنع التاريخ؛ التاريخَ الشخصيّ للإنسان، بدلًا من الانتظار الآمن وسط غابة الاستهلاك والكسل.

كانت المجموعة التي ستعمل معه من شباب الثورة. طلب منها البحث عن شهادات حقيقيَّة خالية من السياسة؛ عن تحوُّلات الإنسان في الحرب. ما يهمُّه هو لقاءات مع حاملي السلاح من غير المرتزقة؛ مع الذين قتلوا إنسانًا ما شريكًا في الوطن: كيف يبرِّرون ما فعلوه ويتعايشون معه؟ وهل يمكن أن يقبلوا يومًا ما تسليم أنفسهم للعدالة؟

خاض كثيرًا من النقاشات بشأن صعوبة أن يُدْلِي الناس بحديث من هذا النوع، أو أن تقبل الفصائل المتحاربة تقديم موادّ لا تخدم أجندتها، ووقع الرأي أخيرًا على أن يقوموا بالأمرين معًا: توصيلُ تقارير إلى الصحافة العالميَّة تخدم الجهات المتصارعة، والعمل في الظلِّ على منح من يريد الكلام فرصةً ليعترف بما اقترف أو ليدافع عن نفسه. فلا يوجد قاتل لا يودّ الحديث عن فعلته.

يدخل الفاعل غرفة مظلمة، يقول على ما يريد، ويُسأل في نهاية اللقاء وقبل أن يخرج، إن كان يودّ الكشف عن هويَّته.

كان التنقُّل سهلًا أكثر ممَّا تخيَّل. فهؤلاء باتوا أسياد المدينة، يعملون في الخفاء وينسِّقون في ما بينهم. كان يتمّ دخول المناطق

المحاصَرة عن طريق أنفاق يعرفها الطرفان ويحرسانها من الجانبين.
سأل أبا مقداد، وهو شابّ في أواخر العشرينيَّات:

ـ معقول الأمر بهذه البساطة؟

ـ نعم، هناك قوانين جديدة للقوَّة، والقصف لعبة بات الجميع يتقن قواعدها. إذا دمّروا نَفَقًا للثوَّار، فسيُدمِّر لهم الثوَّارُ نفقًا. كلّ شيء منفصل ومتَّصل بعضه ببعض.

هناك قواعد للاشتباك، الكلّ بات يعرفها.

اعتياد الانفجارات والقنابل والصواريخ ليس سهلًا الذعر صفة غرائزيَّة للإنسان، لكنَّ الرعب صفة مكتسَبة.

علم القادة بحضوره، فأعطوه موعدًا في اليوم التالي. كان فيديل مع المصوِّر يدَّعيان القوَّة ويتدرَّبان على ترويض الذعر بمراقبة الناس والحديث معهم. كانا يعرفان أنواع القنابل والطائرات وأسماء القذائف من صوتها. يعرفان متى يجب أن يحترسا أو يتابعا أعمالهما. البراميل العبثيَّة هي الأكثر إزعاجًا. إنَّها بدائيَّة تمامًا، تُرمى بشكل اعتباطيّ فوق الأحياء، وهدفها فقط الردع النفسي وتدمير الأبنية، التي لم يعد يقطن طوابقها العليا سوى بعض المقاتلين من القنَّاصة والنواطير. الحياة مستمرَّة، وحالات الزواج والولادة لا تتوقَّف. هناك أطفال كثر أعمارهم أربعة أعوام، يعني أنَّهم وُلِدوا تمامًا في الثورة. قال طبيب المستشفى الميدانيّ:

ـ ينقصنا كلّ شيء، ومع ذلك نُجري عمليَّات كبيرة. أصعب الأوقات عندما تبدأ الطائرات بقصف تجمُّع بشريّ في سوق شعبيَّة أو مدرسة، يحلِّق الطيَّار غالبًا عاليًا جدًّا ويأخذ المكان بغتة.

لم يكن يعلم من أين يبدأ؟ كيف يجوس المكان؟ كان عليه أوَّلًا

اعتياد شكل الحياة. احتاج الأمر إلى أسبوع، وبعدها صار يستطيع شرب الشاي ومتابعة الحديث بينما تنهمر القنابل في الجوار.

الموت يوميّ، لكنّ الحياة يوميَّة أيضًا، صراع هائل من أجل البقاء. لو طُلب منه اقتراحُ حلٍّ للمحاصرين ليصمدوا، فسيكون من دون أدنى شكّ التوكُّلَ على الله، والإيمانَ به بأيٍّ صورة كانت. الإيمان في المكان متنوِّعٌ وشديد الاختلاف بين شخص وآخر، لكنَّه إجماع وحيد يتَّفق عليه الناس. ليس خوفًا من الموت. على العكس: فمن يَمُتْ يَرْتَحْ فعلًا لكنَّه عزاء لمستقبل الأحياء. يؤمنون ويردِّدون بأنَّ ما يحدث الآن حتمًا هو اختبارٌ إلٰهيّ، وابتلاءٌ من الله للمؤمنين. لقد خفَّف هذا الإيمان فكرة الانتقام. سلَّموا اللهَ أمرَهم، فمدّهم بالصبر.

يعرف فيديل هذه البلدات والقرى وعاداتِها جيِّدًا. نشأ في إحداها، وإن كان من المستحيل الوصولُ الآن إلى قريته، لكنَّها بلدات وحارات ضيِّقة، والناس فيها يعرفون بعضهم بعضًا. ولأنَّه ابن المنطقة، كان يسيرًا عليه أن يحظى بثقة الناس، وأيضًا القدرة على فهم التناقضات والاختلاطات التي لا يمكن لأحد من خارج المكان فهمُها بسهولة.

قال أبو مقداد:

- لا تناقش في الدين. ابلع الأفكار بلعًا، فهي مثل حبَّات الدواء، إن مضغتها فستكون بلا فائدة.

يجعل العمل اليوميّ مع الموت انشغالاتِ الحياة خارج المدن المحاصرة بطرًا عبثيًّا سخيفًا. هنا، التجربة مذهلة. يجب أن يكون كلّ الفلاسفة والشعراء والفنَّانين هنا. أنا لا أعرف كيف يغادرون مكانًا

كهذا لا أعرف كيف يتأمَّلون في جواهر الحياة والإنسان وهم يتجنَّبون أن يكونوا هنا!

منحه الحصولُ على الحماية والتصاريح لتسهيل المهمَّات من القادة حرِّيَّةً كبيرة للتحرُّك. وخلال خمسة عشر يومًا كانوا راضين عن التقارير التي بعثها إلى وكالات الأنباء.

يراقب فيديل قاسيون الذي بدا جبلًا بعيدًا معاديًا وغاضبًا، على الرَّغم من أنَّه لا يبعد أكثر من كيلومترات قليلة. كانت تُصبّ منه قذائفُ المدفعيَّة الثقيلة لتُحيل البلدات الثائرة إلى أنقاضٍ، بينما تنشأ تحت الركام حياة كاملة من السراديب والأنفاق والملاجئ، تعمل بشكل يوميٍّ، وتوفِّر فرص عملٍ للمئات من القادرين على الحفر.

اتَّخذ مقرَّه تحت أحد البيوت، ومنه بدأت رحلةٌ لم يعرف أنَّها ستقوده إلى قلب مملكة الرعب بعد حين.

وضع الكاميرا أمامه. الإضاءة المعتمةُ على الخلفيَّة، والوجهُ الصخريُّ الملتحي بغضون عميقة مُضاءٌ بوضوح بكلِّ تفاصيله. ابتعد فيديل إلى الخلف، تركه يواجه الكاميرا ويحدِّق فيها وهمس للمقاتل الذي يحمل حزامًا من التي أن تي:

ـ بسّ تكون جاهز، احكِ شو ما بدَّك؟

توارى تحت القماش ليمنع أيّ ضوء عن الشاشة. وضع السمّاعتين على أذنيه محدّقًا في المونيتور. ران صمتٌ، ومرّت الدقيقة الأولى لصورة الرجل يحدّق في الفراغ، ثم بدأت الكلمات تخرج منه متهدِّجةً، مشبعةً بماء الذاكرة، مصرًّا على الفصحى، مُخْلِصًا لمهنته الأصليَّة كأستاذ لغة عربيَّة:

ـ تخيَّل يا أستاذ أنَّ ابنتك ذات العشرين شهرًا، حُرقت قدماها

حتى تفحَّمتا رائحة اللحم المشوي، تشمُّها وأنت لم تأكل منذ يومين. تجعل غريزتك لعابك يسيل جوعًا، لكن يديك المربوطتين إلى الخلف تمنعانك من مسح الريالة التي نزلت على جانب فمك الأيمن.

ويدٌ غليظة، ترغم وجهك على الاستدارة إلى الجهة المقابلة. تغمض عينيك، كي لا ترى كيف يتناوب رجلان على اغتصاب زوجتك.

واحد منهما تعرفه حقّ المعرفة، من القرية المجاورة. كان لطيفًا في يوم من الأيَّام، فقيرًا مثلك، تبادلتما سابقًا الشكوى من الحياة والعزاء بالبقاء، على ما تعتقد. تصفعك اليد الغليظة، تفتح جفنيك، ترى وشمًا للقائد الخالد على ذراعه. تحاول أن تشتِّت انتباهك بأيٍّ طريقةٍ ممكنة، كأن تموت مثلًا، من دون جدوى. فهمهمات ابنك البكر ذي الثلاثة عشر عامًا، وهو ينزف في الزواية، تحثّك لتنتبه، والطعناتُ السبع التي تلقَّاها جسده لم تُهمده بعد. لكنَّه يلفظ ما تبقَّى له من قسمة الأنفاس، ويده تتحرَّك قليلًا مصوَّبةً إليك، وعيناه المتسائلتان المذعورتان تطلبان منك أن تفعل شيئًا، أو كأنَّه يريد فقط أن يلمسك.

تعاتب نفسك، كم قصّرت معه. وتندم لأنَّك لم تلمسه كفاية طوال تلك السنوات، وكم أوهمته وطالبته باحترام رجولتك وأبوّتك؟ تتمنَّى أن تصحو وتجد ذلك كلّه كأنَّه كابوس، لتأخذهم جميعًا وتهرب إلى الغابة، إلى أبعدِ نقطةٍ قبل أن ينتصب الإنسان على قدمين؛ إلى عصر الكهوف؛ إلى البحر، وتُغرقهم إذا أمكن بلا جدوى، فأنت تغرق في وسط الحياة تمامًا. وقبل أن تفكِّر في الصراخ أو البكاء أو الشكوى إلى السماء، تخرج من جسد الرضيعة فأفأة مرتبكة. فمها

الملطَّخ ببقايا الطعام، يقول لك: بابا.

تستدير. هبطت يد ابنك. زوجتك بالطبع لا تبتسم، لا أحد يقول شيئًا هدأ الضجيج.

تركوك حيًّا وغادروا.

تُرى، ما الذي تفكِّر فيه الآن إذا دخلت على الفيس بوك؟!

تُرى، هل يهمّك فعلًا ماذا يسمِّيك العالم؟ إرهابيًّا، طائفيًّا، إسلاميًّا أو خرائيًّا؟ الكلّ ضحك عليك وهرب منك. وحدها بندقيّتك هي ما تبقّى من عائلتك. وحدها فقط تعوّل عليها. كلّ ما تريده بعضُ العدالة كي تستطيع أن تموت بألم أقلّ.

العدالة التي لن يمنحها إيَّاها أحد سوى بندقيَّتك.

صمت مشبوح لرجل يحدّق في فراغ الكاميرا كأنَّه يخاطب الكون أجمع.

لم يعد فيديل قادرًا على إخراج رأسه من تحت القماشة السوداء. لم يكن يمتلك الجرأة للنظر إلى هاتيك العينين مباشرة، كأنَّ اللغة ذابت، وخرجت قطعان من المشاعر العارية تمزِّق صدره، وتغرز فيه أنيابها المتقطِّرة بالسموم والشرور.

أحسَّ بالسخرية من العمل؛ من التوثيق؛ من الحقيقة؛ من عبث العالم الشيطانيّ العاري. كان عليه أن يدفن ذلك كلّه، ويهدأ، ويستمع من جديد.

* * *

ـ أنا بحياتي ما حملت سلاح.

هكذا افتتح الشابّ أصفر الوجه كلامه، فبدت علامات الشحوب عليه متناقضةً مع صوته الملوَّن الواثق، وخصوصًا عندما تنقَّلت لغته

برشاقة بين العامِّيَّة والفصحى:

ـ أصلًا السوريين كانوا أقلّ شعب بيفهم بالسلاح. لك ما كانوا يعرفوا يستخدموا مسدَّس. وأنا مهما صار ما راح إحمل سلاح. بساعد المقاتلين إيه. بخدم بالمشفى الميداني أكيد. بس مستحيل إحمل سلاح. ليش؟

السبب بسيط كثير. من شي ١٥ سنة حملت بندقيَّة صيد كانت ذخيرتها تُصنع في المنزل، يتباهى أخي بدقَّتها أمام أصدقائه. رأيت طائرًا على عريشة العنب، أخذتها من يده وصوَّبتها نحوه. كبست على الزناد فسقط الطائر من الأعلى. صفَّق لي أصدقاء أخي لبراعتي، وتوقَّف هو عن سخريته منِّي التي سَبَبُها أن لا دخل لي في شؤون الصيد أو التصويب الدقيق. تركت البندقيَّة معهم. ركضت صوب الطريدة شاعرًا بالفخر، فهذه أوَّل مرَّة أنجح في إرداء طير. تحت عريشة العنب في كرمنا، كانت العصفورة تحتضر، في منقارها دودة صغيرة، وفوق العريشة كان عشٌّ يضمّ ثلاثة زغاليل، تزقزق بخفوت، وكان أحدها ينظر إليّ، إلى الأسفل.

* * *

يريد أن يتكلَّم، لكنَّه طلب أن يتلثَّم قبل أن يبدأ:

ـ ليك نحنا فقراء، نحنا يلِّي عمَّا نموت من الجهتين. كذَّاب يلِّي بقلَّك إنَّها كرمال الفقرا. هاي حرب على الفقرا. أنا مشتاق لرفقاتي بالجيش، وبقلَّك إنُّو أحيانًا بزعل عليهم مثل ما بزعل علينا.

السوريين شجعان كثير، وحتى يلِّي مع النظام. صحيح أنا زعلان منهم، بسّ هنِّي شجعان. لولا شجاعتهم ما بيظلّ بشَّار الأسد ولا لحظة. هنِّي كمان ما عندن خيار. ليك بدِّي إحكيلك شي عنهم، شفتو

بعيني قبل ما إترك الكتيبة يلّي كنت فيها بالشمال وإرجع على ضيعتي.

كان في مقرّ لكتيبة بالجيش السوري حاصرناها من ثلاث جهات وطلبنا منهم يستلسموا، بعد ما هرب ثلاثة أرباع قيادتهم الأمنيَّة وتركوهم. ما كان في عندهم أيَّ أمل غير يستسلموا عطيناهم أربع ساعات ليسلّموا حالهم، وطلبنا يطلعوا حاملين مناديل بيض وبدون أسلحتهم، وعليهم الأمان.

حطُّوا بعد ربع ساعة بمكبِّرات الصوت، أغاني دبكة وبلَّشوا يتمسخروا علينا. كانوا بيعرفوا إنُّو ما في إلهن أيّ أمل إلَّا رحمتنا. عددنا فوق الثلاثة آلاف، وعددهم ما بيطلع ميتين عسكري. بمكان مكشوف ما في تحصينات. بلَّشوا يغنُّوا ويرقصوا ويدبكوا ويشتمونا ويشتموا بشَّار الأسد لأنُّو قيادتهم كان فيها تبعتلن تعزيزات أو على الأقلّ تعمل أيّ شيء كرمالهم، بس ما عملت شي. تركوهم لمصيرهم. كانوا فقرا مثلنا. مقاتلين مثلنا، وجحاش أكثر مننا كلَّما ناديناهم، يردُّوا بالرصاص، ويعلُّوا صوت الهوَّارة. كنَّا نسمعهم عم يضحكوا ويرقصوا، وبعدين عرفنا إنَّهم عم يسكروا كمان. عم يشربوا عرق ويدبكوا.

كان معنا مجاهدين شاركوا بالجهاد بأفغانستان والشيشان، بالبوسنة والعراق، خبَّرونا إنُّو بحياتهم ما شافوا هيك.

قبل ما تنتهي المهلة إللّي عطيناهم ياها، طلع صوت النشيد الوطني السوري. حطُّوه بكلِّ الميكروفونات يلّي عندن.

«حماةُ الديار عليكمْ سلامٌ أبت أن تذلّ النفوس الكرامْ

عرينُ العروبة بيتٌ حرام وعرشُ الشموس حمى لا يُضامْ».

أقسم لك بالله نزلت دمعة من عيني. خفت حدا يشوفني. بطَّلع

على رفقاتي السوريين كانوا مدهوشين مثلي. المجاهدين يلِّي من برّا سورية ما كانوا حاسِّين بشي يوم بلَّش القصف. بعد ما فاتوا الانغماسيين وفجَّروا البوَّابات، حاصروا باقي المجموعة يلِّي قاومت لآخر طلقة.

لمَّا فتنا عالمقرّ كانوا كلُّن ميتين، ولا واحد منهم طلع أو هرب. قاوموا لآخر طلقة وهنِّي عم يسمعوا موسيقى. يوم بلَّشوا المهاجرين يفتِّشوا الجثث كان معظمهم شباب أقلّ من خمسة وعشرين سنة من كلّ سورية، من كلّ البلدات والمناطق. ما كانوا من الأقلِّيَّات مثل ما بينحكى. في بعضهم من الأقلِّيَّات، بس كلّهم ماتوا سوريين.

ما قدرنا نفرح بالنصر. إجت الكاميرات وصوَّرت. أنا وكم واحد ما قدرنا نفرح. كانوا ولاد بلدنا مشحَّرين مثلنا، وفقرا مثلنا، وشجعان كثير

آسف أستاذ.

تمالك نفسه، مسح أنفه وعينيه.

الله لا يوفِّق يلِّي وصَّلنا لهون.

خلص ستوب معاد بدِّي إحكي شي. أخت الحرب علِّي عملها.

وخرج بغضب، تاركًا الكاميرا تسجِّل الفراغ الذي خلّفه، وتلتقط شتائمه.

(٤١)

ليل

لم يكن الأمر سهلًا، لكن قالتها بحزم:

ـ أنا ما راح سافر، أنا راح ظلّ هون.

لم تُضف أيٍّ تفصيل عن عودتها إلى دمشق. لم يكن ما قالته مؤلمًا لعادل، لأنَّه ظنّ أنَّ الأمر لم يعد يخصُّ رجلًا آخر يجرح وجوده ذكورته، لكنَّ القرار كان مؤلمًا لنوّار ومحايدًا لميّار.

عادل الذي كان يعرف أنَّ ليل لم تعد تملك نقودًا، أعطاها هذه الفرصة بثقة قائلًا

ـ ابقي، وإيمتى ما بدِّك إحكيني، راح ننتظرك!

شكرت فيديل من أعماق قلبها صحيح أنَّ كلّ التذكارات التي تركها لها في الشقَّة مهمَّة وأكلت قلبها، لكن في هذه اللحظة كان المبلغ الذي تركه لها يحميها من ذلّ السؤال، ويساعدها على اتِّخاذ القرار. الرزم الخمس، ذات الخمسين ألف درهم لكلٍّ واحدة منها، كانت تعادل كلّ ثروات العالم في تلك اللحظة.

الوحدة تأخذك إلى الواحد، ومهما تكن الرفقة عظيمة فهي غالبًا

ما تؤدِّي بك إلى فُرقة. ففُرْقَتُك عن نفسك، وافتقارُك إلى العيش من دون سند، ومواجهةُ المصير من دون أحد، والخوفُ من الوحدة، أمور تصنع لنا رفقة شوهاء.

غادروا بوجوه متعكِّرة، لكنَّهم في الحقيقة تركوها منذ زمن. بكتهم كما يليق يومًا كاملًا، وبعد يومين كانت تودِّع دبي إلى الأبد، متَّجهة إلى بيروت، ومنها تدخل دمشق. تختار فندق سميراميس. لطالما مرَّت إلى جانبه، ولم تفكِّر يومًا في دخوله. كان في وسط المدينة مقطَّعة الأوصال بالحواجز؛ المدينةِ الفوَّارة بالأحجيات، المنهَكةِ من الحرب. بدت دمشق من الخارج، كأنّها هرمت ألف عام في خلال هذه الأعوام الأربعة، لكنَّها ما زالت موّارة بالحياة من الداخل. غريبة ومذهلة قدرةُ أهلها على التكيّف. تنقطع الكهرباء أكثر من اثنتي عشرة ساعةً في اليوم، والمياه بالكاد تأتي، والفقر يجتاح المدينة مثل جذام، ووجوه الناس مكسوَّة بطبقة كثيفة من دهن الصمت.

لم تستطع النوم في تلك الليلة حتى حشت أذنيها بالقطن. لم يتوقَّف القصف طوال الليل على الغوطة، وأصوات رشقات الرصاص جزء من ليل المدينة، وتحليق الطائرات قطعة من ضجيج نهارها.

تناولت إفطارها على مهل، مشوَّشةً وقلقةً من أين تبدأ الرغبة والرهبة ترفرفان حولها وتفضحانها. تحتاج إلى أن تتمرَّن من جديد على المشي في الشوارع، وأن تطلّ على الأماكن، وتقرِّب الهوَّة بين ذاكرتها وواقع حال الشام.

ما إن خرجت إلى الشارع ومشت قليلًا حتى تسمّرت ولم تعد تستطيع الحركة. شلَّتها موجة من الرعب. سقطت قذيفة هاون وسط المدينة، أحدثت هرجًا في الشارع، مع صوت كثيف لسيَّارات

الإسعاف والجيش. كان الجميع يمسك هاتفه ويتحدَّث، يطمئن ويسأل. احتاج الأمر إلى ساعة حتى عاد الشارع إلى مسيره البطيء. شُطِف الدم بسرعة، وفُتح السير من جديد، كأنَّ شيئًا لم يحدث.

المشي في المدينة بمثابة سَحب ورقة يانصيب يوميَّة. أنت لن تعرف أبدًا في أيِّ لحظة تهبط عليك من السماء قذيفةٌ، أو تخترقك رصاصةٌ طائشة.

عادت بسرعة إلى الفندق مصفرّة اللون. قابلها أحد العاملين هناك، ابتسم لها قائلًا:

ـ بكرا بتتعوَّدي.

وجلب لها كأسًا من الماء.

شرح لها أنَّ مصدر القذائف العصاباتُ المسلَّحة، وأخفض صوته وهو يقول:

ـ هيك عم يقولوا. كلّ ما زاد احتجاج الناس، بتجيهم قذائف بتذكِّرهم بنعمة الأمان.

لم تشأ أن تتورَّط في حديث مع مجهول، وهي تعرف أنَّ دمشق تعجّ بجواسيس الأمن والمخابرات، منذ ما قبل الثورة، فكيف ستكون الحال اليوم! وخصوصًا في فندق نزلاؤه أجانب أو غرباء عن دمشق. شكرته وسألته عن أقرب مكان لتبتاع منه شريحة هاتف:

ـ مو بعيد، مليان محلَّات بالمنطقة.

استجمعت قواها ومضت. مشت في اتِّجاه مقهى الهاڤانا، لم تجد فيه غير الرجال فلم تدخل. تابعت حتى فندق الشام، دخلت المقهى واختارت كرسيًّا قريبًا من الشارع، لتتأمَّل الوجوه الواجمة، وقوافلَ الأطفال المتسوِّلين، والبؤس الزاحف في الشوارع. طلبت فنجان

قهوة. وبعد أن هدأت قليلًا، وضعت الشريحة الجديدة في الهاتف، فعّلتها، واتَّصلت بسامية وعيسى، وسألتهما إن كان يمكنهما أن يأتيا.

أعاد عيسى على الفور الاتِّصال بها:

ـ جاي آخدك عالدويلعة لعندي عالبيت وبتلحقنا سامية. الأمر يحتاج عدَّة ساعات حسب الحواجز. احزمي حقائبك. لا تبقي بالفندق، مو مضطرَّة لهالشي.

في المساء، التقتهم كما تلتقي الأرضُ العطشى المطرَ.

***

ـ «لم نكن ندري من هم وماذا يريدون؟» قالت سامية.

كان ذهابنا طواعية معهم. كان برفقتي اثنان من أعضاء الفريق. احتُجِزْنا منفصلين في مكان عادي لثلاثة أيَّام من دون أن يُحقِّقوا معنا. وباءت بالفشل محاولاتي المستمرَّةُ في السؤال عمّا يريدون، ومَن هم، وطلبِ الاتِّصال على الأقلّ بالقادة الذين نتعامل معهم. عرفت في اليوم الرابع أنَّه اختطاف، حين تحوَّل حديث عادي مع أحد الحرَّاس إلى مشادّة كلاميَّة، فما كان من أحدهم إلَّا أن صفعني، وانهالوا بعدها عليَّ ضربًا ورفسًا.

حقَّقوا معي مثل تحقيقات فروع الأمن، باللغة والطريقة نفسيهما، بالترهيب أوَّلًا، ثم محاولة الاستمالة بالترغيب. كانوا يريدون كلَّ المعلومات: مع من نتواصل في الخارج والداخل، هكذا كنت أظنّ. لكنَّنا اكتشفنا أنَّهم اقتحموا المقرّ وأخذوا كلّ المعلومات التي في حوزتنا لم يكن لدينا ما نُخفيه. كان نشاطنا توثيقيًّا وإداريًّا، ولمصلحة المناطق المحاصَرة. كان المطلوب إخفاءنا لا غير. ما أنا متأكِّدة منه أنَّ أحد رفيقيَّ قُتِلَ تحت التعذيب، أمَّا الثاني فلا أعرف ما حلَّ به حتى اليوم.

تمَّ نقلي عدّة مرَّات، وتسليمي من جماعة إلى جماعة. وكنت في آخر سنتين محتجزة في ملجأ لا أعرف أين هو، ولا لماذا احتجزوني؟

كنت منسيَّة أموت في بطء. قاربتُ على الجنون وفكَّرت في الانتحار. فهذا الاحتجاز العبثيّ لا معنى له. في داخلي سخط كبير على أنيس. فحين بعث إليَّ بتلك الرسالة يُخبرني فيها بأنَّه اعتُقل، كنت أعرف أنَّه لن يصمد، وبعدها بفترة تمَّ اختطافنا. في التحقيق الأوَّلي، كانوا يسألونني عنه: من هو، وماذا يريد؟ وكيف دخل سورية؟ وما علاقتي به؟ وكيف تزوَّجت به؟ كنت أظنّ أنَّه سبب ما يحدث لي. وبعد دخولي زنزانة الحبس الانفرادي، تذكَّرت فيلم ابن العمّ رياض الترك.

يجب أن أقتل الخارج. الخارج سيهزمني. التفكير في الحياة خارج الاحتجاز هو نقطة الضعف التي تؤلم. ينهار السجين من الداخل أوَّلًا، وبعدها تفتك به الأمراض.

حوَّلتُ الغرفة التي لا ترى الشمس، إلى مملكتي. بتُّ أنتظر وجبات الطعام، ومهما تكن رديئةً آكلْها، وأستخرج من المخلَّفات أيَّ شيء، للتعامل مع توقّف الزمن. لعبت لعبة رياض الترك مع حبَّات العدس التي كان يجمعها من الوجبات المتتالية. أصنع منها لوحة. أبدأ برصفها مع بداية كلّ يوم، وحين أنتهي منها، أتأمَّلها لدقائق، قبل أن أبعثرها من جديد.

من رياض الترك، الذي أمضى واحدًا وعشرين عامًا في سجون النظام، منها سبعة عشر عامًا وحيدًا في زنزانة منفردة، إلى سيزيف: كنت أستمدُّ من صبر بنلوبي القوَّةَ للبقاء وسط عالم من الفناء الخاصّ. كلّ ما فيه يقول: اطرحي عنك كلّ أمل. ستموتين متعفِّنة هنا.

لم أصدِّق أنَّ الحارس أبلغني قبل أسبوعين أنَّه سيُفرَج عنّي. كان الخبر بمثابة حلم بعيد. لم أصدِّق أنّي أستمع من جديد إلى صوت بشري.

جاءني بعد أسبوع رجل غامض ليقول وهو واقف على الباب:

ـ سيِّدة سامية، الحمد لله على السلامة.

ـ شكرًا، الله يسلِّمك. خير؟

ـ عندي رسالة شفهيَّة لازم وصِّلك ياها.

ـ تفضَّل.

ـ الدكتور أنيس بسلِّم عليكِ.

خفت في تلك اللحظة. فأنتِ تعرفين حال البلد يا ليل. كلّ شيء مشكوك في أمره. بقيت ساكتة خوفًا من أيّ تفاعل، فأقع في مصيدة، وخفت الإنكار فأخسر الرسالة. قال:

ـ سامية، أنت حُرَّة لإنُّو أنيس قايض حياتو بحرِّيّتك.

وقبل أن أسأله أيّ سؤال، غادر مختفيًا.

حجم الخسارة أكبر من الجميع. خسارتي الشخصيَّة لا تهمّ، لأنَّه خياري الحرّ، أمَّا خسارة مَن لا ذنب له، مَن وجد نفسه في توقيت الانفجار وسط فوهة البركان مثلًا، فهذا ما يؤلم. صُدمت بعد أن خرجت. وجدت كيف لاحق الشرخ ولديَّ. شيء لا يمكن إصلاحه أو تعويضه. صار من الواجب أن اعترف على الأقلّ بهزيمتي الشخصيَّة، وأنقذ ولديَّ من الدمار النهائيّ. أريدهما أنَّ يخرجا وأنا سأبقى.

قاطعها عيسى:

ـ أنا راح رافق أولادها. ما عاد الأمر يحتمل، وصار من العبث البقاء. نحنا فقط بانتظار رصاصة الرحمة. وبدّي ياك يا ليل تساعديني

نقنع سامية تطلع، لإنُّو ما عاد في شي نعملو.

ـ بدِّي إسألكم سؤال مباشر وأرجوكم جاوبوني عليه بصدق: لو كنتوا بتعرفو إنتو إلِّلي حرَّضتوا على استمرار الثورة، إنَّكم راح تكونوا الجسر اللي عبر فوقه كلّ المجرمين عالبلد، والآن تغادرون. !

ـ ليل، ليل. على مهلك علينا، ما بدِّي قاطعك.

ـ قاطعتني ومشي الحال!

ـ بالمنطق نفسه، فيني حاكمك، جاية بعد أربع سنين لتحاكمينا! سألتي شي مرَّة بعيد عن الثورة والنظام، الناس هون كيف عايشين؟

الثورة حصلت لأنَّها كان بدها تحصل حتمًا عملنا كلّ شي منقدر عليه وأكثر من طاقتنا. عملنا عنَّا، وعنك، وعن كثير ناس. إنسي المظاهرات، إنسي المَظاهر، كلّها كانت أجزاء من الحياة. اسألي كيف ظلَّينا بباقي الساعات. اسألي إنُّو معقول يلِّي عم يصير بالبلد أكبر من البلد نفسو. اسألي إنُّو لو كان الموضوع بخصِّ النظام كان سقط وشبع سقوط!

على دم أهل البلد لازم تسقط منظومة، ولازم تتدمَّر معاهدات، ولازم تتغيَّر جغرافيا، ولازم ينعصر التاريخ من جديد، ولازم يطلع المسكوت عنُّو، ولازم يتكشَّف كلّ شيء. وبعدها لازم ينخلط الدم والمال والدين والاحتلال والنفوذ والقرف. ولا حدا بالعالم كان بيتوقَّع. لا عرَّافة ولا محلِّل ولا مثقَّف ولا ابن امرأة، كان بيعرف شو ممكن يصير.

أنا ممكن ظلّ هون لموت مثل أيّ نكرة عادي. بتعرفي إنُّو مشكلتي كلّ ما فكِّر بالموت، إنُّو ما معي حقّ القبر، وإنُّو راح لبّك رفقاتي وأهلي بهالموضوع.

السؤال المنطقي يا ليل هو إنت شو جاية تعملي هون، مو نحنا ليش بدنا نهاجر؟

ـ أنا مستحيل حاكمكم. مشكلتي أصغر بكثير من يلِّي شفتوه؟ وألمي كثير شخصي. بعد كلّ إللِّي صار، لأوَّل مرَّة بيكون عندي قرار، لأوَّل مرَّة بقدر كون حقيقتي، أضعف بكثير من يلِّي شايفيني فيه الناس، وطلعت أقوى بكثير ممَّا كنت أعرف حالي.

أنا آسفة كثير إنُّو ما كنت معكم من الأوَّل. أنا يمكن ما فيني إنقذ شي بالبلد، بس متأكِّدة إنُّو فيني ساعد رجل واحد هوّي حاليًّا بالمكان الخطأ، إنقذوا من نفسو مثل ما ساعدني إستردّ حالي.

بدِّي تساعدوني وصِّل لفيديل بأيِّ طريقة!

لا يمكن معرفة القادم ببساطة لأنَّه غير موجود. كلّ ما يحدث حدث، ونحن إلى الخلف نسير.

(٤٢)

أبو حدّو

كان في عشرينيَّات العمر يمور بالشباب والحيويَّة. كلّ شيء فيه يضحك، ما عدا نظرتَه، فهي تُحيل من يلتقطها إلى مرتعد. كان يمتلك أغرب عينين في العالم، تتحرَّكان بسرعة رهيبة ولا تتوقَّفان عن التراقص في محجريهما. تراقبان كلّ شيء ولا تثقان بأيِّ شيء. بدأ معرِّفًا بنفسه:

ـ أنا محيي الدين، لقبي أبو حدُّو. خيُّو ببساطة، انشقَّيت عن الجيش لإنُّو ما كان عندي خيار. كلّ الكتيبة عملت هيك وأنا معهم. رحنا على حمص، وحمينا المظاهرات، وكانت أيَّام حلوة كثير بعد فترة بلَّش الوضع يختلف. صرنا ننتقل من فصيل لفصيل. حاولت إترك السلاح وإرجع عالحياة المدنيَّة، بس ما عاد يمشي الحال.

يلِّي ما حدا بيعرفه إنُّو لمَّا البني آدم بيقتل مرَّة، وكان راح ينقتل، ما في يرجع طبيعي. حاولت إطلع من البلد. تسكَّعت بتركيا كم شهر. أُصبت بالإحباط والأرق، اكتشفت إنُّو ما في شيء راح يريّحني إلَّا إرجع إحمل سلاح.

شي بداخلي مات. شي أكبر منِّي، أعلى منِّي. الحياة الطبيعيَّة قاتلة. أنا صرت مقاتل. ما بعرف مين عم قاتل، ومين عم حارب، لإنُّو ما عندي مثل الباقين الإيمان بالله سبحانه وتعالى. كنت بعرف شي واحد: يا بقاتل، يا بنتحر.

مرَّت ثلاث سنين كبرت فيهم كأنِّي بالأربعين. عمري خمس وعشرين سنة. كنت إسمع مشاكل الناس بهالحياة وحسّ بتفاهة كلّ شي.

قاتلت، وكنت قريب لشوف أرواح بعضهم عم تطلع. وكمان رفقاتي ماتوا بين إيديي، لفظوا أنفاسهم بوجهي. في واحد منهم طار جزء من دماغه. قرَّبت عليه، مدِّيت إيدي لأرفع راسه، فانزلقت بجوف جمجمته الساخنة، وعيونه عم ترمش وتتطلَّع فيني.

أنا ما كنت أؤمن، لا بالدين ولا بالجنَّة. بسّ بهداك اليوم لمّا صابت الشظيَّة مستو وشقّت بطنه واندلقت أمعاؤه لبرًّا، ظلَّ يحاول يرجِّعهم. منظر قعدت أتأمَّله عاجز عن فعل أيّ شي. كانت أمعاء حارَّة ورديَّة اندلقت على الأرض، وتلغمطت بالتراب، وعم يطلع منها بخار.

من هداك اليوم ما عدت حسِّيت بشي. أنا هلَّق ولا شيء بيقرِّفني أو بيقزِّزني. ماتت روحي. ماتت كثير. أصلًا أنا ميِّت من جوّا.

مستو، ابن العشرين، مات وما بيعرف مَرَا بحياته، قام كتب واحد على الفيس بوك شغلة زعجتني أكثر من موت مستو. تصوَّر كتب الحيوان:

استشهد مستو وهو يحلم باليوم الذي تعود فيه سورية إلى السوريِّين.

صرت إبكي مثل طفل وإتعذَّب. بكيت وبكيت. خفت من عذاب الآخرة. اكتشفت إنُّو إلي أسرة كبيرة بالعالم، إخوة من كلّ الجنسيَّات، وإنُّو طاعة أميري وليّ أمري هي طريق نجاتي. كان تنظيم الدولة صار حقيقة، وعناصره أكثر ناس ساعدوني. كنَّا متشابهين من كلّ جنسيَّات العالم، متشابهين من جوّا، ومو ضروري إنَّه الكلّ مهتمّ بالإسلام. بس كنَّا محتاجين لفكرة قويَّة تجمعنا لنقدر نتبادل العزا ونساعد بعض.

وبعد شهر سمعت الكلمة السحريَّة لأوَّل مرَّة بحياتي: انغماسي. اختار القائد أسماء الانغماسيين، صاروا يفرحوا ويهنّوا بعضن.

هؤلاء هم الأبطال الذين سينغمسون بين صفوف العدوّ، نسبة نجاتهم لا تتعدَّى الواحد في الألف. من ينجُ منهم يكُنْ له شرف الاختيار في عمليَّة استشهاديَّة.

كان بعض الأخوة من الخليج. يلِّي بتطلع أسماؤهم بقوائم الاستشهاديين، بيدفعوا مصاري كتير ليلِّي بيجي اسمو قبلهم بالقوائم لياخذوا دور أقرب، ليكونوا أسرع بالوصول للجنَّة. كانوا يتسابقوا ليتفخَّخوا ضحكت من سذاجة الناس إللِّي بتظنّ إنُّو هدول مرضى أو حمقى. كانوا أذكياء، وعندهم كلّ شي. حياة مرفَّهة، تعليم عالي، شهادات جامعيَّة من جامعات لندن وباريس ونيويورك.

ما شفت مثل هيك أبدًا. حلم بشر إنُّو يتحوَّلوا أشلاء، لأنَّ الإسلام ما بينتشر إلَّا بالأشلاء، وكلّ قطعة من الشهيد بتحملها عشرين حوريَّة بالجنَّة، بتنظِّفها وبترجعها من الجسد الفاني إلى الجسد الأزليّ.

بس أنا خيُّو ما بدِّي كلّ هاد. هربت وإجيت لهون، لمطرح ما في ولاد بلدي. أنا ما بدِّي موت، وبالوقت نفسه قرفان عيشتي.
وحلّها إذا بتنحلّ!

أنا مُحارب، وما عاد فيني عيش على هالأرض إلّا كمحارب. أن أقتل فهذا آخر همّي.

سأله فيديل، ثم ندم على مقاطعته لأنّه أوقف استرساله:

ـ يعني ما بتعنيلك الجنَّة؟

استفزَّه السؤال فصرخ:

ـ أيّ جنَّة يا رجل؟ الجنَّة هون، وهون، وأشار إلى رأسه، ثم إلى قضيبه.

خيُّو، والله هالحكي بتنتاك أمِّي عليه. أكيد ما راح تطلع صورتي ما هيك؟ خلص، طفِّيها، طفِّيها لأخت هالمنيوكة.

لم يُجب فيديل، لأنَّ أبا حدُّو كان قد غادر، تاركًا الفريقَ في خرسٍ تامّ بلا قدرة على التعليق.

تُروَى الحكايات أمام العدسة الشرهة. تتواتر وتتكاثر. يبحث الصحافيُّون والكتَّاب عادةً عن قصص لاصطيادها. هنا يكفي أن تضع الكاميرا في الشارع، وتختار أيّ إنسان، بصورة عشوائيَّة، لتكون أمام حكاية مذهلة.

تتكدَّس الحكايات في قلب الأشرطة، ويتابع الموت عمله اليومي كأنَّه جزء من روتين الحياة. لم يقطعه إلَّا طَرْقُ باب الدار التي يقطن فيها. فتحه ليجد نفسه أمام ملتحٍ بعتاده الكامل.

رجل في الأربعينيَّات من العمر، عَرَّف عن نفسه بأبي قتادة. بعد حديث ودّيٍّ مليء بالكثير من النصائح والإيمانيَّات، سأله مباشرة:

ـ الأخوة في تنظيم الدولة مهتمُّون بأمرك. إن كنت مستعدًّا فلديهم عمل لك.

ـ مهتمُّون بأمري، أم بعملي؟

ـ بصراحة، يحتاجون إلى مخرج مثلك، يعرف التعامل مع الكاميرا، ولغته الإنكليزيَّة جيِّدة ويكون ملتزمًا شرعيًّا. نحن رأيناك خلال هذه الفترة، والشهادة لله أنَّك مثال للأخ الملتزم المخلص في عمله. هم يعرضون عليك الراتب الذي تريده، وستكون مسؤولًا عن القسم التقني والفنِّي وتدريب الموظَّفين هناك.

ـ بصراحة، لم أخطِّط لذلك. كنت أنوي أن أُنهي فيلمًا تسجيليًّا هنا

ـ القرار قرارُك.

ـ لكن، هل الوضع آمن هناك فعلًا؟

ـ أنت إعلاميّ يا أخ فضل. أكيد سيكون عليك أن ترى بنفسك، ولا تستمع إلى الشائعات. في كلّ الأحوال، هم مستعجلون قليلًا، لديهم فيلم، وقد رشَّحوك لتقوم بتصويره. حين تكون جاهزًا سنوصلك إلى هناك بأمان.

ـ سأفكِّر وأخبركم بالأمر.

ـ شيء واحد يا أخ فضل، ستكون وحدك، ولن يعرف أحد بهذه الدعوة حفاظًا على سلامتك. سأبعث إليك غدًا صباحًا بأحد الأخوة ليعرف رأيك. إن كنت موافقًا نغادر في المساء.

أمضى ليلة كاملة إلى مائدة الظنون، تنهشه المخاوف ويردعها الفضول. توصَّل مع الفجر إلى القرار: من الغباء أن أرفض أو أقبل، إنَّها مسألة في المنتصف تمامًا. فيفتي فيفتي. أمسك قطعة نقديَّة وقال: إن جاءت طرّة فسأطير، وإن جاءت «نقش» فلن أفعل. رماها. فتشقلبتْ واستقرَّتْ في كفِّه.

(٤٣)

أنيس

رُميَ مكوَّمًا بين إطارات كاوتشوك وروائح قيء ودم متجمِّد. قطعت به سيَّارة النقل، وهو في هذه الحال، أكثرَ من نصف يوم من المسير إلى المجهول، بعد أن غطُّوه بشادر سميك.

لماذا لم أقاوم؟ إن كان هذا الحكم المبرم بالموت قد حلَّ عليَّ، ويقيني يؤكِّده. أيّ جبن جعلني أوافق على أن أبقى حيًّا حتى اللحظة!

كان يُحاكي نفسه ثم يعتقها. يداهمه النعاس. يتحرَّر من ثقل الجسد ليستفيق مرَّة أخرى عند مطبٍّ جديد. وكانت تلمع في رأسه بارقة خلاص مع كلّ شهيق وزفير من أنفاس اليأس.

حتى لو كانت الحياة بهذه الوضاعة، فقد بدا مستعدًّا للتضحية بكلِّ شيء من أجل أن يبقى يتنفَّس. هل هي قوَّة الحياة، أم غطرسة النذالة.

التقلُّب في قلب أفكار إدانات الذات، يحمل تلك اللذَّةَ المريبة لتمرير الوقت العبثيّ والمضي في اتِّجاه المجهول. أيقظته أوامر الحارس بالنزول. الرأس المكمَّم بغطاء سميك، واليدان المقيَّدتان،

والجسد المتيبّس من ساعات المسير الطويل، جعلت المسير عذابًا لا يُحتمل.

فكُّوا وثاقه في غرفة الاحتجاز. جلبوا له قنّينة ماء ورغيفَ خبز وحبَّةَ طماطم وخرجوا. شرب بهدوء عدَّة رشفات، وأكل من دون شهيَّة.

انقضى اليوم وهو عاجز عن تقليب أيّ فكرة في رأسه. يُرهف السمع إلى الضجيج المتواصل في الخارج من دون أن يطرق بابه أحد.

قصف عنيف يهزُّ جوار المكان. يُفتح الباب، يدخل منه أربعة معتقلين في حالات رثّة اضطرُّوا إلى وضعهم معه.

تبعتها توجيهاتٌ صارمة من الحارس:

ـ إذا سمعت نَفَس أو صوت ما تلوموا إلّا حالكن.

امتثل الجميع في البداية. تقوقع الأربعة على أنفسهم. أحدهم، الأضخمُ جثَّة، تعالى نشيجه، ويضع رأسه بين ركبتيه. الثاني يحمل يده المتورّمة ويكابد ألمًا حادًّا بصمت.

قابلهم في البداية من دون مبالاة، فوجودهم يشوّش وحدته التي اعتادها ينظر إليهم بعين الريبة والشكّ. فجيعته الذاتيَّة أكبرُ من أيّ تعاطف مع أيّ أحد في العالم.

يُغدق على نفسه الذمّ حتى يغدو مُدانًا تمامًا، فلا يتوجَّب عليه حينها أن يقوم بأيّ شيء. في داخله ما يحرّضه ويستحثّه على الإشفاق عليهم. فعلى الرَّغم من كلّ ما حدث، فإنَّ مشاعر التعاطف والرغبة في مساعدة كلّ متألّم يبدو كأنَّها ما زالت حيَّة فيه. اقترب من الشابّ ذي الذراع المُصابة، وهمس له:

ـ خلّيني شوفها. أنا دكتور.

نظر الشابّ حوله بحيرة المرعوب وبعين المنكوب الباحث عن أيِّ رجاء، وسلَّمه ذراعه.

جسَّها بهدوء، وتأمَّل كسر الساعد. العظم منزاح، ويحتاج إلى تجبير سريع.

ـ راح رجِّع العظم لمكانو، بدَّك تتحمَّل الوجع.

هزَّ الشابّ رأسه وعيناه تشعَّان ببريق الامتنان وانكسار الخوف. لفّ له قميصه عدَّة لفَّات:

ـ عضّ عليه. حاول لا تطلِّع صوت، مثل ما بقولوا: وجع ساعة ولا كلّ ساعة.

دنا منهما شابّ. حضن المتألِّم مكسور اليد من الخلف:

ـ إذا بدكن بساعدكم.

اقترب ثالث منهما للمساعدة، مشجِّعًا زميله على كتمان أنينه. حتى الرابع الغارق في صمته، شهّل رأسه ليراقب ما يحدث.

مسَّد أنيس اليد بهدوء، وبحركة واحدة أعاد العظم المكسور النافر إلى مكانه، وصنع الجبيرة بقطعتين من الورق المقوَّى، من بقايا علبة كرتون وجدها، ولفّها بقميصه الذي مزّقه إلى عدّة أقسام.

لم يتحوَّل الألم المكظوم إلى صرخة، بل إلى حركة تشنّج للجسد المتلوِّي، لتدمع عيناه ويكاد يغيب عن الوعي. سقطت لفافة القماش المبتلَّة باللعاب من فمه المُزبد اللاهث، ليسترخي بعد حين شاكرًا الدكتور.

* * *

أرشدنا المهرِّب إلى أن نسلك طريق الشمال إلى تركيا، ومنها إلى أوروبا. كنَّا ثلاثة وعشرين نفرًا كما يُسمّينا، حين أوقف الباصَ الذي

يقلّنا حاجزٌ لم نعرف إلى أيّ فصيل ينتمي عناصره.

احتجزونا يومين. كان معنا شابٌّ مسيحيّ وآخر إسماعيلي، لا ندري إلى أين سِيقا؟ وبدأ التحقيق مع الباقين. يريدون معرفة مَنْ نحن ومن أين جئنا، وماذا نعمل، وماذا يفعل أهلنا؟ اثنان منّا كان لديهما أخوة مغتربون، طلبوا منهما أرقامهم وبدأوا يساومونهم بشأن الفدية. أمَّا نحن الفقراء، الذين لا نملك ما يُساوَم أهلُنا عليه، فباعونا أو سلَّمونا إلى جماعة أخرى. لم نعد نعرف لِمَ لَمْ يشفع لمعظمنا أنَّنا أولاد مدن ثائرة؟!

بقينا في مستودع للعجلات، وجاءت مجموعة أخرى تولَّت التحقيق معنا.

أبو مصعب النجدي، قال لنا:

ـ مَن منكم خرج في مظاهرات ضدّ النظام؟

رفع بعض الشباب أيديهم فأمرهم:

ـ تعالوا إلى هنا؟ مَن منكم عمل مع تنسيقيَّات الثورة، أو كان في فترة الحراك السلمي.وساهم في أيِّ نشاط: إغاثة، طبابة، إعلام؟

انتقل الجميع إلى الجهة اليمنى، وبقينا ستَّة أشخاص على باب الله. عمَّال مياومون لا دخل لنا في هذا كلِّه. كنت أودّ أن ألتحق بالشباب، لكنَّني خفت أن يسألوني عمّا لا أعرف الإجابة عنه:

ـ أنا ما بعرف لا شو يعني ثورة ولا شو يعني نظام. أنا زلمي ما دخلني بشي ولا بحدا، على باب الله.

قام ابن الحرام بصفِّهم على الحيط، وقتلهم واحدًا واحدًا.

نحن الستَّة لم نكن نصدِّق ما نرى. كيف يدَّعي هؤلاء الغرباء أنَّهم جاؤوا لنصرة الشعب السوري، ويقتلون مَن قام بالثورة أو شارك

فيها مخلصًا!! كنَّا نظنّ أنَّنا نحن الجَهَلة من سيُحكم علينا لأنَّنا لم نشارك، فأخذونا إلى مهجعٍ آخر.

جاء مقاتل، واعتذر إلينا عن سوء المعاملة، وأخبرنا بأنَّ أصحابنا الذين أُعدموا من الصحوات المرتدِّين! وقال إنَّه يحبّ الشام وأهلها، ودعانا إلى الانتماء إلى التنظيم، فنحن في حاجة إلى من يهدينا ويعلِّمنا الدين وينقذنا من الضلال.

وافقنا، وشكرناه مسايرةً، فأخذنا إلى مطعم لنأكل، وأولانا عناية مبالغًا فيها، ثم دعانا إلى الحمَّام لنغتسل ونتنظَّف ونتجهَّز!

في تلك الليلة التي لا تُنسى، دخل ثلاثة عناصر من تنظيم الدولة بقوَّة السلاح:

ـ طلبوا منَّا نشلح أواعينا وعطونا حبَّة دواء زرقا ڤيغارا، ڤيرغا.

صحَّح له أحد رفاقه:

ـ ڤياغرا.

ـ إيه، إيه. هاي.

طلبوا من أوَّل واحد منهم أن يقوم بنَيْك أحد العناصر فرفض، استجار بهم بالله، واستحلفهم بالقرآن والرسول والكعبة الشريفة أن يعفوه من ذلك.

لم يشفع له رجاؤه واستحلافه فقتلوه أمامنا. بقينا خمسة. جعلونا نتناوب عليهم لساعات. كانوا مجرَّد مجانين حقراء.

تركونا وغادروا وهم يضحكون. في الصباح، وجدنا شعبان وقد شنق نفسه.

ما تحمَّل، يمكن لو اغتصبونا أسهل. إنَّك تُجبَر على إنُّو تلوط

واحد غصبًا عنك شيء بيكسرك وبيوجّعك، يمكن أكثر من العكس، لإنُّو بحوَّلك لضحيَّة وجاني بالوقت نفسه.

بقينا على هالحال شهر. كلّ يوم، لحتى من يومين تعرَّضوا لهجوم وقصف فهربوا وأخدونا معهم. أنا كنت بدِّي أهرب وقعت وانكسرت إيدي، واليوم نحنا هون، وما بعرف بكرا لوين. قول نحنا عزَّابيَّة. بس محمود عندو ولاد. كثير قاسي إذا كان عندك ولاد.

غرق المكان في الصمت الثقيل. وفي كنفه غفا الدكتور أنيس كأنَّه يتلحَّف به. يتغطَّى بالصمت. يتمنَّى التوقُّف عن سماع أيّ شيء، أو أيّ أحد. فقط كلّ ما يريده هو صمتٌ نهائيٌّ وأبديٌّ.

(٤٤)

فضل

وصل بعد يومين في رحلة لا يعكِّرها شيء. فتحت حواجز المقاتلين الأولى له الطريقَ ما إن تعرّف عناصرها إلى أبي قتادة.

نقلوه إلى شقّةٍ فخمة: مقرٌّ إقامة كبار الضيوف، في أرض يسيطر عليها تنظيم الخلافة؛ أغرب تجمُّع بشري عرفه التاريخ.

تحوَّل القلق من هذا المكان الغامض بالتدريج إلى دهشة. فالبناء الذي استضافوه فيه كان مخصَّصًا مركزًا لاستقبال الملتحقين بالدولة من الغرب.

يصل في كلّ يوم ما بين خمسين ومئة غربي من كلّ أنحاء العالم، محمَّلين بكلِّ أنواع التوقُّعات. يصلون، في رحلة محفوفة بالمخاطر. يتحمَّلون كلّ الأهوال لتطأ أقدامهم أرض الميعاد الجديدة.

في المطعم الصباحيّ جناحان، قسم للرجال وآخر للنساء والأطفال. يمكن أن تسمع خليطًا من لغات العالم. الفرنسيَّة مزدهرة جدًّا، وهي اللغة الثانية نُطقًا في معقل التنظيم. كان أغلب المجتمعين في دار الضيافة من ذوي البشرة البيضاء والعيون الملوَّنة. فرنسيُّون، سويديُّون، فنلنديُّون، ألمان، هولَّنديُّون، والكثير من الإنكليز. مسلمون

أصلًا أو حديثو العهد بالإسلام. مكان تجمَّعت فيه عصارة العالم لبناء الحلم الغريب. هنا لا ترى ما يحاولون أن يروِّجوه في الإعلام، ولن تفهم تمامًا في الأيَّام الأولى ما الذي أتى بكلٍّ هؤلاء؟

يأتي الأوروپيُّون إلى هنا طلبًا للمجد في وقت يهرب السوريُّون إلى أوروپا طلبًا للنجاة. صارت القرى والبلدات تُسمَّى: لندن الصغرى؛ برلين الصغرى؛ باريس الصغرى! كلّ ما تسعى إليه الحداثة وتحاول فرضه من التناغم بين البشر المختلفين، كان يتمّ في هذه البقعة، بسلاسة لا مثيل لها.

اجتمع إلى طاولة الإفطار اللذيذ، المجهَّزة بإشراف طاهٍ فرنسيٍّ وطاقم فندقيٍّ من جنسيَّات مختلفة، بطبيب ومهندسَين وخرِّيج اقتصاد من السويد وإنكلترا وألمانيا لم ير حماسة لفكرة غامضة، كدولة الخلافة، مثلَ حماسة هؤلاء الأذكياء. فهم لا يعانون الاضطهادَ، ولا تنقصهم المهنةُ ولا الحياةُ المريحة في بلادهم!

بدأ رأسه يبثّ الشكوك. لعلَّهم من أجهزة مخابرات دوليَّة. فحماستهم للحديث عن مهمَّتهم في صناعة اللحظة الكبرى في التاريخ لا يمكن وصفها.

قال الألماني:

ـ إنَّها أسعد أيَّام حياتي. لقد وُلدت من جديد.

أجابه:

ـ تعرف تمامًا أنَّك قد لا تستطيع العودة، ويمكن أن تُقتل ببساطة هنا.

ـ لم أعد أخاف الموت، ما أخافه اليوم أن أعود إلى ذلك النوع من الحياة العفنة والمقزِّزة والتي أفنيت فيها خمسة وثلاثين عامًا من

عمري. إنَّها إشارة الله العظيمة أُعطيت لنا، ونحن أهل للفوز في الدنيا وفي الحياة الآخرة.

كيف انقلبت الأمور رأسًا على عقب، فأمثاله عادة من العرب والمسلمين يتحدَّثون مع الآخر الغربيّ المشكِّك دومًا. وها هو اليوم بين رجال غربيِّين في منتهى الذكاء، يتحدَّثون عن الدعوة الإسلاميَّة بحماسة وإيمان وتسليم، بينما يقف فيديل مثل المشكِّك الوحيد بينهم في نجاعة هذا الشيء.

عاد إلى غرفته. رتَّب أوراقه، وشحن بطَّاريَّات الكاميرات. تسلَّل وجه ليل. أيّ استسلام له سيبدأ بسماع صوتها، ثم لن يستطيع وقف سيل صورها. ستحاصره من جديد، فاتحةً خزّانَ الشوق الذي لا يُحتمل.

حدَّث نفسه: عليَّ الانشغال بأيِّ شيء. فهذه المشاعر ستصبح مدمِّرة تمامًا إذا لم أتعلَّم التصالح معها

ساعده صوت أذان صلاة الظهر على الهرب من صوت الحبِّ. نزل إلى قاعة الاستقبال. سأل عن الطريق إلى المسجد. أخبره أخٌ وديع الوجه بأن ينتظر قليلًا ليأتي من يدلّه عليه في الجوار. كان مسجدًا يؤمّه المهاجرون، وهي التسمية لكلِّ القادمين الجدد من بلاد العالم، إمامُه ذو صوت شجيّ من بلاد الحرمين. المكان نظيف جدًّا، وكلّ شيء فيه منظَّم، والقادمون الجدد هم الأكثر حماسة ليكونوا في الصفوف الأماميَّة.

رجع بشعور طفيف من الرضى، والكثير من الفضول. قابل أبا قتادة الأربعينيّ، قال له:

ـ جئت لأودِّعك. أنا مغادر في مهمَّة. أتمنَّى من الله أن يوفّقك هنا.

لم يستطع أن يبادله المشاعر نفسها. ردَّ عليه بلطف، وتوجَّه إلى

جناحه الخاصّ، فاستوقفه رجل في غرفة الاستقبال مناديًا:

ـ شيخ فضل، السلام عليكم.

ردَّ السلام متسائلًا:

ـ تفضَّل معنا، يريد الأمير أن يراك.

جلس الأمير داخل مكتب وثير الأثاث عديم الذوق، وأمامه شاشتا ماكنتوش وجهاز آي فون وآي پاد، مستندًا إلى قاعدة جلديَّة. بدا بعباءته البنِّيَّة المذهَّبة ولحيته البيضاء وعمامته السوداء، رصينًا مهيبًا. بدا شخصًا متناقضًا بحضرة هذه التقنيَّة: آخر مقتنيات الحداثة، يستعملها رجل من أعماق التاريخ.

ـ السلام عليكم.

ـ وعليكم السلام، شيخ فضل.

نزل صوته الأليف الرخيم في عقله يستحثّ ذاكرته التي جالت بين آلاف الوجوه، لتُخْرِج له تلك الصورةَ القديمة، فلم يصدِّق مَنْ يرى، فصرخ:

ـ معقول، الشيخ غسَّان!!

وهجم عليه فاردًا ذراعيه. وقف مرتبكًا وقابله بالحميميَّة ذاتها. انتبه إلى مجموعة من المستشارين يجلسون في المكتب الكبير وقد علت على وجوههم ابتساماتٌ حائرة. استردَّ الشيخ غسَّان، بعد زوال الدهشة، المسافةَ التي يجب أن تفصله عنه بحكم موقعه الجديد، لكنَّه أبقاه قريبًا بما يكفي ليرسل إلى جموع الحاضرين رسالةً بشأن علاقته به. وبدأ معرِّفًا:

ـ الأخ فضل، واحد من خيرة شباب المسلمين الذين التقيتهم في جامع لندن. مثال حيّ على الروح التي تبحث عنها الأمَّة. إبداع فطري

وهبه الله جلّ وعلا، وجعله من أفضل مَنْ يتعامل مع الصورة المرئيَّة. توسَّمت فيه خيرًا منذ سنوات طويلة. شاهدت تقاريره المذهلة. صحيح أنَّ فيها بعض التجاوزات الشرعيَّة، لكن فضل أحد أكثر العقول الإسلاميَّة فهمًا لعقليَّة الغرب. متمكِّن من أدواته، مشهود له بالنزاهة والعلم والمعرفة.

عرفته في لندن في بداية شبابه. كان حزينًا وخائفًا، لكن قلبه مشبع بالقرآن الكريم وحبّ الله. للأسف، اضطررتُ إلى تركه والذهاب إلى أفغانستان وبعدها إلى العراق. كان دائمًا حاضرًا في ذهني كلَّما تذكَّرت أيَّامي في بريطانيا. في كلّ حال، ها نحن نجتمع، بفضل الله وحمده، وقد كتب لنا أن نلتقي على هذه الأرض الخيِّرة المطعّمة بمكرمات الجهاد.

فردَّد الحضور لازمات التفاعل:

ـ ما شاء الله، والحمد لله. تبارك الرحمٰن.

كان يجب أن يتفوَّه بأيِّ شيء بعد هذه الشهادة المبالغ فيها، فأسعفه فضل الذي صار منتشيًا كأنَّه قد تنشَّق خطَّين من الكوكايين النقي:

ـ شهادة منك بألف يا شيخ غسَّان. وكلّ ما أرجوه أن أكون عند حسن الظنّ.

كسرت الألفةُ والودّ كلَّ التساؤلات التي كانت تجول في خاطره، وها هو الأمير يفرش أمامه دروبًا جديدة، ويشرِّع باب الفضول على مصراعيه. كانت الغرابة تذوب في مواجهة قوَّة الحديث الخالي من التصوُّرات المسبقة.

كان ينصت إلى كثير من الألغاز التي تُثير الاهتمام، حتى استأذن

الحاضرين وبقي برفقة الشيخ غسَّان، فعاجله:

ـ نحتاج إليك لتطوير قسم الإعلام ليكون في مستوى الطموح والحدث، بالإضافة إلى إخراج بعض الأفلام الواقعيَّة، بأقوى المؤثِّرات الممكنة. ونريد أيضًا تغطية كاملة عن الشباب المجاهدين والاستشهاديين، تُظهر فيها أنفتهم وقوَّتهم كمقاتلين أشدَّاء يثيرون الإعجاب. الفئة المستهدفة هي العالمُ الغربيّ، شبابُه وشابَّاته من المسلمين، أو الذين يبحثون عن الحرِّيَّة الحقَّة باعتناق الإسلام.

ـ والله يا شيخي سأكون فخورًا بهذا العمل، لكنَّ المعدَّات التي جلبتها معي قد لا تساعد على ذلك.

ابتسم الشيخ غسَّان:

ـ سيتولَّى أحد الأخوة تعريفك إلى القسم وكادره البشريّ والعمليّ، وأنت تسجِّل كلّ الاحتياجات الناقصة وسنأتيك بها.

والتقط الشيخ غسَّان ارتباكه وفضوله، فقال بثقة:

ـ سيكون هذا عَقْدًا موقَّتًا، وإن لم يعجبك يمكنك أن تخبرني بذلك. هناك أشياء ربَّما تكون ملتبسة عليك أو لا تعجبك، نستطيع التكلُّم في ما تشاء هنا.

ـ أودّ أن أقوم بجولة في المدينة، أو حتى في مدن أخرى، إن أمكن ذلك.

ـ بسيطة، سننظِّم لك جولة تتعرَّف فيها بنفسك إلى واقع الحال. صحيح أنَّ الوضع الأمني لا يساعد كثيرًا، لكنَّني سأدعك تطَّلع على كثير من الأمور.

ـ هل أستطيع أن أطرح عليك سؤالًا شخصيًّا واحدًا؟

قال فمه نعم، وعيناه قالت: احذر.

ـ هل تؤمن بالإمارة فعلًا؟ وأين اختفى الشيخ غسَّان الذي عرفته في لندن؟ ألا تظنَّ أنَّ القتل والوحشيَّة يؤذيان الإسلام وصورته؟ وهل.

ـ على مهلك يا شيخ فضل؟ على مهلك. هذه الأسئلة كلُّها ستجد لها الإجابات الحقيقيَّة في أقرب وقت، لكن أرجو أن تبقى محتفظًا بها إلى حين اكتمال الصورة.

ثم طلب الأمير من الحاجب أن يُرسل إليه أبا عبد الله المغربيّ. فدخل رجل يقارب المترين طولًا، بنظرة جامدة، في الثلاثينيَّات من العمر، فأمره بأخذ الضيف للتعرُّف إلى قسم الإعلام، ثم ليقوم بجولة في المدينة، مع الحرص على توفير كلّ وسائل الراحة له. خرجا من بناء الإمارة في سيَّارة لاند كروزر حديثة. قطعا الشوارع الصاخبة بحركة البيع والشراء، وبوجود أمنيّ لدوريَّات الملثَّمين السود، مع دوريَّات الحسبة الشرعيَّة في الأسواق، التي تتأكَّد من أسعار البضائع، وتحثّ الناس على الصلاة في موعدها، وتحاسب مَن لا يلتزم بارتداء اللباس الشرعي للنساء والرجال.

وصلا إلى بناء يبدو أنَّه كان إحدى مؤسَّسات النظام، فاستقبلهما رجل آخر، وسار معهما إلى طابق أرضيّ، حيث يعجّ المكان بالعاملين.

قادهما إلى غرفة الاجتماعات، مرحِّبًا، ثم دعا رؤساء الأقسام للقدوم، فدخل تسعة رجال تقريبًا من جنسيَّات مختلفة، رحَّبوا به جميعًا. كان بينهم تقني من البرتغال، ومخرج ألماني، وخبير برمجيَّات أميركيّ، وخبير بثّ فضائيّ ومعدَّات باكستانيّ، ومدير محطَّة البثّ الإذاعيّ سعوديّ. أمَّا المدير الماليّ، بالإضافة إلى مدير الموارد

البشريَّة ومدير الأقاليم الخارجيَّة والمراسلين، فلم يستطع تحديد جنسيَّاتهم، لكنَّهم كانوا يتكلَّمون العربيَّة الفصحى.

تمَّ تعريفه إلى عناصر فريق العمل، وباشروا بشرح ما يعملون عليه، ووُضعت أمامه الملفَّات العامَّة للقسم. وعلى الرَّغم من أنَّه كان وليدًا، فإنَّه كان يحتوي على معدَّات تقنيَّة كافية لتشغيل محطَّة فضائيَّة بحجم «سي أن أن». وكان الحديث بالإنكليزيَّة في معظم الأوقات. بعدها، التقى فريق المطبوعات، وفريق الإعلان، وفريق الإنترنت والتواصل الاجتماعيّ، وقسم الإشاعات، وقسم الرصد الإعلاميّ العربيّ وقسم الرصد العالميّ، وهذان القسمان يؤرشفان كلّ حرف يُكتب عن تنظيم الدولة في أيِّ بقعة من العالم.

قال لمحدّثه:

ـ لم أصادف من قبل ـ وأنا الذي عمل مع أكثر من خمسين مؤسَّسة كبرى ـ مثلَ هذه الروح المتواشجة العمليَّة.

كان فريق عمل تحلم به أكبر المؤسَّسات الإعلاميَّة ليعمل معها. فريقٌ من الأذكياء المحترفين من ذوي الخبرة الكبيرة بإنتاج الصورة والدعاية ومعرفة خفاياها وقوَّة أثرها.

عرف أنَّ بعضهم انضمَّ إلى التنظيم، جالبًا معه عائلته وأولاده، ليعيشوا في ظلِّ الدولة الوليدة. كانت في كلّ يوم تتكشَّف قطعة من الأحجية أمامه، ويواجهه مزيد من الغموض والأسرار في الوقت نفسه. لكنَّ الاستنتاج الأكبر الذي وصل إليه، هو أنَّ ما يحدث هنا ليس مزحة، ويجب أخذه في منتهى الجدِّيَّة.

المهاجرون ثلاثة أنواع: ذوو خبرات تقنيَّة علميَّة في كلّ مناحي الحياة، من أطبَّاء، ومهندسين، واقتصاديِّين، وخبراء إدارة وتقنيَّات.

أمَّا النوع الثاني فمن المقاتلين النوعيِّين، وهم خبراء تخطيطٍ للمعارك الحديثة، يُتقنون كلّ فنون التعامل مع المتفجِّرات والأسلحة والمفخَّخات ببراعة، ومعظمهم من ذوي الخبرة الفنِّيَّة العالية. وثالث الأنواع من الحالمين بالانتقام من أعداء الإسلام في كلِّ مكان، وهم الأكثر عددًا، وانتهازيُّون أو يعانون الفراغ، أو لديهم سوابق جنائيَّة في بلدانهم. وهم الأكثر تشدُّدًا وغلوًّا وغرائزيَّة. يخضع الجميع لدورات شرعيَّة، أي لدورات أمنيَّة في قالب شرعيٍّ، وذلك قبل أن يُفرَز العناصر إلى قطعات للعمل فيها. فوراء العمل العسكريِّ، هناك منظومة ضخمة من العمل في كلِّ ميادين الحياة. فخلافًا للبلهاء والقتلة، هناك مشروع حقيقيّ. حتى الكثير منهم لا يفهمه، وليس مطلوبًا منه أن يفهمه!

اكتشف فيديل أنَّ الأمر بالنسبة إلى السكَّان المحلِّيين في سورية هو علاقة قَسْر وخوف. يضعون بين الأهالي العناصر الأكثر ترويعًا وتشدُّدًا. فكلا الطرفين لا يثق بالآخر، وسياسة الإخضاع تقوم على الردع والتخويف والرشوة والترغيب. أصحاب الأرض هم الأقلّ حماسة لأفكار الدولة من المهاجرين إليها، وعدد السوريين في التنظيم لا يتعدَّى الثلاثين في المئة، والباقون يتشكَّلون من ثمانين دولة في العالم، بينها كلّ الدول الغربيَّة تقريبًا.

أمَّا ما يُثير الغرابة فعلًا، فهو أنَّ التنظيم يرى في نظام الأسد عدوًّا ثانويًّا؛ عدوًّا يمكن أن يثق به ويتعامل معه. فكلٌّ منهما، يعلم بأنَّ وجوده الآن يحمي الآخر، وكلاهما يريد أن يتفرَّغ لمن يشكِّلون حجر عثرة يشوِّش على مشروعه، أي ببساطة لأهل البلد الذين انتموا إلى الثورة ورايتها ومظاهراتها. فكان البطش شديدًا بهم بلا رحمة، ويقع عليهم من الجهتين. في المقابل، يقوم النظام بإطلاق قادة من

التكفيريين من ذوي البأس من سجونه، ليمدّ الدولة الإسلاميَّة بالمزيد من الرموز الجهاديّين الكبار الذين حاربوا في أفغانستان والعراق، ويسلِّمهم المناطق البعيدة عن مركزيِّته وقوَّته، ويترك لهم أطنانًا من الذخيرة والأسلحة بعد الانسحاب في مقابل تأمين خطوط الإمداد بالبترول والغاز والقمح، التي تصل إليه بأبخس الأسعار.

منفِّذو العمليَّات الانتحاريَّة عادةً يسجِّلون أسماءهم طواعية، وكانوا من العناصر الأقلّ ذكاءً والمشكوك في تقويماتهم. أمَّا الفكرة الخاطئة في أنَّ هؤلاء يفجِّرون أنفسهم من أجل الحوريَّات، فتُثير الضحك لدى حتى متوسِّطي الذكاء في الدولة.

كان قد توصَّل بعد عدَّة أيَّام إلى تبسيط أعقد فكرة يعرفها القرن الحادي والعشرون، وهي: كيف يفجِّر المرء نفسه؟

من اخترعوا العمليَّات الانتحاريَّة عبر التاريخ كانوا ملحدين. ومن يُرِدْ أن يدرس أسباب تفجير المرء لنفسه، فعليه أن يفهم أنَّه شيء من إرادة الاعتقاد. الحزام الناسف هو علاقة عاطفيَّة بالذات؛ انفجارٌ داخليٌّ في الأساس نتيجة تراكم خيبات الحياة المعاصرة على الفرد. كم مرَّة كان يمكن أن يفجِّر الإنسان العاديّ نفسه في الغرب أو الشرق لو توفَّر له الحزام، وفكرةٌ بسيطة مباركة، ورفاقٌ يشجِّعونه على ذلك؟!

انتظم في العمل بصمت متابعًا التعليمات، حاصلًا على كلّ ما يطلبه من معدّات. يختار فريقه بعناية، من مئات الطلبات التي تتقدَّم للعمل في الإعلام.

بات يساهم في إنجاز الصورة المعالَجة المدروسة لإغواء المقاتلين وتدريباتهم. يستخدم الموادّ المصوَّرة في أثناء المعارك، ويضعها في مقاطع ترويجيَّة تحاكي الخيال الجامح للمؤمنين الجدد، لتستقطب المزيد منهم.

كان في كلّ أسبوع يُطلب منه ومن فريقه وضعُ تصوُّر جديد لخلق ڤيديو يتناقله العالم.

ويزداد في كلّ مرَّة إعجابُ القادة بالنتائج.

وفي لقاء الأمير أبي حفص، هكذا كان يُلقَّب الشيخ غسَّان، لخّص ما يريدونه منه:

ـ إن كان العالم تعايش مع أفلام الرعب والعنف منذ مئة عام في هوليوود، لإرضاء نزعته الخفيَّة في القوَّة والسيطرة، والتي تصبُّ في النهاية في مصلحة القوَّة المتحكِّمة في الغرب، فعلينا التوقُّف عن إنتاج صورة متخلِّفة وبدائيّة تخدم أعداءنا.

الفارق بيننا وبينهم، هو في الجودة وليس في الفكرة. فكرتنا أعمق وأقوى، لأنَّنا متحرِّرون من القوانين الوضعيَّة التي ابتكروها من أجل الإغواء والسيطرة. فهم لديهم مُثُل عامَّة بشأن الأطفال والنساء. وما خلقوه لرشوة المجتمع بات يُزعجهم ويجعلهم أقلّ حرِّيَّة في الحركة.

نحن رجال العبور إلى دولة الحلم، علينا تأسيس جيل جديد يحمل روح الجهاد.

نحن جيل النكاية الذي سيُنْهِك الأعداء، بقوَّة الترويع والصدمة، لا يهمّنا صورتنا خارج من يعمل معنا. لا يهمّنا كيف يرانا العالم. المهمّ أن نكون على رأس نشرات الأخبار، ولا نختفي من المشهد. كلّ إدانة لنا هي خدمة لمشروعنا.

يفرض العالم علينا الفنون التي تخدم وجوده وكيانه، ونحن سنستخدم أدواته نفسها لنعلِّمه فنونًا جديدة. جيل التمكين قادم، وهو من سيُعيد صوغ حقوق الإنسان الحقيقيَّة.

(٤٥)

ليل

ودّعتهم بعد عدَّة أيَّام. أمّن لها عيسى مَنْ ينقلها إلى المناطق الشماليَّة الخارجة عن سلطة النظام، وقال لها:

ـ سيستقبلك أحدهم في مستشفى ميدانيٍّ بحجّة أنَّك ستتطوَّعين للمساعدة. ومن هناك سيكون عليك محاولة الدخول إلى حيث يقطن في وسط الجحيم، أو في جنَّة عزلته.

أودّ الالتقاء ثانية بهذا الرجل. إنَّه نصفي أو منتصفي. من أين تأتي الموسيقى بهذه الذاكرة؟

يصبّ في داخلي كلَّ نقاء، وكلَّ نبيذ، وكلَّ حلم، وكلَّ نهاية. إنِّي ذاهبة إلى الأمس فلا شيء أمامي. فكرة واحدة تتسلَّط عليّ: هذا الزمن النقي العائد إلى المصبّ، لم يفهمه أحد مثل سمك السلمون، مثلي الآن وأنا أعود إلى منبع كلّ شيء. من أين تأتي الموسيقى بكلِّ هذه الذاكرة! كدت أقول للسائق أن يُطفئ الصوت، حتى انتبهت إلى أنَّ ما أسمعه كان يلوب في رأسي.

الوصول إلى مناطق محرَّرة ومحاصَرة ومدمَّرة، مثل المشي عكس تيَّار الزمن نفسه. في الطريق يمكن أن يلتهمك قطيع كامل مِمَّن

يعتاشون على الراجعين إلى قمَّة النهر. دببة وتماسيح. صيَّادون جوعى أو صيَّادو متعة. طيور تنقضّ على السرب المجنون. لكن إيمانًا قويًا، كإيمان السلمون، هو ما يمنح القوَّة التي لا يفهمها أحد. تصغي فقط إلى تلك الموسيقى التي تأتي برفقة وجهه الغائب لعلَّها تنجو.

استقبلها شابَّان في العشرينيَّات من العمر، بابتسامتين واسعتين، وترحيب مطمئن. أخذاها إلى أحد البيوت:

ـ راح تكوني مع أهلنا. ارتاحي اليوم دكتورة. هون في كلّ شي بتحتاجيه، وبكرا منعملك جولة؟

الحياة أيضًا لا تتوقَّف عن الاستمرار داخل هذا الفضاء المختَرق من طائرات لا تتوقَّف عن القصف. في المنزل صبايا في أوَّل العمر، وعجوز وحيدة توزَّع أفرادُ عائلتها في قبور مجهولة تحت الأرض، وتشتَّت من بقي منهم حيًّا في بقاع العالم. يدعونها جميعًا الخالة أمّ أحمد.

لم يكن الوضع مثاليًّا، فهناك تناحر كبير بين الفصائل المقاتلة، لكنَّ الشباب الذين قادوا الثورة في بدايتها، من الذين تخطَّاهم الموت، لا يزالون ينتمون إلى تلك الروح. شيء مختلف تمامًا عن دمشق، كأنَّ ما يفصل المكانين ليس مسافة ثلاث أو أربع ساعات بالسيَّارة، بل بات يفصل بينهما ما يقارب الخمس سنوات من الموت المختلف، والذي يُضَخّ يوميًّا من السماء. الغارات جزء من الروتين اليومي، توزّع الطائرات الحصص بالتساوي على القرى والبلدات والمدن. لا يمرّ أسبوع إلَّا وينهمر عليهم زخٌّ جحيميٌّ من القذائف والبراميل.

ترافقت حصَّة المكان مع وصولها أوَّلَ ليلة، فنزلت برفقة العائلة إلى الملجأ، وهو طابق أرضي لا يحميه شيء سوى أنَّه يحمل بعض الأمل بالنجاة. القصف مثل أجراس جهنَّم، يهتزّ له كلُّ شيء. كانت العائلة المجتمعة مع بعض الجيران في الأسفل تتصرَّف من دون مبالاة.

تتابع الفتيات دروسهنّ، وتحفر الخالة أمّ أحمد الباذنجان والكوسا بعناية، لكن صوت الانفجار القريب جعلها تثقب حبّة الكوسا بالحفّارة:

ـ يلعن روحك ما أنجسك. لك يا ابن الحرام بخشتلي الكوساية. صار حقّ الكيلو ألف ليرة.

يعمل الشباب في الغرفة المجاورة، بلا كلل، على جدول الأسبوع المليء بالعمل. يناقشون بحماسة الفكرة التي طرحها أحدهم عن سينما في الهواء الطلق. شاشة كبيرة توضع على جدار المركز. سيفرشون الأرض بالبسط والمخدّات، ويقدّمون الشاي، ويدعون كلّ الأهالي إلى مشاهدة الفيلم.

أيمن، الشابّ الذي استقبلها، مشغول بكيفيَّة استصدار تصريح للسينما، فالأمير المسؤول عن البلدة غالبًا لن يسمح بذلك:

ـ نحن نعوّل على السوريين الموجودين بينهم. لا مشكلة لديهم، وأعتقد أنَّ موضوع الفيلم سيكون حاسمًا. سنخصّص الدقائق الثلاث الأولى لإعلان التوعية الذي أنجزه فريق الخوذ البيضاء ـ الدفاع المدنيّ ـ، ونضع لهم بعضًا ممَّا يريدون من إعلانات في المقدِّمة، ثم نختار الفيلم.

كانت تفصل بينهم ستارة تصل من ورائها أحاديثهم الصاخبة. يتحدَّثون بثقة عن الغد، بينما تتقاسم النساء الأعمال في القسم الآخر. فتيات يدرِّسن الأطفال أو يُطعمنهم، وأخريات منهمكات بالمشغولات اليدويَّة التي صارت تؤمِّن جزءًا لا بأس به من دخل الأسرة.

أيمن، وسيم، جابر، عبد الله، كلّهم إمَّا تخرَّجوا من الجامعة وإمَّا كانوا على أبواب التخرُّج.

فجأة، تجد نفسك أمام هؤلاء ممَّن رفضوا مغادرة مدنهم وبلداتهم، يتعرَّضون من السماء لبذار الموت، ترشُّه عليهم طائرات

جيش بلدهم، ويتعرَّضون على الأرض للإنهاك والانتهاك من الجهاديِّين المنتمين إلى روح أخرى لا تشبه روح المكان. هناك كثيرون من المخلصين الذين يحاربون تحت راية الإسلاميين، لأنَّهم وجدوا معهم العمل والتنظيم وانتظام الرواتب أكثر من الفضائل الأخرى.

أصبحوا سلطة الأمر الواقع بعد التحرير. احتلُّوا الشكل، لكن لم يستطيعوا الوصول إلى الجوهر بعد. قال أيمن:

ـ نحن نثمِّن لهم شجاعتهم، فقد ساهموا في كثير من الأمور الجيِّدة، لكنَّنا نعرف أنَّ مشروعهم غير مشروعنا. نحن لا نتقاطع مع الجهاديِّين في شيء، وخصوصًا القادمين من خارج سورية، لكن لا نستطيع أن نواجههم اليوم ونحن نُقصَف ونُدمَّر.

ما نعوّل عليه أنَّنا بتنا نغيِّر فيهم. نعوِّل على السوريين الموجودين بينهم. إنّهم يعرفون أنَّنا لن نقبل بحكمٍ إسلاميٍّ متشدِّد، لكنَّنا نقبل بضبط الوضع العام ضمن الشكل الإسلامي ريثما يأتي الفرج وتتوقَّف الحرب.

كان يتحدَّث بثقة، وعيناه تشعّان إصرارًا، عن الثورة والأمل والحياة. كان مشبَعًا بتلك الروح الملهمة التي رأتها لأوَّل مرّة في وجوه الشباب وأصواتهم في المظاهرة الأولى حين تزامنت مع وجودها في الجامع الأمويّ.

ـ بتسمحي لي دكتورة ليل إسألك؟

ـ طبعًا بكلِّ تأكيد إسأل عن شو ما بدَّك.

ـ عيسى من الأصدقاء والرفاق يلّي اشتغلنا معو طوال السنوات السابقة، خبَّرني إنَّك ممكن تساعدينا بالمشفى الميداني بتدريب النساء على التعامل مع الولادات.

ـ صحيح.

ـ وخبَّرني إنُّو في شي تاني، راح تحتاجي فيه مساعدتي.

ـ بالضبط هو شي شخصيّ راح خبّرك عنُّو بأقرب فرصة.

ـ شي ثاني دكتورة، لو سمحتِ، ببعض الأماكن هون من الأفضل تكوني حاطَّة حجاب على راسك. هادا شي تقني بيجنّبنا الاصطدام مع حواجز الجماعات الإسلاميَّة.

قاطعته بسرعة: أكيد طبعًا بتفهّم تمامًا.

انتهت السيِّدات في تلك اللحظة من تحضير العشاء، ودُعِيَ الجميع إلى تناوله. لم تتذوَّق منذ زمن أشهى من هذا الطبخ المطهو بحبٍّ. طعم المشاركة جعل منه فرصة لتبادل المزاح واقتطاع حصص منه لآخرين. كانت أكلة محاشي باذنجان وكوسا استثنائيَّة، وأعجبها أنَّهم تركوا في الصينيَّة قطعة أخيرة. عفّ الكلّ عنها بإيثار لعلَّ أحدهم يكون جائعًا أكثر فيتشجَّع ويأخذها.

يحتالون على الكارثة بأقلِّ قدر ممكن من الحياة. يثمِّنون كلّ شيء. كلُّ لحظة يتخطَّاهم الموت فيها تكون مكسبًا يستغلُّونه.

كانت الطائرات تحوم في الجوِّ، لكنَّ القصف أخذ يخفّ تدريجيًّا. وحين دارت كؤوسٌ من الشاي المخمّر على الجميع، أمسك عبد الله العود وبدأ يدندن ببراعة ليخرج صوت الخالة أمّ أحمد ساحرًا عميقًا مرتِّلًا:

«يا عين هلّي بالدموع

يا قلب إنت سكوت

كلّ ساعة بيتي خرب

كلّ ساعة طفلي يموت.

شباب مثل الورد

شالوهم بتابوت

جوامع مساجد جاها الضرب

وتهدَّمت البيوت.

يما ناس بتركيا سْكَنَتْ وناس سْكَنَتْ بيروت

ما شفنا عرس وفرح بسّ الجنازة تفوت

أحلف يمين وقسم، وأصرخ بعالي الصوت

ما بدِّل سورية بذهب يا وجع ولا بياقوت».

ران الصمت ونافورةٌ من الدمع بلَّلت الملجأ. وجع لا مثيل له يخرج من تحت الأرض ليغمر العالم. يغطِّي على كلّ شيء، ويفضح كلّ شيء. أغنية وموَّال لسيِّدة من هذه الأرض لم يتركا ما يُقال.

أحسُّوا بالذنب لأنَّهم سبَّبوا لها الألم. وبدأوا يعزُّونها ويهوِّنون عليها وهي تختنق أكثر. مَن يهوّن على مَن؟ ومَن يواسي مَنْ؟

كانت ترى وتحزن وتخزِّن الوجع. تكشف وتكتشف. تسمع وتصغي. تهمس لنفسها، إن جرّبتْ أن تكون في مكان زُهِقَتْ أرواح أصحابه بهذه الكثرة والمثابرة؛ مكان لم يترك الموت شكلًا ولا سببًا إلَّا وارتداه فيه. فإن مشيت بين شوارعِه وأرهفت الإصغاء إلى خيالاتهم يشيروا حولك: هنا قُتِل أبي. وعلى هذا المفترق مات صديقي. وهناك عند كعب شجرة الزيتون لفظ حبيبي أنفاسه. هم يُعيدون لك الحكاية من البداية. ما مرّ على هذه البلاد لا يمكن إلَّا أن يكون شيئًا يفوق طاقة الواقع. حين تنصت السمع سترى أنَّ بقايا الراحلين لا تزال علاماتها على الطريق. أصواتُهم عالقة في البساتين، وضحكاتُهم مرصوفة في الدروب، والترابُ الأحمر الخصب معجون بعظام أُناس شهدوا الموت، وحفظوا وجوه قتلاهم.

(٤٦)

الشيخ غسَّان

صنع الفيلم الأوَّل بكاميرات خاصَّة بالأعمال السينمائيَّة، وبمساعدة فريق عمل لا يقلّ عن خمسين فنِّيًا. احتاج السيناريو إلى شهر من الدراسة والتحضير. اعتنوا بكلٍّ تفصيل خاصّ بالضوء والصوت. كان إنتاجًا مبهرًا يحلم أيُّ مخرج في العالم بأن يقوم به. الفارق الوحيد أنَّ الممثِّلين أدُّوا الدور الأوَّل لهم على الشاشة، والدور الأخير في الحياة.

تمَّ ذبح عشرين جاسوسًا في صحراء خالية، بعد وضعهم في أقفاص لعدَّة أيَّام.

رمزيَّة القفص الذي يوضع فيه البشر، مستمَدّة من روح حديقة الحيوان، حين يعزل الإنسان الكائنات الأخرى في أقفاص لترويضها بحجَّة أنَّه يحميها، بعد أن دمَّر غابتها وأماكن سكناها، لأسباب تتراوح بين الأنانيَّة والطمع والتسلية والتفاهة.

مارست القوَّةُ العاتيةُ للولايات المتَّحدة، في بداية هذا القرن المجنون، كلَّ قدراتها الاستعراضيَّة في القصف من الجوِّ، ثم ذهبت إلى المقصوف تلتقط منه مَنْ لم يُقتل بطائراتها الذكيَّة وتأخذه أسيرًا

مدموغًا بتهمة الخطورة والتوحُّش، وتضعه في سجنها الشهير الذي سُمِّي غوانتانامو، وتُرغم هؤلاء الأسرى على ارتداء تلك الثياب باللون البرتقاليّ. وهنا نحتاج إلى مختصِّين بعلم دلالة اللون لربط البرتقاليّ بالإنسان الأسير، المنخفض في الرتبة إلى مرتبة الحيوان المتوحِّش.

الفضل في ابتكار القفص واللون البرتقاليّ يعود إلى المخيِّلة الأميركيَّة. كأنَّ ما تبقَّى رسالة ردّ، مفادها «لم تعد أيُّها الأميركيّ الفائقَ القوَّة والمحاضر في النَّبالة، سنجرّك عبر ما اقترفته إلى معركة الوجود».

ما لا يعرفه الجميع أنَّ الضحايا كانوا يُقتلون، ليس كما تراهم على الشاشة، بل بطريقة مختلفة وأكثر بساطة. أمَّا النتائج فكانت مذهلة، فكمِّيَّة الطالبين الجدد للانضمام إلى الدولة تضاعفت عشرات المرَّات.

تجد نفسك كلّ يوم منزلقًا أكثر فأكثر في المكان المتوحِّش، المليءِ بكلٍّ صنوف الحداثة، والحافلِ بتناقضات متصادمة. وبدلًا من أن تتوقَّف، فإنَّك تطلب المزيد. الأجر ضخم، وإن كنت من صفوف نخبة المكان فأنت معفًى من كلّ الالتزامات الشكليَّة التي تشغل بال العالم. لديك كلّ ما تشتهيه النفس، ابتداءً من التدخين المحرَّم على العامَّة وعلى تسعة وتسعين في المئة من المنتمين إلى التنظيم، وليس انتهاءً بالكوكايين النقيّ والكحول وممارسة الجنس مع القاصرات، مع إغراق وإغداق بالمال بما لا يمكن أن يتخيَّله عقل.

من بين كلّ هذه الأشياء المتاحة، كان فضل وفيديل لأوَّل مرَّة يعملان معًا، محتاجَين أحدهما إلى الآخر. يقوم الشيخ فضل في المجالس العامَّة بالإبهار بفصاحته. ولا يقبل فيديل بأقلّ من الكمال في العمل. يعملان معًا بمنتهى الدقَّة في إدارة السلوك واللسان، حتى بدت

كلّ تجارب الحياة بمثابة ألعاب صبيانيَّة أمام العمل اليوميّ مع لغتين وسلوكين مدهشين، مخيفين ومتناقضين، يقوم بهما رجل واحد.

حين ترى آلاف الأجهزة الحديثة، لابتوبات وموبايلات بأحدث أنواعها، وسيَّارات بأعلى تقنيَّاتها، وتكنولوجيا ما بعد الحداثة، في أيدي رجال هاربين من غابر التاريخ، تُدرك تمامًا معنى ما قاله الشيخ غسَّان. صارت جلساتهم تتباعد بسبب انشغالاته الدائمة واشتداد القصف وإغلاق المدينة شبه الكامل منعًا لفرار سكَّانها. فهمُ الدرع البشري الأوَّل للسلامة ومن يقوم بحفر الأنفاق وتأمين الملاجئ. وعلى الرَّغم من كلّ ذلك فإنَّ توافد المزيد من المهاجرين الجدد لم يتوقَّف أبدًا

كلّ مقوِّمات الدولة موجودة، لكنَّها حتمًا لن تستمرّ، فحجم الرفض الذي تقرأه في عيون الناس أكبر كثيرًا ممَّا يمكن الإفصاح عنه. وقد صارح الشيخَ غسَّان بذلك فردّ عليه:

ـ من قال لك إنَّ هذه هي الدولة التي نريد؟

ـ لم أفهم. كلّ هذا العمل وأنت غير واثق بأنَّها باقية وتتمدَّد؟!

ـ سأتجاوز بعض التحفُّظات بسبب ما يربطني بك من صداقة وأخوَّة قديمةٍ صافية. لا، ليست هذه دولة الخلافة، إنَّها البروفة للخلافة الحقيقيَّة. مهمَّتنا اليوم إدارةُ التوحُّش، والتدريبُ على صناعة جيل جديد من المسلمين المتفوِّقين والمقاتلين. نحن جيل تلوّثنا مهما ادَّعينا النقاء، لكنَّ الجيل القادم سيكون صافيًا نقيًّا محاربًا ومبدعًا

سيتحقَّق من خلاله فتحُ الله وحلمُ الخلافة الموعود. إنَّها إرادة الحياة لأنَّها إرادة الله نفسه.

مهمَّتنا اليوم هي تعلُّمُ فنون الإدارة والاقتصاد والإعلام.

والوصول إلى التمكين والتمكُّن لا يتمّ نظريًا، إنَّما بالتدريب العملي. نحن نستفيد اليوم من تناقضات الواقع. فبعد النزف الكبير للمجاهدين نقوم بالتعويض أضعافًا مضاعفة. اختيار النخبة؛ إعادة تأهيل الخلايا؛ حركة هائلة لزراعة الفكر والعقيدة في العقول والقلوب؛ تكليف الأذكياء من أخواننا الأوروپيين بالعودة إلى بلدانهم وتعليم تقنيّات الصبر لتأسيس الركائز وتهيئة الظروف إلى حين استحقاق الأمر. كلّ عداء اليوم للإسلام يصبّ في خدمة الإسلام، وكلّ الأنانيَّة والجشع والفوقيَّة والخصاء في العالم الغربيّ تقابلها هنا الخصوبةُ والاستعداد للتضحية وعدالة الفكرة.

انتهى زمن جهاد الكهوف والانعزال.

كلّ يوم نبقى فيه أكثرَ في الهواء الطلق ونمارس فيه العمل كدولة ونستفيد من فنون الإدارة، هو تقريب لليوم الموعود. سأقول لك، لن ينقضي هذا القرن إلّا وأوروپا مسلمة، ولن يغيب هذا القرن إلّا وأميركا في طريقها إلى الإسلام.

نستمدّ ذلك من وعد لا يكذب من سيِّد الخلق وقائدهم محمّد بن عبد الله، ومن نقلة نوعيَّة. فنحن لم نعد حزبًا ولا حركة سرِّيّة مقيَّدة. نحن اليوم في طور الإجهار، نعمل في كلّ الجبهات دفعةً واحدة. نراكم الثروة والاقتصاد. نصحِّح خلل الإسلام الوسطيّ والصوفيّ، فهو العدوّ الأوّل لمشروع التحرُّر، لأنَّه مهادن ويتعايش مع الظلم والاستبداد والطغاة.

ـ مؤلم هذا.

ـ نعم مؤلم، لأنَّنا نستخدم فيه قوَّة مفرطة، لكنَّنا في الوقت نفسه نعدّ قوافل من الشرعيِّين الجدد المتمكِّنين، ليس من العلوم الشرعيَّة

فقط، بل أيضًا من فنون الإقناع وقوَّة المنطق.

نحن نحبّ أرض الشام وبلاد الحرمين لما لهذين المكانين من قوَّة روحيَّة ومعنويَّة، لكنَّنا سنكون معرَّضين دائمًا لقوَّة عسكريَّة طاغية، ومرتهَنين للبنوك وتجَّار الدم من الأعداء.

حين نصل إلى مركز القرار، ونفتح روما المعاصرة كما وعدَنا اللهُ، ستصبح كلّ هذه القوَّة الهائلة التي نهدَّد بها ملكًا لنا. كانت دولة الإسلام عبر التاريخ حيث يوجد قرار القوَّة والتحكُّم. وحين كان في دمشق كنَّا في دمشق واتَّخذناها عاصمة، وحين أصبح في فارس صنعنا بغداد وأبدعنا في سمرقند، وحين صار في مصر بنينا القاهرة، ثم انتقل إلى إسپانيا فوصلنا إلى غرناطة وقرطبة. وعندما تمكنَّت القسطنطينيَّة وأضحت مركزًا للعالم صارت لنا.

اليوم، القرار في واشنطن. دعك من بقيَّة المدن التي تعمل كخزّانات للأموال وتبني سياستها وتُلهي شعوبها وترشوهم بالخدمات، كلّها لا شيء أمام واشنطن ونيويورك.

وجَّهنا إلى الأميركيين مجرَّد صفعة واحدة قلبت حياتهم رأسًا على عقب، والحمد لله أنَّهم تصرَّفوا تمامًا كما نريد، وجاؤوا بجحافلهم ليكونوا السبب في صناعة ما نحن عليه اليوم.

ـ لكنَّ الثمن كبير يا شيخي، أنا وأنت عشنا في الغرب ونعرف أنَّ الناس هناك، مثلَ كلّ خلق الله، طيِّبون ومسالمون ورافضون لسياسات الاستكبار.

ـ من قال إنَّنا نريد قتلهم. نحن لسنا بمثل وضاعة قادتهم.

ثم أخذ نَفَسًا عميقًا وأصبحت لهجته أقرب إلى الأبويَّة:

ـ فضل، أنا لست غبيًّا ولا منغلقًا. عملت في لندن لسنوات،

وأعرف الواقع والناس أكثرَ من حكومتهم. كلّ ما في الأمر أنَّه لم يعد من المجدي أن نتحوّل إلى متسوّلين على أبوابهم، أو خَدَمٍ لأفكارهم عن التنوُّع والتعايش. نعم، هناك الكثير ممَّا نريده منهم. أخلاقُ العمل، العدالةُ والرحمة والحماية للضعفاء، كلّها أخلاق إسلاميَّة بمسمّيات غربيَّة نفتقدها هنا في بلداننا بسببهم. يصنعون تمايزهم بناءً على بؤسنا. لقد تبادلنا وإيَّاهم حُكْمَ العالم، لم ننهب شعوبًا حكمناها، بل على العكس بنينا فيها. لم ندمّر ثقافات البلدان التي حكمناها، بل انفتحنا عليها وغيَّرنا فيها وتغيَّرنا معها.

يتَّهموننا بأنَّنا استعملنا السيف لإجبار الشعوب التي وصلنا إلى أرضها على دخول الإسلام. جوابي هو: لماذا بقيت شعوب شرق آسيا مسلمةً بعد انحسار الخلافة؟

ـ لكن إن كان هذا المنطق صائبًا، فلماذا لم تبقَ شعوب الأندلس على دين الإسلام بعد خروج العرب منها؟

«بسبب مجازرهم»، أجاب بسرعة ومن دون تردُّد، وأضاف:

ـ ارتكبوا المجازر بحقِّ المسلمين واليهود لطردهم من الأندلس. والأهمّ أنَّنا وُجدنا في الأندلس لثمانمئة عام، ويذكروننا في كتبهم المدرسيَّة بأقلَّ من ثمانية أسطر. التاريخ يقول ولست أنا: لقد حكمنا العالم لألف سنة. لم نسرق شعوبه بل كنَّا نُعِدّهم أخوة لنا، بينما كان استعمارهم ينقل أطنانًا من الذهب والثروات ليصنع مجدًا من النهب. قتلوا الملايين في أفريقيا، واستعبدوا البشر، ونقلوهم في سفن الرقيق كالحيوانات، بينما كان الإسلام يطبِّق المساواة بين الأسود والأبيض. من ألف وأربعمئة سنة، ونحن نؤمن بالأخوَّة بين البشر، في حين كان السود في أميركا، حتى ستّين سنة ماضية، يُمْنعون من دخول

المراحيض التي يدخلها البيض!

حكم الغرب العالم لثلاثمئة سنة، فحوَّل الدول الضعيفة إلى مستعمراتٍ منهوبة، لبناء رفاهيَّة شعوبه وعمارتهم وحضارتهم من دماء الفقراء. يفتك جشعهم وأنانيَّتهم بهم، وها هم اليوم يأكلون بعضهم البعض.

إنَّهم يكرهوننا لأنَّنا نمثِّل الخطر الوحيد على نظامهم وجشعهم، وكلّ محاولتنا خلال الأعوام الخمسين الماضية للعمل معهم لم تُجْدِ نفعًا لأنَّهم منتصرون. أقول لك إنَّ ما حدث خلال الأعوام المئة الماضية منعطفٌ لم يستقرَّ بعد، لكنَّ المارد قد استيقظ ولم يعد يمكن لأحد أن يُعيده إلى القمقم.

ستكون دولة الخلافة أمرًا واقعًا قبل أن ينتهي هذا القرن، ونيويورك وواشنطن ولندن وباريس وبرلين سنصبح من حواضرها. ستكون لندن مدينةً مسلمة، وسنُعيد توزيع الثروة على الشعوب المنهوبة، وستكون هجرتهم هذه المرَّة معكوسةً إلى مدننا في الشرق، وسيصبح حلم أهل بلدانهم أن يتقنوا العربيَّة ويعملوا في الشام وبغداد والقاهرة.

ـ وأين إسرائيل من هذا كلّه؟

ـ من الخطأ الظنّ أنَّنا نريد أن نقاتل اليهود. هذا للتسويق. نحن واليهود، تحديدًا، لدينا ممَّا يجمعنا أكثر كثيرًا ممَّا يفرِّقنا. طُردنا معًا من الأندلس، واليهود أكثر من عانى الاضطهاد، ليس من المسيحيَّة فقط، بل أيضًا من حالة التوحُّش والعصبيّة والتطرُّف في الغرب. يريد الغرب استنزافنا في كتلة محصَّنة صلبة اسمها إسرائيل، ونحن نُدرك أنَّ هذا الكيان سيتهدَّم من الداخل، ولن نضيِّع المزيد من الوقت وخوضِ

الحروب التي تُنتج لنا الطواغيت.

كان الشيخ غسَّان، أو الأمير أبو حفص، يمتلك هذا اليقين الجذري لتشخيصه الغريب. أمَّا رأيه في الثورة السوريَّة فمفاده أنَّها أخطر الأفكار والأحداث التي تهدِّد مشروعه، وقال:

ـ يجب أن تثور الشعوب العربيَّة والمسلمة تلبية لنداء الإسلام فقط. فالدولة الوطنيَّة وما تصنعه من مشاعر عميقة يشوِّشان على ما نقوم به. من المهمّ جدًّا ألَّا يتلوَّث الناس من جديد بهذه الأفكار، فهي لن تُضفي إلَّا المزيد من التأجيل في طريق الوصول إلى التمكين.

ـ لكن أنتم تُبعدون الناس عن الدين وتنفِّرونهم منه وتروِّجون صورًا خاطئةً عن الإسلام؟

ـ من حيث الشكل نعم، والحقيقة أنَّنا سنمرّ في هذه الفترة الموجعة لبناء المنظومة العالميَّة للجهاد والتغيير، حين نصل إلى التمكين ودولة الخلافة سترى كيف سنعمل على جعل الناس سواسية ونُقيم العدل، ونحكم بالشورى كما يجب، وكما يليق.

نحن في حالة صراع وجود. كلّ ما قدَّمناه إلى الغرب من أمانٍ وتفاهم ومحاولات إقناع بأحقِّيَّة اختيارنا نمطَ حياتنا، كان يُقابَل بالاستهزاء والتتفيه. يُريدون تحويلنا إلى إسلامٍ هجين يناسب اقتصادهم وسياساتهم ليسهل تدميره من الداخل.

نعيش اليوم زمن صحوة عالميَّة الإنسان لإسلامه، وهذا الكوكب لن يرى العدالة حتى يحكمه السلام القادم من الإسلام. الديموقراطيَّة والليبراليَّة اليوم هما دين حاكم، استسلمت له المسيحيَّة واليهوديَّة. وحده الإسلام يقاوم. إنَّه صراع الروح مع المادَّة، والسلامِ مع الحرب، والخيرِ مع الشرّ.

تجربة الإسلام السياسيّ التي يُريدها الغرب هي تجربة الأحزاب التي تؤمن بالليبراليَّة، يعني الوحشيَّة المرعبة في زجّ الناس لاهثين وراء المادَّة والحياة التافهة. نحن أقرب إلى مَنْ يقول: «من الكلّ بحسب طاقته إلى الكلّ بحسب حاجته»، وفائض القيمة هو لخير الأمَّة وتقدُّمها، وليس لخير الحزب وسلطة الطاغية.

ـ وماذا عن الصراع الشيعيّ ـ السّنيّ اليوم؟

ـ ليس هناك صراع، لأنَّه في النهاية سيصبّ في الهدف الرئيسيّ. وما تراه اليوم هو صراع سياسيّ بلبوس مذهبيّ.

ـ لكنَّكم تكفِّرون الشيعة وتقاتلونهم.

ـ وهل رأيتنا نقوم بعملٍ واحدٍ في إيران؟ وإن فعلنا ذلك قريبًا، فمن أجل الإعلام فقط لا أكثر. نحن نقوم بعمليَّات عسكريَّة ضدّ الشيعة، أو حتى السُّنَّة، في مناطق الصراع والاحتكاك المباشر. هو صراع سياسيّ واقتصاديّ في جوهره. لدينا مشكلة تاريخيَّة مع الفرس، وليس مع الإسلام الشيعيّ، لكنَّنا لا نمانع أن يكون اسم هذا الصراع سنِّيًّا ـ شيعيًّا. نحن لسنا من كِلَا الطرفين، وكلّ النتائج ستصبّ في مصلحة الإسلام النقيّ ومشروع التمكين لدولة الحقّ.

ـ هل يمكن أن نتعامل مع الحاضر بلغة الماضي؟ هل يمكن فعلًا إدارةُ العالم الحديث بلغة القرآن وسُنّة النبيّ وفكر السلف الصالح؟

ـ طبعًا يمكن، لكن ليس معناه أن ننكر العلوم الوضعيَّة كما فعل فقهاء السلطان لتجهيل الشعوب. لذلك قلت لك إنَّ مشروع الدولة هو بروڤة لما سيأتي. نريد المدراء في كلّ مناحي الحياة، وأعلى ما وصلت إليه البشريَّة من علوم، وجيلًا من العلماء المحاربين. ونعرف، في الوقت نفسه، كيف نخاطب مستويات العامَّة ونشفي قلوبهم

الملوَّثة. لا يهمّنا إن كان الآخر لا يرى فينا سوى غرابة الإفتاء، ويطلق علينا الشائعات السخيفة. نحن لا نهتمّ بصورتنا عند الآخرين، بل ما يهمّنا هو صورتنا وعمق أثرنا في المجاهدين. الشائعات الواهية، مثل أنَّنا نريد تغطية أثداء البقرة وقطع الأشجار وأنَّنا برابرة لا نهتمّ بالآثار والتاريخ ولا نُتقن غير السيف والذبح. كلُّها تساعدنا لترويع الآخر وترهيبه منَّا، بينما يستمرّ تدفُّق أشخاص علماء وأذكياء وعقلاء من كلّ العالم للانضمام إلينا. فهل سألت نفسك لو كنَّا حقيقة بهذه البربريَّة، فهل يترك هؤلاء جنَّة الغرب ويأتون إلينا؟!

أعرف ماذا يجول في خاطرك الآن يا فضل. نعم صحيح. يستمرّ تدفُّق شُذَّاذ الآفاق والمجرمين والهاربين والأغبياء والجواسيس أيضًا. وها نحن نُقدِّم إلى العالم خدمة لا يحلم بها، فنحوِّل هؤلاء إلى مقاتلين من أجل مشروع عظيم، وينتهون شهداء متخلّصين من خطاياهم بدلًا من هدر الأموال على إصلاحهم.

فضل، يا عزيزي، إنِّي أحبّك في الله وأستبشر بك خيرًا. أريد فعلًا أن أُرضي فضولك وأُجيب عمَّا لديك من أسئلة، لكن سأطلب منك طلبًا فكِّر فيه على مهلك، فهو سيمنحك مفتاح الدخول إلى كلّ كنز في الحياة، ويشكِّل ضمانًا لما بعد الموت.

ـ تفضَّل يا شيخي!!

ـ في مكان ما من أرض الدولة، هناك مجموعة من القادة، عقولٌ قويَّة وذكيَّة من أصحاب الإرادة الفولاذيَّة والإيمان العميق، من المختصِّين بكلِّ ميادين الحياة. الأبواب مشرَّعة لك لتكون واحدًا منهم، من يدري؟ لكن عليك أوَّلًا أن تُبايع الخليفة وتعلن الوفاء والولاء. أنت هنا في عقد موقَّت. موهبتك الرائعة يتحدَّث عنها الجميع. تستطيع الانتهاء من عملك والمغادرة. أنا أحميك، ولديك

صكّ تفويض من أعلى سلطة هنا من دار الخلافة نفسها. وبما أنَّه لم يبق لك الكثير من الوقت حتى تحين هذه الساعة، فمن واجبي أن أدعوك لتنضمّ إلينا، فأنت من الناس الذين لا أقبل منهم إلَّا الصدقَ المطلق في مشاعرهم وإيمانهم. وأدعو الله، في الوقت نفسه، أن يهديك إلى طريق الحقّ الذي فُتح أمامك. إن أردتَ البقاء فسأكون من أسعد الناس في ذلك، وإن أردتَ الخروج فسأودِّعك ولن نلتقي ثانية.

كانت الرسالة واضحة المعالم، فكلٌّ الأسئلة العائرة التي تطفو على سطح عقله، يحوِّلها الشيخ غسَّان إلى إجابات قاطعة. كان يرى الواقع المرير للكثيرين من قاطني هذه الدولة والمنتسبين إلى صفوفها، ويشاهد التجاوزات والقمع والجرائم والاضطهاد في الوقت نفسه. يفكِّر في أنَّ كلّ هذا موقَّت، وفرضته الحرب.

خرج من عند الشيخ غسَّان مخدّرًا من حديثٍ احتاج إلى كثير من التركيز. كان يدخل مصيدة لا يستطيع مقاومتها، ويسير بقدميه في غرفة مظلمة.

يقول له الشيخ غسَّان: أنت تبحث عن قطَّة سوداء غير موجودة في غرفة مظلمة، وتمشي معصوب العينين أيضًا. لم يستطع إجابته بذلك الجواب الذي ابتلعه وهو يخرج، ومفاده:

وأنت، أَترى أنَّ هناك قطَّة حقًّا!

أيقظه صوت التكبير من حديثه مع نفسه، أخرجه من غرفة الظلام تلك.

كان هناك تجمُّع في الساحة العامَّة والناس تشرئبُّ بأعناقها إلى الأعلى. هناك في الطابق السادس رجلٌ معصوب العينين، مكمَّمُ الفم، مقيّدُ الأطراف، يجرُّه اثنان من المقنّعين وهو يقاوم من دون جدوى. تفشَّت بقعة من بوله على سرواله قبل أن يرموه من أعلى بتهمة اللواط.

(٤٧)

سميح

أخذها أيمن إلى مركز عملهم، وأخرج ألبومات ضخمة وضعها أمامها. كانوا يوثّقون وجوه الشهداء قُبَيْل موتهم. مئات الصور، أكثرُ من ثلاثة أرباعها لشباب في مقتبل العمر. وجوه مليئة بالحياة في موتها، ترسم ما يشبه ابتسامةً محيّرة. وعيونها، على الرَّغم من قساوة الموت، مفتوحة باتّساع. قال أيمن:

ـ العين هي آخر من يموت. حتى بعد توقُّف القلب تبقى الرؤية تنبض بآخر رمق للحياة لتمتصّ المشهد الأخير. تتعلَّق النظرات بالحياة كأنَّها في حالة عناق.

أجابت:

ـ كنت أظنّ أنَّ الأذن هي أوَّل ما يسمع في الرحم وآخر ما يتوقَّف عند الموت.

ردَّ ضاحكًا: أرجو ألَّا نتأكَّد من ذلك، لا أنا ولا أنت الآن.

ثم أضاف:

ـ أشجار الكرز المنتشرة في البساتين هنا أُصيبت بالشظايا

والرصاص، والقذائف التي سُكبت علينا تصنع ألف قاطرة ومقطورة. هذه الشظايا التي تقطع أغصانًا من شجرة العائلة لا تستطيع أن تمنع نموّ المزيد. كرزنا في أيّام المجازر صار أطيب.

يمشي معها في الحواري والطرق المهشَّمة. ينظِّف بعضُ الأهالي الشوارع، ويحاولون أن يُبقوا على نظافتها.

قال لها: إن كنَّا معرَّضين للموت بالقذائف فهذا لا يعني أن نسمح للأمراض بالانتشار. علينا أن نبقى حريصين على النظافة العامَّة، فهذا رهن أيدينا نحن.

شهدت هذه الساحة أكثر من ألف مظاهرة، كلّها تقول كلمة واحدة لا غير: حرِّيَّة. نحن موجودون هنا. نحن لم نعد نكرة. نحن نودُّ أن نتقاسم هذا البلد.

وهذه الحاجَّة عائشة، تتذكَّر كلّ الحروب في القرن الماضي. روت لها أمّها عن جدّها الذي شارك في السفر برلك. قاتل مع الفرنسيِّين في كلّ مكان. تتذكَّر كلّ الحروب التي شهدها المكان حتى اليوم، لكنَّها تقول إنَّها لم تَرَ موتا بهذه الغزارة.

هنا حديقة البلدة، لم يبق منها سوى هذه الأرجوحة، تحتها قبرٌ لأربعة أطفال. تصرخ عائشة عليهم من داخل غرفتها في الليل ليتوقَّفوا عن الضجيج، تهدِّدهم بأنَّها ستحرمهم الأرجوحة إذا استمرُّوا في الشقاوة. هي تتخيَّلهم وتُحدِّثهم.

حديقة واسعة رُتِّبت بها القبور، وهي تحفظ أسماء الجميع، ما عدا ثلاثة عشر قبرًا لمجهولين. الآس الشامي يعربش بسرعة على الشواهد. مئتا قبر وأكثر، ما عليك سوى أن تذكر اسمه فتعرفه على الفور. هي التي ساعدت في تكفينهم جميعًا، وندبتْهم، وهي التي تحرسهم الآن.

يومَ جاء الغرباء الملتحون، قالوا إنَّ زيارة القبور بدعة، وأرادوا أن يدمِّروا المقبرة. كيف تدفنون النصارى والروافض والدروز والسُّنَّة معًا؟! حين دخلوا من الباب، كانت، كما ترينها الآن، تعتني بالقبور وتزرع فوقها الورد، وتغنِّي.

يستيقظ بعض الموتى في الليل وهم يئنُّون، فتزجرهم. يبكي بعضهم كثيرًا فتأتي إليهم بالماء. لجم تصرُّفها أصحاب الرايات السود. قَدِمَ أحد المهاجرين من الشيشان، حاول كسر شاهدة لقبر فهجمت عليه مولولة «إن شا الله بتنكسر إيديك»، فتلبَّك وأخطأ الشاهدة، فهوت المطرقة في الفراغ والتوت يده وانكسرت فعلًا تعوَّذَ من الشيطان منها، وخرج يجرّ أصحابه وراءه خائفين.

معظم القبور لشباب من خارج البلدة، كانوا عساكر وانشقُّوا، أو من ناشطينا الذين قُتلوا في المظاهرات.

خرج شابٌّ على عكّازين، بينما كان أيمن يتابع حديثه. سلَّم ومضى في طريقه. قال أيمن:

ـ هذا برهوم، فَقَد قدمه بلغم. يزور قبر رِجلهِ المدفونة هنا أيضًا.

وصلا إلى المركز الذي يشرف عليه أيمن ورفاقه، فقالت لها بنت صغيرة منهمكة بالتلوين:

ـ راح إرسم كلّ إلّلي ماتوا، منشان يرجعوا يعيشوا

همس أيمن:

ـ هذه البنت فقدت أربعة من أخوتها في مجزرة الكيماوي!

كانت تتنقَّل من حكاية إلى أخرى. وكلَّما قالت هذا أقسى ما سمعت، يأتيها المزيد بقسوته.

وجدت في مركز الرعاية النسائيَّة، طبيبةً واحدة مختصَّة من أهل

البلد وبضعَ ممرِّضات.

قالت إحدى القابلات القانونيّات، وهي سيِّدة فاقت الخمسين من العمر:

ـ ليكي دكتورة، بعد كلّ مجزرة بيصير شي غريب. حتى النسوان يلي ما كان عندن فرصة بالحمل، حبلوا ببساطة، وكأنُّو نطف الرجال قويت والأرحام صارت أخصب. هيك الطبيعة وحكمة الله، كلّ ما كانت هالمجازر أكثر كلّ ما صارت نسبة الحمل أكبر.

تزدهر الابتسامات وسط هذا كلّه، وتنتعش السخرية، وتتعرَّى الحقائق على مسمع الضحكات الهادرة. بلدات لم تسمع بها من قبل، تكتشف أنَّها خزَّان بشريٌّ للفرح، والابتكار والإبداع، والجمال. أمام ناظريها وجوه منوّرة وجميلة. عبقريَّة الرفض ووضوح الهدف. صارت تفهم كيف يتشوّش البعيدون ولا يعرفون حقيقة الناس، وقوَّتَهم. ستدخل بلدة مسكونة بفرح غامض. لم يُعرف مكان يحتوي على هذا الكمِّ الهائل من الشباب الوسيمين والرجال الجذَّابين والنساء المليئات بسحر الحضور، بقاماتهنّ الريَّانة، وأشكالهنّ التي تخطف القلوب.

قال أيمن:

ـ إنَّهم ينظّمون اليوم مظاهرة للأموات. سيصوِّرونها من المقبرة ليقولوا: حتى الأموات لا يريدون إسقاطَ النظام فحسب، بل إسقاط العالم أيضًا. وسيكتبون على اللافتات:

«نحن الموتى سنطاردكم في كلّ مكان لنُسقطكم جميعًا».

تجربة حقيقيَّة واحدة تعادل قراءة ألف كتاب. لأوّل مرَّة تُدرك عمق هذه الكلمة الغامضة التي تُسمَّى ثورة. وفي غمرة هذا الاستنتاج، وفي يوم المحاضرة التي قامت بها من أجل الإسعافات الأوَّليَّة، دخلت

المكانَ مجموعةٌ من الملثّمين، برشّاشاتهم الثقيلة وأعينهم التي تقدح لؤمًا. طالبوا أيمن بالترخيص للمحاضرة، فأظهره لهم، وأخبرهم بأنَّه أخذ موافقة المجلس العسكريّ والمحكمة الشرعيَّة. فقال له أحدهم بلهجة غير سوريَّة:

ـ ألا تعلم بأنَّ الاختلاط ممنوع، ولا يمكن أن تجمع الرجال والنساء في مكان واحد؟

ـ إنَّها محاضرة طبّيَّة تُفيد الرجال والنساء.

أخذوا هويَّتها، ثم أمروها بالذهاب معهم. حاول أيمن ورفاقه منعهم، فانهالوا عليه بالضرب المبرّح، وسحبوها إلى سيَّارة من سيَّاراتهم. طمّشوا عينيها وأمروها بالانحناء والتقوقع أسفل المقعد، وانطلقوا في موكب وهم يطلقون النار في الهواء. حدث الأمر بسرعة، وتملّكها الخوف الذي تحوّل إلى رعبٍ في مقرّهم.

مضت ساعة من التحقيق. يريدون أن يعرفوا ما الذي أتى بها إلى هنا، وإلى أيّ مخابرات تنتمي! يريدون معلومات. يصرخ أحدهم بها: إنت علويَّة تعملين مع المخابرات السوريَّة أو المخابرات الإماراتيَّة. اعترفي أحسن إلك.

لم يتركوا تهمة لم يلصقوها بها. كانت تجيب بكلِّ صدق، عدا عن نيَّتها الحقيقيَّة في الوصول إلى الرجل الذي خرّب حياتها وعمّرها في آن.

طلبها قائدهم، بعد ثلاثة أيَّام من التحقيق. أمرها الحارس بأن تستعدّ للقاء أميره أبي البراء. أدخلوها مكتبه. كان مهيبًا، له شعرٌ طويل تخرج ذؤابتاه من تحت عمامته، ولحيةٌ غزاها بعضُ الشيب. أمرها بصوت أليف:

ـ تفضَّلي اجلسي.

جلست. فطرح عليها سؤالًا بصوت خافت مرتجف:

ـ شو عمّا تعملي هون؟

أرادت البدء بالحديث، لكنَّه قاطعها:

ـ لو سمحتِ، سوّي حجابك، وهو يغضّ الطرف ويزيح وجهه إلى الجهة المقابلة.

كان الشال الموضوع على رأسها قد انزاح وخرج شعرها من تحته، لكنَّها في هذه اللحظة بالذات عرفته. إنَّه صوته، وطريقته! لم تستطع اللحية أن تخفي ملامح وجهه المحفوظة في ذاكرتها المتَّقدة:

ـ أبو البراء؟ إنت سميح الغوراني، ما هيك؟

قالتها وهي تخلع عنها الحجاب كلّه وترميه على الأرض. غضّ نظره مدَّعيًا الحشمةَ وقال:

ـ استري راسك يا حرمة.

ـ حرمة. صار إسمي حرمة يا حضرة الشيوعي. قبل ما أستر أيّ شي يا سميح بيك، إنت مطالب تخبرني ليش هربت؟

كانت عيناه على الباب الذي ما زال نصف مفتوح، ورأسُه شبه مطرق في الأرض. كلّ ما تخلّفه وراءك من دون أن تحسمه سيظهر لك في يوم ما ليصفّي حساباته معك.

خذلان سميح وانهزامه تركاها ضعيفة، وسلّما قرارها للآخرين. وكلّ ما حدث في حياتها لاحقًا جرّته لحظة الخذلان تلك. في بدايات الحياة، قبل أن تكون محصّنًا ضدّ الألم، ما تسبِّبه لك عاطفتك قد يسمِّمك، وسيكون من العبث علاجه. تحتاج إلى أن تغيِّر كلّ دمك، دفعة واحدة. لكن في لحظة كشف مثل هذه، ترى الأمور أوضح. تُوضَع الحقائقُ أمامك، وتطفر رغبتك الحقيقيَّة عاريةً من كلِّ شيء.

ثم تضعها الأقدار هنا. لو أنَّها كانت تقرأ هذا المشهد في رواية لقالت إنَّها مبالغة. ما هذه الصدفة؟ إنَّه اختلاق كاتب! لكنَّها تُدرك الآن أنَّها أمام حقيقة واقع يتجاوز مئة إلياذة.

لم يكن خذلانُ هذا الرجل السببَ في حياة مؤلمة وقرارات خاطئة فقط، بل هو السببُ في حدوث أفضل ما يمكن أن يحدث معها الآن. أن تكون حقيقتها ويصبح لحياتها معنًى ما، وتخوض تجربة الانعتاق من أن تبقى مجرَّد دودةٍ محاطة بحرير الوقت وتتحوّل إلى فراشة. وهبتها قوَّةُ التحوُّل ورفض الانصياع، واللحاق بقلبها وعقلها المعلَّق هناك عند نصفها الآخر، حقيقة طينها، اكتمال جسدها وكمال روحها، عند فيديل عبد الله.

كان عليها أن تهزم هذا الملتحي الجبان مرَّة أخرى للضرورة لا أكثر، وبعدها ستعتقه. بالأحرى ستنعتق منه إلى الأبد.

اقتربت من الباب كأنَّها مولودة من زبد موج من نور، مشعَّة وواثقة. أغلقته بهدوء. مشت في اتِّجاه الرجل المخذول الذي التصقت عيناه بالجدار، وهمست بهدوء ملغم بكلِّ أنواع البارود:

ـ شو يا شيخ، قادر تقتل وتفخّخ بدم بارد، وما قادر تتطلَّع بعين امرأة حبَّيتها بيوم من الأيَّام؟ كنت تقدر تجادل عشر رجال دين إنُّو ما في الله، وما قادر هلَّق تسمع صوت امرأة بتثير فيك الفتنة؟ قادر تهرب من البلد لأنَّك فقير ولإنُّو حافظ الأسد دمَّرها، وما قادر تشوف قدّيش صرت بتشبهو؟ كنت قادر تقنعني إنُّو غشاء البكارة شي تافه وضدّ حرِّيَّة المرأة وتجبرني أعمل عمليَّة إجهاض وتهرب وأنا عم بنزف، وهلَّق ما قادر تشوف شعر راسي؟ كنت قادر تضلَّك تحكيلي ثقافة وفنّ وسينما وتلحس عقلي بكلِّ الكتب والموسيقى، وهلَّق ما قادر تسمح للناس

تحضر فيلم سينما؟!

كان كشفًا متلاحقًا؛ لكمات لا يستطيع محمَّد علي كلاي نفسه صدّها. وقبل أن يسقط بالضربة القاضية، غيَّرت إيقاع صوتها:

ـ على الرَّغم من هيك أنا عاذرتك ومسامحتك، لأنَّها مالها مشكلتك وحدك، إنت ابن كلّ هالكوارث. كان عودك طري، وكنت بأوَّل حياتك، مهزوم لدرجة إنّك حاولت يكون عندك قصّة حبّ تعوِّض هزيمتك. والحبّ لا يمكن ينجح مع ناس مهزومين من الداخل.

الشيوعيّ المهزوم مثل الجهاديّ المهزوم، مثل رئيس هالبلد المهزوم، مثل الانتحاريّ الثائر المهزوم، كلّهم لا يمكن يقدِّموا أيّ شيء للحياة غير الهزائم. وعلى الرَّغم من هالشي أنا اليوم بتذكَّر كلمتك يلِّي كنت تردّدها كتير، جملة من الاقتباسات يلِّي كنت بارع فيها:

«الإنسان لم يُخلق للهزيمة. الإنسان قد يدمَّر لكنَّه لا يُهزم».

اقتربت من خمار الرأس الملقى على الأرض. التقطته بهدوء ووضعته على رأسها، وجلست على الكرسيّ وهي تنظر باستقامة. أدار جسده إلى الحائط تمامًا. مسح وجهه. لم تكن متأكِّدة إن كان دامعًا أو يتهرَّب من مواجهتها بادِّعاء التأثُّر:

ـ خَلَّصْتِي.

ـ لأ لسَّا في شغلة.

ـ شو؟

ـ بدِّي توصِّلني لعند الشيخ فضل عبد الله، عند جيرانكم بدولة الخلافة.

ـ صعب كثير، نحنا وإيَّاهم مختلفين.

ـ هالحكي بتحكيه لغيري. أخوة المنهج كلّ واحد عم يلعب الدور تبعو، بدّي تلاقي طريقة توصّلني لهنيك بأمان.

ـ ممكن وصّلك، بس راح يكون صعب كثير طلّعك.

ـ راح كون ممنونتك.

ـ هلَّق فيني إحكي؟

ـ عم بسمعك.

رسمتْ ابتسامة على وجهها وهي تنظر إليه بجمود. لم تُصغ إلى شيء. لم تكن تريد حتى سماعَ أيّ مبرِّر. تركته يتكلَّم حتى استردَّ نفسه وصوته ومكانته، ثم أعاد فتح الباب ومشى بهدوء في اتِّجاهها. كان مع كلّ خطوة يستردّ إرث القوَّة وسطوةَ الرجولة، مجده الجديد. حدَّق في عينيها وسمعت منه جملة واحدة من إرثه القديم:

ـ لابِقْلِك الحجاب.

ـ بعتبرو غزل عفيف يا شيخ.

ابتسم ونتر جسده إلى مكتبه وطلب مساعده:

ـ بتوصِّل الأخت الطبيبة مطرح ما جبتوها، وبترجّعوها لهون بكرا الصبح. راح يرافقها اثنين من الأخوة من المجلس العسكريّ بمهمَّة.

(٤٨)

أنيس

نُقِل الدكتور في الصباح إلى مكان آخر. ودَّعه صاحب اليد المكسورة بنظرات مُطفَأة، فأومأ له أنيس، وأغمض عينيه بقوَّة كأنَّما يشدّ أزره. قادوه إلى سيَّارة مغلقة. طمَّشوا عينيه من جديد. وبعد ربع ساعة تقريبًا، صار في مكان أكثر نظافة.

لم يطل الانتظار. دخل حارس مقنَّع أمره بأن يقف وساقه إلى الحمَّام. فتح صنبور الماء وأمره بالاستحمام وحلقِ ذقنه، وأعطاه بزَّة برتقاليَّة ليرتديها، فاعتقد أنَّ ما حدث مع الشباب سوف يتكرَّر هنا معه.

حين يُستباح الإنسان ويُوضع مصيره رهنًا بأيدي آخرين، يصبح من العبث حتى القيامُ باعتراضات بسيطة: إمَّا المقاومة الكاملة وإمَّا الاستسلام المطلق.

أعادوه إلى غرفته، فدخل مقنَّع آخر بدا أعلى رتبة من طريقة تحيَّة الحرَّاس له. أعطاه نصَّ رسالة بالإنكليزيَّة، وقال له:

ـ اقرأها. ستحفظها صمًّا، بلا زيادة أو نقصان، وستتلوها أمام

الكاميرا وأنت تحمل جواز سفرك.

ـ لكن جواز سفري ليس معي؟

امتدَّت يد المقنَّع إلى جيبه. أخرج الجواز ولوَّح به:

ـ أصبح معك الآن.

«أنا لا شيء، واحد من هؤلاء الكُثُر، مِمَّن ابتلوا بالتجربة غصبًا عنهم، أمام عيون السماء المفتوحة باتِّساع ولامبالاة. أنا لا شيء، سوى أنِّي وُلدت في أرضِ العدم، أرضِ الخراب والندم، أرضِ اللعنة الكونيَّة في القرن الحادي والعشرين، وهربتُ منها قبل ربع قرن خوفًا من كلّ شيء، وعدت إليها مثل أيِّ منكود عديم الحظّ، لأُضاف إلى أضخم أرشيف للبؤس والإنكار في تاريخ الإنسان.

أنا مثل ذلك الطفل الغريق الممدَّد على شاطئ غريب، لا أحد يعبأ به سوى الكاميرات الناهشة التي تستبيح جسده، ليعلن العالم استمناءَ عواطفه عليه.

أنا كلّ هؤلاء المقتولين عن سبق إصرار وترصّد، الفائضين عن حاجة العالم، منكِّدين صباحاتِ البشر الذين يسارعون إلى إشاحة الوجوه عنهم.

أنا المهروسُ تحت الأنقاض، المجوَّعُ حتى الانقراض، المقتولُ بالسكاكين والحراب والرصاص والقنابل، بطلُ الأفلام الوثائقيَّة ونشرات الأخبار التي لا يشاهدها أحد.

أنا الضحكة التي لا توقف الموت، والصراخُ الذي يجلب المزيد من القَتَلة، والراكعُ على ركبتين ضخمتين لا تتوقَّف الأبالسة عن تكسيرهما

أنا مرآة الكون وحقيقةُ الحياة، لا يجرؤ أحد على التحديق فيَّ.

أنا وكلُّ الضحايا والسبايا الهاربين والصارخين والمقتولين والمعذَّبين في هذا المكان الرجيم، نبصق عليكم أجمعين».

وعوضًا عن هذا المنولوج الذي كان يضجّ صدره، قال:

أنا أنيس الأغواني، مواطن إنكليزيّ، أطالب رئيس حكومة المملكة المتّحدة بالتوقُّف عن التدخُّل في.

كان يريد أن يغمض عينيه قليلًا بسبب الحرقة والقهر. لكن وجهه انكمش وتمدَّد، وهو يطلب الرحمة من القتلة.

ما شأني أنا بتصفية حسابات عصابات العالم؟

يتلو البيان المقتضب وهو يركع على مشمّع أخضر، وخلفيَّة خضراء من الكروما وبعدها، وقف ثلاثة عمالقة يحملون أحزمةً ناسفة مع رشَّاشات وسكاكين مسنونة، وأعلنوا أنَّهم سيقومون بذبح هذا الخنزير خلال أيَّام إن لم يتمّ إطلاق سراح بعض المجاهدين من المعتقلات في دول مختلفة.

جاء المخرج ليضع اللمسات الأخيرة على الأداء. طلب منه إعادة البروڤة للنصّ المطلوب حفظُه. لكن ما إن بدأ بذكر اسمه حتى تجمَّد المخرج في مكانه، وهو يستذكر اسم هذا الرجل. لقد تحدَّث معه مرَّة منذ سنوات من أجل تصوير موقع أثري! عادت نتف من أحاديث ليل وهي تذكره عدّة مرَّات. كان قد سمع منها قصَّة اختفائه، وكان آخر ما توقّعه أن يراه هنا.

كان يودّ أن يسأله ويتحدَّث إليه، لكنَّه ملتزم تمامًا بتعاليم التنظيم الحازمة: غير مصرَّح لك بالحديث مع الأسرى والمتَّهمين، إلَّا من خلال مندوب يراقب كلّ شاردة وواردة.

أخبر المسؤول بأنَّه يحتاج إلى نوع آخر من الإضاءة، وطلب أن يقترب من السجين ليعطيه بعض التعليمات، فلم يمانع. تقدَّم منه

بهدوء. أعطاه مجموعة من التوجيهات، وحين تأكَّد من أنَّه آمن جزئيًّا، همس له:

ـ دكتور أنيس، أنا بعرفك. إنت صديق أصدقائي.

حدَّق أنيس في الرجل الملتحي طويل الشعر. لم يتذكَّر أنَّه رآه من قبل. وقبل أن يتسلَّل الشكّ والحيرة إليه، أردف فيديل قائلًا:

ـ ما فيني إحكي كثير، أنا صديق الدكتورة ليل. راح حاول جهدي ساعد بيلّي بقدر عليه.

ثم غيَّر الحديث معطيًا إيَّاه تعليماتٍ باردةً عن ضرورة النظر إلى الكاميرا وطريقة الإلقاء. تحجَّج بعدها في أنَّه سيحتاج إلى مزيد من الإضاءة، لكسب يومٍ آخر لعلّه يستطيع أن يجد له مَخرجًا. وانسحب تاركًا أنيس في حالةٍ من رثاء الذات. لا يكاد يصدِّق إنَّ بارقة أمل وسط هذه المحنة قد لمعتْ أخيرًا.

توجَّه فيديل مباشرة إلى دار الإمارة، طالبًا رؤيةَ الشيخ غسَّان. وبعد ساعتين من الانتظار، تحقَّق له ذلك:

ـ منذ أن بدأت العمل هنا لم أطرح أيّ سؤال لا يخصّني، ولأوَّل مرَّة عندي استفسار عن الأسير الإنكليزي الطبيب، يلّي صوَّرته اليوم!

بدت علامات الانزعاج واضحة على الشيخ غسَّان. ثمَّة نوع من العهد الصامت لم يتخطَّه فيديل أبدًا. لذا كان عمله موضع إعجاب وثقة كلّ القيادات. أمَّا أن يقوم بسؤال من هذا النوع فهو من المحظورات، مهما تكن العلاقة حميميَّة بين الرجلين، وخصوصًا أنَّ الشيخ غسَّان أمّن لفيديل وضعًا استثنائيًّا خاصًّا بالعمل الحرّ، مع إعفاءٍ كامل من الدروس الشرعيَّة أو كلّ التفاصيل المُلزمة. وتركه على راحته، مع توفير شقَّة سكنيَّة خاصَّة في منطقة المهاجرين النخبة.

جعلتْه ردَّة فعل الشيخ يندم على استعجاله وفقدانه حصافتَه. أراد التراجع فورًا لعدم إثارة أيّ ريبة لدى الشيخ الذي عاجله بسؤال متشكِّك:

ـ هل تعرفه؟

ـ لا، لا أبدًا. أردت فقط أن أقترح عليك أن يكون التصوير خارجيًّا.

لكنَّ الحجَّة التي ساقها جعلت الشيخ يدخل أكثر في أتون الشكّ، فقال بلهجة حاسمة:

ـ اسمع شيخ فضل، سأجد أحدًا آخر ليقوم بهذه المهمَّة. أيّ تعاطف مع الأسرى أو المحكومين أو تدخُّلٍ في شؤونهم عقوبتُه الإعدام. وأنت تعرف ذلك. إن كان لديك ما تخبرني به عن الرجل فسأستمع إليك الآن، لكن لن تقوم أنت بهذا العمل.

خضع فيديل، وهو يعي حجم الخطأ الذي اقترفه:

ـ أمرك، معك حقّ، الحقيقة بعرفه من لندن بشكل سطحي، هو ما بيعرفني. آسف على إزعاجك.

واستدار ليغادر، فاستوقفه الشيخ:

ـ شيخ فضل، دير بالك على حالك، لا تضيِّع ما أنجزته مجَّانًا.

هزَّ رأسه وغادر. تسارعت الأفكار في رأسه، ليتوصَّل إلى قرار سريع بأنَّ موعد مغادرته قد حان. كان واثقًا بأنَّه يقترب من تصوير ذلك السرِّ الخطير.

كلُّ ما يلزمه معدَّاتٌ جديدة في طريقها إليه، وحتمًا سيصل إلى نتائج حاسمة حين سيتولَّى أمر تصوير حكم إعدام أربعة محكومين غرقًا

ما زال وجه الدكتور أنيس يلحّ عليه لينتهك المحظور. حاول طرده من رأسه من دون جدوى. عاد إلى شقَّته وانشغل بالعمل. لم يفلح في نسيانه. فهذا الرجل يُعيد إليه ليل بشكل من الأشكال. شتمها في سرّه، وقرّر أن يقوم بشرف المحاولة.

كان لديه الكثير من المعجبين. فحتى لدى هذه الجماعة، يحظى مَن يعمل في الإعلام والتصوير باحترام وخصوصيَّة. فدماثته ولطفُه وحياديَّتُه وعدمُ تدخُّله في شؤون الآخرين وبراعتُه في ما يفعل، كرّست عنه صورة محبّبة لدى كلّ من عرفه.

سينفِّذ بالطبع أوامر الشيخ غسَّان، ولن يقوم بالتصوير، لكنَّه كان قد أعطى هذا الأسير ذا الحظِّ العاثر ما يشبه وعدًا وبدأ دود الندم ينغل في جسده: كيف أخطأ، وتسرّع في مفاتحة الشيخ غسَّان؟

ارتدى ملابسه، وتوجَّه إلى مكان الاحتجاز. كان يعرف المسؤول عن حماية الدكتور في المبنى الموقَّت الذي يُحتجز فيه، إذ لطالما حاول هذا تملّقه لينقله إلى قسمه، فهو مولع بالإعلام، لكنَّه بلا أيّ موهبة.

استقبله رشيد أبو طُه بلغته العربيَّة الركيكة المختلطة بالفرنسيَّة:

ـ أهلًا ومرحبًا بيك، حيَّاك الله. بيان فونو. بيان فونو.

جلس فيديل في غرفة رشيد الذي أصابه مسٌّ من الفرح العارم، فزيارة هذا الأسطورة غرفتَه كانت آخر ما يتوقَّعه. سأله بالفرنسيَّة:

ـ تريد شايًا أم قهوة؟

ردَّ فيديل بالفرنسيَّة أيضًا:

ـ شاي طربوش، سيكون رائعًا

وعلى وقع رشفات رغوة الشاي، نسج فيديل شِباكه:

ـ نحتاج إلى فريق جديد من الموثِّقين للعمل معنا. رأيت الاختبار

الذي قمت به يا رشيد. أنت إعلاميّ وفنّان بالفطرة. كلّ ما يلزمك بعضُ التدريب. أنا جئت إليك مباشرة، كي أسألك قبل أن أرشّح اسمك.

تلبَّك رشيد غير مصدِّق:

ـ أنا جاهز تمامًا. حلم حياتي نخدم الإسلام، لكن لم أجد الفرصة بعد.

ـ ها هي الفرصة تجدك يا رشيد.

ـ أنا جاهز. سأفعل أيّ شيء من أجل ذلك؟

ـ بصراحة، ما أبحث عنه هو هذه الروح وهذا الشغف. سأقوم بتدريبك، لكن سآخذ وعدًا منك بأن يبقى الأمر سرًّا بيننا ريثما تصبح جاهزًا.

ـ أقسم بالله العظيم لن يعرف أيّ مخلوق بذلك.

ـ ممتاز. أنا سأنشغل بمشروع جديد وسأسلِّم تصوير الأسير الذي تحرسه لألبرتو. أقصد أبو محجن البرتغالي. لكن أفضل ما يمكنني فعله، أن أدرِّبك مباشرة، وبشكل سرِّي، على تصوير الأسير الذي في حوزتك.

ـ لكن لدينا أوامر صارمة. مستحيل أن ندخل إليه أو نتعاطى معه بلا تصريح.

ـ أعرف، أعرف. لكن لا توجد لدينا فرصة أخرى. الأمر عائد إليك. التدريب النظري ليس كافيًا، لكن إذا توفَّر لك تدريب عملي لثلاثة أيّام فأنا واثق بأنَّ فرصتك ستكون كبيرة. أنا من جهتي، أستطيع أن أجيء في مثل هذا الوقت ليلًا المعدَّات كلّها موجودة هنا. والقرار قرارك.

استحال الفرح الذي يشعّ في عيني رشيد قلقًا واضحًا، فهو لا يغامر في وظيفته، بل في رقبته. وامتدَّت يده لاشعوريًّا لتتلمَّس رقبته.

وهنا كان على فيديل أن يغامر:

ـ اسمع يا أخ رشيد. لستَ مجبرًا على شيء. انسَ ما قلته لك. شكرًا على الشاي.

وهمَّ بالمغادرة.

ـ لا، لا، لا أنا أثق بك يا شيخ فضل. على بركة الله.

ـ لنبدأ الآن وفورًا إن أمكن. لكن أريد وقتًا مع الأسير وحدنا. أحتاج إلى أن أجعله يثق بنا.

مشاعر رشيد ومنطقه تأمره بألّا يتورَّط، لكن ثقته بأنَّ هذه قد تكون فرصته المنتظرة أعمَتْه. فسلّم نفسه إلى فيديل الذي دخل مقرّ احتجاز أنيس، بعد أن قام رشيد بصرف الحرَّاس ليحلّ محلّهم في المناوبة، فشكروه ممتنِّين.

* * *

اقتحم فيديل من دون مقدِّمات خلوة الدكتور.

ـ ما في وقت كثير. راح حاول كون معك مثل هالوقت خلال الأيَّام الجاية. تحريرك من هون مستحيل حتى اللحظة، بس فيني كون مرسالك. إسمي فيديل عبد الله. حكيت معي مرَّة منشان ساعدك بتصوير الموقع الأثري.

ـ بيت. بيت حُدُد.

ـ وات إيفر. بدِّي إعرف قصّتك، لأعرف شو أعمل.

وسرد له الحكاية، بترتيب وهدوء، من لحظة الاتِّصال الهاتفي في لندن حتى الآن. ركَّز فيديل في السؤال عن المركز الثقافي، عن أدقّ التفاصيل.

لم يقطع الحديث سوى دخول رشيد مرتبكًا وشاعرًا بأنَّه تورّط

تمامًا في مسألة لا دخل لها بالتدريب ولا بالإعلام. خرج إليه فيديل وقال له بهدوء:

ـ أخ رشيد، هذا الرجل يهمّني، وأنت أيضًا اعتبر نفسك انتقلت إلى قسم الدعاية الأسبوع القادم.

ـ ستصل وردِيَّة الحرس الجديدة بعد قليل. عليك المغادرة الآن.

لم يكن صعبًا الوصول إلى سامي، ابن الدكتور، فالحملة التي يقودها عبر وسائل الإعلام منذ سنتين فيها كلُّ المعلومات المطلوبة للتواصل معه. لكنَّ الأصعب هو كسب ثقته من دون أن يلفت نظر النظام الأمنيّ للتنظيم.

تعرَّض سامي لعشرات الاتِّصالات والمحاولات المضلِّلة للابتزاز، فأصبح لا يثق بأيّ معلومة غير موثوقة عن أبيه. وجد فيديل نفسه مضطرًّا إلى التحدّث معه مباشرة، عبر السكايب صوتيًّا. شرح له بهدوء وضع والده ونقل إليه كلّ ما يعرفه. ولحسم الشكوك وكسب الثقة نهائيًّا، أمّن له اتِّصالًا هاتفيًّا لعدّة دقائق كانت حاسمة لأن يمنح الأبُ وابنُه فيديل ثقتَهما الكاملة ليتصرَّف.

أخبر سامي بأنَّه سيغيب بعض الوقت، ثم سيرسل إليه عنوان إيميل وكلمة المرور في التوقيت المناسب. ففيديل، الذي يعمل على تخزين كلّ ما لديه من معلومات وصور وڤيديوهات منذ أن بدأت الثورة حتى اليوم، كان يحتاج إلى إنهاء مشروعه الأخير قبل أن يغادر. فلديه أرشيف كامل لحقيقة ما حدث.

بات الآن في سباق مع الزمن. عليه أن يسيطر على أعصابه، منجزًا تصوير آخر عمل له. كان مستعدًّا للمغادرة، لكنَّه آثر البقاء لإنجاز تجاربه النهائيَّة، ولسبب آخر: ربَّما يستطيع المساهمة، بطريقة ما، في إخراج أنيس من هنا!

(٤٩)

فيديل والليل

عاجز تمامًا عن الشمّ.

يجلس في شقّته معزولًا تمامًا. منذ آخر تصوير لم يعد يخرج من المنزل. العلاقة متوتّرة بالشيخ غسّان، وثمّة وجوه جديدة يطالعها في دار الإمارة تبدو له خاليةً من الودّ. لا يريد أن يتشوّش، يعتقد أنّه بات قريبًا ممّا يبحث عنه. يتجاهلونه اليوم. لم يعودوا يكلّفونه بأيّ مهمّة. إنّها لحظة القطيعة قد بدأت. الخطأ هنا هو خطأ نهائيّ تكلفتُه ليست أقلّ من الحياة نفسها إذا ثبت عليه.

الزقزقة المتواصلة لطيرَي العاشق والمعشوق، هي ما يزعجه الآن، وليس صوت قصف الطائرات. فقد اعتاد عليه تمامًا.

لا يعرف من جلب هذين الطيرين الكريهين الموجودين في قفص. تغريدُهما مثلُ نقر مناقير الغربان على جثّة. وضعهما على الشرفة وفتح لهما القفص، فخرجا منه بحذر، ثم طارا إلى الشجرة القريبة؛ شجرةٍ منهكة جرداء كأنّها تعرّضت لغزو الجراد. عاد إلى الجهاز، وانخرط في ترتيب اللقطات من جديد.

كان مشهد الإغراق مصنوعًا بحرفيَّة. حين أُنزل المحكومون بالإعدام ببزَّاتهم البرتقاليَّة وبدأ إغراقهم رويدًا رويدًا، وُضعت تسع كاميرات، إحداها فوق القفص مربوطة بشكل مباشر بذارع الرافعة التي تقوم بالمهمَّة.

زوَّدوه بواحدة من أفضل الكاميرات دقة وجودة، 4 K بصيغة راو بدقَّة ٤٠٠٠ في ٢١٦٠ ١٢. إنَّها خرافيَّة. سترصد كلّ حركة تخرج من تحت الماء، مثبَّتة على ذراع الرافعة.

وُضعت أربع كاميرات للتصوير تحت الماء، مثبَّتة بالقفص Power Shot D2، نظام الحساسيّة العالية الذي يجمع بين مستشعر CMOS 12.1 ميغابيكسل ومعالج DIGIC 4. هذا ما كان يحتاج إليه. إن كان هناك روح في الإنسان وتخرج ساعة النهاية فسيلتقطها. لن تستطيع الإفلات من أخطبوط التقنيَّة، إن لم تستطع الصورة، فحتمًا سيرصد اهتزازاتها من خلال مستشعر صوتي فائق الدقَّة.

شكَّل المجرمون الأربعة عصابة سرقة وترويع، وخطف واغتصاب وقتل أطفال.

وتلا البيان القصير قبل تنفيذ الحكم.

طريقة الإعدام فكرة قدَّمها الفريق الأوروبي بعد عمليَّة عصف ذهني راقت للأمير. هنا يتمّ تكريم مَن يجد الفكرة الأعمق للقتل والتي تتناسب مع الجرم والقصاص. وتولَّى هو إدارة عمليَّات التصوير.

حُقن الأربعة بمثبِّطات تمنعهم من الحركة، وبدأت عمليَّة الإغراق بعد أن يتلو الجريمة الناطق باسم المحكمة، وسط تجمُّع الأهالي.

غرفة التحكُّم عبارة عن «أوبي فان» أمامي، فيها تسع شاشات. أعطى الأوامر لرجال الكاميرات وسائق الرافعة ببدء العمل.

ثمَّةَ نشوة خفيفة. فما سيقوم بتصويره واحد من أعظم مشاهد السينما في تاريخ التصوير. ما لم يكن يعرفه أحد هو نيَّتُه على القبض على الروح التي تخرج لحظة الموت، وتصويرِها.

يتأمَّل لحظات الغرق. يتابعها صورة وراء أخرى. كان واثقًا بأنَّه سيجد شيئًا. حدَّق في الوجوه التي فجعها الماء، ولم تعد قادرة على حبس النَّفَس، فبدأت بالاختناق. خرجت فقَّاعات متواصلة. شرع يراقب كلّ فقَّاعة تخرج من الأنف والفم، حتى حصر الفقَّاعة الأخيرة. وحين لمح شيئًا غريبًا، وضع الصورة في إطار التكبير، وبدأ يضخِّمها. وانتابه في تلك اللحظة، فزعٌ، جعله ينقز وهو في حالة ذعر، ليس بسبب ما شاهده، بل لأنَّ العاشق والمعشوق عادا إلى القفص، وأطلقا تغريدتهما المخرمشة. فهجم على القفص. أدخل يده فيه، وأمسك أحدهما شلع رأسه بإصبعين، ورماه من الشرفة. فرفر قليلًا، ثم تكوَّم في شكل دائرة من الريش المنفوش. وقبل أن ينجح في الإمساك بالطائر الثاني، كان قد طار بعيدًا.

عاد إلى كرسيِّه. تابع التحديق في الصورة، ولم يجد شيئًا

فتح العبوة الصغيرة. رسم خيط البودرة البيضاء على سطح مرآة دائريَّة، لفَّ ورقة الألف ليرة على شكل أنبوبة، ونشق بقوَّة.

انثال عليه شلَّالٌ من كرات الكريستال التي انفجرت في دماغه مع إحساس حارق لجيوبه الأنفيَّة. فقَّاعات ماء تخرج من أفواه معدومين غرقًا. فأفأة رؤوس طُيّرت عن أجسادها. سرب من النجوم يتراقص في قاع جمجمته يُعيد إليه قوافل من الوجوه، محمولةً على بساط السعادة العالية. كلّها تختلط بموسيقى بيتهوفن. الدخول إلى الجنَّة. سرب من الطيور يتراصف على شرفة البيت، ينخر المكان بتغاريد مخرمشة. كان

يغرق في طمي ساخن يعجز عن التنفُّس، يشهق بلا هواء. هدأ كلّ شيء، وتوقَّف الصخب حين قرع الباب.

فتحه بحذر. ظهر حارس البناء: السلام عليكم، هناك امرأة تريد أن تراك.

احتاج إلى ثوان ليفهم معنى الجملة بشكل صحيح.

ـ أيُّ امرأة؟

ـ تقول إنَّها من أقربائك، وتريد أن تراك. وهي موجودة تحت في غرفة الاستقبال.

ـ سأنزل بعد قليل.

تمالك نفسه. استردَّ تركيزه بقليل من القهوة، ووضع رأسه تحت صنبور الماء البارد.

كلّ عروض الأمير ليتزوَّج باءت بالفشل. امرأة! يا لها من كلمة.

طوال الأشهر الماضية، كانت هذه المرأة شيئًا بعيدًا، غريبًا ومجرَّدُ التفكير فيها يبعث فيه نافورةً من الحزن لا تتوقَّف عن التدفُّق في دمه.

شيخي الجليل، أمير هذه المملكة، يسيِّجني بالأسلاك الشائكة. يبعث إليَّ بهديَّة عبارة عن حزام ناسف، مثل الذي يرتديه لأضعه على جسدي. ليقول لي: نعم، لم يكن لدينا الخيار في أنَّنا جئنا إلى الحياة، لكن هذا الحزام هو حرِّيَّتنا. نحن أكثر الرجال حرِّيَّة في العالم، لأنَّ الطريقة الوحيدة لإسكاتنا هي قتلنا.

نحن لا نسلِّم أنفسنا، ولا نستسلم، وحين يحين الموعد لدينا هذا الصديق الصاعق الذي يدمِّر.

يا فضل، الناس يظنُّون أنَّنا نغسل الأدمغة، أو أنَّ المجاهدين

الاستشهاديين هم بشر أغبياء فقدوا كلّ فرصة في الحياة، يفجِّرون أنفسهم من أجل الحور العين.

هؤلاء يهذرون بما لا يعرفون. إنَّ من يفجِّرون أنفسهم، مهما يكن رأي العالم فيهم، هم أكثر الرجال قوَّة وحرِّيَّة.

كم رجلًا في العالم، وأنا أتكلَّم معك الآن، لا يملك في جيبه ثمن وجبة طعام، ومَدينًا لشيطان البنوك، ومطرودًا من حظيرة المجتمع. كم إنسانًا يبيت وحيدًا، لا يطرق بابَه أحدٌ، ولا يسأل عنه أحدٌ، وينتظر موعد تقوقعه في الجوب سنتر ليحصل على الفتات وهو في كامل الذلّ. ماذا يفكِّر حين يمرّ أمام زجاج الصرامي ليجد أنَّ سعر فردة حذاء واحدة من أحذية العلامات التجاريَّة، يساوي مبلغ المساعدات التي يقبضها لنصف سنة، وكيف يتصرَّف حين يلقى هناك ازدحامًا لشرائه.

هذا الحزام الرائع هو صديقك الوحيد في الحياة. لا يوجد مَنْ هو أقوى منك وأنت تلبسه. لا أحد يستطيع أن يسيء إليك. لا شيء في هذه الحياة يمكن أن يستعبدك. إنّي أُقدِّم إليك حرِّيَّتك يا فضل.

أيُّ هراء هذا يا شيخي. تكلِّمني على الخلاص وتبعث إليَّ بامرأة؟

تناول الحزام الناسف الملقى على الأريكة. لبسه من دون تردُّد، وارتدى فوقه قميصًا فضفاضًا، ونزل مصمِّمًا، إن تحرَّكت رغبته قيد أنملة في اتِّجاه هذه الغواية فلن يتردَّد في سحب الصاعق. لكنَّه وجد آخر شخص يتوقَّع مشاهدته في الحياة واقفًا أمامه. انفجر كلّ شيء ما عدا صاعقَه الذي أصابه العنن.

كانت عيناها تُطلّان من خلف البرقع، تقذفانه باللهب. بدا كأنَّه

سينهار فجأة. كلُّ ما هرب منه ظهر أمامه محدقًا فيه. كانت تقف مع مسلَّحين نظراتهم مليئة بدبابيس الشكّ.

حين فهموا أنَّه يعرفها سَرَتْ أمارات الارتياح عليهم. وحين صرّح بأنَّها زوجته اعتذروا وغادروا، وبقي حارس البناء يراقب المشهد بحيرة المتشكِّك.

لكنَّه انسحب أخيرًا وذهب إلى مكتبه.

كان عليهما أن يصعدا إلى الشقَّة بصمت، ويجتازا الكاريدور بصمت. يدخل بصمت، وينغلق الباب بصمت، فتخلع البرقع بصمت، وتفتح ذراعيها بهمس، وتخلع عنه قميصه، لتصطدم بالحزام الناسف.

فيخرج صوته.

لا شيء يا ليل يعادل وجودك هنا، لكنَّك وصلتِ متأخِّرة. أنا اجتزت مرحلة اللاعودة.

فتفكّه عنه بصمت، ليتكلَّم بعدها كلّ شيء فيهما.

يومان وهما متلاصقان مثل توأمين سياميين، خارج الزمان والمكان، متحاضنان كأنَّ أيّ انفكاك يعني التلاشي لأحدهما.

ـ راح تطلع معي من هون يا فيديل؟

ـ ما عاد عرفت فيديل يا ليل، ما عاد عرفت مين أنا.

ـ هذا مش مكانك. راح نطلع من هون سوا، ونبلِّش من جديد.

ـ نبلِّش بشو يا ليل؟

كانا على السرير تطوّقه بسرخس جسدها. تُعيد إليه حاسَّته الأثيرة، فلا يني عن شمِّها. يتوقَّف قليلًا يحدِّق في السقف. تنمو داخله أشواكُ المخاوف. تلك الخموش والخدوش والجروح، لا تتطهَّر بماء بحرها.

ـ لن يَدَعوني وشأني. لن يسمحوا لي بالخروج من هنا. أنا بتُّ جزءًا من هذا. حتى لو خرجت من هنا، لا يمكن لي أن أتعايش مع ما عرفته وفعلته.

خرج صوت التكبير من المساجد القريبة يعلن عن وجود غارة جديدة.

كان قصفًا شديدًا بدأ يتصاعد منذ الصباح. طائرات التحالفات المشبوهة تقوم بتفريغ مخاوف شعوبها في مقذوفات، تقتل عادة البسطاء ومَن لا ذنب لهم.

ـ إذا خايفة كثير مننزل على الملجأ؟

ـ لا، معك ما عاد خايفة.

لم يرعبهما قصف الطائرات، لكن أخافهما الطَّرْقُ على الباب.

خرج من غرفة النوم وفتح. كانوا أربعة من ديوان الإمارة مع سيِّدتين من كتيبة الخنساء: الشرطة الخاصَّة بالنساء.

قالوا له بلهجة حازمة لا تخلو من اللؤم:

ـ شيخ فضل، مطلوب فورًا على الديوان الأميري، وراح نِخْلي الشقَّة. والسيِّدة يلِّي جوّا راح تشرِّف مع الأختين.

ـ تكرموا، اعطيني لحظة.

للأسف، ما في وقت.

وأزاحه جانبًا. دخل مسلَّحان، وأخذا الأجهزة التي يعمل عليها، والحزامَ الناسف، وأجهزةَ الهاتف، بينما كانت الشرطيَّتان المبرقعتان تقتحمان غرفة النوم، وتأمران ليل بخشونة بأن ترتدي ملابسها الشرعيَّة، وتفتِّشان حقائبها وتصادران هاتفها.

وقادوهما بسيَّارتين اثنتين.

* * *

كانت الغارة قد دمَّرت بيتًا بثلاثة طوابق ما زالت تشتعل فيه النار، وهناك أُناس يحاولون إخراج المصابين من تحت الأنقاض، بينما مقرّ التنظيم المعروف للجميع لا يُمَسّ بسوء.

تجاوزت السيَّارة التي تقلُّه المقرَّ، واتَّجهت إلى المربَّع الأمنيّ حيث قيادةُ التنظيم.

وُضِع في غرفة مكتب وأُمر بأن ينتظر، وكانت ليل قد أُخذت إلى البناء نفسه ووُضِعَت في مكتب آخر.

لم تكن هناك معاملة سيِّئة أو أيُّ اتِّهامات. لكن كانت تجلدهما فترة من الانتظار المفخَّخ بالقلق. دخلت إحدى الشرطيَّات وسألتها: هل تعرفين الفرنسيَّة؟

أجابت: قليلًا؟

فسألتها أن تعبِّئ استمارة باللغتين العربيَّة والفرنسيَّة إن أمكن.

في هذه الأثناء، كان الشيخ غسَّان يدخل إليه ليُخبره:

ـ فضل، لا أستطيع أن أحميك أكثر. وجود امرأة من الروافض في بيتك، وامتناعُك من حضور الحصص الشرعيَّة لفترة، ووجودُ بعض المنكرات في شقَّتك، يمكن أن أساعد في حلِّها. لكن الاتِّصال بالمخابرات البريطانيَّة، وتسريب ڤيديوهات غير مرخَّص بنشرها، فأمران من الكبائر الحلّ الوحيد هو أن تعلن البيعة علنًا. سيتمّ الحكم على المرأة بتهمة الزنا كلّ ما أضمنه لك أنَّها لن تموت رجمًا.

كانت أشرس المخاوف تتحوَّل إلى حقائق متوحِّشة أمامه.

ـ طلِّعنا من هون يا شيخ غسَّان. هذه المرأة زوجتي.

ـ للأسف تأخَّر الوقت، وصل التقرير إلى الموصل، واليوم بالليل أو غدًا صباحًا على الأكثر راح تجي لجنة لدراسة الوضع.

الأمر يلِّي بساعدك وبساعدني أن تُعلن البيعة علنًا. تحرق جواز سفرك وتبثّها بالإنكليزيَّة وتنتقل إلى العراق. ولتثبت الولاء، بإيديك لازم تعدمها. بعدها قد ينظرون في وضعك.

ـ يعني حتى لو فعلت كلّ هذا، ليس هناك ما هو مضمون. خلِّيها تطلع، وبعمل شو ما بدَّك.

ـ العمل الرائع يلِّي قدّمتو يمكن يشفعلك. لكنَّ التقرير أكبر من أن يُحتوى. على كلّ تمّ تعيين أمير جديد والأمر انقضى.

ـ ساعدها تطلع من هون وإعمل فيني يلِّي بدَّك ياه؟

اختر لي أيِّ طريقة للموت وأنا جاهز، بس بحلِّفك بكلِّ شيء بتآمن فيه إنُّو تطلع من هون؟

ـ صعب كثير يا فضل، بس راح حاول.

وخرج مكفهرًا، تاركًا فيديل يحترق في ألمه.

* * *

يُثير قدوم الأمير الجديد الرعب بمجرَّد ذكر اسمه: أبو عبد الرحمٰن مصطفى، على رأس جماعة فتَّاكة لا ترحم.

كانت أرض الخلافة تتعرَّض للحرب على أطرافها، فوجودها مهمّ للآخرين أكثر كثيرًا من وجودها لأصحابها. فكلّ ما يريدونه، پروڤة جديدة، وقد حصلوا عليها في كلِّ حال. السنوات التي ازدهرت فيها، وصلت إلى ذروتها وبدأت بالانحدار. القيادة المركزيَّة لم تعد تتساهل مع أيِّ خطأ من أيِّ كان. والأمراء الذين يتَّسمون بالضعف صاروا يُستبدلون بمجموعة جديدة لا تعرف الرحمة. والحقيقة أنَّ القيادات بدأت تبحث عن مكان آخر. فقد حقَّقت الدولة المطلوبَ منها، ولم تعد تُذاع نشرة أخبار واحدة في العالم إلَّا وتذكرها.

الأمير الجديد الذي سبقه صيته من وسط آسيا، كان أقرب إلى الأسطورة بين المجاهدين.

أمسك على الفور زمام الأمور. قام بتنظيم حفلة إعدام والضرب بيد من حديد. وتحدَّث في يوم الجمعة عن كرامات الجهاد، ورؤية الشيخ المحجوب في بلاد السند لأمر الله بضرورة تطهير أرض الشام من كلّ رجس لأنَّها نهاية حقبة البغاة وبدء زمن نسور الحقّ.

باءت بالفشل المحاولةُ الوحيدة لإطلاق سراحه من قبل الشيخ غسَّان أمام السلطة الجديدة.

لكنَّه استطاع أن يوفِّر لها في ذلك الصباح الذي سيتمّ سَوقه إلى الإعدام، الفرصةَ لتراه للمرَّة الأخيرة. وجهه صاف وعيناه تنوسان بألق.

أمسك بيديها. قبَّلهما بخشوع. مسح دموع عينيها، وهمس لها: يا سرّ سرِّي يا ليل.

ريحتك معي. المهمّ تكون ريحتك معي.

انعقد لسانها وجهها ملغَّم بالأسى. وعيناها تجوسان كلّ مسام فيه. حضنها معتصرًا رائحتها. وهمس:

هناك أمل. سألحق بك بسيَّارة أخرى وإن فشلت فكلّ ما عملته موجود على الإيميل. وكلمة السرّ هي «بيت حُدد».

كانت الدقائق القليلة وافية تمامًا لاختصار كلّ شيء، وليدفعها دفعًا للمغادرة. حاولت أن تعترض من دون جدوى. استردّ حزمه وهو يقول حاسمًا: ليل، ما عاد في وقت.

لمست وجهه. مرَّرت أصابعها على لحيته وحاجبيه وشعره. امتثلت مكرهة وغادرت. كانت يدها اليمنى آخر ما لمسه. تقوقعت في

المقعد الخلفيّ للسيَّارة تنظر إلى يدها تنهمر عليها دموع يانعة.

كانت جهود الشيخ غسَّان الأخيرة، بالتنسيق مع معارف سميح، نجحت في توفير إطلاق سراحها وتأمين تهريبها. حملوها في سيَّارة خاصَّة في اتّجاه الحدود التركيَّة.

وبعدها بساعة، كانت المحاولة لخروجه. اجتاز الحاجز الثاني بإظهار التصريح من دار القضاء، لكنَّ القَدَر كان في انتظاره على الحاجز الأخير القَدَر يقرِّر من جديد.

رشيد طٰه، الغاضب، لأنَّ فيديل تسبَّب له بالحبس والعقوبة بتغيير وضعه من الأمن الداخليّ إلى عنصر مذلول على الحواجز الخارجيَّة الخطيرة، كان يغلي بالحقد والانتقام، على من ضحك عليه وكاد يتسبَّب بقتله، ليجده أمامه بهويَّة مزوَّرة وتصريح باسم آخر.

كانت الفرصة لكشف مؤامرة التهريب تعده بمكافأة مجزية، ليست الترقيَّةُ أقلَّها، أو العودةُ إلى موقع أكثر أمنًا.

لم تنفع معه كلّ المحاولات لرشوته أو تهديده، فقام بالاتِّصال لتصل سيَّارات الأمن خلال دقائق ويعتقل عناصرها فيديل والسائق.

صمد تحت التعذيب. لم يبح بحرف بشأن مساعدة الشيخ غسَّان، لكنَّ السائق انهار بسرعة، وباح بكلٍّ ما يعلم.

لم تكن تستطيع البكاء. لم تكن تستطيع حتى الموت. كانت تشيخ فقط، وهي تبتعد تاركة إيَّاه بعد أن عرفت مصيره.

تلا الشهادة علنًا. وتبعها بنطق اسمها بينه وبين روحه. ظلَّ يتمتمه حتى اخترقت الرصاصة رأسه من الخلف، خارجة من أنفه المحتشد بروائحها بات يعلو بهدوء.

يتحوَّل الطنين العميم إلى هسيس من الصمت، كأنَّه يطير بخفَّة

خاليًا من الألم. يرى جثّته مستلقية ودفق الدم يشكّل أحفورًا صغيرًا تمتصُّه الأرض الجائعة. في الأعلى كان يرى فضل وفيديل متعانقين، كلٌّ منهما يمسّد ظهر الآخر. ومن فوق، بات المشهد ملوّنًا بأزرق خالص يبرق ويتلامع بكُورات من نور تنفزر مشرقطةً التماعاتٍ بهيّةً تتمخّض عنها روائحُ بكر، يصل شذاها إليه. يستنشق هبوب العطور السخيّة بفرح عميق، ويغرق متلاشيًا بهدوء في العالم الذي لطالما اشتاق إلى أن يعرف حقيقته.

إذًا، هذا هو الموت! وأطلق ابتسامة عريضة لم تطاوعه عليها شفتاه المرتجفتان، وتهاوى مرّةً واحدة الجسدُ الجانح إلى الهمود.

(....)

سامي

كانت القصاصات والأوراق والأخبار مرتَّبةً على طاولته. تنتظر المجلَّداتُ الضخمة نقلَها إلى المكتبة الوطنيَّة البريطانيَّة في لندن. وضعها هناك أمانةً مسجّلة باسمه، وغير قابلة لإطلاع العموم عليها قبل شهر، صنع موقعًا إلكترونيًّا حمّل فيه كلّ الڤيديوهات والمقالات المنشورة عنه، وطلب من أيٍّ شخص يعرف أيّ معلومة عن البيت وقاطنيه وزائريه ألَّا يبخل بالتواصل معه، بالعربيَّة أو بالإنكليزيَّة، وحتى بالفارسيَّة والروسيَّة. أخذ الدفتر الأخير المكتوب عليه اسم والده، وأضاف اسمه في البداية: سامي أنيس الأغواني.

كان عليه أن يُقفل كلّ الحكايات المدوَّنة والتي ما زالت نهاية بعضها معلَّقةً. أصبح الوريث الأخير، ومهمَّته هي تحقيق الأجزاء المئة والعشرين، ونشرُها بتكليفٍ من المكتبة نفسها. وكان عليه أيضًا كتابةُ سِفْره الخاصّ عن البيت وعن دمشق، فشرع يخطّه بلغته العربيَّة الصافية والخالية من البلاغة.

في البحر، كان عيسى مع وَلَدَيْ سامية يصارعون ضدَّ الغرق بعد أن انقلب بهم القارب المتَّجه إلى اليونان.

وفي المناطق المحرّرة، كان أيمن ورفاقه يقودون مظاهرات جديدة ضدَّ سلطة الأمر الواقع لمرتزقة الجهاد، ساحبين منهم الشرعيَّةَ المزوَّرة، بينما طائرات أكثر من ثلاثين دولة تقصف ما تشاء وأينما تشاء.

حلب تموت بصمت أمام الكاميرات وصمت العالم، والباصات الخضر تُخرج مَن تبقَّى في كثير من أماكن الحصار. إلى المجهول.

في دمشق، كانت تشرق الشمس على صوت قذائف من مصدر مجهول، لتسقط إحداها، فتندلع في البيت العتيق نيران تصل ألسنتها إلى السماء. سيَّارة الإطفاء تحاول جاهدة إخمادَ الحريق، وسامية التي وصلت إلى سعير النيران تندفع صارخة محاولة رمي نفسها في الداخل لإطفاء اللهب.

كانت هذه المرَّة الأربعين التي يتعرَّض فيها هذا البيت للدمار، لكن تاريخه يشهد أنَّه في كلّ مرَّة يعود أعظم ممَّا كان.

مسح دمعته قبل أن يكتب هذا الخبر الموجع، وجال في القاعة عدّة مرَّات، وجلس ليحبِّره بكلِّ حياد. انتشر على عدَّة مواقع في شبكة الإنترنت ڤيديو لسفَّاح الدولة المعروف بأبي عبد الرحمٰن الجزَّار، ينفِّذ حكم قطع الرأس بطبيب إنكليزيّ من أصول سوريَّة بعد أن رفضت حكومته التفاوض لإطلاقه، بينما يعلن ابن الطبيب أنَّه نجح في نقل وثائق لا تقدَّر بثمن، عبارة عن مذكَّرات قاطني منزل دمشقيّ يُدعى «بيت حُدُد»، يعود تاريخه إلى أكثر من ألف وخمسمئة سنة قبل الميلاد.

فتح بعد أن نقل الخبر قوسًا وكتب (وابن الطبيب ـ الذي هو أنا ـ يؤكِّد الخبر كاملًا).

في زاوية مهملة من جريدة «البعث» السوريَّة وصلت إليه من مصدر مجهول، صورةٌ للشيف تحت عنوان «قتل إرهابيّ خطير يتاجر بالأعضاء البشريَّة». وعن طريق المصدر نفسه أيضًا وصل إليه الخبر التالي: وفي غرفة مكتبه، ينهي عبَّاس جوهر اتِّصاله بسعد الدين الذي أقفل الخطّ في

وجهه. وقبل أن يصل إليه الضابط المكلَّف باعتقاله، يفتح درج المكتب، يضع عقد بيع بيت حُدُد في فرَّامة الورق ويمسك بمسدَّس يضعه في فمه.

كانت قوافل السوريين تنتشر في بقاع أرض الجحيم، حاملين نتفًا من حكايات كلّ ما حدث في رحلة أشبه بالأوديسة الحديثة.

تستعيد ليل كلمة السرّ التي أعطاها إيّاها فيديل، وتبعثها إلى سامي، ليتولَّى نقل كلّ الموجودات، وتفريغَها، وتحويلَها إلى وثائق ورقيَّة وبصريَّة. في رحمها بويضة تنقسم بنجاح وجنين بدأ بالتشكُّل، ستطلق عليه بعد تسعة أشهر، وهي في المنفى، اسم فيديل.

رحَّب سامي بها وبابنها، وعمل كلّ ما في وسعه لنقلها إلى لندن لتقطن في كيلبورن، شارع كالكوت، بناء رقم ٣. ستكون متعتها أن تتمشَّى بين مقبرة كنزباري وحديقة ويلزدن، حيث جثمانُ هيلين وخطى فيديل القديمة، لتتعرَّف إلى جمعيَّة الإخاء. وتصبح مريم، مطلّقة فيديل، صديقتَها الأثيرة. تزوران معًا قبر هيلين إلى جوار إدوارد، وتلتقطان لهما صورة مؤثِّرة. فقد انخسف قبر الزوج، ومال كأنَّه يحتضن هيلين. سيكون فيديل الصغير بمثابة عزاء جديد، وحين يسألونها عن اسم أبيه وعرقه، تقول: فيديل فضل عبد الله، بريطانيّ ـ سوريّ، عربيّ، مسلم.

تتَّصل بسامي الذي لم يتوانَ لحظة عن تقديم المساعدة إليها تقول له: إنَّ اليوم هو من أسعد أيَّام حياتها، فقد تواصلت مع ابنها نوّار على الفيس بوك، ويستعدّ هو والعائلة للسفر لمقابلة الشقيق الجديد. يغلق سامي الخطّ، وقد صار في حوزته كلّ شيء.

وعلى ورق القطن الفاخر بقلم الحبر الأزرق الداكن، شرع في كتابة جملته الأولى:

بيت حُدد

تمَّت

لندن، خريف ٢٠١٦

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

بداية أحداث 2011 في سوريا.
تنشأ قصّة حبٍّ ممنوع بين المُخرج فيديل والطبيبة "ليل" المتزوّجة.
وقصّة حبٍّ أخرى بين "سامية" و"أنيس"، دكتور القلب الذي عاد من المهجر ليبيع "بيت حُدُد"، الإرثَ الذي تركه له خاله.

١٤٧

رحلة مشوّقة داخل مصائر أبطال وُجدوا في لحظة من لحظات الرعب الأكبر، تكشف هشاشة العالم وعنفه.
فالحبّ ضربٌ من الحرب.

فادي عزّام: كاتب وإعلاميّ سوريّ مُقيم في لندن.
له أربعة مؤلّفات. "بيت حُدُد" هي روايته الثانية.



دار الآداب
هاتف: ٨٦١٦٣٣-١-٩٦١+
٧٩٥١٣٥-١-٩٦١+
بيروت - لبنان

ISBN: 978-9953-89-551-2
9 789953 895512